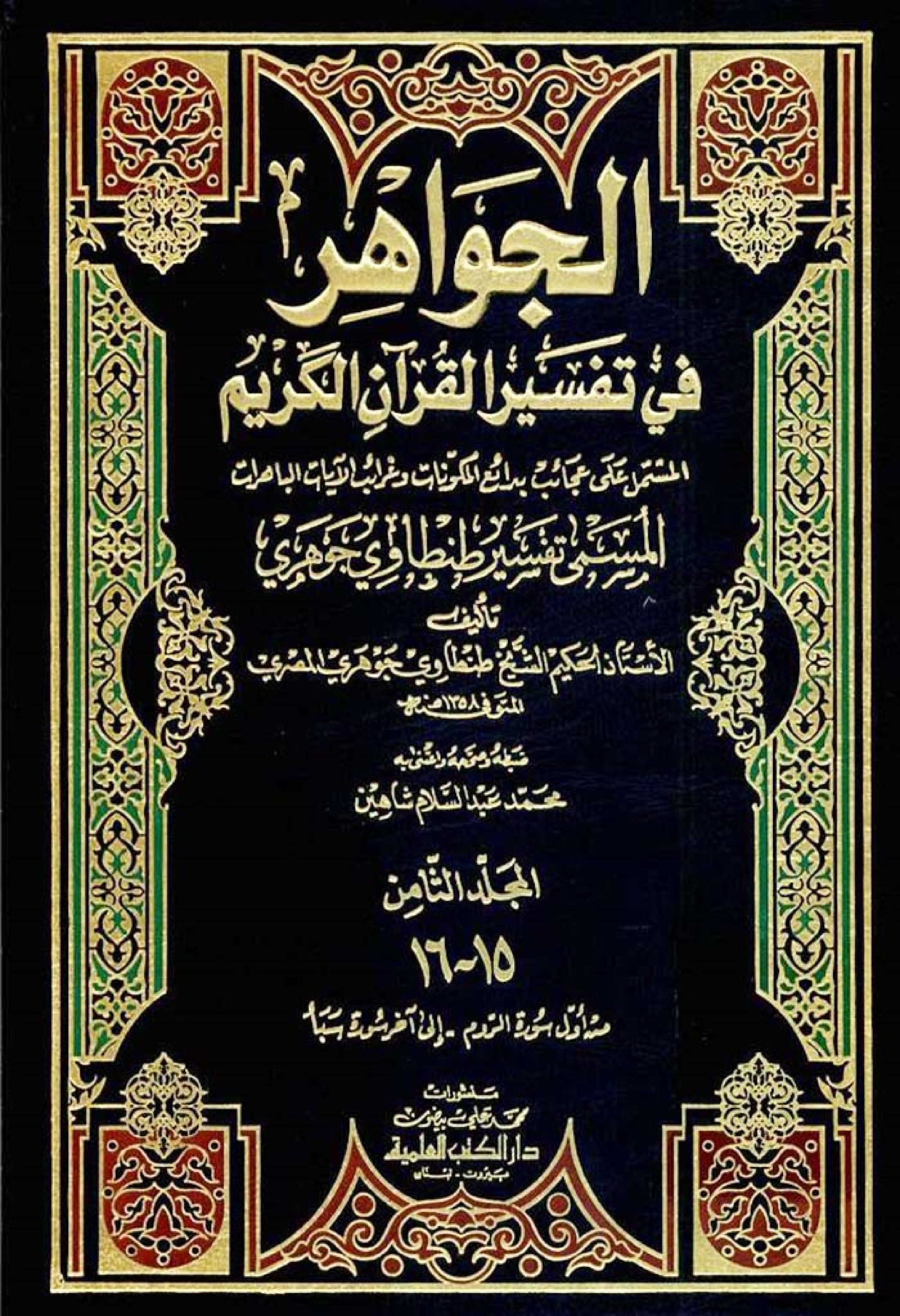

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثامن
١٥-١٦
من أول سورة الروم - إلى آخر سورة سبأ
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

١٥-١٦

المحتوى:

من أول سورة الروم - إلى آخر سورة سبأ

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥]

قرآن كريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم
وهي مكية إلا قوله تعالى:
﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾
فمدنية
وآياتها ستون - نزلت بعد الانشقاق
مقدمة
مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السورة المتقدمة قد بدئت بالجهاد وختمت به فرد عجزها على صدرها، بدأها بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على بساط الراحة وإنّما خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم وأنهم يلاقون مصاعب ومصائب من الأهل والأصحاب والأمم التي يكونون فيها، وأخذ يقص ما جرى لنوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى وما كان من صبر الأنبياء وخذلان الكافرين، وضرب لهم مثلاً بالعنكبوت وبيتها، وبيّن لهم أن المدار على العقل والحكمة والفهم في القرآن الخ، وزهدهم في الدنيا وأمرهم بالصبر والتوكل، فإن الرزق على الله كما رزق الدواب.

فأما سورة «الروم» فقد بدأها بأن محمداً صلى الله عليه وسلم تابع للأنبياء، فإنه محسن كما أحسنوا، فإذا كان الأنبياء قد جاهدوا وصبروا ثم نصروا فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاهد وصبر ففاز، فإذا كان آخر السورة هو ملخص ما فيها، أي: إن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾[العنكبوت: ٦٩] الخ هو ملخص ما جاء في السورة، فإن أول الروم يفيد أن محمداً صلى الله عليه وسلم مثلهم، ألا ترى أنه أخبر بأن الروم سيغلبون بعد أن غلبهم الفرس، وأيضاً أمته ستغلب الفرس في تلك الجهة؛ فهذان نصران: نصر نبوي علمي، ونصر حربي بالفتح، فأصبحت هذه السورة متممة لما قبلها. ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم أخذ يقرر ويفصل ما ذكره إبراهيم في سورة «العنكبوت»: ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[العنكبوت: ٢٠] الخ، فهاهنا أخذ يبين ذلك فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر: ٤٤] الخ، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾[العنكبوت: ١٩] الخ. وفصل ذلك أبهج وأجمل تفصيل فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[الروم: ٢٠] الخ.

إذن سورة « الروم » مفصلة لبعض ما أجمل في سورة العنكبوت تارة ومكملة لتاريخ الأنبياء بذكر خاتمهم ونصره تارة أخرى . اهـ .

تقسيم السورة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : في تفسير البسملة .

القسم الثاني : في بعض سر ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ .

القسم الثالث : في إثبات النبوة بالإخبار بالغيب وفي العجائب الدالة على الوحدانية ، من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

القسم الرابع : في تذكير الناس بالنعم وبالنقم ليشكروا الله على الأولى ويخافوه على الثانية وآيات أخرى لمحاجة الجاحدين ، من قوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [الآية : ٢٨] إلى آخر السورة .

القسم الأول : في تفسير
﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

استيقظت قبيل الفجر ليلة الجمعة ٦ من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ ، ونظرت بهجة النجوم وجمالها وهن عوانس أوانس ، يقلن لأرواح أهل الأرض : هلم إلينا ، وفيهن الثريا ونجوم الجبار والجو ساكن والدنيا هادئة ، فأعجبني منظرها وبهرني حسنها وأدهشني جمالها ، وصرت أقول في نفسي : إن المناظر الجميلة تسأمها النفس إذا طال أمدها واعتيد نظرها . ولكن هذه الأوانس العوانس والخنس الجواري الكنس بهجات الطلعة للناظرين وإن كثر الناظرين ووافق المبتدأ بالخبر . إن كل مبذول متروك وكل ممتنع محبوب . ولكن هذه الحور المقصورات في السماء تعرض كل ليلة على الناظرين وتتجلى للعاقلين وهم منها لا يسأمون ، وكلما ازدادوا لها نظراً ازدادوا لها حباً .

إن حجرة نومي فوق الدور العلوي من المنزل وأمامها فناء لا سقف له ، وقد اعتدت في زمن الصيف أن أنام في هذا الفناء لأقابل الهواء الجوي الخالص ولأشاهد الكواكب الجميلة البديعة ، ففي هذه الليالي كلما استيقظت قبيل الفجر شاهدت أربع مجموعات منها تسير من الشرق إلى الغرب . ولا جرم أن للنجوم أسماء اصطلاحية ذكرتها في الأجزاء السابقة ، وهذه الأسماء تختلف باختلاف الأمم من أهل الصين والهند والبابليين والعرب بحسب ما تتخيله كل أمة من شؤونها وما يغلب على خيالها مما لا محل للإفاضة فيه ، كما تسمى عندنا النجوم مجتمعة كعنقود العنب بالثريا ويسميها قوم الدجاجة وأفراخها كما تقدم ، فلما كان الأمر كذلك ظهرت لي هذه الكواكب في هذه الليالي بهيئة صحائف كتاب أمسك به صاحبه وطواه في يده ، وأنا وأهل الأرض في داخل ذلك المطوي وهو يديره حوالينا من المشرق إلى المغرب ، فأولاً تمر الثريا ، ويتبعها من جهة الشرق مجموعة كواكب كونت ما يشبه الزاوية الحادة ، وملتقى الخطين جهة الغرب ، وسطح الزاوية جهة الشرق ، ثم يلي هذه الزاوية مجموعة جميلة من النجوم تظهر بهيئة خط منحن ظريف بديع كقلادة الحسناء أكثر نجومه تشبه كوكب السها في قلة ضوئه ، ويتبع هذا الخط من جهة الشرق على بعد يساوي المسافة التي بينه وبين الثريا نجوم شديدة اللمعان من القدر الأول من نجوم الجبار ويسميها العامة في بلادنا بالميزان . ذلك لأنها مكونة من ثلاث نجوم على هيئة خط مستقيم ، وثلاث أخرى تكون خطاً مستقيماً مائلاً على الأول ، فهذان الخطان

يعطيان للخيال صورة ميزان الباعة في بلادنا، فهو مكون من قضيب يمسكه البائع بيده في داخله لسان الميزان، وقد علق فيه قضيب آخر من وسطه يحمل الكفتين، فهذه أربع مجموعات متتابعات أراها كل ليلة تمر فوق رأسي من الشرق إلى الغرب وأنا ألاحظها، وكلما استيقظت كنت أراقب الثريا التي هي قائدتها جميعاً، فكنت أعرف الوقت تقريباً بها، وإن كانت كل ليلة تتقدم جهة الغرب قليلاً، وكنت ألاحظ نهر المجرة بقرب هذه المجموعات في أكناف السماء، فهؤلاء وهؤلاء جميعاً يظهرن كل ليلة ويسرن فوق رأسي من الشرق إلى الغرب، فقلت: يا سبحان الله هذا كتاب كأنه يشير إلى آية: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧] فهذه السماء من السماوات مكونة من عوالم الأثير التي لا ترى، وعدم رؤيتها لا يحرمها اسم الوجود. فهذه العوالم السماوية الموجودة فعلاً بحسب ما اتفق عليه الناس قد برزت فيها اللوامع والبدائع المسماة نجوماً وهي متلائمة منتظمة. وهنا يعجب الإنسان من سقف مرفوع بديع أزرق رصع بالجواهر، ولم ير الناس سقفاً مرصعاً إلا إذا كان من مادة جامدة صلبة. أما السقف الذي لا تراه العيون ولا تتخيله الأفهام وإنّما هو أمر أشبه بالخيال، فكيف يرصع بالجواهر وكيف يثبت مئات الملايين من السنين. إن سقوف منازلنا كلها تتداعى إلى السقوط وهي متينة البناء قوية المادة، فكيف رأينا هذا السقف الذي هو أرق من الهواء وألطف من الضياء لا يعتريه السقوط ولا يحوم حوله الانحلال.

إن هذه من معجزات الطبيعة وآياتها البديعة. إن من شأن السقوف أن تثبت وتسكن من يوم وضعها إلى يوم سقوطها. أما هذا السقف فهو فضلاً عن دوامه آماداً وآماداً لا يهدأ ليلاً ونهاراً، فهو معجز من وجهين: ثباته مع لطف مادته ودورانه حولنا، وهناك آية ثالثة وهو أنه لوح منقوش بسطور من نور، فهو رق منشور، ومن أبدع البدائع أن الورق عادة أبيض اللون والكتابة بالمداد الأسود، فالصحائف بيض والسطور سود، أما هذه الصحيفة فهي زرقاء ونقوشها بيضاء زاهرة، إذن هذه الصحائف أبدع وعلمها مكتوب بقطع من الألماس ومنظرها أبدع من منظر الحبر، وأي نسبة بين جمال الجواهر وسواد الحبر. فأين الثريا وأين الثرى، ذلك يحاكي الحقيقة لأن ما تعيه الكتب إنّما هي نقوش دالة على ألفاظ دالة على معان يتخيلها الناس من خلال ذلك السواد الذي يتخلل بياض الورق، ولذلك ترى علوم الناس فيها الحقيقة والخيال والمقطوع به والمظنون. أما مناظر هذه الصحائف السماوية فإن جمالها يحكي حقائقها من حيث البهجة والجمال، ويشير إلى ما وراءه من أقدار عظيمة وأبعاد هائلة. فهذه الكواكب التي رأيتها الليلة كلها ثابتة، ثم إني فكرت في دورانها حوالي كل ليلة وقلت: إني أصبحت موقناً بأن كل جسم أو وصف أو حركة في هذه الدنيا الجميلة له غاية.

فإذا كان جمال الزهرات وروائحها العطرية لم تخلق إلا لغاية، وهي أن تجلب الحشرات بحسن منظرها وعاطر رائحتها لتشرب الرحيق المختوم والعسل المختبئ في أسفل الزهرات، ومتى نالت بغيتها فقد أتمت عملها وهو إلقاح الإناث بواسطة ذرات الإلقاح من الذكور، ويكون ذلك العمل مفيداً لنفس النبات ولنفس الحشرات.

فإذا كان هذا شأن هذه الدنيا فلا حركة ولا جوهر ولا عرض إلا لفائدة وغاية حميدة، فما غاية مرور هذه الصحائف الزرقاء المرصعة بالجواهر الثمينة المختلفة الأشكال كل ليلة فوق رأسي في فناء

حجرتي؟لم يضع في هذا الكون منظر ولا حركة لغير فائدة، فكيف تضيع ثمرات هذه الحركات حولي؟ ولم أكد أتم هذا الخاطر حتى وقع في نفسي أن الصحائف على قسمين: صحائف صغيرة يحركها الناس بأيديهم ليقرؤوها، وصحائف كبيرة وهي هذه السماوات المطويات بيمين كاتبها القدير، الذي يعلم أن الناس لا يقدرون على تحريكها كما قدروا هم على تحريك صحائفهم ليقرؤوها، فحركها بيده هو فدارت حولهم، فلذلك تمر على كل ليلة، فجدير بنا أن نقرأها. إن الإنسان لضعفه لا يدري إلا ما يكتبه آدمي مثله. أما كتاب السماوات فهو وإن كان مبذولاً لم يدرسه إلا قليل هم صفوة الإنسان في الأرض، ولهذا الكتاب مزية أخرى وهو أنه منبع الهدى ومصدر الرزق؛ أما تأليف الناس فهو هدى، ومصدر الرزق آت من غيره، فتأليف الله جمع غذاء العقل وغذاء الجسم وهذا من أبدع الاقتصاد في العمل والأحكام.

اللهم إني أخجل أن أرى كتابك مبذولاً لي وأنت تديره فوق رأسي كل ليلة وأنا عنه معرض، كتابك المسطر بالحروف الكبيرة تلك الحروف التي يعجز عن درسها صغار العقول ويفرح بها المفكرون هذا الكتاب الذي تشرق سطوره ليلاً وتضيء نهاراً فإذا قلبته أمامي وأنا عنه ساه فلي الويل كل الويل. فويل لمن نشر الله له صحائفه فأعرض عنها، وهو يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ويقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[الأعراف: ٤٠] الخ، وكيف تفتح أبواب السماء لمن تمر صحائفها عليه كل ليلة وهو معرض عن جمالها غارق في بحار الأحوال المادية لا شعور له بما يراه ولا لذة له فيما يلقاه، حبس في المسائل الجزئية والأعمال الحيوية فهو نائم والدهر يقظان، وما هذه الكواكب إلا حدائق تشاهد الأرواح بعد الموت جمالها وتبتهج بمنظرها، وليست كل روح أهلاً لمرآها، ولا كل نفس بقادرة على الابتهاج بمنظر حلاها، كلا فأكثر النفوس الأرضية عنها لاهية ساهية، ولا ترى النفوس بعد الموت إلا ما عشقته في الحياة.

إن الطيور على أشكالها تقع، ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[الإسراء: ٨٤]، ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢].

هذه نظراتي في تلك الليلة، ثم إن الفكر عارضه ما قطعه، وأخذت النفس تذكر شؤوناً أخرى فنظرت للنجوم كرة أخرى فلم ألحظ الجمال ولم أشعر بذلك الكمال، فعلمت أن هذه حال جميع الغافلين. إن هذه النجوم لا يظهر جمالها وبهجتها إلا لنفوس صفت وعقول خلت، أما النفوس التي لم تعرف ما هو الجمال ولم تدرك ذلك الكمال واختص عشقها بظاهر الشهوات فهذه نفوس محبوسة وقيل في أمثالها: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[الدخان: ٢٩]، ويقال لهم على سبيل الاعتبار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ٤٠] الخ. فمن أراد أن تفتح له أبواب السماء في الآخرة فليعلم أن مفتاحها اليوم معه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦] ولينظر اليوم هذا الجمال. وهل شعر بالحسن والجمال وفكر في هذه العجائب واشتاق إلى معرفة الحقائق وبحث في هذا الوجود وأصله وما المقصود

منه وكيف نظامه وهل الرحمة عامة فيه؟ ولم كان العذاب في الدنيا والآخرة حتى على قوم؟ وإذا كان الله مبدع الأكوان هو الذي خلق هذه العوالم الجميلة ونسقها وأبدعها وجعلها غاية في الإبداع والحسن والإشراق. أفليس هو الفاعل المختار؟.

هذه الخواطر تلتها خواطر ثم أخذتني سنة من النوم فخيل لي كأني في روضة فيحاء جميلة المنظر، فيها من كل فاكهة زوجان، وبينما أنا أتمتع بمنظرها في النوم كما كنت أبتهج بمناظر النجوم في اليقظة؛ إذ تمثل لي شخصان من نور أحدهما أكبر من الآخر منظرهما بديع وبهيج وهما على هيئة الإنسان، فأخذت أفكر في هذا المنظر ونسيت جمال الحديقة الغناء، وأخذت أفكر في أمرهما ولم ظهرا لي؟ وما القصد من هذا؟ فأخذت أصغي لهما لعلي أسمع لهما قولاً فأصيب منه حكمة، فما خطر لي هذا الخاطر حتى سمعت الأصغر يقول لصاحبه: سيدي علمني مما علمك الله، فقال: سل ما بدا لك، فقال: إننا ونحن على هذه الأرض مع الناس كنا نسمعهم يذكرون الله بالرحمة والرأفة اللذين لا حد لهما، ولكن لماذا نرى الموت والمرض والآلام المختلفة تعتري هذه النفوس الأرضية؟ القرآن مبدوء في كل سورة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وهكذا «الفاتحة» فيها ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. إن الرحمة مكررة في جميع ركعات الصلاة وفي أول كل سورة، والله تعالى يقول: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أليس الأطفال الذين يمرضون لا ذنب لهم؟ والبهائم التي ترعى في مراعيها تمرض؟ أليس هؤلاء من جملة الأشياء؟ فإذا كانت الرحمة وسعت كل شيء فكيف لم تسع هؤلاء؟ بل ما رأينا أحداً في الأرض إلا شكا وبكى وأنّ وقال: أين الرحمة؟ ولذلك قال المتنبي شاعرهم:

كل من في الكون يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن

إني لو أردت يا سيدي أن أوفي المقام حقه لأعوزني لبيانه أيام وليال، لأن الرحمة وضدها قصتهما قصة الوجود كله، فإذا استوعبت القول فيهما وجب عليّ أن أستوعب علوم الأمم والأفلاك والأرضين، فلأكتف بهذا الإيجاز وأنت العالم، ولقد أوجب الله على الجهلاء أن يسألوا كما أوجب على العلماء أن يعلموا، وأنا الجاهل وأنت العالم. فهاأنا ذا إليك مصغ والله لا يضيع أجر المحسنين.

فلما سمعت هذا القول دهشت من حسن المصادفة، وصرت أقول في نفسي: يا عجباً أنا الساعة أفكر في معنى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول سورة «الروم» ولم كررت في سور القرآن، ولم ملأ الله السماوات بالجمال وهكذا الأرضين، ولكن الألم والنصب منصبان على كل حي في هذه الأرض، فهذا السؤال يواتي فكرتي ويقرب من مطلبي، فـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف: ٤٣]، فسأصغي لقولهما، ومتى رأيت في القول حكمة حفظته وتلوت: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه: ٩-١٠]، فعسى أن أقتبس من هذا القول حكمة تفهمني معنى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ التي حرت في تفسيرها لما تأملت نجوم السماء.

هنالك أخذ العالم يفيض من علمه على فتاه، فقال له: اسمع يا بني أنت تعلم أن الرحمة مبذولة لكل شيء، ولولاها لم يكن موجود، لأن الرحمة بها الوجود وضد الرحمة به العدم وكثرة البذل توجب الغفلة. فالناس لما عمتهم الرحمة من كل جانب حتى غمرتهم أصبحوا لا يشعرون

بها. ألم تر إلى الناس والأنعام وإلى السمك فهؤلاء في الهواء وهؤلاء في الماء ولا يخطر لأحد منهم أنه يعيش في مادة تحيط به إلا المتعلمين.

إن الجهال من بني آدم لا يعقلون أن الهواء جسم من الأجسام مع أن حياتهم متوقفة عليه، ولا يعرف الهواء غالباً إلا بلفت النظر وتوجيه الفكر. فأما العامة فلا يكادون يعرفون أن أنفاسهم التي تصل رئاتهم من جسم موجود، بل هي عادة اعتادوها، بل هذه الأرواح التي تعلقت بهذه الأشباح في الأرض وعقلت وأدركت بعض المتعلمين من بني آدم لا يرون لها وجوداً مستقلًا عن الجسم، بل يزعمون أنها صفة من الصفات الملحقات به، تفنى بفنائه فلا وجود لها مستقل. الرحمة عمت الهواء والماء والأرض والأثير والكواكب. الرحمة أحاطت بالناس في داخلهم وخارجهم فنسيها أكثر الناس. وليس يعقل الرحمة الحقيقية إلا الحكماء وحدهم، وأكثر الناس جاهلون، فقال الفتى: ولم لم يعقلها أكثر الناس؟.

قال الأستاذ: أنا أبين لك السبب، إن الرحيم الجاهل تكون رحمته خطراً. فالرحمة إن لم تكن مصحوبة بعلم لم تفد إلا الضرر. ألا ترى رعاك الله أن المرأة تود أن تكون ابنتها متمتعة بأنواع الملاذ والشهوات وبمن تحب؟ وهي من شدة رحمتها بابنها تود لو ترك الدرس والطرس وأرخى لنفسه العنان في باحات اللعب والمسرات، أما العلم والدرس فإنهما في نظرها القصير أمران ثانويان، وكل مؤدب أو ملك أو أمير ترك حبل الأمور على غاربها ولم يضع الأمور مواضعها، اختل نظام رحمته وأصبحت تلك الرحمة عذاباً واصباً، ألا ترى إلى ما قرره العلماء أن الناس إذا غمرتهم النعم ولم تؤدبهم النوازل أصبحت تلك الرحمات عاراً عليهم وخزياً مبيناً وانحطت قواهم وملكتهم البطنة وأصبحوا فريسة لغيرهم.

فعلى هذا لا مناص لصاحب الرحمة من أن يكون عليماً بمن يرحمهم حتى لا تكون الرحمة سبباً للخسران والهلاك إذا لم تكن بحساب، والحساب لا يكون إلا بالعلم. فالرحيم العالم هو الذي لا يعطي إلا بحساب ليكون عدلاً في عطائه عدلاً في منعه، ويكون العطاء إذ ذاك مع المنع أشبه بالنهار مع الليل، النهار والليل والصيف والشتاء، لولا الحساب لكان نظام الأرض خطلاً وخطراً؛ ولكن تعاقب الضياء والظلمة والحر والبرد جعل أحوال أهل الأرض مساعدة على بقاء الحياة، فلو لم يكن نهار لم تكن حياة، ولو لم يكن ليل لاختل نظام الحياة وهلكت النفوس. إذن الرحمة لا تتم إلا بعلم والعلم به يكون البذل والمنع وهناك يكون العدل. إن هذا العدل هو الميزان الذي توزن به الموجودات. والرحمة إذا انفردت بنفسها عن العدل الذي يوجبه العلم كانت لا خير فيها، وانقلبت عذاباً أليماً وهلاكاً مبيناً، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]، فانظر لهذا العطف العجيب.

فقال الفتى: وهل معرفة العدل يعوزها شد الرحال واقتحام الأهوال وتجشم الأخطار حتى لا يعرفه إلا الفضلاء الأخيار؟ فقلت: إي وربي إنه لحق كما تقول وإليك البيان:

قد علمت أن الرحمة شاملة لكل شيء ولكنها محجوبة عن أكثر النفوس، ولا ظهور لهذه الرحمة ظهوراً حقيقياً إلا للعالم الحكيم، وأنه لا بد لها من العدل، ورحمة بلا عدل كجسم بلا روح. وإذن لا يعقل الناس الرحمة إلا إذا عقلوا العدل والعدل حارت فيه العقول وتاهت الأذهان. ألم تر إلى ما جاء في جمهورية أفلاطون وقد تباحث «سقراط» مع تلاميذه وأدلى كل منهم بحجته في معنى العدل؟. فمن قائل: إن العدل أن تعطي كل ذي حق حقه، فرد عليه قائلاً: وهل يعطى السيف لصاحبه

الذي لا يعقل؟ ومن قائل: إن العدل هو ما اتفق عليه ذوو القوة والجاه وأرباب النفوذ فهؤلاء كل ما قالوه ينفذ والناس لهم مطيعون. فرد عليه قائلاً: ليس الحاكم الذي يسخر الجمهور لمصلحته ويتلاعب بهم أميراً، بل هو لص. وهكذا، ولو أن جماعة اللصوص لم يستعملوا نوعاً من العدل لانفرط جمعهم وتفرقوا شذر مذر وهم خاسرون.

وهنا ذكر له ما تقدم في سورة «النحل» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[الآية: ٩٠]، فقد جاء هناك ذكر العدل وأنه لا يكون بإعطاء الإنسان حقه فربما أضر به، وليس يجوز للإنسان أن يعطي السيف لمالكه الذي اختل عقله ولا أن يقول للذي أشرف على الهلاك الحق لئلا يكون هلاكه. وهما ذكر أن حاكم الجمهور إذا لم يعدل فيهم وظلم فلسنا نسميه أميراً بل هو لص، واللذة التي كان يتوهمها في ذلك لا ينالها لأن سعادة كل مخلوق بما اختص به، واختصاص الإنسان أن تكون نفسه قائمة بما يجب عليها مقومة لجميع صفاتها الخ.

ثم ختم المقال بأن العدل في الأمة بأن تكون كل طائفة قائمة بما وجب عليها، فالصناع والزراع يخضعون للجنود، والجنود يخضعون لرجال السياسة، وهكذا الفرد الواحد تكون قواه العقلية محفوظة بنسب خاصة، فلا تطغى إحداها على الأخرى فيكون عفيفاً شجاعاً مفكراً، وهنالك يكون العدل، فالعدل هو الاتزان الذي يكون بين أفراد الأمة وبين قوى الفرد الواحد، فكما أن القوة الشهوية لا تطغى على الغضبية بل تخضع لها، والقوى الغضبية تخضع للقوة العاقلة في الفرد، هكذا يخضع الزراع والصناع للجند، والجند يخضعون لرجال السياسة وهم الفلاسفة.

هذا ما جاء في كلام أفلاطون يا بني، وكل هذا في تعريف العدل الذي لا تكون الرحمة بدونه إلا وبالاً، فلو أن ماء النيل فاض على أرض مصر ولم يحط بالجسور والقناطر لأغرق البلاد، فهو نعمة انقلبت نقمة لعدم الحواجز والنظام، وما النظام إلا العدل، فإذا كان العدل قد استحق هذا الاهتمام من الفلاسفة وقد شغل عقلاء الأمم جميعاً في الأرض وإلى الآن لم يتموا دراسته، فما بالك بالعدل الإلهي؟ وبعبارة أخرى: إذا كان أهل الأرض قاطبة لا يزالون يدأبون في البحث عن العدل حتى تنتظم الأمور السياسية فيها وهم إلى الآن لم يهتدوا، فكيف تصل العقول إلى العدل الإلهي الذي به تعرف الرحمة وتستقر في العقول، إن أهل الأرض قد صرفوا كل قوى عقول عظمائهم إلى تعرف العدل، ولم ينجحوا إلى الآن تمام النجاح، والأرض ذرة صغيرة طائرة في الجو من عوالم عظيمة لا تحصر، فهؤلاء أنفسهم أي الذين فوق هذه الذرة الصغيرة وهي الأرض لم تكف مدارسهم ولا حكوماتهم لمعرفة العدل الآن في هذه الأرض الصغيرة إذا رأوه معقداً صعب المنال كثير القيود كثير المسائل، فما بالك بالعدل العام في السماوات والأرض؟ أفلا يكون أشد تعقيداً وأكثر صعوبة في الفهم؟ وهل أتاك نبأ الحرب الكبرى؟ ألم تقم بعدها أمم أوروبا كلها فقالوا بإبطال الحرب؟ ومع ذلك تجد الأمة الإنجليزية أعطت اليهود وطناً قومياً في بيت المقدس إذلالاً للعرب وإزاحة لهم، فهذا عندهم هو العدل، وفي هذه الأيام قام اليهود فبدؤوا بالهجوم على العرب، فلما قاوموهم وعاملوهم بالمثل أخذوا يعاقبونهم، فهذا عدل عند أمة في أوروبا، لأن هذا رأي القوي، والقوي لا راد لما يقضيه عند أهل الأرض، وهذا أحد الآراء التي ردها «سقراط» في محاوراته الأفلاطونية. فرد الفتى على أستاذه

قائلاً: يا سيدي إني أعلم أن هذه الأمم الإسلامية لم تقم بما وجب عليها في استخراج ثمرات أرضها وثمرات عقولها، فمن العدل أن يعمر الأقوياء تلك الأرضين. فقال الأستاذ: ولكن استعمار الأرضين ليس موقوفاً على إهلاك البلاد، فلا بد من إقامة العدل بأن يرقى أهل تونس والجزائر ومراكش وسوريا وفلسطين، لا أن يقف المستعمرون لهم بالمرصاد ويمنعوهم العلم. على أننا الآن لسنا في مقام شرح مسألة العدل في الأمم الأرضية، فإذا كنت أنا وأنت قد تناقشنا في عدل أهل الأرض وكل منا له غرض يرمي إليه، فهم إذن من باب أولى، وهذا إثبات لقولي: إن أهل الأرض إلى الآن لم يتمموا أمر العدل ولم تقو عقولهم على استكناه كنهه، بل نحن أخذنا نتجادل لأجلهم، فكيف إذن يصل عقل الإنسان وعقول كثير من الملائكة والأرواح الشريفة إلى حل مشكلة العدل في العوالم كلها وهو عدل الله، وإذا رأينا الطبيب يقلع ضرس المريض ويؤلمه أشد الألم ويقطع عضواً من أعضائه والناس والمريض وذووه راضون مستبشرون؛ وإذا رأينا الأمم يحارب بعضها بعضاً فيموت الألوف وألوف الألوف فلماذا هذا؟ لأن سفير إحدى الدولتين أهين بكلمة، فتقول دولته: لا بد أن أغسل العار، وكيف تغسل العار؟ تغسله بإرسال آلاف من الجيوش يقتل منهم مئات، ومن العدو مئات، فيقول الهاجمون: نحن عادلون لأن سفيرنا أهين، فحياتنا وهي من الرحمة لا بقاء لها إلا بأن يجندل في ساحات الحرب منها رجال، ويقول أعداؤهم: هؤلاء ظلمونا فلندافع عن أنفسنا والدفاع عدل. إذن الحياة التي لا وجود لها إلا بالرحمة توقفت على قتل بعض الرجال كما توقفت حياة المريض على قطع عضو من أعضائه، إذن قطع بعض أعضاء الجسم عند ظهور سببه وقيام الحرب عند حصول سببها وقتل بعض الرجال من تمام الرحمة في نظر هذا النوع الإنساني سواء أخطأ القواد والأطباء أم أصابوا، فالجروح إذن ونفس الموت من تمام الرحمة، والرحمة بغير هذين ضارة مؤلمة كما يضر النيل إذا لم يحفظ بالقناطر وبالجسور.

هذه كلها آراء الناس في العدل. ومما يدلك على أن آراء الناس في العدل تتغير من وقت لآخر ومن حال إلى أخرى أمران: أولاً: معاملة أهل الغرب لأهل الشرق التي سنذكرها قريباً. ثانياً: ما ظهر من الميل إلى ترك الحرب في هذه السنين بعد الحرب الكبرى، ففي هذا الشهر ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٩ ألقى المسيو «بريان» خطاباً طويلاً في الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ صباحاً في جمعية الأمم قوبل بالهتاف والاستحسان، فمما قاله:

إن جمعية الأمم قد قامت بالواجب عليها، وإنها جاهدت سنة فسنة لإزالة الحوائل العتية التي كانت قائمة في وجهها، فاليوم لا يحتقرها العالم ولكنه يعطف عليها، على أننا نتساءل ماذا عساها تعمل بهذه الثقة التي وضعها العالم فيها، إن هناك مسائل كبيرة ذات أهمية عظيمة لا يمكن التفادي عنها دون أن تمس الجمعية مساً أدبياً شديداً، وإنه ليسرني كممثل للحكومة الفرنسوية أن أتعاون مع زملائي الألمان.

ولقد توصلنا الآن إلى أن نعتبر الحرب جريمة تستحق الاستنكار من جميع الأمم والشعوب. فإذا لم تتوصل جمعية الأمم إلى التذرع بالوسائل التي تمحو الحروب لا تكون قد قامت بما يجب عليها القيام به، والذي يجب أن نتساءل عنه: ماذا نحن فاعلون إذا أفضى التحرش والتمسك إلى اشتعال الحرب؟. إن ما تم في مؤتمر «لاهاي» كان دليل الإرادة الصادقة في صيانة السلم.

ثم انتقل إلى الكلام عن نزع السلاح فقال: إنا قد خطونا في هذا السبيل خطوة واسعة ولا أظننا نتوصل إلى الاتفاق والوئام بتحرير الرسائل التلغرافية، بل الواجب أن ننظر إلى المسائل وجهاً لوجه لنجد مخرجاً لنا من كل مأزق، وإذا أردنا نزع السلاح فلا نكتفي من ذلك بالنظر إلى المسائل الفنية، بل يجب أن نحل جميع المسائل السياسية بحسن الإرادة المتبادلة بين جميع الدول، والواجب فوق ما تقدم أن نلقن الشبيبة كره الحرب وفظائعه، وإني لأتجه بنوع خاص إلى النساء فأقول للأرامل: دافعن عن منازلكن وأسركن، والواجب على النساء عامة أن يروين ميدان السلام بدموعهن لا ميدان القتال، علمن أبناءكن حب السلام وعلمن أبناءكن احترام الأمم الأخرى غير أمتكن هو ذلك الواجب الذي يؤدى في تعليم الناشئة.

وذكر الخطيب مؤتمر «لاهاي» فقال: إنا كنا جميعاً نضع فكرة المصالحة فوق المسائل المالية. ثم تكلم عن الاتحاد الاقتصادي الأدبي فقال: إن هذه المسألة السياسية لا تتم إلا تحت رعاية جمعية الأمم حتى يكون بين جميع الأمم والشعوب الأوروبية صلات وروابط تسهل اتخاذ القرارات الحاسمة بالإجماع إزاء الحوادث الخطيرة، على أن هذه الروابط لا تمس بسيادة أمة من الأمم، وإني أطلب من زملائي أن يعرضوا هذه المسألة على حكوماتهم حتى يصل الجميع إلى حلها في الجمعية القادمة.

ثم ذكر حادثة الباخرة «لوتس» في الأستانة فقال: إن فرنسا لم تجد على نفسها غضاضة في عرض هذه المسألة على محكمة «لاهاي»، فعلى الأمم أن تقيم لأنفسها قضاة لتتفادى معارك القتال وعلى الأمم أن توجه أنظارها إلى حل كل مسألة حلاً سلمياً.

وختم كلامه بقوله: إننا يوم نعلم الناشئة حب السلام نوحد بين الأمم ولا نبقي وجهاً للتفريق والانقسام، وفي ذلك اليوم تسود المحبة ويسود الأمان بين الأمم جميعاً. وبعد هذا الخطاب وقف جميع من في القاعة يهتفون للمسيو «بريان» ويحيونه.

وقد خطب «المستر مكدونالد» اليوم في مأدبة الغذاء الذي أدبها الصحفيون لأعضاء مجلس جمعية الأمم، فأشار إلى المفاوضات بشأن نزع السلاح البحري بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، فقال: لا ريب أن هناك مصاعب في سبيلنا، وأمامنا مسائل من أشد المسائل تعقيداً يجب أن نحلها، ولكن مشيئة الشعوب هي القادرة على كل شيء، وهي التي يجب أن تقول الكلمة الأخيرة. وعلى كل حال فإن مسألة السلم الخطيرة ينظر فيها رجال من رجال السياسة المخلصين.

وبعد أن تم ما تقدم أخذ يقول: يا بني هذه هي آراء أهل الأرض المساكين، فهاهم أولاء عاشوا آلاف السنين ومئات الآلاف وهم يرون الحرب عدلاً، وهاهم الآن يقولون: إن الحرب ليست عدلاً. فالحياة لا تتوقف على الحرب. إذن أمر العدل عند بني آدم أمر مشكل لا تزال العقول في أشد الحرج في حله، والعقل الإنساني لا بد أنه سيجد كل الجد في هذه القضية العظيمة عقدة العقد مشكلة المشاكل. إذن العدل عند الناس دخل فيه الحرب والسلم على حد سواء. فالقتل عدل وإبقاء الأرواح عدل عند أهل الأرض، هكذا الجراحات والآلام في الحروب عدل في موطن وسلامة الأعضاء وعدم الجروح عدل في موطن آخر، إذن العقول الإنسانية قضت أن الحياة يعوزها آلام تتنابها، إذ لولا الحروب لم تحفظ الدول. وبعبارة أخرى: إن رحمة الأمم ببقاء حياتها قد تتوقف على موت أو جرح آلاف منها

فأصبحت الآلام إذن من شروط الرحمة ، إذن الرحمة قد تتناول الآلام ، فنقول : إن ألم الصناع والعمال مَن حبس الجند لهم عند العقاب وأخذ الضرائب منهم لأجل الجباية وكظم غيظ العاقل وضبط نفسه عند احتدام الغيظ فكل هذه آلام وجبت في السياسة تارة وفي علم الأخلاق تارة أخرى وهذه كلها آلام . ثم قال : فإذا كان هذا كله معروفاً عند الناس مع قلة علمهم وقصور إدراكهم لأن عقولهم لا تصل إلا إلى مرافقها المناسب للكوكب الذي تعيش عليه ، فما بالك بالعدل العام والرحمة العامة .

فقال الفتى : إذن أنت تقول إن الله جعل نفس الآلام رحمة مستدلاً بأن الناس مع قصر عقولهم بالنسبة للعوالم الأخرى استحسنوا في مواطن كثيرة العذاب والآلام ، فهي إذن جزء من الرحمة . فقال الأستاذ : نعم . فقال : أريد أن تشرح لي هذا المقام شرحاً مستفيضاً لأجل أن أجمع بين قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وبين آلام بني آدم والحيوان ، بحيث تستنير بصيرتي ، ولا يكفيني أن أقيس رحمة الله على رحمة أهل الأرض . فقال الأستاذ : اعلم يا بني أن هذه الأرواح التي خلقت في هذه الأجسام شريفة في أنفسها عزيزة ، وقد أنزلت إلى هذه الأجسام لتنمو فيها وتقوى ، وهذه الأجسام من الهيولى ، والهيولى ناقصة ليست كعالم الأنوار والأرواح ، فكان لزاماً لهذه الأرواح أن تقاسي تلك الآلام . فقال الفتى : ولماذا لم تبق تلك الأرواح في برازخها لتستبعد عن تلك الشرور ؟ فقال له : لو لم تنزل في هذه الأجسام ولم تقاس تلك المشاق لبقيت جاهلة ، فالآلام هنا لترقيها ، فهذه دروس ترقي الأرواح . فقال الفتى : فاذكر لي هذه الآلام التي تعتري أنواع الحيوان . فقال : هي ثلاثة أنواع : الأول : الجوع والعطش عند حاجة الأجساد إلى المادة والغذاء . الثاني : ألم الضرب والصدم والكسر المضر بأجسادها المتلف لهياكلها . الثالث : الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها .

الفصل الأول

في الكلام على الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان

قد قدمنا أن هذه الآلام تنتابها كالجوع والعطش ، ونقول الآن : إن هذه الأجسام الحيوانية مركبات من جسم وروح ، والجسم مركب من أخلاط كثيرة ، وتلك الأخلاط سريعة الذوبان والسيلان فلا بد في بقائها من حصولها على المادة والغذاء ، لذلك جعلت لنفوسها آلام عند حاجتها إلى الغذاء والمادة ، لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسامها في طلب الغذاء ، ولو أن الجوع لم يسلط عليها ولا العطش وأخذنا بظاهر الآراء وقلنا : إن الآلام ضد الرحمة وليست منها وعليه لا حاجة إلى آلام الجوع وآلام العطش ، للزم ذلك أن لا يتغذى الحيوان فيهلك ، فيكون عدم الألم في هذا المقام سبباً في الهلاك وهو ضد الرحمة ، فثبت إذن أن الرحمة تتوقف على الألم وبزواله تنقلب قسوة وإهلاكاً . وإذن تبقى هذه إما بلا أجساد تتكمل فيها فتبقى ناقصة وإما بأجسام ناقصة مريضة إلى أجل ما ثم يعتريها الفناء ، ثم إذا تناول الحيوان الغذاء فلا بد له من لذة كما أنه لا بد له من آلام الجوع السابقة ، وهذه اللذة مقصودة ليأكل ما يلائمه ما دامت اللذة ، فإذا أخذ ما يكفيه هنالك تقول له تلك اللذة : أنا أغادرك وأفارقك . هنالك يترك الطعام ، وعدم اللذة هو الذي نسميه الشبع ، فالألم أولاً بالجوع لطلب الطعام ، واللذة ثانياً لتكون كالمستشار لتعاطي أنواع الطعام ، ثم ذهاب اللذة بالشبع وذلك لإيقاف الآكل عن أكله لئلا يستضر بازدياد تعاطي الطعام .

الفصل الثاني

في الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحر والبرد والأمراض والأسقام وكل ما يضر الجسد ويفسده

قال: اعلم أن هذه وضعت في الأجسام لتحثها تلك الآلام على حفظ أجسادها. إن الأجساد فاقدة الحيلة فهي والحجر والمدر سواء عاجزة عن جلب المنافع ودفع المضار. فإذا رأينا الحجر والمدر رابضة في أماكنها ساكنة خاضعة لما يعتريها من الكسر والتفتيت وحوادث الأيام والليالي؛ فإننا نرى هذه الأجسام الحيوانية تستيقظ من حال الغفلة وتحس وتشعر بما يضر بأجسادها، وتتوقاه تارة بالفرار والانقباض، وأخرى بالمجاهدة أو الحيلة، ولو لم تفعل ذلك لهلكت الأجساد في أقرب زمان، وإنّما فعلت ذلك النفوس لأجسادها وحافظت عليها لما ركز فيها من حب البقاء والوجود على أتم ما يكون لأن هذا هو الخير، ومن كراهية الفناء الذي يترتب على هذا النقص، والفناء شر. ومعلوم أنه لا عدم للأجسام ولا للنفوس ما دام هذا العالم موجوداً، فثبت إذن أن الحكمة قضت أن الألم مخلوق في الحيوان لقصد وحكمة ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[القصص: ٦٨].

ومن لطف الحكمة العجيبة ما تقدم في سورة «المؤمنون» من رسم يد الإنسان وأن لها ١٢ طبقة في كل ناحية ٦ طبقات، فالطبقة التي تلامس الهواء من الجانبين هي الجلد، وهذا الجلد لا إحساس له وقد كثر أعداؤه من الخارج، فالنار تحرقه والسكين تقطعه والحر والبرد يهلكانه، هناك قيضت له طبقة تليه من الجانبين تحته، وهذه الطبقة عبارة عن شبكة من الأعصاب، فهؤلاء هم الجواسيس والعيون والبرد، فمتى لامست نار الجلد أو كسر أو ضرب تسلمت ذلك الإحساس تلك الأعصاب ووصلتها إلى المخ، فأمر في أسرع من لمح البصر أعضاء الحركة بالمسارعة إلى دفع هذا الأذى.

فلما سمع الفتى ذلك من أستاذه قال: هذه علوم عجيبة وآيات غريبة، عجبت كيف أصبح الإحساس بالضرب والكسر والمرض والجوع والعطش سواء في أنها رحمة كلها. وإذا ثبت هذا ثبوتاً يقينياً فإننا نصبح سعداء سعادة لا حد لها، وأي سعادة للحي أكبر وأجل وأعظم من سعادة امرئ أيقن بأن حياته في يد رحيم أعطاه الخيرات وجعل الشرور مكملات لها ولولاها لم يكن للخير بقاء، ولكني أريد أن أسألك عما دار بيننا في أمر أهل الغرب وأهل الشرق. إنك يا سيدي حكمت على أهل أوروبا بأنهم ظلموا المسلمين باحتلال ديارهم في شمال أفريقيا وإدخال اليهود بلادهم في فلسطين، وأنا أجبتك بأن المسلمين أهملوا، فإذا أفهمتني ذلك كنت أنا من الموقنين حقاً. فقال له: يا بني احتلال البلاد المختل نظامها عدل على شرط أن تقوم عقول أهل البلاد كما تقوم أرضها، وبعبارة أخرى: يجب أن يرقوا أهل البلاد ليكونوا إخوانهم ويصلحوهم ويصلحوا أرضهم وهؤلاء قوم مخطئون لأنهم يجعلون الإنسان أشبه بالحيوان المسخر. فقال الفتى: لقد حكمت أن الضرب والكسر والجرح والمرض أمور اقتضتها صفات هذا العالم الذي نحن فيه، والإحساس بها عدل من الله، ولولا هذا الإحسان لهلكت.

فقال : إن المقام ذو وجهين :

الوجه الأول : فعل الله ، وهذا عدل ، فإنه إذا ساق أمة قوية لتحتل البلاد الضعيفة فمعناه أنه فعل فيهم ما فعله بالحيوان من جوع وعطش وكسر وضرب ، فهؤلاء يجب عليهم أن يستيقظوا بهذا ، والله عز وجل إذا لم يرسل لهم تلك الأمم نزلوا إلى الحضيض ، فهذا كالكسر والجرح والجوع ، فهذا الإيلام بإذلال الأمم لهم يراد به جمع كلمتهم .

الوجه الثاني : معاملة هذه الأمم لمن دخلوا بلادهم . فهذه الأمم الأرضية أكثرها ظالمة فظلمها لأنها ظنت أن هذه غنيمة لهم . إذن الله عدل في إذلال الأمم الضعيفة والأمم القوية ظالمة لأنهم ممن قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .

قال الفتى : فهمت ، وما أحسن العلم ، وقد بقي لي سؤال واحد وهو : هل الفرنجة الذين احتلوا بلاد الشام وشمال إفريقيا وغيرها من بلاد الإسلام يطول أمدهم؟ فقال : كلا ثم كلا . إن الله عز وجل قد أيقظ المسلمين ، وهذا الإيقاظ سيظهر أثره قريباً . فقال الفتى : لقد تبين لي الآن أن من الناس من سعدوا سعادة دائمة بسبب هذا الإيقان ، وإذا انتابتهم نوائب غشت على عقولهم زمناً ما ، فإنهم يتذكرون هذه السعادة الدائمة التي لا تفارقهم أمد الحياة ، بل هم في حياتهم الدنيا كأنهم في جنة عرضها السماوات والأرض ، فقال الأستاذ : الحمد لله رب العالمين لقد فهمت يا بني ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لم كررت في أول كل سورة من القرآن ، والحمد لله رب العالمين .

وما كاد التلميذ يقبل يد أستاذه النورية حتى استيقظت وكتبت ما رأيت . انتهى صباح يوم الأحد ٨ شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ ، وبهذا تم الكلام على القسم الأول .

القسم الثاني
في تفسير ﴿ الٓمٓ ﴾

لقد تقدم في سورة كثيرة مبدوءة بهذه الحروف ذكر بعض الأسرار التي أبرزها الله في هذا التفسير لأمم الإسلام ، تلك الأمم التي حملت أمانة كتابنا المقدس وحفظته حفظاً حتى وصلت بها إلينا سالمة ، فرعى الله هذه الأمم ، هؤلاء الذين قاموا بحفظ الأمانة وأكثرهم كانوا في العصور المتأخرة في ضنك مشين .

وصلت إلينا الأمانة فقرأنا القرآن ، فسمعنا الله يقول في أول البقرة : ﴿ الٓمٓ ﴾ فلم يفتح على كاتب هذا بشيء في ذلك ، وما كان ليخيل لي أني أكتب حرفاً واحداً في أسرار هذه الحروف ، لأن هناك اتفاقاً بل إجماعاً عاماً أنه لا يعرف هذه الأسرار إلا أناس مختصون ، وهؤلاء إذا ذكروها للناس فالناس لا يعقلون ما يقولون لعلوها على الأذهان ، وما كاد تفسير « البقرة » ينتشر بين الأمم الإسلامية حتى رأيت إقبالاً عظيماً ، فانشرح صدري وأيقنت أن الله عز وجل يريد بالأمم الإسلامية مقاماً أعلى ومكاناً أسمى ، فأخذت أجمع ما ذكره العلماء في سر الحروف ونظمته في ثلاثة أسماط :

(١) الأول ما قاله الصحابة كابن عباس رضي الله عنهما ، وذلك راجع إلى العبادة بأن يجعل هذه الحروف مذكرات بأسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فإذن هذا الرأي وجه هذه الحروف إلى وجهة الذكر فهو راجع إلى العبادة .

(٢) وجاء قوم بعدهم فقالوا: إن هذه الحروف من حيث صفاتها وأحوالها قد ظهر للعلماء أنها ذات أمر عجيب، ذلك أنها هي نصف الحروف الهجائية. ولقد وجدنا أنها قد اشتملت على أنصاف الصفات والأحوال وهذا عجب، فإذا رأينا أن الحروف منها مجهورة ومهموسة مثلاً فإننا نجد نصف المهموسة في هذه الحروف تماماً وهكذا بقية الصفات، ألا ترى أن المجهورة في الحروف كلها ١٨ وقد وجدناها نصفها وهو ٩ في هذه الحروف، ومعلوم أن الحروف كلها ٢٨، وهذه الحروف التي في أوائل السور ١٤، إذن هذه الأربعة عشرة قد أخذت قسطها تماماً من الحروف المجهورة، والحروف الشديدة ثمانية منها ٤ في فواتح السور وهكذا الرخوة والمطبقة. وبالجملة فهذه الحروف في أوائل السور وجدنا أنها أخذت النصف من كل قسم من أقسام صفات الحروف، وهذا أمر فوق طاقة البشر، فكيف يكون هذا التنصيف في أحوال كثيرة لو لم تكن هناك عناية خاصة، فهذا يعد معجزة فوق ما يتصوره العقلاء.

(٣) وهناك قوم ارتقوا عن هؤلاء فقالوا: إن هذه الحروف فيها أسرار فوق ما تقدم، فإننا نرى أن مفاصل اليدين فيهما ٢٨ مفصلاً، وكل يد فيها ١٤ مفصلاً، وهكذا أخذوا يذكرون تشريح الحيوان ويطبقون عليه مثل فقرات الظهر ونحوها، وهكذا ذكروا أن لغة العرب فيها ٢٨ حرفاً منها ١٤ تدغم في اللام و١٤ لا تدغم وهي المسماة الحروف القمرية والشمسية، وهي معروفة عند القراء، وهكذا منازل القمر ٢٨، منها ١٤ فوق الأفق و١٤ تحت الأفق إلى آخر ما سبق ذلك هنالك.

هذا نموذج الأنواع الثلاثة من الآراء التي تقدمت في أول سورة «آل عمران»، وهناك أقوام ذكروا حساب الجمل وأخذوا يستنتجون أموراً لا سبيل لذكرها الآن.

فلما كتبت هذا في أول سورة «آل عمران» فاجأني فكر لم يسعني كتمانه فكتبته، فإن ﴿الٓمٓ﴾ ذكرت في أول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[آل عمران: ٢٣] الخ، ومعلوم أن هذه الآيات جاءت لمسألة اليهود فهم اتكلوا على شفاعة آبائهم، وعلى أن الله لا يعذب أبناء يعقوب إلا تحلة القسم، وعلى أنهم لن تمسهم النار إلا أربعين يوماً، وعلى أن آباءهم يشفعون لهم، فأوعدهم الله عز وجل وسجل عليهم الخزي والعار والبوار، وقال فيهم: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[آل عمران: ٢٤]، ثم انتزع الملك منهم وأسلمه إلى الأمم الإسلامية، فكأن ﴿الٓمٓ﴾ في أول السورة مذكرة لنا الآن نحن المسلمين بألا نتكل إلا على الله، ونجد نحن بأنفسنا في العلم والعمل والرقي، وإلا وقعنا فيما وقع فيه اليهود، إذ ظنوا أن هذه الأماني تنفعهم بلا عمل وهم نائمون. ومعنى هذا كله أن ﴿الٓمٓ﴾ جاءت في أول السورة مذكرة بأمر اليهود وذهاب مجدهم المسبب عن التواني والكسل وعدم العمل. فالمسلمون إذا بقوا على ما هم عليه من الجهالة فليعلموا أن الله لا يبالي بالقوم الجاهلين النائمين. هذا ملخص ما تقدم هناك فاقرأه فإنه أوضح وأبين. ولما فكرت في سورة «البقرة» وجدت أنها كلها جهاد، لأن أولها محاجة مع اليهود وتقريع لهم وتوبيخ، وفيها الصلاة والصيام والحج وتحريم الخمر والميسر وأحكام الزواج والطلاق، وهكذا، فهذه السورة فيها أهم علوم الفقه الإسلامي وفيها آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾[البقرة: ٢٤٣]، وآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[البقرة: ٢٥٨] الخ.

ولا جرم أن الجهاد إما ببذل النفس، وإما ببذل المال، وإما بالعلم، وإما بالعبادات وهكذا، فالمذكور في حيز ﴿ الٓمٓ ﴾ جهاد الأعداء والجهاد بالعلم، فانظر هناك تجد مسألة العزير وحماره وكيف يقول الله له: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٥٩].

فلما رأيت ذلك هالني الأمر وعجبت وقلت: لقد تبين لي أن هذه الفواتح أشبه بالمفاتيح، فإذا أدير المفتاح في القفل فتح الباب، بدليل أننا نجد الآيات التي في حيز ﴿ الٓمٓ ﴾ هي التي نام عنها المسلمون في القرون المتأخرة، وكل هذه الآراء لم أكن لأفكر فيها، ولا لأجد أو أبحث، لأنها أمور ميئوس منها كما قدمت، ولكنها كانت تنقدح في نفسي ولا تفارقها، فلا عناية مني ولا سابقية طلب، ووجدت هذه المفاتيح تشير إلى العلوم التي نام عنها المسلمون، فالمسلمون اليوم يعوزهم الجد في معرفة التشريح وغيره كما في قصة العزير وإبراهيم، فاقرأه هناك، ويعوزهم أن يتركوا الاتكال على الشيوخ وعلى أنهم مسلمون ثم ينامون، وذلك في سورة «آل عمران»، ثم فتح الله بأكثر فواتح السور بعد ذلك فاقرأه في أول «هود» و«يونس» و«الرعد» و«إبراهيم» و«الحجر»، ولم يكن لي عند طبع سورة «مريم» علم بما تشير إليه حروف ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ وكان الفتوح بها في سورة أخرى فكتبتها فيها، ثم ترى الطاء والهاء في ﴿ طه ﴾ وما تشيران إليه من العلوم التي تحتاج إليها هذه الأمة المسكينة، وهكذا ﴿ طسٓمٓ ﴾ و﴿ طسٓ ﴾ فارجع إليها في «الشعراء» و«النمل» و«القصص»، فهناك ترى مثلاً الطاء والسين في «النمل» تشيران إلى الطائر وسليمان، وهناك ترى الطيور وأشكالها وعجائبها وما مناسبتها لهذا المقام، ثم تقرأ ﴿ الٓمٓ ﴾ في سورة «العنكبوت» فتراها تحرض على معرفة كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، فنظرنا في بدء الخلق فرأيناه مدهشاً لأنا وجدنا العناصر بينها نسب عجيبة في الجدول المرسوم فيما تقدم في السورة، وقد كشفه «مندلييف» الروسي، ولقد وضح هناك قريباً غاية الإيضاح فوقفنا على سر تقطع دونه الأعناق، وهانحن الآن في سورة «الروم» فوجدناها مبدوءة بنفس ﴿ الٓمٓ ﴾، فيا للعجب ﴿ الٓمٓ ﴾ و﴿ الٓرٰ ﴾ كرر كل منهما في سور، وعند البحث وجدنا المعاني تختلف باختلاف السور، فكل سورة فيها معان غير المعاني التي في السورة الأخرى، حتى إن الطاء والسين في «الشعراء» وفي «النمل» وفي «القصص» تختلف إشاراتها باختلاف السور، فاقرأها هناك، وهاهنا نجد آية: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾[الروم: ٨] الخ، وآية: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر: ٤٤]، وآية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾[الروم: ٣٧].

فحروف ﴿ الٓمٓ ﴾ تذكرنا بأن نبحث في حقائق المخلوقات وأسبابها ونتائجها ونظامها كالمبحث المذكور في تفسير البسملة آنفاً، فإنك تجد ألم الضرب وألم الجوع وألم المرض لم تخلق لإذلالنا، بل خلقت لمنفعتنا ورحمتنا، لأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، ولو كان خلق هذه العوالم لمجرد إيلام المخلوقات ولم تكن هذه الآلام موصلة إلى سعادات المتألمين لكان هذا العالم مخلوقاً بالباطل لا بالحق، لأن خلق الحيوان لقصد الإيلام لا تتوجه إليه العناية، ومن عجب أن يكون تفسير البسملة هنا قد كفانا مؤنة شرحه مرة أخرى، وذكرنا أيضاً بالتفكر في أحوال الإنسان من فقر وغنى، فهي دالة على حكمة الحكيم.

ومقصود هذا أن يكون للناس في أحوال أنفسهم عبرة كما لهم عبرة فيما حولهم، وستقرأ في سورة «لقمان» آية: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[الآية: ٢٠]، وآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ ﴾[لقمان: ٢٩] الخ، وآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴾[لقمان: ٣١]، وإشارة ﴿ الم ﴾ ترجع إلى التفكر في النعم من حيث وصولها إلينا وكثرتها وتخصيص طائفة منها بالذكر وهي الشمس والقمر والليل والنهار وتعاقبها ونظيرها الفلك في البحر، فهذه نعم عامة ذكرنا الله بها لندرسها وننتفع بها نفعاً جسمياً وعقلياً، لقوله في أول السورة: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان: ٢٠]، ولا جرم أن هذه هي العلوم المفقودة في بلاد الإسلام، وهاهي ذه اليوم تحيا حياة جديدة في نفس الزمان الذي ظهرت فيه معاني هذه الفواتح بل المفاتيح كما قدمنا سابقاً.

وأما ﴿الم﴾ في أول سورة «السجدة» فقد أشارت إلى علمين: علم التاريخ القديم، ودراسة الأمم التي ملك أرضها المسلمون، فإننا نجد أهل مصر والشام والعراق واليمن ونجد وشمال أفريقيا وأهل السودان المسلمين كل هؤلاء يجهلون الأمم التي سكنوا بلادها. فإننا في هذه الأيام لا نعرف في علوم قدماء المصريين إلا بتعليم الأوروبيين، ومعلوم أن «شامبليون» العالم الفرنسي هو الذي كشف حروف لغة قدماء المصريين، إذن أهل مصر بلادي لم يعرفوا تاريخ قدماء المصريين إلا من أهل أوروبا معرفة ضئيلة، ولكن الله يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾[السجدة: ٢٦]، فنحن نمشي في مساكن الفراعنة ونجهل علومهم إلا النزر اليسير، وهكذا أهل اليمن لا علم لهم بعلوم سبأ والتابعة والأمم التي سكنت تلك البلاد، وهكذا أهل الشام وأهل نجد وغيرهم، فكل هذه الأمم واجب عليها وجوباً كفائياً أن يدرسوا تاريخ الأمم التي كانت في بلادها لتنتفع بما جربت تلك الأمم ولتحترس مما وقع لها، وإلا فلماذا يعيش الناس على الأرض.

إن الجهل أكبر العار ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩]، فهذه الإشارة في سورة «السجدة» جاءت لأجل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾[السجدة: ٢٦] الخ، وهناك إشارة أخرى وهي الاعتبار بسوق الماء إلى الأرض الجرز، وهذا الاعتبار لا يتم الانتفاع به إلا بدراسة علم النبات وسائر علوم الطبيعة ومنها الماء، وهكذا علم الكيمياء العضوية لأنها تبحث عن العناصر التي دخلت في تركيب الأحياء النباتية والحيوانية.

هذا ما فتح الله به الليلة مساء ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٩ وأنا على شاطئ النيل بجوار مصر القديمة والحمد لله رب العالمين.

اعتراض على المؤلف وجوابه

لما اطلع على هذا أخي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير قال: هذه الفواتح في هذا التفسير قد ظهر بعض عجائبها، ولقد جاء اليوم ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولكن ما وقعت عيني على صفحة من صفحات هذا التفسير في أي جزء أو سورة إلا وجدت الكلام في العلوم والمعارف وحث المسلمين عليها، فهذا نوع من التكرار، حتى إن بعض الناس قال لي: إن هذا الكتاب كله ما هو إلا تكرار. فقلت: حياك الله إن هذا الاعتراض جعلته أنت سلماً لفهم الجهال فأما أنت فلا. قال: هذا

مقصدي. فقلت: إن الناس على قسمين: جهال وعلماء. فأما الجهال فإنهم لا يجدون لهذه الأقوال لذة ولا طعماً بل يأنفون أن يقرؤوها وذلك لأنها ليست من طباعهم ولا توافق أذواقهم، فإذا قرؤوا موضوعاً ثم اطلعوا على نظائره في الكتاب، قالوا: إن الكتاب مكرر.

(١) ولو كان الأمر كما زعموا لكان النخل والعنب والرمان والتين والبرتقال والتفاح والمشمش والبرقوق وأمثالها مخلوقة عبثاً وهكذا القمح والذرة والعدس والفول. وبالجملة إن الفواكه والحبوب والخضر أنواع كثيرة وكل نوع يستغني به قوم عن البقية فإذن البقية مكررة لا قيمة لها.

(٢) ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن كله مكرراً فإننا نجد فيه ٧٥٠ آية كلها في الكلام على خلق العوالم العلوية السفلية. فيقول الله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الآية: ١٦٤] الخ، وفي سورة «آل عمران» كذلك مع تنويع في التعبير، وهذه القصص القرآنية مكرر كثير منها، فلو كان الأمر كما قالوا لم يسحر القرآن عقول الأمم ولم يعجزهم ولم يكن هو المعجزة الحقيقية في العالمين.

(٣) ولو كان الأمر كما زعموا لكانت جميع الأمم شرقاً وغرباً هازئة في جرائدها ومجلاتها فإن الأمة المصرية الآن تطلب من إنكلترا استقلالاً وهاهم أولاء منذ نحو ٢٠ سنة يكتبون كل يوم في الجرائد المختلفة والمجلات التي تعد بالعشرات «الاحتلال. الجلاء. السودان. نحن والإنجليز. المعاهدة بيننا وبين الإنجليز» وهكذا، ويكتب الموضوع الواحد في عشرات الجرائد سنين وسنين، والناس يقرؤون ويفهمون، ولم يقل عاقل: إن هذا تكرار.

كلا ثم كلا، وإنّما هذه فكرة يمليها الجهل ويحقرها العلم لأن البلاغة تقتضي القدرة على إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة كالإطناب تارة والإيجاز أخرى والمساواة آونة، فاقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ٦-١٤].

فهاأنت ذا تراه تعالى ذكر قصة عاد وثمود وفرعون في آيات قليلة، وبموازنة هذا بما تقدم في سورة «القصص» تجد قصص موسى وفرعون جاء على سبيل الإطناب، أما هنا فجاء على سبيل الإيجاز، وكلاهما جميل فالإطناب للفهم والإيجاز للاعتبار والتذكرة، كأنه يقول: أنتم عرفتم هذه القصص فاعتبروا بها فإني فعلت بهم كذا وكذا، ثم قلت: واعلم أيها الأخ أن هذه الأساليب القرآنية لا يدركها إلا أولئك الذين درسوا علوم البلغاء وقرؤوا كلام العرب ومارسوا النظم والنثر.

وما الناس سوى قوم عرفوا ... وسواهم همج الهمج

غيره:

علي نحت القوافي من معادنها ... وما علي إذا لم تفهم البقر

ولا جرم أن الكلام يختصر ليحفظ ويطنب ليفهم، ولقد قالوا: إن الخطب يستعمل فيها الإطناب بحيث يكون الأسلوب مقبولاً محبوباً فيشوق السامعين. وانظر إلى قصص الأنبياء كيف ترى كل واحدة منها لم تخل من ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر. ذلك لتصل مقاصد الدين من طرق مختلفة

لترسخ في الأذهان، وكلما كانت الطرق أكثر عدداً كان ثبات المعنى في النفس أطول وأقوى وأرسخ. ويقرب من هذا الدعاية في الأمم ونشر التجارة أو السياسة فيها، فلا شيء من هذا يتم إلا بنشره وتكراره بطرق مختلفة حتى يظهر أثره.

وانظر إلى ذكر خلق السماوات والأرض فإنه مذكور في مواضع كثيرة جداً، وله في كل موضع مقام غير ما في الآخر. وانظر إلى فواتح السور والمعاني التي انكشف سرها اليوم على قدر طاقتنا وما تحتمله فطرنا من المعاني. أليس ذلك أسلوباً جديداً لترقية العلوم في الأمم الإسلامية.

علم الله عز وجل أن أمم الإسلام ستنام عن العلوم أجيالاً وأجيالاً، وتحقر علوم الجمال والكمال في السماء والأرض، وتنبذ العلماء القائلين بها كابن رشد والغزالي، أو تجلهم ولكنها لا تقرأ علومهم، فألهم أمم الغرب أن يحتلوا بلادهم تارة ويحاربوهم أخرى، وأظهر لهم في هذا التفسير هذا الأسلوب العجيب أسلوب فواتح السور المشير كله أو أكثره إلى علوم الكائنات وعلوم الأمم، فهذا أسلوب رمزي والرمز له شأن ليس للتصريح بالحقيقة، لأن الرمز مشوق للمرموز له. ومتى اطلع المسلمون على هذه المعاني التي ظهرت في هذه الفواتح لا يستقر لهم قرار ولا يصبرون على العار والجهل والذل المخيم في بقاع الإسلام، ويقولون: إن الله جعل هذه الرموز التي ظهرت لنا الآن مفتاحاً لعلوم الأمم فلنفتح بها ولندخل من بابها ولندرسها، ولم يبق بعد هذا للمسلمين من عذر إذا جهلوا ولا من سلوة إذا كسلوا. وإني أقول: إنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس.

وهذا الرمز مألوف عند الأمم قديماً كما قدمته لك في سورة آل «عمران» وقلت لك ما ملخصه: إن النصرانية لما انتشرت في مدينة الإسكندرية كانت باللغة اليونانية، وهي اللغة الرسمية، والسمكة في تلك اللغة اسمها «اكثيث»، وهذه الحروف رمز لخمس كلمات يونانية يتركب منها جملة «يسوع المسيح ابن الله المخلص».

اللفظ اليوناني	الترجمة بالعربية
اكثيث	سمكة
(١) ايسوس	يسوع
(٢) كريستوس	مسيح
(٣) ثيو	إله
(٤) يوث	ابن
(٥) ثوتير	مخلص

فكلمة «اكثيث» أي: سمكة، مركبة من خمسة أحرف يونانية، فحرفها الأول من كلمة «ايسوس» أي: يسوع، وحرفها الثاني «كريستوس» أي: المسيح، وحرفها الثالث هو الحرف الأول من كلمة «ثيو» أي: الله، وحرفها الرابع هو الحرف الأول من كلمة «يوث» أي: ابن، وحرفها الخامس هو الحرف الأول من كلمة «ثوتير» أي: المخلص، فكانت كلمة السمكة باليونانية تذكراً عندهم ليسوع المسيح ابن الله المخلص، وكان المسيحيون يحملون صور السمك الصغير المصنوع من الخشب والعظم للتعارف فيما بينهم خوفاً من الوثنيين الذين كانوا يضطهدونهم ويقتلونهم. انتهى ملخصاً من كتاب «الأدب والدين عند قدماء المصريين».

اللهم إنك أنت المنعم المعلم الملهم، اللهم إنك أنت ألهمت الأمم قبلنا أن يكون الرمز أسلوباً من أسلوب العلم، ورمزت بهذه الفواتح وألهمت أمثال ابن عباس رضي الله عنهما أن يجعل هذه الحروف رموزاً لأسماء الله تعالى، بحيث يكون كل حرف رمزاً لاسم، إذن الرمز مقبول عند الأمم قديماً وحديثاً. إذن ما جاء في هذا التفسير من بعض أسرار هذه الفواتح له نظائر في الأمم القديمة وأمم الإسلام.

اللهم لك الحمد على نعمة العلم وعلى نعمة التوفيق. فقال صاحبي: يا سبحان الله «إن من البيان لسحراً».

وإن هذا البيان قد سرني وعرفت أن من يظنون هذا تكراراً فإنهم قوم ليس لهم في هذه العلوم نصيب، فهم إما فقهاء جامدون أو نحويون وأدباء قاصرون، وهذا الكتاب إنّما يعقله أولو الألباب. وقيل:

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا واللحن يفهمه أولو الألباب

فقلت: الحمد لله الذي وفقني لتبيان هذا المقام وأقنعتك بما ذكرته فيه، والحمد لله رب العالمين. وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧

وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

اعلم أن فارساً غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى أو بالجزيرة وهي أدنى أي أقرب أرض الروم من الفرس فغلبوا عليهم، وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن عليكم، فنزلت. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا يقرن الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت اجعل بيننا الأجل إلى ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البعض: ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قفوله من أحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية في السنة السابعة من نزول الآية، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبيّ وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تصدق به، وقد استدل الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب، وأجاب غيرهم بأنه كان قبل تحريم القمار، ويقال: إن سبب غلب الروم فارس إذ ذاك أن « شهرمان » وهو القائد الفارسي كان قد أثخن في الروم قتلاً وإهلاكاً، وبينما أخوه « فرحان » يوماً يشرب إذ قال لأصحابه: رأيت كأني على سرير كسرى، فبلغ الخبر كسرى فكتب إلى « شهرمان » أن يقتل أخاه فأبى، وراجعه ثلاثاً فعزله وجعل الأمر لأخيه « فرحان » وأمره بقتل أخيه « شهرمان »، فلما قدمه للقتل قال له: اصبر، وأراه كتب كسرى إليه ومراجعته إياه، فتنازل عن الملك وأرجعه إلى أخيه « شهرمان »، وأرسل إذن « شهرمان » إلى ملك الروم فتقابلا سراً وحاربا معاً كسرى، فغلبت الروم في تلك البلاد وانكسرت فارس، ثم إن الروم كانت تملك ريف الشام فغزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم في السنة التاسعة من نزول الآية.

ملخص هذا التاريخ

إن الروم غلبتها فارس في أقرب الأرض إليها ثم غلبتها الروم بعد ذلك بعد سبع سنين، وأن الروم المالكة لتلك البلاد قد غلبها المسلمون بعد نزول الآية بتسع سنين، ولا جرم أن الأمرين معجزة ولا ينافي أحدهما الآخر، فإن الروم غلبوا الفرس وغلبهم المسلمون ولذلك قرئت الآية بوجهين.

التفسير اللفظي

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿الٓمٓ﴾ سيأتي أن ﴿الٓمٓ﴾ تشير إلى التحقق من علم الحكمة، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] فيها هذه الحروف مفرقة تارة ومجتمعة أخرى، انظر فيما سيأتي وفيما سبق آنفاً، ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ فعلى الأول يقرأ الفعل الأول بالبناء للمجهول والثاني للمعلوم وعلى الثاني بالعكس، ولا منافاة بين القراءتين والقرآن أنزل على سبعة أحرف، فهنا حرفان كل منهما لمعنى لا ينافي الآخر، ثم إن في ذكر الروم وعدم التعرض لفارس حكمة بالغة، وهي أن دولة الروم لا تزال قائمة للآن تناوئ الإسلام، فسمى الله هذه السورة باسمها ليكون تذكرة للمسلمين بأنهم لا يزالون يقاتلونكم ويذكرهم بأعمالهم، وهاهم أولاء الآن رجعوا إلى الشام كرة أخرى وإلى العراق التي هي أقرب الأرض إلى فارس، وعسى الله أن يخرجهم منها كما أخرجهم سابقاً، هذا ما تشير له الآية ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره، أو من قبل أن يغلب المسلمون الروم، ومن بعد أن يغلبوهم بأخذ بعض مدائنهم، لأن الله عز وجل يداول الأيام بين الناس ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: ويوم تغلب الروم الفرس أو يوم يغلب المسلمون الروم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ من له كتاب على من لا كتاب له، أو ينصر المسلمين على أهل الكتاب من الروم، ومن النصر ظهور المعجزة النبوية بتحقيق هذا الخبر وزيادة اليقين ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ نصره على مقتضى الحكمة والنواميس التي سنها الله في نظام الخليقة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ينتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين رحمة خاص وإن كانت رحمته تعم كل مخلوق ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي: وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس أو بظهور المسلمين على الروم ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله لا يخلف وعده، وإنما كان الناس لا يعلمون أن الله لا يخلف الميعاد، لأن ذلك من الأمور التي تحتاج إلى دقة نظر وبحث وعلم، وهذه بواطن الحياة الدنيا، إن الحياة الدنيا لها ظاهر كما يرى الناس من أن دولة تغلب دولة فينتصر الفارسي تارة والرومي أخرى والمسلمون آونة، وأن يأكل الناس ويلبسوا وما أشبه ذلك من الأمور الجزئية، أما القواعد العامة التي يسير عليها نظام العالم فإن الناس لا يعرفونه لأن حواسهم لا تدرك أمثال ذلك وإنما تدركه العقول والبصائر، ومن القواعد العامة أن الله لا يخلف وعده، ومنها أنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها وهكذا، أما القاعدة الأولى فهي ظاهرة جلية واضحة في أن النبات والحيوان كل منهما يخرج منه شيء إذا وضع وضعاً مخصوصاً خلق منه نظيره لا يخطئ البتة، فالورد والنخل والحنظل يخرج منها حب ونوى، متى وضعت في الأرض خرج منها نظير أصلها ولم يحصل خطأ في ذلك البتة، ولو

اختل هذا النظام لكان العالم الذي نحن فيه لا تطاق سكناه وأما القاعدة الثانية فهي داخلة في الأولى، لأنه لما خلق الحيوان في الأرض كان له رزق وإلا فلا معنى للخلق، فيجد الحيوان عند ظهوره في الأرض وخروجه من بيضته أو من الرحم لبناً معداً لغذائه أو أغذية مناسبة له، ثم يترقى بالتدريج في هذه الدنيا حالاً بعد حال ولم يخلف الله وعده مع حيوانه، فكما سلط عليه الجوع والعطش خلق له الطعام والماء، وإذا لم يكن في الأرض ماء في نهر أو بركة خلق له نبات يقوم مقامهما معاً، كما جاء في إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ ٥ مارس سنة ١٩٢٥م. الموافق ١٠ شعبان سنة ١٣٤٣هـ. تحت العنوان التالي:

بقر لا يشرب

في جزر «هاواي» قطعان عظيمة من البقر والثيران يصدر جانب كبير منها إلى الخارج أو يرسل لحمها مثلجاً إلى البلدان التي تستورد اللحم، غير أن هذه المواشي لم تعتد شرب الماء لعدم وجود أنهر أو برك في تلك الجزر، فهي تعيش على ما تأكل من الكلأ الأخضر وتعتاض عن الماء بأكل نبات الصبير وهو كثير السائلات شديد الرطوبة. اهـ.

هذه البهائم لما خلقت في تلك الجزيرة التي لا ماء فيها كان نفس خلقها على هذا النمط وعداً من الله لها بأنه يغذيها ويسقيها، ولما لم يخلق لها أنهراً هناك خلق لها شجر الصبير، وشجر الصبير يعيش على الندى وهو موجود في بلادنا المصرية، ولكن أكثر الناس يجهلون أنه هو الذي يستخرج منه الصبر المشهور في علم الطب، وهو مهمل عندنا يزرعونه على المقابر، ويكتفي في أكثر حياته بالندى والهواء، ولكن في تلك الجزيرة جعله الله قائماً مقام الأنهار والبرك وأرشد البقر إليه ليتم وعده الذي وعده، لأن غريزة الحيوان تطلب حياة والحياة تطلب قوتاً وماء، فأتم الوعد بذلك للبقر المذكور، ولعلك تقول: إن كل امرئ منا يود أن يبقى إلى الأبد، وإذا كان الله في وعده لبقر تلك الجزيرة فلماذا لم يوف وعده لذلك البقر ولنا أن نعيش إلى الأبد وأن تكون حياتنا دائمة؟ وهلا جعلها دائمة؟ أقول: هذا هو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، لأن الآخرة هي باطن الحياة الدنيا، فالناس يعرفون ما لديهم من أمور الحياة الدنيا أما أن نفوسهم لها بقاء بعد الموت وأنهم هناك لا يموتون؛ فهذا غائب عنهم مع أنه باطن الحياة الدنيا. فهذه الحياة لو لم تكن وراءها حياة أخرى لم تكن لها فائدة، بل عدمها خير من وجودها، وترى الناس عاكفين عليها وهم لا يحسون بالأخرى، لأنها لا تقع تحت حواسهم، ولذلك وبخهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: أولم يتفكروا في أمر أنفسهم فليعلموا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم، ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأدركوا أنها غير الجسم، وأن هذا الجسم سيزول وأنها باقية، وهكذا السماوات والأرض وجميع الأجسام إنما هي ظواهر تزول ويبقى باطنها وسرها، وهي العوالم المدبرة لها كما تدبر أجسامنا بأرواحنا، فكفر الناس بلقاء ربهم ناشئ من جهلهم أنفسهم، فإذا علموا أنفسهم وحقائقها أيقنوا بلقائه تعالى، والعلم إما بطريق تصفية النفس وإما بطريق الفلسفة وإما بطريق تحضير الأرواح، وقد مر في هذا التفسير كثير من ذلك، ومنه الذي ذكر في سورة «البقرة» عند ذكر حمار العزير وطير الخليل، ولكن لا بد أن أريك صورة من نفوسنا فيما يلي:

لطيفة: في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾

لقد مضى ذكر تحضير الأرواح في سورة « البقرة » كما قدمنا، وقد قلت لك هناك أن هذا العلم فيه الحق والباطل والصدق والكذب، وقلت: إن المسلمين مقصرون لأنهم أولى بهذا العلم، فلأدع هذا ولأذكر ما جاء في جرائدنا المصرية من علم الأرواح لتعجب من الحكمة والعلم وكيف تظهر الحقائق اليوم وتأتي الأرواح وتكلم الناس. وهذا ما جاء في جريدة السياسة يوم الأحد ٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ، و١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤م، تحت العنوان التالي:

علم الأرواح

مقدمة: لا يخفى على الإنسان أنه مكون من عنصرين: الجسد والروح، والأول فان والثاني باق، وقد اهتم العلماء بالروح وجدوا لكشف أسرارها واجتهدوا لمناجاتها في عالمها الثاني فلاقوا معاناة كثيرة في ذلك، ومنهم من نجح ومنهم من أخفق، ولكنهم توصلوا أخيراً إلى غرضهم، وإني لمورد شيئاً عن الأرواح وعلمها واكتشافها.

تاريخها

أول من اكتشف سر الأرواح هو الدكتور « هايسلوب » وقد قال في كتابه ما يأتي: إنه في سنة ١٨٤٨ كان يعيش في مدينة روكستر في إنجلترا رجل يسمى الدكتور « فوكس »، وكان له ستة أولاد أكبرهم ابنتان تسمى إحداهما « كيت » والثانية « مارجريت »، وفي صيف ذلك العام خرج هو وزوجه وأطفاله وترك في المنزل البنتين المذكورتين، ففي الساعة الثامنة مساء سمع هاتان البنتان صوت أوان تنكسر وأمتعة تنقلب فاستولى عليهما الذعر، وأخذت الكبرى مسدس والدها من تحت وسادة فراشه وأخذت في البحث عن مصدر هذا الصوت المزعج، فرأت في الدور الأعلى أواني المطبخ مكسرة وكذلك بعض الكراسي. ولكن أدهش الأختين أنهما وجدا بعض الأثاث ناقصاً، وفي الصباح وجدوه في الدور الأعلى، ولما كان مساء الغد زاد الصوت وتهشم بعض زجاج المنزل، فاضطرت هذه العائلة إلى مغادرة مسكنهم، وبعد بضعة أيام سمع « السير فوكس » أن هذا المنزل كان مقراً لعصبة لصوص وكثيراً ما قتل فيه رجال ونساء، ولكنه لم يدرك السر في حدوث هذه الأصوات.

عملية تحضيرها

من أكبر علماء هذا العلم « السير أوليفر لودج » الذي اخترع الطريقة التي بها تحضر أرواح الأموات. بينما كان جالساً في اسكوتلندة مع صديقين له حول مائدة خشبية وكان يتكلم في علم الأرواح ارتفعت إحدى أرجل المائدة فجأة فلم يهتموا بالأمر، ثم أخذت ترتفع وتعود إلى مكانها محدثة صوتاً كصوت آلة التلغراف، ففطن « السير أوليفر » إلى أن الأرواح هي السبب في رفعها، فأخذ يخاطبها بإشارة مخصوصة علمها لها وكانت ترد عليه بإجابات صحيحة. وفي سنة ١٨٥٠ اخترع طريقة أخرى لمحادثة الأرواح وهي عبارة عن صحيفة من الورق مكتوبة عليها الحروف الأبجدية على شكل نصف دائرة وتحتها أعداد من واحد إلى عشرة وفوقها مثلث خشبي محمول على ثلاثة أرجل « مائدة صغيرة »، وأخذ يعلم الأرواح طريقة استعمال اختراعه هذا، فنجح نجاحاً باهراً مع العلم بأن المائدتين الكبيرة والصغيرة خاليتان من المسامير.

تحضيرها في فرنسا

يوجد الآن في فرنسا في مدينة ليون امرأة عجوز اشتهرت في جميع أنحاء البلاد بتحضير الأرواح والتكلم معها، وكثيراً ما كتبت الجرائد الفرنسية وسردت بعض حقائقها، وإليك واحدة منها:

في يوم ١٤ يوليه «عيد الجمهورية الفرنسية» سنة ١٩١٦ أتى لزيارتها جم غفير من وجهاء القوم من مدينتي «ليل» و«باريس»، واحتفت بهم احتفاء عظيماً وقدمت لهم فواكه فصل الشتاء فسألها بعضهم: من أين الفاكهة؟ فأجابته: من جنوب أفريقيا. فقال: لا يمكنني تصديق ذلك لأن طول المسافة كاف لإتلافها. فقالت: إني أحضرتها في مدة ثانية أو أقل. فقال: هذا محال. عند ذلك قامت ودعت ضيوفها إلى غرفة ذات نافذة واحدة خالية من الأثاث سوى بعض كراسي خشبية في أركانها وأحضرت روحاً من الأرواح، وطلبت منها إحضار فاكهة من جنوب إفريقيا كالتي أحضرتها في الصباح، وكان الحاضرون فقط يسمعون صوت العجوز ولا يسمعون الرد عليه، ففي الحال وجدوا أمامهم على المائدة فاكهة على أغصانها، ولكي يصدقوا أنهم ليسوا في حلم قدمت لهم بعضها وأكلوا منها فخرجوا معجبين بمهارة العجوز دهشين مما رأوه. وأسرد أيضاً بمناسبة ذكرها ما يأتي:

إنه في سنة ١٩١١ زارها أحد وزرائنا السابقين هو وقريب له، فطلب منها تحضير روح قريب له مات منذ زمن ليس ببعيد، وكان يقصد في الحقيقة تحضير روح النبي صلى الله عليه وسلم، فبدأت عملية التحضير إلا أنها وجدت صعوبة كبيرة وعجزت أخيراً عن إحضارها بعد زمن يزيد عن نصف ساعة، وقالت لمعاليه: إن الروح التي تطلبها ليست بروح رجل عادي بل هي روح علوية قد يتعذر على أعظم عالم روحاني تحضيرها، فلتطلب روحاً أخرى فلعلي أحضرها لك. ولما كان هذا الوزير وللأسف يشك في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صمم على إحضارها، فحاولت ثانية وثالثة أخيراً وقالت: يغلب على ظني أن الروح التي تطلبها عالية جداً فلا يمكنني أبداً إحضارها وفي الغالب أنها روح رجل مقرب من الله جداً أو نبي أرسل في جزيرة العرب فاطلب غيرها. فتبسم وأخبرها بالحقيقة وطلب إحضار روح والده، ومن تاريخ تلك الحادثة آمن ذلك الوزير وحسن إيمانه.

تحضيرها في أمريكا

نشرت جريدة الأهرام في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٣ قصة وسيطة تعيش في نيويورك وقد تناقلتها أيضاً التلغرافات اللاسلكية في أنحاء المعمورة، فقالت ما نصه:

اشتهرت «مسز تومسون» في أمريكا كلها بأنها وسيطة لمناجاة الأرواح، وقد أقبل عليها الناس من كل فج وصوب فرأوا منها العجائب، وآخر ما جرى لها وتناقلته الأسلاك البرقية أنها وعدت «المستر جلاجر» بأن تظهر له روح والدته، فحضر في اليوم الذي عينته له ومعه ثلاثون من أصدقائه رجالاً ونساءً، وكان أول ما فعلوه أنهم فتشوا الوسيطة تفتيشاً دقيقاً وكلفوها بأن تنزع ثيابها وترتدي رداء بسيطاً لا جيب فيه، ولما تحققوا أنها فعلت ذلك ساروا إلى الغرفة المعدة لمناجاة الأرواح، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى ظهر أمامهم شبح وسار تواً إلى «المستر جلاجر» الذي استولى عليه الرعب ولم يعد يقوى على دفعه عنه، ودارت حينئذ معركة شديدة بين الشبح و«المستر جلاجر» فخاف الحاضرون العاقبة فأناروا المصابيح الكهربائية، وما كان أشد دهشتهم لما رأوا في فم «المستر جلاجر»

قطعة من قماش أحمر تنبعث عنها رائحة طيبة، أما الوسيطة فقد جعلت تصبح بملء فيها ثم أسرعت إلى ترك الغرفة.

تبين لنا من هذه القصة مقدرة الأرواح وعدم استحالة رؤيتها، ولا تعجب أيها القارئ من رؤية الأرواح بالنظر المجرد مع أنها ليست بمادة بل هي خلقة من نور كما وصفها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم. ولكن لكي تظهر الروح لك قدرتها تتخذ شكلها الأول الذي يعلق بمخيلة الطالب حضورها، وذلك لتثبيت وجودها وحضورها أمام المحضر والمتفرجين، وقد حدث ويحدث مراراً وقوع مثل هذه الحادثة.

وقد وقعت في مدينة «بارمن» الحادثة الآتية: إنه في سنة ١٨٩٥ حدث في تلك المدينة أن رجلاً من أثرياء القوم يدعى المسيو «فكتور كاشارل» كانت له ابنة جميلة توفيت فجأة يوم قرانها، وبعد وفاتها بثلاثة أيام سمع والدها دقاً على الباب الخارجي لغرفة الاستقبال، ففتح فإذا بطفلة صغيرة تحمل خطاباً له رائحة جميلة، فتناوله منها وانصرفت فدخل غرفة مكتبه وفض الظرف وقرأ الكتاب، وما كان أشد تعجبه لما وجد الخط خط ابنته المتوفاة وإمضاءها، والكتاب يحتوي على تحياتها القلبية له ولأمها وتوصيتها لهما بالصبر والسلوان ووصف حالتها بعد موتها والنعيم الحال بها، وقد ذهب المسيو «شارل» في اليوم الثاني إلى المجمع العلمي الفرنسي وعرض على أعضائه الكتاب وسرد لهم الحكاية، فقال البعض: إنه مجنون، والبعض الآخر داخله الريب والشك في صدق هذه الرواية. أما الآن وقد تعددت مثل هذه القصة فلا يعد وقوعها، وستظهر في القريب العاجل أشياء تختص بهذا العلم مما يدهش العقول ويحير الألباب. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة.

هذا أقل من كل مما جاء في العصر الحاضر من علم الأرواح الذي امتلأت به الدنيا، إلا بلاد الإسلام فإنها هي وحدها الغافلة النائمة الساهية. وإن أردت المزيد فاقرأ «كتاب الأرواح» تأليفي فهو يوضح هذا العلم إيضاحاً تاماً ويبين ما في هذا المقام من النقص.

فهذا العلم نوع من التفكر في الأنفس بل هو أهم فكر فيها، ومتى عرف الناس ذلك وأيقنوا بأن لهم حياة بعد الموت عرفوا سر هذا الوجود وعلموا أن هذه العوالم مخلوقة لمقاصد سامية ونهايات شريفة وحكمة حقة، وأن الأرواح بعد هذه الدار تكون على ما كانت عليه في هذه الدنيا شرفاً وضعة وعلماً وجهلاً وصدقاً وكذباً، فيكون الجزاء على مقتضى سابق العمل، فإن لم يفقهوا هذه الحقائق أفلا ينظرون آثار الأمم التي قبلهم كيف هلكوا لما كذبوا رسلهم، فليعتبروا بما يرون من عواقب الأمم المكذبة فإننا أهلكناهم لما كذبوا.

فها هنا دليلان: دليل تعرفه العقول بالتفكر في النفس، ودليل أقرب منه وهو التفكر في عواقب الأمم المكذبة، فهذا لا يحتاج إلى علم النفس ولا إلى تحضير الأرواح ولا إلى الفلسفة، وإنما يعوزه النظر في عواقب الأمم المكذبين، فمن عجز عن الأول فكيف يعجز عن الثاني ودلائله مشاهدة في خرائب الأمم الهالكة يراه الأحياء وهم غافلون، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إذا عجزوا عن السير في علم النفس ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هذا تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم القاهرة الغالبة.

ثم وصفهم فقال: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ وحرثوها ﴿ وَعَمَرُوهَآ ﴾ أي: المدمرون عمارة ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي: أكثر من عمارة عمرها أهل مكة ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات الواضحات فلم يؤمنوا وأهلكوا ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إذ عملوا ما أدى إلى تدميرهم في الدنيا ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ﴾ أعمالهم في الدنيا الخصلة ﴿ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ أي: العاقبة التي هي أسوأ العواقب في الآخرة، هي النار التي أعدت للكافرين، والمعنى ثم كان عاقبتهم إلى آخره، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل ولم يجلب للإنسان شيء آخر من خارج نفسه وإلا كان ظلماً، فهؤلاء عاقبتهم الخصلة السوأى ﴿ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

فملخص ما تقدم برهانان: برهان علم النفس ومنه تحضير الأرواح. وبرهان النظر في آثار الأمم ونتيجة البراهين قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي: ينشئهم ثم يحييهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء والعدل. ولقد تقدم في سورة «العنكبوت» عجائب خلق العوالم في قوله: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي ليستدلوا بالنشأة الأولى على الآخرة، وقد سار الناس في الأرض وقرؤوا العلوم وفهموها واطلعوا على علم الأرواح وفهموا منه بصيصاً من عالم الآخرة، فاقتران النشأة الآخرة بالنشأة الأولى لتلاحقهما واتصال كل منهما بالأخرى، وقد علم الناس في الدنيا أن الوعد لا يخلف كما تقدم. فمواعيد الأيام والشهور والسنين والخسوف والكسوف صارت مفهومة عند علماء الفلك بحيث يمكن الإنسان أن يعرف أول السنة وأول الشهر وموعد كسوف الشمس وخسوف القمر بعد مئات الملايين من السنين، وهكذا عرف الناس كما أوضحناه في سورة «العنكبوت» كيف نظمت العناصر ورتبت في جداول بحسب ذراتها، وكان بين كل عنصر وما فوقه وما تحته وما وراءه وما أمامه نسب هندسية ونسب عددية كالنسب التي في علم الشعر وفي علم الموسيقى، وصفات مشتركة مع الصف الرأسي وأخرى مع الصف الأفقي كما أريتكه في الجدول هناك، بحيث يعرف علماء الكيمياء العنصر المفقود قبل وجوده، ويعرفون مكانه من الجدول المذكور. إنه لا فرق بين الأزمنة المستقبلة وبين الأمور المفقودة في أن كلاً يعرف قبل وجوده وذلك لحسن النظام والإبداع. وإذا كان هذا العالم بهذا الإتقان والنسق فهو منظم له نتائج صادقة معلومة قبل حصولها، ومن النتائج رجوعنا بعد موتنا على حسب المقدمات في هذه الحياة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ييئسون ويتحيرون، كما تقول: ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ أي: ممن أشركوهم بالله شافعين يجيرونهم من عذاب الله ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم أو كانوا في الدنيا كافرين بسببهم. واعلم أنه قد كتب في المصحف شفعواء وعلمواء بني إسرائيل بالواو والسوأى بالألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها. ثم فصل حال الطائفتين المؤمنين والكافرين فقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي: المؤمنون والكافرون ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي: في أرض ذات أزهار

وأنهار يسرّون سروراً تهللت له وجوههم وينعمون ويكرمون بالتحف ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم.

واعلم أن ملخص ما تقدم أن الأمم يغلب بعضها بعضاً ولكل وقت محدود على نظام القانون العام وهو أن لا يخلف الميعاد، ومن القانون العام المذكور أن الحياة الآخرة تعقب الحياة الدنيا.

ثم أعقبه بدليلين: دليل الأنفس والبحث فيها، ودليل التأمل في أحوال الأمم. وهاهنا رجع إلى مسألة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ٩] فذكر ذلك في ثلاثة مواضع: تعاقب الليل والنهار وأنه لا يخلف الوعد في ذلك، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، وأن الأرض تحيا بالنبات بعد موتها باليبس والقحط. وهذه الأدلة الثلاثة ترجع لعدم الإخلاف في وعد الله. فكما يستدل الناس بأنفسهم وبآثار الأمم على الآخرة يستدلون عليها بعدم إخلاف الميعاد، وذلك بهذه الأمور الثلاثة الآتية، وقد قدمت لك في سورة «الأنعام» أن هذا الدليل هو الذي ذكره سقراط لتلاميذه عند الموت، إذ استدل على الآخرة أن الضد يعقبه ضده، فالمرض والجهل والفقر والذل يعقبها الصحة والعلم والغنى والعز، فهكذا يكون بعد الموت حياة، فذكرها الله سبحانه هنا في مقام إبانة الطريق الموصلة إلى النجاة في الآخرة بالعبادة في الأوقات الآتية مع الفكر في تلك الأوقات وتعاقبها، فهاهنا ضرب الطيرين بحجر، فالآية فيها التسبيح والصلاة ومع ذلك يفكر المؤمن في تعاقب هذه الأشياء، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أي: فسبحوا الله، والتسبيح تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في الصلاة وغيرها.

وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس قائلاً: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين وقال: جمعت الصلوات الخمس ومواقيتها. قال العلماء: وذلك أن قوله: ﴿ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب والعشاء، وقوله: ﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، وهذه الأوقات تتبدل فيها أحوال النور، فمن عدمه بالظلمة وقت المغرب والعشاء إلى ظهوره بالفجر إلى نهاية إشراقه وقت الظهر إلى قرب اضمحلاله وقت العصر، ليكون الإنسان متذكراً ربه في كل ظاهرة من ظواهر الحركات الفلكية ليرى عدم اختلاف الميعاد فيستدل على الآخرة، وإنّما جعلت الركعات سبعة عشر ليكون لكل ساعة من ساعات الليل والنهار ركعة، فكأنه يسبح الله في كل ساعة، وبقيت سبع ساعات وهي متوسط ما ينامه الإنسان كل ٢٤ ساعة، وإنّما قرنت الصلاة بأحوال الأنوار الشمسية لأن هذه الأنوار مبدأ كل حياة على الأرض. فالرياح تهب بحرارتها والبخار يثور بإثارتها من البحار والسحاب تساق في الجو بهذين العملين الناجمين من الحرارة والنبات والحيوان والإنسان كلها نواتج ذلك. والألوان التي يفرح بها الناس ويميزونها بنفس الضوء فلا فلك تجري في البحر ولا سحاب في البر ولا حب نأكله ولا فاكهة نتفكه بها ولا ثوب نلبسه ولا حرير نتزين به إلا وحرارة الشمس كانت سببه، ولا هداية لطريق إلا بضوء الشمس، ولا نظام للطرق في البحار وفي البر إلا بملاحظة الكواكب المحيطة بكرتنا، إن عبادة أمتنا الإسلامية عبادة نتائجها الفلسفة نتائجها الحكمة.

فانظر كيف استبان في السورة المتقدمة أن ملخص الأدعية الحث على جميع العلوم، وانظر كيف كانت أوقات الصلوات مفتاحاً لأصولها ومبدأ لأوائلها ونبراساً لطرفها ومهيعاً لعجائبها، تلك

وحدة ثابتة . الشمس واحدة والحرارة والنور منها انبعثا ومنها تشعبت أنواع الحيوان والنبات مع نظام العناصر السابق بحيث دارت الأفلاك وأرسلت الأشعة إلى هذه العناصر، وما أشبه الحرارة والنور بالنفس الإنسانية والعقل الإنساني . فلنا نفوس بها نشتهي وبها نحس وبها نتحرك . فالنفس مبدأ الحس والحركة، ولنا عقول بها ندرك الكليات، هكذا للشمس حرارة بها هذه الحركات، وبها ضوء به يهتدي الناس في الطرقات ويعرفون الصور والأشكال، ولذلك تسمع قول الفلاسفة « النفس والعقل »، فقالوا : إن العالم المدبر لنا فيه نفوس وعقول، فالعقول مدبرة والنفوس محركة أشبه بما رأينا في الشمس وفي نفوسنا . فما أجمل الحكمة وما أبدع العلم ! وذلك بلسان الشريعة الملائكة وهم درجات بعضها فوق بعض . ومنهم الأرضيون والسماويون . وقد ذكر بعض هذا في سورة « البقرة » وهذا كله مستفاد من هذه الآية ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ أي : تدخلون في الظهيرة . وقوله : ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾، وأما قوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهي جملة اعتراضية . ومعناه يحمده أهل السماوات والأرض، ولقد علمت أن أمتنا الإسلامية هي التي اختص نبيها صلى الله عليه وسلم بأن له مقام الحمد وأنه رافع لواء الحمد وقد أمر بالحمد وبشر بأن أمته ستعرف آيات الله كما تقدم في سورة « النمل »، ولا معنى للحمد إلا بعد معرفة المحمود عليه، فتكون نتيجة ذلك أن أمة الإسلام سيريها الله آياته فتعرفها والآيات هي سائر العلوم . انظر كيف جعل الصلوات تبع الإضاءة والإظلام، وكان يمكن أن تكون تلك الأوقات مطلقة يصلي الإنسان كما يشاء، فلما قيدها علم أن الضوء والظلمة لهما مزية، وما مزيتهما إلا أنهما مبادئ الحوادث ومبادئ العلوم وبهما يعرف أنهما تابعان للشمس وحركتها، فيعرف وحدانية الله وحسن نظامه في خلقه، ويعرف أيضاً أنه لا يخلف الميعاد لا في الأنوار والظلمات ولا في نسق العناصر المتقدمة في الجدول المذكور في سورة « العنكبوت » ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] فلا تفاوت بين حوادث الأنوار والظلمات من حيث تناسبها وصدق موعدها، ولا في نظام العناصر من حيث وضعها المنتظم الذي اخترعه « مندلييف الروسي » وإن كان لم يزل نظامه غير تام لقصور الناس عن الإحاطة به، ومع ذلك أمكن أن يعرف ما غاب من العناصر بما حضر منها كما تقدم، وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كالإنسان من النطفة ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ كالنطفة والبيضة ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ يبسها وهذا يدل كما تقدم عن سقراط دلالة إقناعية على الحياة الأخرى، ولذلك قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم على قاعدة أن الضد يتبع ضده . ولما ذكر سبحانه أنه يحيي الأرض بالنبات ويحيي الناس والحيوان، وأن الضد يعقب ضده ناسب أن يشرح أحوال الإنسان الأربعة، وهي حال نشوئه وتنوعه إلى ذكور وإناث بينهما محبة ووئام وإلى أمم مختلفة اللغات والأحوال كلها من لون وغيره، وإلى تنوع أحوال الأرواح مع الأجسام من حيث اليقظة والنوم .

ثم أتبعه بذكر ما يحيط به وهما حالان : الأول : أحوال الجو من مطر وبرد وثلج وصحو وحر وبرد، وأشار لها بالبرق وإنزال المطر . الثاني : أحوال العالم كله فإنه كجسم واحد منظم يخدم بعضه بعضاً . يفهم ذلك من نظر إلى أحوال الجو وأحوال الأنفس في نشوئها وتناسلها ونومها ويقظتها

واختلاف لغاتها وألوانها . فالخمسة التي قبل السادس لمعرفته سبحانه وتعالى ، ثم أعقبه بالسابع وهو أن من في السماوات والأرض منقادون له ، لأن هذا الانقياد لا يفهم إلا بفهم المباحث السابقة عند التحقق منها ، وهذا قوله تعالى :

(١) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ في أصل الإنشاء ، أو في هذه الحال بتغذيتكم من النبات ، والنبات يتغذى من التراب والهواء والماء ، وأكثر المواد المركبة فيكم مخلوط مركب من التراب والماء وعناصر أخرى ، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ تنبسطون في الأرض ، أي : ثم فاجأكم وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض .

(٢) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ لأن النساء خلقن من جنس الرجال ، أي : من شكل أنفسكم وجنسها ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ يقال : سكن إليه ، إذا مال إليه ، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ أي : جعل بينكم التواد بسبب الزواج فيحصل الإلف بين الزوجين ويكون الشبق في حال القوة مدعاة لميل كل منهما إلى الآخر سواءٌ كان ذلك وقت إرادة النسل أو في غيره لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام . ولما كان الشباب يتوارى تدريجاً والجمال يتبعه تحقيقاً كان كلما ولى الشباب توارى معه الجمال . فلا يزال الشباب في إدبار والجمال في تغير حتى تجيء الشيخوخة ، وقد نفدت القوة في الرجال والجمال في النساء واستبدل الضعف وتجعد الوجه بهما . أقول : لما كان ذلك قانوناً مسنوناً خلق الله منهما الذرية ذكوراً وإناثاً ليحصل بينهما التفاهم والتحاب والمودة للأمر الأشرف وهو التربية والمحافظة على الذرية ، وحينئذ تظهر أنوار الرحمة التي كانت متوارية وراء ظلمة الشبق والشهوة ، فلا تزال الرحمة تظهر والشهوة تختفي حتى تظهر شمس الحقيقة الواضحة وهي الرحمة الخالصة بين الزوجين بعد زوال ذلك الظلام الحالك الذي غشى عليهما . وإيضاحه أن محبة الزوج لزوجته أولاً تكون لمجرد الشهوة ، ألا ترى أنهما يقتتلان إذا لم يصيباها ، ويتخاصمان ويفترقان فإذا وجدها مريضة أو قبيحة أو رأته هو كذلك حصل النفور بدل المودة ، فأما إذا كبرا لا سيما إذا كان لهما ذرية فإنه يحبها وتحبه ولو كان بهما مرض ، وقد تحقق كل منهما أن صاحبه لا جمال فيه ولا قوة ، فهذا هو الحكمة في التعبير بالرحمة بعد المودة . إن هذه الحياة جعلت لتمريننا على الأخلاق العالية . ومن أحسن الطرق أن يحس الرجل بحاجة إلى المرأة تمسه هو وتقضي وطره ، فليس في أكثر الناس من يتزوج امرأة إلا لقضاء وطره ، وقليل منهم من يكون أول مقاصده الولد أو المساعدة المنزلية ، فالشهوات إذن كالحب يوضع للطير فيصاد به ، هكذا هذه الشهوات توضع للذكور والإناث ليجتمعوا فتكون الذرية والنظام المنزلي ، فالنتيجة الحقيقية هي الذرية ، وبهذه الذرية يتعلمون علم الرحمة والشفقة فلا يكون لهما مقصد إلا ترقية هؤلاء الذكور وهؤلاء الإناث ، وهذا ليس فيه شيء يرجع إلى نظام أجسامهما كما لم يكن للحيوان منفعة من ذريته . إن نظام هذا العالم راجع في نهايته إلى أن نتعلم علم الرحمة ، أي : أن تكون نتائج أعمالنا المنفعة العامة ، وأول المنفعة العامة تربية الذرية . ولقد أودع في عقول الآباء أن أبناءهم ينفعونهم في كبرهم . وهذا أثر من آثار الضعف الإنساني . فنحن ملزمون أن نربي الأبناء سواء أكانوا ذخراً لنا في الكبر أم لا . والسائق الذي جعل في نفوسنا هي الرحمة بهذه الذرية ، وضعها الله في الآباء

لتسوقهم إلى تربية أبنائهم، وهذه مزية شريفة وضعها الله في الأرض، فقد تدرج الإنسان من طفل يكفله أبواه إلى قوام على امرأة لمجرد شهواته، لأنه ليس أهلاً أن يتصف بأن يكون قواماً على غيره، لأنه لا يزال حديث عهد بالحضانة والتربية، فمال إلى من يقضي معه شهوته النفسية ثم ارتقى إلى تربية غيره وكفالته بلا أجر، إلا ما تخيله في نفسه من أن الولد ذكر له أو يقوم بما يحتاج إليه في الكبر.

إن دراسة هذه النظم مرقية لنوع الإنسان، فليدرس المسلمون نظام الله في أرضه، فهم مخلوقون في عالم كله جمال ونظام وحكمة، فإن لم يفكروا فلا آخرة ولا دنيا. ولذلك ترى أن الأنبياء والحكماء الذين جاؤوا إلى هذه الأرض لإصلاح أهلها قليلون جداً، وإنما قلوا لأن هذه الأرض من العوالم المتأخرة فلا تأتي إليها إلا أرواح جاهلية غبية لا تعرف إلا أنفسها، وقد غفلت عن نظام العالم العام. فهذه الأرواح الأرضية لما وردت هذا العالم جرت على طباعها، وأخذ الله يعلمها الرحمة العامة والمحبة الكلية، تارة بنفس النظام الذي يعيشون فيه بأن يظهر للإنسان أنه لا سعادة له بدون أمته وأن أمته لا سعادة لها إلا بالأمم، ولا سعادة للأمم إلا بالعوالم كلها التي نراها والتي لا نراها، وتارة بكلام الأنبياء والحكماء وطلبهم محبة الجميع والإحسان للجميع والتوجه لله الذي هو فوق الجميع ليكون نظره إلى سائر الناس والحيوان نظر حكمة ورحمة عامة. فعلى هذا يكون الأنبياء والحكماء أشرف هذا النوع الإنساني لأنهم عاشوا فيه لإسعاد الجميع واكتفوا من الدنيا بما هو ضروري، فهؤلاء يرون في أنفسهم عطفاً على جميع النوع الإنساني وعلى الحيوان، كما يرى الأب والأم حباً لأبنائهما، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب: ٦]، فالأنبياء آباء والأمم أبناء. هذا هو إيضاح معنى الرحمة في قوله: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١]، فكن أيها الذكي أباً علمياً ولا تقف عند الأبوة الجسمية. كن تابعاً للأنبياء والحكماء ولا تقف عند الدرجة الدنيا.

واعلم أن أمة الإسلام يعوزها مرشدون، وأنت لم تقرأ هذا التفسير إلا لما في نفسك من حكمة وعلم وشرف، وإلا لصددت عنه وكرهته لأن الإنسان لا يعشق إلا ما كان من طباعه، وإذا كان ذلك كذلك فإني أسألك بالله الذي أبدع هذا النظام وسواك وعلمك أن تكون رحمة لهذه الأمة المسكينة الأمة الإسلامية التي تألبت عليها أمم أوروبا، وأن تهديها وأن ترشدها، فإن مثل هذا التفسير لا يقرؤه إلا أكابرها، وهؤلاء الأكابر يحرم عليهم أن يناموا، فشمر عن ساعد الجد وانشر الحكمة بينهم على قدر عقولهم، فخذ نبذاً من هذا التفسير أو من غيره أو مما تعرف أنت وانشرها بينهم وحببهم في العلم والصناعات، ولتعلم أني قابلت العلماء من سائر أقطار الإسلام فألفيتهم جميعاً يبكون على هذه الأمة، فإن القائمين بأمر الدين منعوها العلم، وجميع الأمم حولها يقرؤون بعض نظام الله في الأرض وفي السماء.

إن أعداء هذه الأمة ومرشديها قد اتفقوا على إذلالها، فأعداؤها بالحرب ومرشدوها بصد الناس عن العلوم. واعلم أن الله أذن للإسلام بالارتقاء والسعادة، ومن بوادر ذلك نشر هذا التفسير، وأنا بذلك موقن، وسيكون في هذه الأمة حكماء وعلماء وعارفون.

ولتعلم أن الله لم يرسل إلى هذه الأرض من الأرواح العالية إلا قليلاً ليوقظوها، لا يريدون جزاء ولا شكوراً، كما أن الشمس ترسل أشعتها بلا جزاء من الأرض لها، هكذا الأنبياء والصديقون

قليل، وإنّما قلل الله منهم لأنهم يخلقون في الأرض فينصبوا ويتعبوا، لأن نظامها مبني على الشهوات وهم أقرب إلى البراءة منها، فلذلك يكونون في ألم وتعب مدة حياتهم ليؤدوا الأمانة التي حملوها قبل مغادرتهم عالم الأرواح وهم في عالم الذر، وليس يفهم هذا إلا بأحد أمرين: إما بصفاء النفس، وإما بقراءة علم الأرواح ودراسته دراسة تامة.

(٣) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ لغاتكم وأجناس نطقكم وأشكاله ﴿ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ كالسواد في السودان والصفرة في الصين واليابان والبياض في أوروبا وأكثر بلاد الشرق واللون النحاسي كأهل أمريكا الأصليين وذلك في العموم، والحقيقة التي لا مرية فيها أنه لا رجل ولا امرأة في الشرق والغرب يشبه لونه لون الآخر ولا نطقه نطق الآخر، فترى اللغة واحدة واللون واحداً كالعربية والبياض، ولكن لا ترى وجهين يتحدان بياضاً، ولا لسانين يتحدان منطقاً. هكذا سمة الوجوه وشكل الأعضاء كلها كما سيأتي إيضاحه.

(٤) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ جمع عالم ـ بكسر اللام ـ ولقد نبغ العلماء في فن علم اللغات ومعرفة الحيوان وأصناف الإنسان، ولن يدرك عجائب ذلك ونتائجه حق إدراكه ومعرفته إلا العلماء به وبالاستنتاج منه، بحيث يذوقون جمال هذه النظم وتتأثر به نفوسهم، فيرون وراء هذا الجمال والنظام والإبداع إشراقاً به أبدعت هذه العجائب، ويرون مادة واحدة أصلها الأثير تنوعت بحركات، فكانت هذه المواليد، ثم اختص كل مخلوق بصفات بحيث يمتاز عن سواه ثم يدهشون، إذ يرون هذا التمايز والتغاير الجزئي جعل لأجل أن تميز الأفراد بعضها من بعض، فالاختلاف إنّما جاء لهدايتنا للمعرفة وفصل الأشياء بعضها من بعض، فالنتيجة من ذلك هداية عقولنا لمعرفة الأشياء وكذلك الحيوان.

(٥) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ في النهار بمزاولة أسباب المعاش غالباً فيهما ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تفهم واستبصار.

(٦) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي: إراءتكم البرق، كما يقولون: تسمع بالمعيدي، أي: سماعك خوفاً من الصاعقة وطمعاً في الغيث، أي: حال كونكم خائفين طامعين ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ مطراً ﴿ فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتفكرون بعقولهم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي: تثبت بلا عمد بإقامته وتدبيره وحكمته، لأن عوالمنا التي نسكنها ليست في مكان واحد، بل هي تجري في الفضاء فالأرض جارية والسحاب يجري حولها والهواء تبع لها والشجر دائماً حولها، وهي والقمر والسيارات التي تماثلها يجرين حول الشمس، والشمس ولواحقها تجري حول كوكب آخر يظن أنه هو نجم في الجاثي على ركبتيه، وهو وأمثاله يجرين حول كواكب أخرى وهكذا إلى حيث تنقطع الفكر ونحن على الأرض لا ندري إلا هذه الآثار العلمية الضئيلة، فإمساك هذه العوالم وإقامتها وتدبيرها وإحكامها من الآيات الدالة على إله دبرها، ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ أَن تَقُومَ ﴾[الروم: ٢٥]، أي: ومن آياته قيام السماوات والأرض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة فيقول: أيها الموتى اخرجوا وذلك كقوله تعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة: ١١٧].

(٧) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عنه .

ولما كانت هذه العلوم السبعة توضح ﴿ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ﴾[العنكبوت : ١٩] وهكذا يعيده وجيء بها كالإيضاح أو الاستدلال على قوله تعالى قبلها بقليل : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[الروم: ١١] الخ ، أتبعها بما هو كالنتيجة لها فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾ أي : يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت وهو هين عليه أو هو أيسر عليه ، على حسب ما يرسخ في عقول المخاطبين أن من فعل شيئاً مرة كان أسهل عليه إعادته ﴿ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ﴾ أي : الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة ﴿ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ الذي لا يساويه فيه غيره ولا يدانيه ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ﴾ في ملكه ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي : في خلقه . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة .

وهاهنا خمس لطائف :

(١) في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾[الآية : ٢٠] الخ .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ ﴾[الآية :٢٢] .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الآية : ٢٣] الخ .

(٤) في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾[الآية : ٢٤] .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[الآية : ٢٧] الخ .

أما اللطيفة الرابعة فلتقرأها في سورة « الرعد » فهناك شرح الرعد والبرق وهذه الحوادث الطبيعية .

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾

لقد تقدم في سورة « القصص » ذكر منشأ العالم ومنشأ الإنسان وبيان الثواب والعقاب الذي ظنه حكماء اليونان بعقولهم ، وأن ذلك معجزة للقرآن ، لأنهم طابقوا القرآن قبل نزوله ، وغاية الأمر أنهم أخطؤوا المرمى في بعض التفاصيل كقولهم : إن المجرم من الناس يكون حيواناً ويكون هذا عذاباً له . ذلك لأنهم ليسوا أنبياء وقد أقروا بأنهم عاجزون عن إحقاق الحق في مثل هذه المسائل ، وذلك في المحاورة التي ذكرها أفلاطون على لسان « طيماوس » من أتباع فيثاغورس مع سقراط أستاذ أفلاطون وسيأتي ملخص أكثرها في قوله تعالى : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ﴾[الروم : ٣٠] . فأريد أن أذكر هنا ما قاله ذلك الفيلسوف في أمر الإنسان وخلقه وصحته ومرضه ، ذلك لأن مثل هذه الآراء تورث القارئ لهذا التفسير يقيناً لا يشوبه شك ، لأن القرآن بهذه الآراء يصبح مطابقاً لآراء أكابر حكماء الأمم كسقراط وأفلاطون . وقد تقدم أني نقلت لك عن علماء أوروبا في عصرنا أن أهم علوم الفلسفة وهي الأمور العامة كالمادة والنفس والله ، وهكذا لم يصل فيه الأوروبيون الحاليون إلى مرتبة علماء اليونان ، هذا هو نص كلام « سبنسر » الفيلسوف الإنجليزي الذي ذكرته في رسالتي المسماة « مرآة الفلسفة » ، فإنه أعلن على رؤوس الأشهاد أن علماء أوروبا جميعهم عالة على علماء اليونان في هذه المباحث ، وأن علماء أوروبا لم يرتقوا إلا في العلوم الجزئية . ويقول الفيلسوف « سنتلانه » المعاصر لنا : إن الدهريين من أوروبا في زماننا لم يزالوا في رتبة ديمقراطيس من فلاسفة اليونان . وأقول : وهو في مرتبة وسطى لم يصل لدرجة أفلاطون المحترم رأيه عند فلاسفة أوروبا وعند النصارى والمسلمين وعلماء الإسكندرية الأقدمين قبل الإسلام .

فلأسمعك إذن ما قاله « طيماوس » المذكور لسقراط في خلق الإنسان. ابتدأ فذكر أن الأرض والماء والهواء والنار يستحيل بعضها إلى بعض. وأنت تعلم أن هذه هي العناصر القديمة، ومن عجب أن تكون العناصر التي عرفت في عصرنا ووصلت إلى ٨١ عنصراً أصبحت اليوم يرجع بعضها إلى بعض بعد كشف عنصر الراديوم، فاعجب لنظام هذا العالم ولتطابق العلوم قديماً وحديثاً. ثم قال: إن المادة لها صور كثيرة فلا يصح أن نعتبر هذه الصور، لأننا إذا أخذنا قطعة من ذهب مصورة أشكالاً مختلفة لا يصح لنا أن نقول هي مثلث أو مربع عند الإجابة عمن سأل عنها. كلا، بل نقول: هي ذهب، فأما الإجابة بشكل من الأشكال فليست حقاً، هكذا المادة فهي لا تستقر على حال ولا شكل فلنقل هي مادة وهي أصل الموجودات، وهذه الأشكال صور موجودات أزلية، وهذه مصورة على صورتها، والمادة لا صورة لها وهي نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شيء له نسبة ما إلى الوجود المعقول، وهي نسبة مبهمة عديمة الإدراك. انتهى كلام أفلاطون.

ثم قال « ستلانه » ناقلاً عن « طيماوس » إنه جعل تكوينها من أجزاء مختلفة مثلثة مفرطة ومن تركيب المثلثات بعضها ببعض نشأ المكعب، ومن تركيب هذه الأجسام نشأت العناصر الأربعة. قال « ستلانه »: قلت: وهذا القول يطابق بما عليه الطبيعيون في عصرنا هذا، وهو أن أول ما تتركب عليه المادة من بلور وما يشاكله يتركب على أشكال هندسية بسيطة يختص كل جسم بشكل معين، وهي أصل يجتمع منها الأجسام الأخرى من معدن ونبات، ثم ذكر الإحساس وكيف ينشأ عن تأثير تلك المثلثات وغيرها في أجسامنا وشرح اختلاف الإحساس من خشن ولين وبارد وحار ومؤلم وملذ، وقال: إن الاختلاف في شكل الأجسام هو سبب اختلاف التأثير في أجسامنا. وقال: إن الألم إنّما ينشأ إذا كان التأثير مفرط القوة ووجدت ممانعة من جهة الآلة وكان التأثير مضاداً لطبيعتها، فمن اجتماع هذه الأحوال يحصل الألم، وإذا كان التأثير ملائماً للطبيعة تحصل منه لذة. ثم قال: ثم الإحساس إذا وقع بسهولة فهو إذن ليس بملذ ولا بمؤلم، وتكلم عن الحواس بعد ذلك.

ثم تكلم بعد ذلك في تصوير الإنسان على يد الملائكة، فقال: إنهم تسلموا النفس الأزلية التي خلقها الله للإنسان وألحقوا بها نفساً مائتة جعلوا مركزها في الصدر، أما الجزء الغضبي منها ففي أعلى الصدر، وأما الجزء الشهوي ففي أسفل البطن. يقول مؤلف التفسير: ومن عجب أني منذ ٣٠ سنة ألفت كتاب « جواهر العلوم » وفيه مقالة في تصوير الإنسان وشرح عقله وجسمه وأنه ملك في الدماغ له جنود في القلب وعمال في البطن، ولم أكن اطلعت على أمثال هذا وعسى أن أضعها يوماً ما في هذا التفسير.

ولهذا الكلام بقية تقدمت في هذا التفسير، مثل الكلام على الأمراض والأدوية، ومثل أن أمراض النفس تتبع أمراض الجسم، وأن الرياضة البدنية والنفسية يورثان الصحة.

وقد ذكر أن الحيوانات كانوا آدميين نزلوا إلى مراتبهم بسبب شهواتهم، وأن النساء كانوا رجالاً جاروا وظلموا أو جبنوا فانحطوا إلى مرتبة النساء، فإن هذه الأقوال معذورون فيها لأنهم لم يكن عندهم أنبياء، فذكروها بخيالهم قائلين: إن أصحاب الشهوات يصيرون بهائم، وأصحاب القسوة أو الخور يصيرون نساء، ليقسموا العذاب على الأخلاق، فهذا ليس إلا ضرب أمثال وظنون، وهم

يصرحون بذلك وما عدا هذا فهذا المقال في تفسير الآية نعمة عظيمة وآية من الله لنا ودلائل على الجمال الإلهي وعلى الإتقان في الصنع .

اللهم إنك أنعمت علينا بالعلم والفهم ، وإني أحمدك حمداً كثيراً على هذه النعمة وعلى أن شرحت صدري ووفقتني وأبرزت هذه العلوم التي كانت مخبوءة في بطون الكتب وسيقف عليها المسلمون وسيكون هناك أجيال وأجيال يرتقون ويرقون العلوم والأمم الإسلامية .

أيها الذكي ، إني أرى بقلبي كثيراً من شبان الأمم الشرقية ستكون لهم صولة في العلم وقدم صدق ، وسيكون في الشرق وفي الإسلام حركة لا يعرف مداها إلا الله ، وعظماء المسلمين بعد الآن قوم إلهيون حكماء نابغون في العلوم الفنون ، يرقون شعوبهم مادياً وأدبياً ، فمن ذا الذي يقرأ هذا الموضوع ثم يترك جسمه بلا حركة ورياضة أو يترك عقله بلا تهذيب ولا تعليم . اللهم إنك أنت المنعم وظني فيك جميل أن ترقي هذه الأمم الآن ، ولك الحمد في الأولى وفي الآخرة ولك المرجع والمآب . انتهى صباح يوم آخر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧هـ .

نظرة: في موازنة محاورة طيماوس وسقراط مع ما ورد في الصلاة في دين الإسلام

لقد ابتدأ المحاورة بالكلام على السماوات ومبدأ العالم ، ثم تكلما عن الروح الإنسانية وما معها من الحيوانات إجمالاً ، ثم أشارا إلى علم الأخلاق وإلى جزاء الناس على التفريط فيها ، وجعل العقاب بالتناسخ الذي يأباه العلامة « ابن سينا » عقلاً والإسلام نقلاً ، ولكن هذا ما وصل إليه علم القوم إذ ذاك كما تقدم ، إنّما الذي يهمني الآن أن أنظر نظرة في الصلاة .

يبتدئ المسلم صلاته قائلاً : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . ثم يقول بعد الركوع : ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد . هذه هي الأدعية التي يقولها المسلم قبل قراءة الفاتحة وبعد الركوع ، كل ذلك وهو واقف .

يقف المسلم فيوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض الخ ، ثم إنه بعد الركوع يقول : إن حمدي لك يملأ العالم العلوي والسفلي ، فالمسلم إذن في وقوفه في الصلاة يفعل أمرين : توجهاً للذي فطر العالم العلوي والسفلي ، وبعد التوجه يكون الحمد ، فهو لما توجه فهم ، أي : درس هذا الوجود كما درسه « سقراط » و« طيماوس » ، ولما درسه علمه والعلم ينتج الحب والحب ينتج تسخير الجوارح بالطاعة واللسان بالثناء . لذلك نراه بعد التوجه في أول الصلاة يقول : لك الحمد الخ ، وهذا الحمد تابع للعلم والعلم تابع للمعلوم والمعلوم هو ما في السماوات وما في الأرض الخ ، فهو يحمد الله على ما علمه من عظمته لا على ما وصل إليه وحده . كلا لأن الحمد يكون على نعمة وصلت للحامد ولغير الحامد ولذلك كان الحمد ملء السماوات وملء الأرض . فقال صاحبي : المصلي يحمد ربه على العوالم كلها لأنه علمها ، وعلمها أوجب الحب وتسخير الجوارح ، ولكن ليس كل مسلم يعلم ما علمه

«طيماوس» و«سقراط» فكيف يكون ذلك؟ فقلت: إن الصلاة نوع من العلم لأن فيها تذكرة والتذكرة أشبه بالتنويم، فالإنسان بكثرة التكرار ترسخ المعاني في نفسه، وبرسوخها تنقلب إلى عواطف، فيكون الحمد إذن على معان في النفس أشبه بالعواطف التي اتصفت بها النفس. إذن المصلون قسمان: قسم علم كما يعلم سقراط، فهذا حمده حمد حقيقي. وقسم لا يعلم ولكنه حصلت له حال من تكرار هذه الأدعية، فهذا حمده شبه الحقيقي، وهذا قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾[المجادلة: ١١]، فالعالم بهذه المعاني الموقن بها يكون من الصديقين، والصديقون يتبعون الأنبياء، والأنبياء عاينوا وهؤلاء أيقنوا لأنهم درسوا. أما الآخرون وهم العامة فهم آخر الأقسام فكفاهم الإيمان، فهؤلاء الصديقون هم الذين قال الله فيهم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾[فاطر: ٢٧] إلى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر: ٢٨]، فهؤلاء هم العلماء المذكورون في الآية، وهؤلاء سيكثرون في أمة الإسلام بعد انتشار هذا التفسير. وسيقوم فيهم شبان أذكياء ويقولون: إنه من الجبن والعار والجهل أن نرى «طيماوس» و«سقراط» يهجمان على الحقائق العلوية والسفلية هجوماً ولم يسمعوا ما سمعنا من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا ﴾[ق: ٦]، ولا قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦]، ويقولون أيضاً: عجباً كيف يقول «طيماوس»: إن العين إنما خلقت لننظر الكواكب ونعرف الليل والنهار، ونزيد علماً وندرس الفلسفة، وهي أجل نعمة أنعم الله بها على الناس، فنحن أحرى وأحق بدرس هذا العالم، ولا بد من نبذ طرق آبائنا المتأخرين العقيمة، والسير في الطرق القويمة، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

هذا ما يقوله المسلم في صلاته وهو في حال وقوفه، فإذا جلس المسلم بين السجدتين فماذا يقول؟ نسمعه يقول: رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني وعافني. هذا قول المسلم بين السجدتين ومعلوم أن الجلوس بعد الوقوف. يطلب المسلم الغفران، أي: غفران الذنوب، ولا جرم أن هذا راجع للتقصير في الأخلاق، وذلك بعد أن أكمل الأمور العلمية وهو واقف. فهو في حال وقوفه يدرس العوالم العلوية والسفلية كأنه يدرس السماوات والأرض، فلما أن أتم الدراسة ترك عالم السماوات ورجع إلى نفسه، كما أن الله خلق العوالم العلوية والسفلية ثم خلق الإنسان، فدعاء الجلوس بين السجدتين راجع لأحوال الإنسان خاصة بعد الفراغ من دروس العوالم كلها. هذا هو الذي جاء في المحاورة، فهما ابتدأا بدراسة العوالم، ثم ختما الموضوع بالبحث في أخلاق الإنسان وعقابه وثوابه، إذن ما يقوله المسلم في الوقوف، وما يقوله في الجلوس، هو ملخص العلوم العلمية والعلوم العملية.

أليس من عجب أن تكون صلاة المسلم هي ملخص علم الفلسفة، أليس من عجب أن تكون الفاتحة في أولها هي نفس ما جاء في أول هذه المحاورة من الكلام على السماوات والأرض، ونفس ما جاء في قول المصلي قبل قراءة الفاتحة وهو: وجهت وجهي الخ، وأن يكون آخر الفاتحة هو العبادة والاستعانة والهداية وهو أقرب إلى ما جاء في الجلوس بين السجدتين من طلب المغفرة على التقصير في تلك العبادة وفي الانحراف عن صراط الذين أنعم عليهم، والاقتراب من صراط غير المنعم عليهم

والضالين؟ إذن هذا الدين الإسلامي إنّما تظهر ثمراته في أمم بعدنا، وهذا يكون بأحد أمرين: إما أن يرتقي أبناء المسلمين متى قرؤوا أمثال هذا التفسير، وإما أن ينشر في أمم أرقى من هذه الأمم، فدين الإسلام لن يبقى كما هو الآن، وإنّما هو دين أمم ذوي عقول غير هذه العقول، هو دين أمم يجلون الحكمة ويفرحون بالعلم وتكون هذه الدنيا كلها كتاباً يقرؤونه.

هذا ما فهمته في صلاة العصر يوم الأربعاء ثاني يوم من شهر شوال سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٢٩م، وكتبته عقب الصلاة. وقد جاء في مجلة «الجديد» ما نصه:

الإنسان آلة ميكانيكية عجيبة

إحصاء حركة أجزاء الجسم

ليس في الأمر غلو ولا مبالغة فإن هذه البيانات التي تقدمها هنا لك ستدلك على القوة الهائلة التي ينطوي عليها الجسم البشري، فجسم الإنسان يحتوي على ٥٠٠ عضل، وهذه العضلات تقوم بتسيير ١٥ كيلو جراماً من الدم لتغذية هذه الآلة ومحركها الرئيسي أي: القلب.

والقلب وقطره لا يزيد على ١٥ سنتيمتراً، ينبض في الدقيقة الواحدة ٧٠ مرة، و ٤٢٠٠ مرة في الساعة، و ٣٦٧٩٢٠٠٠ مرة في السنة. وفي كل مرة من هذه المرات يقذف القلب في الشرايين الصغيرة ٤٤ جراماً من الدم، أي: ما يبلغ في اليوم الواحد ٤٤٣٥ كيلو جراماً. ومجموع هذا الدم يمر ٣ مرات في الدقيقة. وتحتوي الرئة في هذه الحالة العادية على خمسة لترات من الماء، ويتنفس الإنسان بها ١٢٠٠ مرة في الساعة، وهي تنقي في أثناء هذه الفترة ٦٠٠٠ لتر من الهواء فتغذي بها الكرات الحمراء الموجودة في الدم وتمده بالفيتامين. أما البشرة أو الجلد الذي يغطي اللحم والعضلات والأعضاء الخارجية فتتألف من ثلاث طبقات يتراوح سمكها بين ٣ و ٦ مليمترات، وكل سنتيمتر مربع منها يحتوي على ١٢٠٠٠ من المسام التي تفرز العرق الناشئ عن تأثير حرارة الجو. تم الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾

جاء في هذه الآية خلق السماوات والأرض ثم تخصيص أمرين: الألسنة والألوان بالذكر، إن الذي يسمع هذه الآية لأول وهلة يقول: لا حاجة في معرفة اختلاف الألسن والألوان إلى علم، فما الداعي إذن لتخصيص العلماء؟ مع أن ظواهر الألوان معروفة للجاهل والعالم بل الدواب تعرف اختلاف الألوان وتميز الأشجار والزروع بعضها من بعض، فهذه المعرفة إذن ليست خاصة بالعلماء بل هي عامة لجميع المخلوقات، فهي آيات للعالمين ـ بفتح اللام ـ وليست خاصة بالعالمين ـ بكسرها.

هذا ما يتبادر للذهن ولكن عند النظر والفهم يرى الإنسان أن العامة في نظرهم إلى هذه الألوان لا يجدون فيها حكمة ولا علماً، فهم ينظرون لاختلاف الألوان نظرهم لاختلاف مذاق الأغذية من حلوة ومرة وحارة وباردة، وهذه وتلك لا تهيج فيهم هم ولا علماؤهم معرفة الله ولا حب العالم الأعلى. إن معرفة الجاهل باختلاف الألوان معرفة جاهلة بدليل أنها لا أثر فيها للتذكرة ولا العبرة ولا الحكمة، فإن الجهلاء في كل أمة يعيشون ويموتون ولهم ألوان ولزروعهم ولأمتعتهم، وهم يرون نور الكواكب ساطعاً عليهم، ونور الشموس والأقمار، وهم أموات في نهر الحياة عمي أمام أبهج الجمال،

صم أمام أجمل النغمات، هؤلاء هم الجهلاء وصغار العلماء في الأمم كلها مسلمين وغير مسلمين.
نبحث إذن عن سر الآية من باب آخر عسى أن نجد مخرجاً ونعرف بعض سرها. وهاهنا أذكرك أيها الذكي بما مر في سورة «المؤمنون» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧]، فانظر هناك عجائب اختلاف الألوان وأنها موضوعة بحكمة، والذي عرف الحكمة هم علماء خلقهم الله في أرضنا، صرفوا أعمارهم في بحث هذه الألوان هل هي مخلوقة لمجرد المصادفة العمياء أم هي موضوعة لغايات محققة؟ فهناك ترى:

(١) الحيوان الذي رآه بعض العلماء الغربيين في حديقته لما أخذ يسقطه بالمبراة في جرة مملوءة ماء وملحاً، وأخذت تلك الحشرات تتساقط وتنقبض وتتقلص بشكل بيضاوي وتصبح أشبه بالحصوات المبتلة، وكلما تقلصت واحدة منها صارت في أقرب من لمح البصر كحصاة سوداء من الصوان منشقة نصفين من الداخل كالحصوات هناك، فصار هذا العالم لا يفرق بين الحصوات في حديقته وبين تلك الحشرات إلا بشق الأنفس، بحيث يحتاج إلى أن يجربها بطريقة اللمس، أما حاسة النظر فإنها لا تميز، وإنّما اللمس بالمبراة هو الذي كان الطريق الموصل لتمييز الحشرات من الحصوات فأخذ يبحث فما كان ليعثر في تلك الحصوات إلى على القليل من تلك الحشرات، فهنالك وثق ذلك العالم بأن هذه الألوان مقصودة لإضلال الطيور الآكلة لهذه الحشرات، لأنها إذا قدرت أن تغشه هو فهي على غش الطيور الآكلات لها أقدر.

(٢) ثم انظر هناك حشرة العصا فهي بتشبهها بالعصا أمنت من الخطر.

(٣) وهكذا السوس الذي أعطي قوة الانكماش عند مسه، فلا يفرق الإنسان بينه وبين كتل الطين والحجارة في الأرض.

(٤) وهكذا الخنافس التي تشبه حب نبات خاص.

(٥) وهكذا الفراش الذي يقع على الشجر وقد نشر جناحيه الأسمرين الكبيرين اللذين يشبهان الورق الجاف في شكله ولونه. انظر شكل ١٣ من صور المجلد الحادي عشر.

(٦) وهكذا تلك الحشرة التي تقبض أجنحتها حينما تقع على الشجرة فترى كأنها هي نفسها قطعة من عصا مكسورة، وفي نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثاً. انظر شكل ١٤ من صور المجلد المذكور.

(٧) وهكذا ترى في شكل ١٥ من تلك الأشكال هناك في نفس السورة صورة دود الفراش الذي خلق مزوقاً بتزويق غير جميل، وهو ظاهر ممتاز تتبينه الطيور الآكلة للدود، ولكنها لا تأكله، ذلك لأن الذي منعها عن أكله إنّما هو كراهة طعمه، فهو لما كان طعمه مكروهاً حفظ من الهلاك واستبان وظهر بهيئته لأعداء الدود، وما حفظه إلا علمها بأن طعمه غير مقبول، فلو كان طعمه غير كريه لاقتضت الحكمة أن يحفظ بحافظ آخر، وهكذا من الأمثلة المذكورة هناك التي بلغت ٣٠ عداً، وآخرها صورة حشرة أبي دقيق التي تقع على شجرة البقدونس، انظر شكل ١٦ هناك فإنك لا تجد فرقاً بين ظواهر شجر البقدونس وبين تلك الحشرات، هذا ما تقدم هناك فاقرأه لتفهم قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧]، وتفهم ما هنا وهو قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢] ـ بكسر اللام ـ

ومن هذا يستبين لك أيها الذكي أن هذه الآيات لا يعقلها ولا يتأثر بها بحيث تصبح يقيناً عنده إلا العلماء الدارسون لها، أما غيرهم فإنه لا يكون دليلاً عنده لأنه لم يدرس الحقائق، ولا تظن أيها الذكي أني أقف بك عند ما كتبته هناك منقولاً عن الكتب الإنجليزية كلا. وإنما ذكرت ما تقدم لأجعله كالمقدمة لما ستراه هنا من العجب العجاب والسحر الحلال والجمال والنور والعرفان والبهجة.

وستشعر بعدما أسمعك ما أكتبه الآن بأن العلم لا حد له وأن هذه العجائب هي مقصود القرآن الشريف، وستعجب من القرآن وكيف يذكر الله فيه العلماء ويخصهم بمعرفة الآيات في الألوان، ثم لا يظهر ذلك إلا في زماننا هذا، وستبتهج كما ابتهجت أنا وينشرح صدرك بالعم والمعرفة التي لا لذة تفوقها في هذه الحياة. إن كل مخلوق لا كمال له إلا فيما هو خاص، وكمال الفرس في الجري والكر والفر، وكمال السيف أن يكون مرهفاً، فإن نزلا عن مستواهما استعمل الأول استعمال الأتان في حمل الأثقال، واستعمل الثاني استعمال السكين، هكذا الإنسان لا كمال له إلا بالعلم وفيه لذته الخاصة به، ومتى علم أدرك جمال نفسه، وهناك يرى قبل الموت أنه هو عالم جميل مشرق، وأن هذه الدنيا نفسها ليست هي تلك الدار المملوءة بالأكدار والأحزان، بل يرى الحكمة متجلية في الجليل منها والحقير، وتتوارى أمامه أنواع النحوس، ويشرق هذا الكون له، وتبسم له الكواكب والشمس والقمر، وهناك يرى في كل ورقة وزهرة وحشرة جمالاً ونوراً، ويصبح هذا الوجود في نظره جنة عرفان ونور وبهاء، إذ تحس نفسه بجمال يجهله الناس حوله وهم غافلون، وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

وهاهنا حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يسألني في أمثال هذا المقام فقال: ماذا أعددت لهذا المقام غير ما تقدم في سورة «المؤمنون» ولم أجد لك إلا مقالاً أشبه بالغزل وإظهار السرور بالعلم، فما الذي عندك فوق ما تقدم هناك؟ لقد ازداد اشتياقي لسماعه، وهل فيه صور أجمل وأبهى مما تقدم؟

فقلت: إي وربي إنه لحق. فقال:

أسرع برد جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت: لقد علمت فيما تقدم أن الحيوانات حفظت من الهلاك بمشابهتها لما حولها من ورق وزهر. قال: نعم. قلت: فهاهنا سترى أعجب وأبدع ما عرفه العقلاء في حسن تخلص الحيوان من الهلاك بنفس الألوان، فهاهنا تقرأ كلام العلامة «الفرد رسل ولاس» في مقاله المذكور في المجلد الثاني في كتاب «علوم للجميع».

فقد أخذ يبحث في حيوانات الأقطار الاستوائية، فدله اختباره أن في ألوان الحيوان عجباً لم يكن ليخطر ببال العقلاء، ذلك أن منها ما له صفة تلازمه وبها تتحاماه المهلكات ويتخطاه الردى ويعيش قرير العين في الغابات، وفي نفس الأمكنة التي يعيش فيها ذلك الحيوان يعيش معه حيوان آخر لا يتصف بصفته التي بها تهابه الحيوانات الآكلة، ولكنه يكون محفوظاً من الهلاك مثله، لأنه يخلق مشاكلاً له في ظواهر الشكل واللون، وبهذا يحصل اقتصاد في هذه المخلوقات وهذه تسمى الحماية بالتقليد.

فقال: ظهر من هذا القول أن الحيوان من حيث التقليد على قسمين: حيوان له سلاح يحميه، وحيوان آخر لا سلاح له يعيش معه، ولكنه يشبهه في اللون أو غيره ويحمى من الهلاك بهذه المشابهة،

فقلت : نعم هذا ملخصه . فقال : نريد أن نعرف الحيوان الذي له سلاح والحيوان الذي حمي بمشابهته له . فقلت : الحيوان الذي يحفظ من الهلاك بسلاحه وغيره يحفظ بسبب مشابهة له في الصورة أهمه حشرة « أبي دقيق » وقد يكون ذلك في الخنافس وحشرات أخرى وفي الزواحف والطيور ، فلنبدأ بالكلام على حشرة « أبي دقيق » .

حشرة أبي دقيق

يقول الكاتب : إن في غابات خط الاستواء كثيراً من حشرة « أبي دقيق » وهي مختلفات أشد الاختلاف في الحجم والصورة واللون وفي طريق الطيران ، فبعضها يطير بسرعة مدهشة وبعضها يطير على طريق التعريج والتلوي ، إذ يرسم في طيرانه في الهواء خطوطاً متكسرة ، وكثير منها قد ظهر بألوان بهجة بديعة تسر الناظرين ، وجمهور كبير منها يكون دائماً قريباً من الأرض ولا يعلو في الجو وهو بطيء الطيران ، ومنها أنواع مزينة بزينة الألوان البديعة في غير ظاهرها ، وقد لون ظاهرها بلون الرخام الأسود بحيث لا يميزها من رآها وقعت على ورقة أو غصن من أغصان الأشجار ، ثم خص أنواعاً ثلاثاً بالذكر من حشرة أبي دقيق وهي : « دانيدا » و« هيليكونيدا » و« اكريدا » ، ولنرمز لهذه الثلاثة بهذه الحروف « د » « هـ » و« ك » ، فهذه الأنواع المسماة بهذه الأسماء تظهر في مكان فتظهر أنواعها وأصنافها لا تخفى وهي ظاهرة الجمال واضحة ، فلا لونها خفي لتحفظ من الهلاك ، ولا طيرانها سريع حتى ينجيها من الخطر ، بل جمالها الباهر ولونها ظاهر يصحبهما الكسل في الطيران وعدم الارتفاع إلى الجو وعدم السرعة ، ولم يظهر لها أي صفة من الصفات التي تخفى به الحيوانات عن العيون ، وألوان أجنحتها السفلى مشابهة تمام المشابهة لألوان أجنحتها العليا ، وبالجملة لم يظهر فيها أي دليل يدل على قصد الاختفاء ، وهذه الأنواع الثلاثة كأن بينها تخالفاً عجيباً أو كأنها أصناف لنوع واحد من حيث الصفات ، وأهم صفاتها التي سقنا الكلام لأجله هي رائحتها التي تسلطها على أعدائها ، فهذه الرائحة مطردة في هذه الأصناف الثلاثة ، ومتى وقع أحد منها بين أصابع صائده يلقي حالاً سائلاً أصفر قذراً له ريح كريهة حادة حريفة ، فتلوث جلد صائده بأقبح المستقذرات . وهذه الحال قد علمت فيما عاش منها في جنوب أمريكا ، وهو الذي رمزنا له بحرف « هـ » ، وفيما عاش منها في أفريقيا ، وهو المرموز له بحرف « ك » ، وفيما عاش منها في قارة آسيا وأستراليا ، وهو المرموز له بحرف « د » فيما تقدم .

فهذه الأنواع الثلاثة في هذه القارات الأمريكية والأفريقية والأسيوية والأسترالية كلها ذات صفة واحدة ، فلذلك سميناها متحالفة ، فهذا السائل الأصفر الحريف الحاد كريه ومؤذ للطيور ولكل حيوان يصيد الحشرات ، وعلى ذلك تكون هذه الأنواع الثلاثة من حشرة « أبي دقيق » في مأمن من هجوم المهلكات عليها بخلاف غيرها من سائر أصناف حشرة « أبي دقيق » الأخرى .

ومن العجيب أن هذا السائل الحريف الكريه الرائحة لا يختص بالحشرة التامة ، بل يكون في دودها الصغير ، فلا يقربه قانص كما لا يقربها ، إذن هذه الأنواع الثلاثة في أمان وقد أصبحت معلومة لكل ما حولها من الحيوان فأمنت المهاجمة وظهر لها علم يراه من بعيد ما يريد مهاجمتها فلا يقدم عليها ، وذلك العلم هو صورتها الظاهرة ولونها البهج ونوع طيرانها الذي يدل على عدم الاكتراث بما حولها ، ولذلك تزدحم بها الغابات ويقل من حشرات « أبي دقيق » الأخرى .

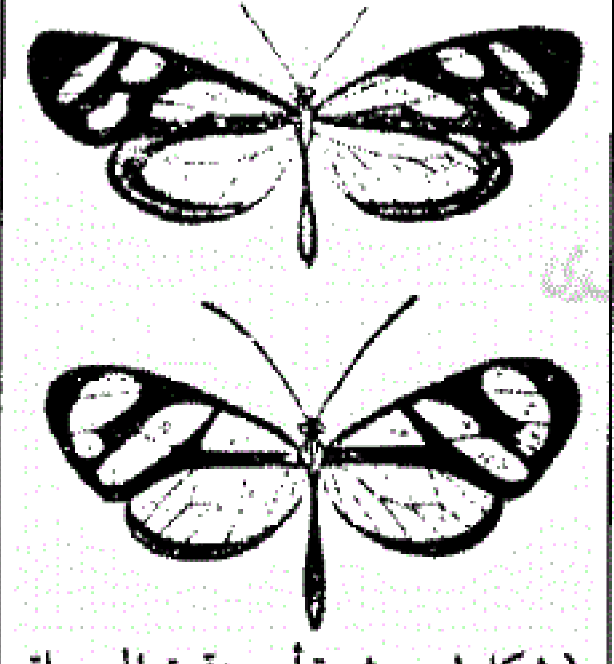
ثم إن النوع المعنون له بحرف « هـ » في جنوب أمريكا والمعنون له بحرف « د » في جزائر الملايسو نراه في كل مكان هناك ، ويندر سواه من حشرات « أبي دقيق » ، وفي بعض الجهات لا يكون سواه .

ومن أعجب العجب أن هذه الأنواع في تلك القارات لما أصبحت حشرة طليقة تملأ الأمكنة لا يخلو منها مكان اتخذت العناية الإلهية تلك الأسلحة التي تستعملها تلك ذريعة لحفظ حشرات من أنواع أخرى من « أبي دقيق » بأن تجعلها على هيئتها فتتحاماها المهلكات وتتوارى عنها المزعجات وتخافها المهاجمات .

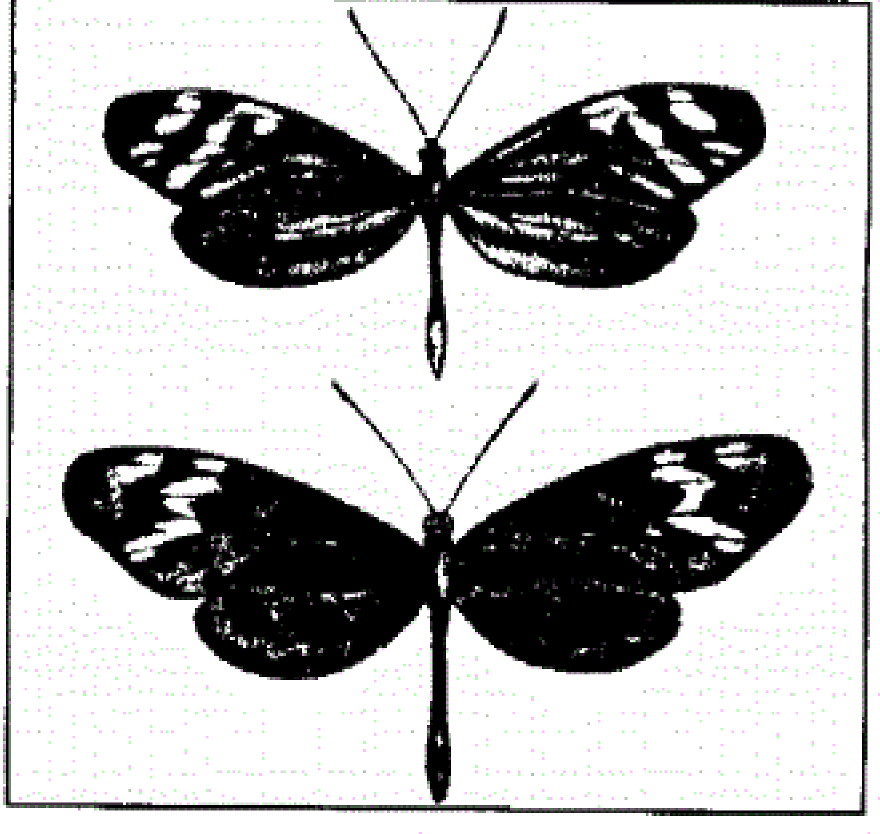
قد قلنا فيما تقدم إن « هـ » تكثر في قارة أمريكا ، وقد كان الذي علم من أصنافها سنة ١٨٧١م ٤٠٠ صنف ، وبعدها بسنين بلغ ما عرف منها ٥٠٠ ، وهذا كما قلنا آمنة من المهاجم فكثرت جداً ، وهي مختلفات في اللون ، فمنها الأسود ، ومنها الأزرق ، ومنها المحلى بالصفرة والبياض ، ومنها ما زوق بحمرة وصفرة ، ومنها ما هو أسمر منقط بالصفرة وهكذا من بدائع الألوان .

ولكن الأمر الذي يدهش اللب أن يرى العلماء أن صنفاً من حشرة أبي دقيق يسمى « ليبتليز » ونرمز له « ل » يرى في مظهره أشبه بما رمزنا له بحرف « هـ » ، ولا يشابه من هذا الصنف إلا ما كان معه في مكان واحد بحيث يتشابهان وهما طائران تشابهاً تاماً وذلك عند نهر « تباجوس » . انظر شكل ١ .

وهذه بخلاف الحشرة المرموز لها بحرف « ل » التي عند أعلى « وادي الأمزون » ، فإن الحشرة « هـ » ذات الخطوط والنقط الحمر البرتقالية قد اتصفت بنفس وصفها الحشرة التابعة لها المرموز لها بحرف « ل » ، وفي أعلى الأمزون ترى الحشرة المرموز لها بحرف « هـ » التي تحمل السائل الأصفر ذات لون أسود بسمرة مع خطوط صفر ، تبعها نوع من الحشرة المرموز لها بحرف « ل » الخالية من تلك المادة وقد تشابها في الحجم واللون والخطوط . انظر شكل ٢ .



(شكل ١ ــ حشرة أبي دقيق المسماة « ليبتليز » التي عند نهر « تباجوس » الأعلى هو الوزير لا سلاح له ، والأسفل هو الأمير ذو سلاح) .



(شكل ٢ ــ حشرة أبي دقيق التي تعيش في أعلى « الأمزون » لا سلاح له ، والأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير ذو سلاح) .

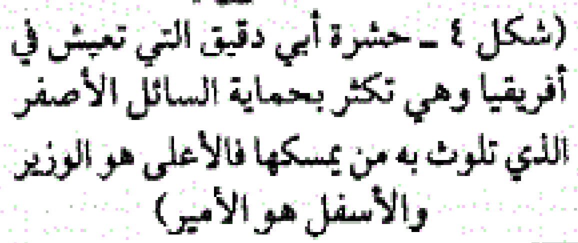
فهذا الشكلان الطائر الأسفل في كل منهما نلقبه باسم المتبوع أو الأمير، أو الأعلى منهما نلقبه باسم التابع أو الوزير، فالأول يملك السلاح في كل منهما والثاني لا يملك، ولكن بالمشابهة حفظ من الهلاك، ثم إن الحشرة المرموز لها بحرف «هـ» وهو المتبوع أو الملك الكبير الحجم الملون بالسواد والصفرة مع بهجة الجمال في المظهر يصحبه في الهيئة المذكورة واللون الحشرة المرموز لها بحرف «ل» أيضاً، وفي كل من المقامين يتبع الوزير أميره في مظاهره بلا فرق. انظر شكل ٣.



(شكل ٣ ـ حشرة أبي دقيق في بلاد أمريكا أيضاً الأمير أسفل والوزير أعلى)

هذا ما علم في بلاد أمريكا أما بلاد أفريقيا فإن فيها النوع المرموز له بحرف «ك» فيما تقدم بكثرة أصنافاً وأفراداً والنوع الآخر أفراداً ولكن أصنافه قليلة، فهذا النوع قام في أفريقيا مقام المرموز له بحرف «هـ» في جنوب أمريكا، فمتى وضعت أحد أفراد هذا النوع بين أصابعك سلح تلك المادة الصفراء الحادة الحريفة المنتنة فلوث الجلد، فترميه حالاً من يدك، وعلى ذلك يكثر في تلك الأقطار وله تابع أو وزير كالذي حصل في المرموز له بحرف «هـ» في أمريكا، وهذه صورته شكل ٤.





(شكل ٤ ـ حشرة أبي دقيق التي تعيش في أفريقيا وهي تكثر بحماية السائل الأصفر الذي تلوث به من يمسكها فالأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير)

فالأول من أسفل هو الأمير والثاني من أعلى هو الوزير أو هما التبوع، والتابع والمتبوع هنا هو المرموز له بحرف «ك» كما تقدم، وهذا النوع يعيش في شرق أفريقيا.

وأعجب ما علم في أفريقيا حشرة تسمى «ببليو» إذا قلدت الحشرة المسماة «دانز». انظر شكل ٥.



(شكل ٥ ـ حشرة «ببليو» التي قلدت الحشرة «دانز» بقارة أفريقيا)

فترى الجناحين مستطيلين مسودين فيهما نقط كثيرة إما زيتية وإما بيضاء في مقدم الجناحين، أما مؤخرهما فقد زين بنطاقين عريضين زيتيين.

وترى في جنوب أفريقيا نوعاً أخر شديد السواد يعيش في أماكن مختلفة هناك. انظر شكل ٦.



(شكل ٦ ـ حشرة ابي دقيق شديدة السواد بأفريقيا)



(شكل ٧ ـ الأعلى هو الذكر والأسفل هي الأنثى، وهما في صفاتهما محميان بمشابهتهما للذكر والأنثى في شكل ٨)

وهذا أكبر شكلاً وأبهى وأبهر وأشد سواداً محلى ببقعتين كبيرتين جداً شديدتي البياض تشغلان أكثر من نصفي الجناحين، والأعلى هو الأمير أو المتبوع والأسفل هو التابع الذي لا يكلف حمل السلاح، والأمير يملك تلك المادة الصفراء القذرة الرائحة الخ. وهنا أمر أعجب وذلك أنك سترى في الشكل السابع والشكل الثامن أمراً عجباً، فأما الشكل السابع فإن الأعلى منه الذكر والأسفل هو الأنثى من الحشرة المسماة «بابليو». انظر شكل ٧.

ومتى تأملت شكل الذكر وشكل الأنثى وجدت في مقدم جناحي الذكر بهجة اللون الأزرق اللامع المعدني المحلى بالنقط البيض الضاربة للزرقة، أما مؤخر جناحيه فإنهما سوداوان يضربان إلى السمرة، أما الأنثى فإنها تخالف الذكر كثيراً، فإنك ترى مؤخر جناحيها محلى بخطوط بيض ضيقة لامعة من الجسم ويقاطعها صف منظم من النقط البيض. اهـ.



(شكل ٨ ـ الأعلى هو الذكر والأسفل هي الأنثى يعيشان في ملقا وفي بورنيو)

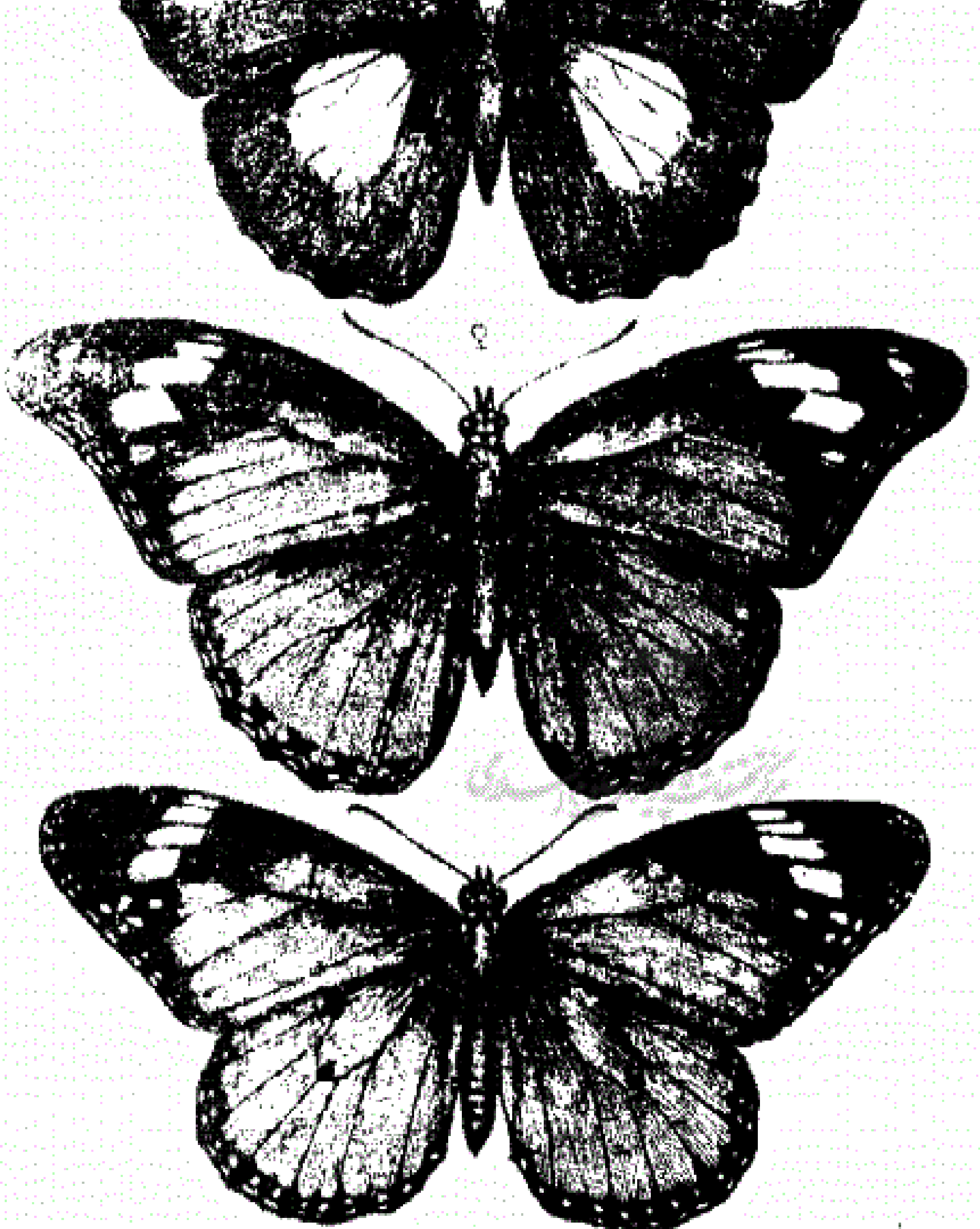
هذا وصف الذكر والأنثى في هذا الشكل اللذين عريا من السلاح الذي يطردان به ما يريد إهلاكهما، وقد أشبها في ذلك ما له سلاح يطرد به الأعداء، وذلك هو السائل الحاد الأصفر ذو الرائحة الكريهة كما تقدم، وهو ما في هذا الشكل الثامن. انظر شكل ٨.

فهذا ذكر وأنثى في الشكل الثامن منحا هذا السائل القذر فأخافا كل حيوان يريد بهما سوءاً فأعطي الذكر والأنثى في الشكل السابع كل الصفات الظاهرة في الذكر وفي الأنثى هنا حتى يكون ذلك سبباً في بقائهما تبعاً لما له سلاح، وهذا عجب عجاب أن يكون شأن الألوان والأشكال محكماً بهذه العناية البديعة العجيبة.

الذكر والأنثى في الشكل السابع لا قوة لهما على دفع الأعداء أو الهرب، فلذلك أعطيا معاً هذه المشابهة اللونية ليفرا من الهلاك. كل ذلك كنت أكتبه وصاحبي العالم ينظر إليه، فلما قرأ هذا قال: أتقول بلا دليل، أفرأيت إذا كان في المخلوقات ذكر ذو قوة وبطش وله قدرة على الهرب ولكن أنثاه ضعيفة لا قدرة لها على الهرب من الأعداء، فهل كانت هذه المشابهة تختص بها دون الذكر، إذا رأينا ذلك أيقنا أن العناية التي نظمت هذه الأجسام ترعى دقائق الأمور كما ترعى جلائلها، ويتساوى عندها العظيم والحقير.

نعم إن في مشابهة الزوجين في الشكل السابع للزوجين في الشكل الثامن دليلاً ظاهراً، وبها عاشا قريري العين كثيري النسل في «بورنيو» و«ملقا» وغيرهما، ولكن مخالفة هذه القاعدة في

المشابهة وقصرها على ما يحتاج إليها يكون أوفى وأتم ، وإذ ذاك نعرف معنى كون هذه العجائب آيات للعلماء بها لمعرفة الصانع وبدائع حكمته . فقلت له : قد كان ما قلته حاصلاً . قال : وكيف ذلك . قلت : انظر الشكل التاسع .



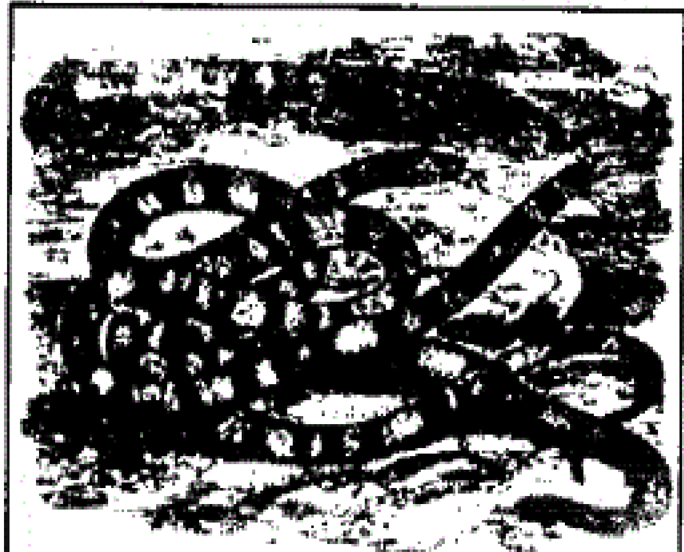
(شكل ٩ ـ الأعلى هو الذكر والأوسط هي الأنثى ، وتحت الأنثى حشرة «دانيز» وهي ذات السلاح ، وبمشابهة الوسطى لها صارت محمية من الفتك بها) .

فانظر إلى صورة الذكر فهي سوداء محلاة بأربع بقع بيضاوية الشكل بيضاء واضحة محلاة حاشيتها بزرقة زجاجية تسر الناظرين ، أما الأنثى فهي مخالفة له من حيث إنها ملونة بالسمرة البرتقالية المحلاة في حواشيها بالسواد والبياض ، وبحزام أبيض يعترض القمة السوداء من داخل الجناح ، فهذه الأنثى خالفت الذكر من نوعها ووافقت في لونها حشرة أخرى من غير صنفها ، والسبب في ذلك أن الذكر سريع الطيران وهو دائماً يعلو في الهواء مرتفعاً ، أما الأنثى فإنها بطيئة الطيران ، بل هي في أكثر الأوقات لا تبرح مكانها من الأرض إلى الهواء .

ولما كانت هذه الأصناف تعيش في الأرض العراء بعيداً عن الغابات وكانت الأنثى منها لا بد لها من أن تضع بيضها على ورق الأشجار ؛ كان ذلك مع تقدم معرضها للخطر . لذلك اقتضت

الحكمة أن تلون الأنثى بلون الحشرة الثالثة التي أعطيت السلاح المخيف فصار ذلك السلاح حماية لحامله وهيبة لما يشاكله، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

فقال صديقي العالم: إن هذا العجب عجاب، لقد أقنعني هذا البيان وأنا من المعجبين. وبهذا انتهى الكلام على حشرة أبي دقيق، فلنشرح في الكلام على الزواحف فنقول: انظر شكل ١٠.



(شكل ١٠ ـ هذان ثعبانان من ثعابين بلاد أمريكا، والمرموز له برقم ١ هو السام، والمرموز له برقم ٢ هو الذي لا سم له وقد نجا من الهلاك بالمشابهة).

فهذا الشكل يحوي ثعبانين: أحدهما وهو المرموز له بعدد «١» ثعبان من ثعابين بلاد أمريكا السامة، والثاني هو «٢» مقلد له ولا سم له فنجا بالمشابهة، وهذه الثعابين رؤوسها بيضاوية الشكل إهليلجية وأجسامها محلاة بخواتم أو حلقات تحيط بها من رأسها إلى ذيلها. وهذه الحلقات منها السود ومنها الحمر أو الصفر، وبها يكون الثعبان بديعاً بهجاً ويمتاز عن غيره من الثعابين، وهذا أشبه بعلم يحمله الثعبان منذراً كل حيوان يهاجمه أن ارجع فإني أنا صاحب السم، وإذن تكون تلك الزينة حافظة لنفس هذا الثعبان ولما يريد قصده بسوء، ويتبع ذلك أن ما قلده في ذلك وهو الثعبان رقم «٢» صار حكمه كحكمه فلا يهاجمه مهاجم وهو يأمن الهلاك. فنمرة «١» هو الملك ونمرة «٢» هو الوزير، وهذا الثعبان الذي سميناه وزيراً لاسم له في فكه، فأما نمرة واحد فهو صاحب السم القاتل فحفظه من الهلاك وحفظه مشابهة في تلك الهيئة العجيبة. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

يقول الكاتب الإنجليزي: وكما أن حشرة «أبي دقيق» التي خلت من سلاح المقاومة وهو السائل القذر ذو الرائحة الحادة بمشابهتها في شكلها لما أعطي هذا السلاح نجت، هكذا نجا هذا الثعبان الذي لا سم له بمشابهته للثعبان الذي عرف بأنه سام.

إن في أمريكا نوعين أو ثلاثة أنواع من الثعابين التي لا سم لها وقد نجت بمشابهتها بما له سم منها، وتلك المشابهة لها طرق مختلفة وقد عرف منها نحو ثمانية أنواع بها تقلد اللاتي خلت من السم الثعبان الذي له سم.

وهذا الذي في «شكل ١٠» المتقدم نوع منها، فالثعبان نمرة «١» يعيش في بلاد المكسيك محلى بمناطق عريضة سود فوق لون الحمرة، وكل منطقة منها مقسمة إلى ثلاثة أقسام بخواتم صفر ضيقة، وهذه الأوصاف كلها قد تحلى بها الثعبان الذي لا سم له نمرة «٢».

ثم قال: نحن ليس في قدرتنا أن نورد ما هو أكثر غرابة وعجباً من حيث الألوان المنذرة للأعداء بظهورها ودلالتها على الخطر الذي بجانبها وحمايتها ما يقلدها مما لا سلاح له من الذي أوردناه من الكلام على الثعابين الأمريكية في هذا المقام.

وبهذا انتهى الكلام على الزواحف وتقليدها اتقاء الخطر.

الكلام على الطيور المقلدات لتقي الخطر وهي خاتمة الأقسام

انظر « شكل ١١ » فالطير الأعلى على صورة الطير الأسفل، وهذا الأخير ويسمى « فيليدن » عادة له جماعة كثيرة العدد قوية البأس، فإذا اعتدى على واحد منها معتد اجتمعت تلك الجموع العظيمة وأوردته المهالك ولو كان المهاجم هو الصقر فما بالك بالغراب. انظر شكل ١١.



(شكل ١١ ـ الطير الأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير، الذي سلاحه أن له جماعة عظيمة تفتك بمن يقصده بأذى فحفظ الأعلى بمشاكلته).

هذا ما أردت تلخيصه من كتاب « علوم للجميع » المؤلف باللغة الإنجليزية في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢] ـ بكسر اللام.

هاهو ذا أيها المسلمون هو السر الذي ظهر اليوم في الأرض، وعرفه الناس في اختلاف الألوان.

خطاب للمسلمين

أيها المسلمون. هذه الطيور وهذه الزواحف وهذه الحشرات التي رأيتم الأعاجيب فيها قد نقشها الله وزوقها تزويقاً يظنه الجاهل لمجرد الزخرف والزينة، ولكن العلماء هم الذين بحثوا حتى عرفوا أن الأنواع الثلاثة الممتازة من حشرة « أبي دقيق » قد وهب الله لها هذا السائل القذر الكريه لتعمر الغابات في أفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا، وقال لها: تمتعي برياضي وارتعي في جناتي أيتها المخلوقات. ثم خلق أصنافاً أخرى وجعلها في كنفها وتحت حمايتها. ولكنها هي لا تعلم أنها حامية ولا الأخرى تعلم أنها تحت حمايتها. هاهنا يعرف العقلاء تخصيص الذكر بالعلماء.

هناك قال لي صديقي العالم: هاهنا حق لي أن أناقشك، أولاً: كيف ضاقت الأرض بما رحبت فلم تجد في تفسير الآية إلا كلام الفرنجة؟ ثانياً: ما الفارق بين عجائب الألوان في سورة « المؤمنون » عند آية: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧] وبين عجائبها هنا؟ ثالثاً: ما الفوائد العلمية المترتبة على فهم هذه العجائب؟ رابعاً: ما الفوائد العملية للمسلمين؟ فقلت له: هذه الأسئلة التي أوردتها يظهر لي أنك أردت بذلك إيضاح المقام لأهل العلم في الإسلام وإلا فما معنى قولك في السؤال الأول: كيف ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾[التوبة: ١١٨] الخ؟.

إني موقن أنك عالم أن العلم أمر مشاع بين الأمم، فالله الذي عمهم بالماء والهواء وضوء الشمس والغذاء، ورحمهم جميعاً هو الذي علم من يشاء العلم منهم، ولم يقل أحد من علماء الإسلام: إن العلماء مختصون بالمسلمين، وأنت تعلم أن المسلم أبيحت له الغنائم من مال ونساء وغيرهما، ولا جرم أن مال الكتابي حلال إذا جاءنا في الغنائم، ومثل المال التمتع بملك اليمين من هذه الطائفة لا خلاف بين المسلمين في ذلك. فقال: هذا حق. فقلت: فهل يبيح الله لنا الأموال والأعراض في الغنائم من القوم ويحرم علينا العلم، العلم علو للنفس وشرف لها، والمال واللذات من مال إليها وفتنته ذل وهلك، والقرآن كله يذم ذلك، أما العلم فهو مرغوب ممدوح، فكيف تستبيح المال وتحرم

العلم والنبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من الفتنة والوقوع في المهالك من أجل الغنائم والافتتان بها كما تقدم في سور كثيرة، فاقرأه في سورة «النمل» عند آية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ ﴾[الآية: ٣٤] الخ ونحوها، إن هذه العلوم قد استثارها آباؤنا في القرون الأولى ومنهم أخذ أهل أوروبا، فإذا رأينا القوم قد كسوا تلك الأمانة بحلل جميلة وأمكننا أن نرجعها جاز لنا ذلك بل وجب علينا، ونقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا. هانحن أولاء في القرن العشرين نظرنا فوجدنا أممنا الإسلامية في مجموعها قد انحرفت مئات السنين ونامت، أفلا يجب علي أنا وعلى جميع من هم مغرمون بأمثال ما نكتب الآن أن يبينوا للناس مزايا ديننا؟ فقال لي: أهذا واجب عليك وجوباً عينياً؟ فقلت: نعم. قال: وما البرهان له؟ قلت: إن هذه العلوم كلها واجبة وجوباً كفائياً، والأمة إذا لم يكن فيها أناس يكفونها ما تحتاج إليه وجب عليها أن تربي من تحتاج إليه بمقدار ما تحتاجه، ومتى قصرت نزل بها الذل والهوان، وهذا هو الحاصل الآن، فالذل يحيق بالأمم التي أهملت أي علم أو أي صناعة تحتاج إليها، والمسلمون حاق بهم الهوان لإهمالهم ذلك.

ولقد قال علماؤنا: من وجد في نفسه استعداداً لعلم كعلم الفقه وجب عليه أن يتقنه، يريدون وجوباً عينياً، فالعينية هنا جاءت من الاستعداد، فكل من عرفوا ما أكتبه في هذا التفسير، وكانوا قادرين على أي علم أو أي صناعة ثم ناموا عن ذلك عوقبوا لأنهم يعلمون. فقال: إذن صار ذلك كالحج. فقلت: كلا، الحج واجب عيني على كل من استطاع إليه سبيلاً، أما هذه العلوم والصناعات فالأمة مكلفة أن تعين جماعة تراهم أهلاً لها وإلا عوقبت الأمة كلها، ولذلك قال إمام الحرمين كما قلناه مراراً: إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لعموم نفعه إذا كان، وعموم ضرره إذا لم يكن. وعلى ذلك يجب على المسلمين أن يقرؤوا علوم الأمم كلها. إن الله عز وجل قد أحاط المسلمين بالمنذرات من جهة، وبالعلوم من جهة أخرى وسهل لهم سبله، فإذا أعرضوا عنها فهم غير شاكرين، وهذا هو كفر النعمة وكافر النعمة ممقوت.

إن الله فتح أبواب العلم للمسلمين اليوم فليلجوها. وأما قولك: ما الفارق بين عجائب الألوان في سورة «المؤمنون» وبين عجائبها هنا؟ فأقول: العجائب هناك قد أرت لها في أول هذا المقال ترجع إلى أن الحيوان يشاكل ما حوله من شجرة أو ورقة أو زهرة أو يكونَ كعصا مكسورة، فالحيوان بهذه المشاكلة يغش ما يفترسه فيعيش بهذا الإيهام، أما الذي هنا فإن الحيوان يشاكل حيواناً آخر لا نباتاً ولا ورقاً، هذا هو الفرق بينهما، وكلاهما إبداع في التصوير، وإغراب في الإبداع، وإحسان في النقش، وتفنن في ضروب الجمال والسحر الحلال. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

أما السؤال الثالث وهو: ما الفوائد العلمية المترتبة على ذلك؟ فهذه الفوائد غير خافية عليك، فانظر رعاك الله إلى علم لم يكن عند الأمم، فأصبحنا ندرس علم التوحيد دراسة لم يحلم بها السابقون، الله أكبر هل يبقى عند أحد شك في أحسن الإبداع والنظام؟ فما هذا التفنن والتصنيف والإغراب في الخلق وضروب الحكم. هل بقي بعد هذا زيادة لمستزيد؟ ألم تر نقوشاً سوداً وحمراً وصفراً في الثعبان، وقد شاكل الأعزل من السلاح صاحب السلاح فنجا من الهلاك، ألم تر الطير الذي لا أقارب له تساعده على القتال قد لون بلون ما له أولئك الأقارب فنجا بنفس هذه المشاكلة. ثم كيف

تلون الأنثى من حشرة «أبي دقيق» بتلك الألوان البديعة التي تشبه أثواب أغنى الغانيات في بلادنا المصرية من حيث التطريز والإتقان؟ أما ذكرها فلا لأن هذا اللون وضع لها ليحفظها بمشاكلتها لما له سلاح وهو السائل الكريه الرائحة، ثم كيف رأينا الذكر والأنثى اللذين لا قوة لهما على قهر عدوهما من تلك الحشرات قد شابها الذكر والأنثى مما له سلاح وقد حفظا بتلك المشابهة، وهل يعرف المسلمون معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾[الرعد: ١٩] إلا بأمثال هذا، لم يقل الله: أفمن يؤمن، بل قال: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ ﴾، أليس هذا هو العلم؟ نعم العلم أفضل من الإيمان وأعلى، يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾[الروم: ٥٦] الخ، وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾[المجادلة: ١١]، وهذا هو الزمان الذي يتحتم فيه العلم. إن المسلمين الذين يكتفون بالإيمان مغرورون، أليس هذا هو العلم؟ نعم بمثل هذا يوقن المسلم إيقاناً لا يعتوره شك.

أما قولك: ما الفوائد العملية؟ فأقول: إن العلم دائماً يمد بالعمل، والأمة التي لا علم عندها لا عمل لها، اعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأرض من العوالم التي ليست متقدمة، ومع هذا قد جعل فيها نفوسنا من عالم أعلى، فهذه النفوس في الأرض أشبه بضوء الشمس يختلط بالتراب، فهو إذن بين عاملين: عامل الشرف وعامل الخسة، ولكن لما كان الله حكيماً ورحيماً كان من الحكمة أن يزعج هذه النفوس بعظائم الأمور، وهذا الإزعاج جاء لها على مقدار نقصها، والدليل على نقصها إرسالها لهذه الأرض، فالناس يحسون بالآلام من الحر والبرد والصواعق والزلازل والحشرات الآكلات لزرعنا، والشاربات دماءنا في فراشنا والأمراض الظاهرة والباطنة، ولما كانت هذه كلها يتلقاها الناس كانوا تارة يحزنون، وتارة يصبرون، وألقى بينهم العداوة والبغضاء، وأثار بعضهم على بعض أمماً وأفراداً وأقارب في النسب وأشباهاً في الصناعات والأعمال والصفات والمساكن. وإنّما فعل ذلك لتكون العداوة الموجبة لغليان الدم، فلا يهدأ لهم بال مع أن المصائب الطبيعية أكثر من هذه، كل ذلك ليبلو بعضهم ببعض، وهذا الابتلاء ليستخرج قواهم ويستفزهم من الأرض ليعرفوا الحقائق، ولو كانوا أعلى من ذلك أخلاقاً لقل البلاء، ولكن البلاء والاختبار عظيم على مقدار نقص هذه النفوس، وإنّما جاءت هذه المزعجات ليرتقوا إلى العالم الأعلى، فإنهم منه جاؤوا وإليه يرجعون.

فلما كانت هذه حال هذا الإنسان خلق في هذه الأرض التي جعلت الحيوانات فيها على هذا النمط، فإن أرضنا من طبعها أن ما عليها من الحيوان ألقى بينها العداوة والبغضاء، فمنها الآكل ومنها المأكول، كل ذلك لحكم تقدمت في هذا التفسير. إذن هذا الإنسان عنصره شريف وقد أثيرت عزائمه بالمزعجات مشاكلة لأنواع الحيوان.

وهاهنا للإنسان منهجان: منهج شريف ومنهج خسيس، فأما المنهج الخسيس فهو أن يبقى كالحيوان الذي وجد في الأرض معه قاتل ومقتول وحاسد ومحسود وهكذا. وهذه المرتبة قال الله له فيها: ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[النساء: ١٠٢]، ومعنى هذا أن النوع الإنساني اليوم لا يزال طفلاً غراً، فلن ترى دولة من دول الشرق أو الغرب إلا والنفاق هو المنهج الساري بينهم، فالوزيران يجلسان معاً وتضرب لهما الموسيقى وهناك الجواسيس تبحث عن الحقائق، فما من أمة إلا ولها جواسيس تتزيا بزي

الأمم وتأتي بأخبارها، فهذه الأمم الآن لم تزد قيد شعرة عن الحيوان في أخلاقه وعاداته، فهاهي ذه أنواع الطيور والزواحف والحشرات قد رسمت أمامك ورأيت أن الضعيف نجا بسبب مشاكلته للقوي وقد كثر هذا جداً والإنسان لم يزد عن هـذه قيد شبر، فأعظم دولة ترسل من لدنها أناساً مخبرين يتزيون بزي غيرهم ملبساً ولغة وأخلاقاً ويتم لهم ما يريدون.

وقد ذكرت في هذا التفسير أن اليابان في حرب الروس لونوا السفن بلون ماء البحر فلم يهتد إليها الروس فكانوا من الهالكين، إذن الإنسان في أعلى مراتبه اليوم لم يعمل في سياسته أكثر مما صنع للزواحف وللطيور والحشرات، فهؤلاء قوم قلدوا الحيوان فيما منح هذه الصفات المنجية له، أما المنهج الأعلى فذلك أن هذا الإنسان يعلو عن الحيوانية، ويرتقي إلى عادات وأخلاق أرقى، فيكون الناس كلهم عاملين في الأرض مجدين في منفعة المجموع، بحيث لا تذر أمة من الأمم فرداً من أفرادها بلا عمل ولا أرضاً بلا زرع، وتصبح الإنسانية أرقى من سابقتها. فقال صاحبي: وهل الله ذكر ذلك في القرآن؟ ثم إنك تكتب هذا للمسلمين، وهل المسلمون في يدهم ذلك؟ فقلت: إن الله يقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]، فالإنسانية كلها اليوم في الدركات السفلى وكلهم متحاسدون منافقون، كل دولة تنافق للأخرى وتظهر غير ما تخفي. والله عامل الأمم بهذه المزعجات لعلهم يرجعون عن هذه الأخلاق أي في هذه الحياة الدنيا، وهذا دليل على أن هذه إنسانية لها يوم في نفس الأرض تكون أرقى منها الآن ويكونون أقرب إلى الإصلاح، وذلك هو الزمن الذي ينزل فيه المسيح وذلك بالصفاء ويزول الدجالون من هذه الدنيا، والدجالون اليوم في كل الأمم. فقال: ولكن يقول الله تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[النساء: ٧١].

فقلت: هذا الحذر منه في الأمم الحالية. فقال: ولكن المسلمون لا يبالون بأولئك الجواسيس غالباً. فقلت: إن الأمة الإسلامية التي لا تفقه أحوال الأمم حولها تكون عاصية، فلا بد من معرفتها كل علم وكل صناعة وكل سياسة ولتلبس لكل حال لبوسها والأمة المسالمة النائمة لا بد من هلاكها سريعاً فليشاكلوا الأمم حولهم في العلوم والسياسات وليبقوا على أخلاق العفة والشرف وحينئذ يرتقون.

فليكن حذرهم في كل زمان بحسبه، والجواسيس اليوم يكونون قوماً من الممتازين في العلم والأخلاق، فهم يحذرون ويكلون النتائج إلى الله بعد أن يحترسوا من كل صغيرة وكبيرة كما تفعل الأمم، وكما هي حال هذه الطيور والحشرات والزواحف، فوافق القرآن الطبيعة والشرع الوضع.

فأما ارتقاء الأمم كلها فهذا له يوم معلوم عند الله، فليستعد له المسلمون من الآن والله هو الولي الحميد. فقال صاحبي: بقي لي سؤال واحد. فقلت: ما هو؟ فقال: أراك تستنتج من نفس المناظر الحيوانية والنباتية وتستخرج منها قواعد وعلماً، وهذا العلم يرجع موافقاً للقرآن. فقلت: حقاً لأن هذه أعمال الله وهذا كلام الله، والأمم الإسلامية التي تظن أن فهم ألفاظ القرآن كافية لحياتها تموت بعد قليل ولا تعيش إلا بالعصبية كما قرره ابن خلدون، والعصبية تنحل بعد قليل وتذهب. قال: نعم. قلت: لا بد من قراءة هذا الوجود كله فإن دراسته ترقي العقول، وهذه الدراسة نفسها دراسة للقرآن.

إن كل ما نراه إن هو إلا شعائر الله. إن شعائر الله على قسمين: شعائر للعامة والخاصة، وهي كشعائر الحج وشعائر لا يعقلها إلا الخاصة، وهي أمثال ما تلوته عليك الآن. أفلست ترى هذه الشعائر

العجيبة تسحر العقول وتدهش الألباب، وسيكون في هذه الأمم الإسلامية حكماء عاشقون مربون لها منظمون لشؤونها لما يرون من هذه الشعائر، فكما أن الأرض كلها مساجد لنا هكذا كل الأرض شعائر لنا، ولكن هذه الشعائر لا يعقلها إلا قليل. ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣].

وهذه الطائفة هي التي تفهم قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]، إن الأمم اليوم آخذة في الرقي السريع، وقد ركبوا الطيارات وتقاربوا وهم يقولون بالسلام العام، فلا مناص للمسلمين من الإسراع في ذلك، فإن وحدة الأمم هي التي أشار الله لها هنا فقال: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠]، وهذه الفطرة هي التي أذاعها نبينا صلى الله عليه وسلم بأن أمر بلالاً أن يؤذن في الكعبة بين رجالات قريش، وهو القائل: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، وهو القائل: «اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي»، ويقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣] الخ فهذا يوم سيأتي وكل آت قريب والفضل فيه للإسلام، فليعلم ذلك المسلمون. انتهى مساء الاثنين ٢٤ يونيو ١٩٢٩.

بهجة العلم في حشرة أبي دقيق التي تقدم ذكرها

اللهم إنك قد أودعت في عقول الأمم والأفراد بذور العلوم وأبدعت في استخراجها من الأرض والعوالم حولها، فهاأنا ذا اليوم قصصت حشرة «أبي دقيق» فيما تقدم، وأن منها طوائف وطوائف متعاهدات مثقفات في أفريقيا وأمريكا وآسيا، هذه الطوائف تشابهت في أن لها سلاحاً تحمله وذلك السلاح هو السائل الأصفر المقذر للابس وأجسام ما يقصدها بسوء من إنسان وحيوان، وأن هناك أصنافاً من الحشرات تحفظ من الهلاك بسبب المشابهة والمماثلة في الشكل واللون فتهابها المهاجمات وتخافها وتتحاماها، فتكون هي من الباقين المحفوظين من الدمار والموت الزؤام. فهذه قد أذكرتني بما سمعته في قريتنا وأنا تلميذ بالجامع الأزهر أيام العطلة الصيفية، إذ سمعت الفلاحين يقولون: إن فلاناً - من أقاربي - مد يده إلى حشرة «أبي دقيق» فألقت عليه مادة صفراء قذرت ثوبه فما أسرع أن أطلقها من يده ففرت فرحة بالنجاة وسعيدة لما لها من السلاح، فلما أن وفقني مجيب الدعاء، وعرفت هذا أيقنت أن بذور العلم مبثوثة في العالم كله، فمن الناس من يجيب داعي الوجدان المنبث في النفوس من الله، ومنهم من يتولى بركنه وهم من الباحثين عن الحقائق ساخرون مستكبرون فهذه الحشرة التي ألقت سائلها الأصفر القذر على ذلك الفلاح في قريتنا فتحت باباً للبحث في الحشرات ودراستها ولكن لمن فتحته؟ فتحته في بلدة لا علم فيها ولا علماء لا يأبهون بمثل هذه المفاجآت ولا يشتاقون لبحث ما يشاهدون، ولكن العلم في الأمم الحية أظهر في هذه العصور أن هذه الحشرة فرد واحد من طوائف، وطوائف في أفريقيا وأمريكا وغيرهما، وأنها يعوزها البحث والتنقيب، ولكن الله عز وجل لم يذر الإنسان بلا تذكير، فهو قد ذكر أهل بلدتي وغيرهم بهذا فكانوا معرضين لأنهم ليس عندهم لذلك استعداد، وهكذا نرى الناس يشاهدون شروق الكواكب وغروبها وجمال النجوم فلا يفكرون فيها، ولكن هناك أناس بحثوا فعرفوا، ويشاهدون أنواع الحيوان فلا يفكرون فيها، والمفكرون قوم مصطفون ويرى الرجل رؤيا فتقع كما رآها فلا يفكر في ذلك مع أن هذا مبدأ من مبادئ علم النفس، ومفتاح علم بقاء الأرواح ومفتاح معرفة عموم علم الله، ولكن لا يفطن لهذه المباحث إلا قليل، فالله جعل

بذور العلوم عامة في جميع الأقطار وعند جميع الناس، ولا يتفطن لها إلا المفكرون. انتهى والحمد لله رب العالمين

درجات العقول وبيان فهمها في هذه العجائب

اعلم أيها الذكي أن الله لما أبدع هذا العالم وأبرزه للعقول الإنسانية وللغرائز الحيوانية لم يسو بين العقلاء في درجات الآراء، ذلك لأنه متكبر متعال. إنه تردى بالكبرياء واتزر بالعظمة فليس الجمال البديع معرضاً لكل ناظر ولا مطمعاً لكل باحث، وإذا أردت بياناً لذلك فارجع إلى ما ذكرته لك في سورة «الفاتحة» من المثل الذي ضربته، فترى هناك رجلاً وابنه ودابته في الحقل، وكل من الثلاثة له غرض يريده ومقصد يتوخاه، فلا مقصد للدابة من الحقل إلا أن تأكل البرسيم، ولا غرض للصبي إلا أن ينظر بهجة الزرع وجماله الخ، وللفلاح رأي أعلى، ثم المهندس فالعالم الطبيعي فالعالم الرباني، هذا المثل قد استوفيت الكلام عليه في سورة «الفاتحة»، ثم انظر إلى مثل آخر ضربته في سورة «المؤمنون» عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[الآية: ٥٣]، وهو مثل العميان الست الذين أخذوا يبحثون في حقيقة الفيل، وكل منهم رأى فيه رأياً لا يعدو ما لمسه بيديه من خرطوم أو ذيل أو ظهر الخ، فهذا المثلان في سورة «الفاتحة» وفي سورة «المؤمنون» يظهران لك أيها الذكي أن هذه الدنيا معرض لكل عقل، والعقول مختلفة والصور المعروضات فيها تتجلى لكل عقل بحسب درجته وهيئة تربيته، فكما أن العميان الست في مثال الفيل الذي جاء في كتب الإنجليز عن أهل الهند وذكره الغزالي أيضاً من علماء الإسلام حكم كل منهم على الفيل بما أحست به يده، هكذا الكتاب في الشرق والغرب كل يحكم على المحسوسات بما وصل إليه علمه ولا يتعدى طوره. وكما أن السليم البصر إذا رأى الفيل حكم حكماً أعلى من حكم هؤلاء العيان، وقال: إن كل ما قالوه في الفيل حق، ولكنها آراء جزئية لا كلية، هكذا أولئك الكتاب والمفكرون الذين يقرأ الناس كتبهم في عصرنا الذين أشبهوا هؤلاء العميان الست، فوقهم طائفة هم أولو العلم الذين وقفوا على الحقائق، وإذا قرؤوا كلامهم يعرفون منه درجتهم في العلم ويحكمون عليهم بما كتبوا، وكما أن الله عز وجل قال في أهل الجنة والنار: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[الأعراف: ٤٦]، هكذا الناس في الأرض فيهم اليوم طائفة امتازت بسمو العقل وسداد الفكر، فهذه الطائفة اليوم هي التي تعرف كلاً بسيماهم، وهؤلاء أنفسهم يكونون من أصحاب الأعراف يوم القيامة، فأصحاب الأعراف يوم القيامة يكونون في مكان عال مشرق على الطائفتين، وهم الآن في الدنيا علوا في منزلة عالية من سمو الفكر، وبهذا يميزون الكتاب ويعرفون درجاتهم. هذا ما أردت أن أجعله مقدمة لما ستراه من عجائب الحكمة وبدائع العلم ولتكون أنت من أصحاب الأعراف في هذه الدنيا وتكون موئلاً ومرجعاً ترجع إليك الأمم الإسلامية في ظلامها الحالك فيهديها إلى سبيل الرشاد.

فهاك ثلاث مراتب من مراتب الكتاب في عصرنا:

المرتبة الأولى: اقرأ ما كتبته في سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الآية: ٧]، وكيف قال العلامة «وليم» الذي ترجمت آراءه في الألوان: إن دراسة الألوان في الحيوان ليست سهلة الخ، وهناك ظهر العجب العجاب. ثم انظر ما كتبته في سورة «المؤمنون» عند

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وتأمل الصور والأشكال هناك، وكيف استدل أولئك العلماء الغربيون بهذه الصور على أن كل ألوان الحيوان إنّما جيء بها لحمايتها، وليس ذلك تابعاً للوسط، ثم انظر ما كتبته لك هنا وهي الصور المتقدمة مع شرحها، وبها عرفنا أن الحيوان قد يشاكل حيواناً آخر أشد بأساً منه فينجو من الهلاك، فإذا رأى أصحاب الأعراف من النوع الإنساني هذه الآراء أيقنوا بأن هذه الدرجة من الكتاب طبقة ممتازة، لأنهم رجعوا إلى الحكمة العامة في الوجود ودرسوه بعض الدراسة.

المرتبة الثانية: أن يجعل الكاتب هذه المشاهدات مجرد عجائب وقد غض النظر عن الحكمة العامة، وهذه المرتبة تظهر في أمثال ما كتبه صاحب كتاب «عجائب الخلق في الحيوان»، وهو المرحوم جورجي زيدان، فإنك حين تقرأ ما سأقصه عليك من الكلام على الحشرات الزهرية تجد أنه قد توسط في الأمر، فلم يبحث البحث العلمي الذي بحثه علماء الغرب وأن هذه الألوان إنّما خلقت لحماية الحيوان، ولم يهتد إلى تعليل، فهذا يدل على عدم كمال الاطلاع، وهذا بيان ما قاله.

الحشرات الزهرية



(شكل ١٢)
صورة الجندب المصلي بشكل زهرة

(شكل ١٣)
صورة الجندب المصلي وفريسته في قبضته

وفق بعض الباحثين في طبائع الحيوان إلى اكتشاف حشرة من قبيل الجنادب اسمها العلمي «فاسوما نتس كارولينا» تقتات بالذباب ونحوه، وتحتال في اقتناص فريستها حيلة غريبة ـ انظر شكل ١٢ ـ وذلك أن لها يدين مستطيلتين تثنيهما ثني السجود، ومنها اسمها عند الإفرنج «الجندب المصلي» وكذلك يسميها أهل الترانسفال، ويسميها غيرهم «فرس الشيطان»، وهو الاسم اللائق بها إذ ليس فيها من ظواهر الصلاة غير السجود، وفيما خلا ذلك فهي دويبة مفترسة ولها قدرة على الاحتيال بما يدهش العقل، ومدار حياتها اقتدارها على التظاهر بأي لون أرادته، فتقف على الزهرة الحمراء وتتلون بلونها حتى تظنها جزءاً منها، وإذا كانت الزهرة من عدة ألوان تلونت بها جميعاً. انظر شكل ١٢.

وقد تقف على الغصن بين الأوراق فتتكيف بما يشبه الزهرة ببتلها وسبلها وأسديتها، فتخفي يديها وتدخل رأسها بين الأوراق وتبسط أجنحتها للخارج حتى تشبه الزهرة مشابهة كلية، فتخدع الناس فضلاً عن الحشرات والذباب، فتقع الذبابة عليها أو بجانبها طمعاً في امتصاص الزهرة فتثب هي عليها وتلتقطها بيديها بين ثنيتي السجود، كما ترى في الشكل الثالث عشر.

ومن غريب طبائع هذه الجنادب أنها تمكث على الأغصان أو بين الأوراق ساعات أو أياماً متشكلة بشكل الزهرة لا تبدي حركة تدل على الحياة الحيوانية، كأنها تجعل نفسها جزءاً من النبات الذي تقف عليه، وتتحرك معه بحركة الريح كما تتحرك الزهور ولو كانت في مكانها بحيث يستحيل على غير المتأمل أن يميزها عن زهور النبات، ومنها نباتات عديدة تختلف طبائعها باختلاف الأقاليم أشهرها ما وجدوه أخيراً في «سنغافورة» و«بورينو» من جزائر المحيط، واسمه عندهم «دريبولاتيس» وهو الذي نبههم إلى هذه الطبائع في هذا النوع من الحشرات. اهـ.

هذا ما جاء في كتاب «عجائب الحيوان»، وأنت ترى أنه لم يرتق إلى درجة كتاب الأوروبيين الذين بحثوا في الحقائق واهتدوا إلى أن هذه الألوان لم تكن إلا لأجل حماية نفس الحيوان. ولا جرم أن مثل هذه المباحث لا خير فيها إلا بمثل هذا الاستنتاج، فإذا عريت عنه فقد أصبحت جسماً خاوياً فارغاً ولا فائدة منها إلا ما يستفيد الطفل من أعواد الكبريت يوقدها ويفرح بمنظر نارها، وما يستفيده من الطيارة التي يرسلها في الجو، وما ذلك إلا مجرد التسلية، أما العلم وأما الحكمة فلا، والناس في كل أمة تابعون لآراء كتابهم مشغوفون بتقليدهم، فمثل هذا القول الذي انتشر في مصر وسوريا وبلاد العرب يخرج منه القارئ وهو لم يزد حكمة ولا علماً ولا كتاباً منيراً، وإنّما تكون عنده معارف شتى لا تجمعها حكمة عامة تكون هدى للمهتدي، نعم ما لا يدرك كله لا يترك كله، ولكن المتنبي يقول:

ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

المرتبة الثالثة: ما جاء في مجلة «كل شيء» تحت العنوان التالي:

خداع الحيوان
أمثلة غريبة

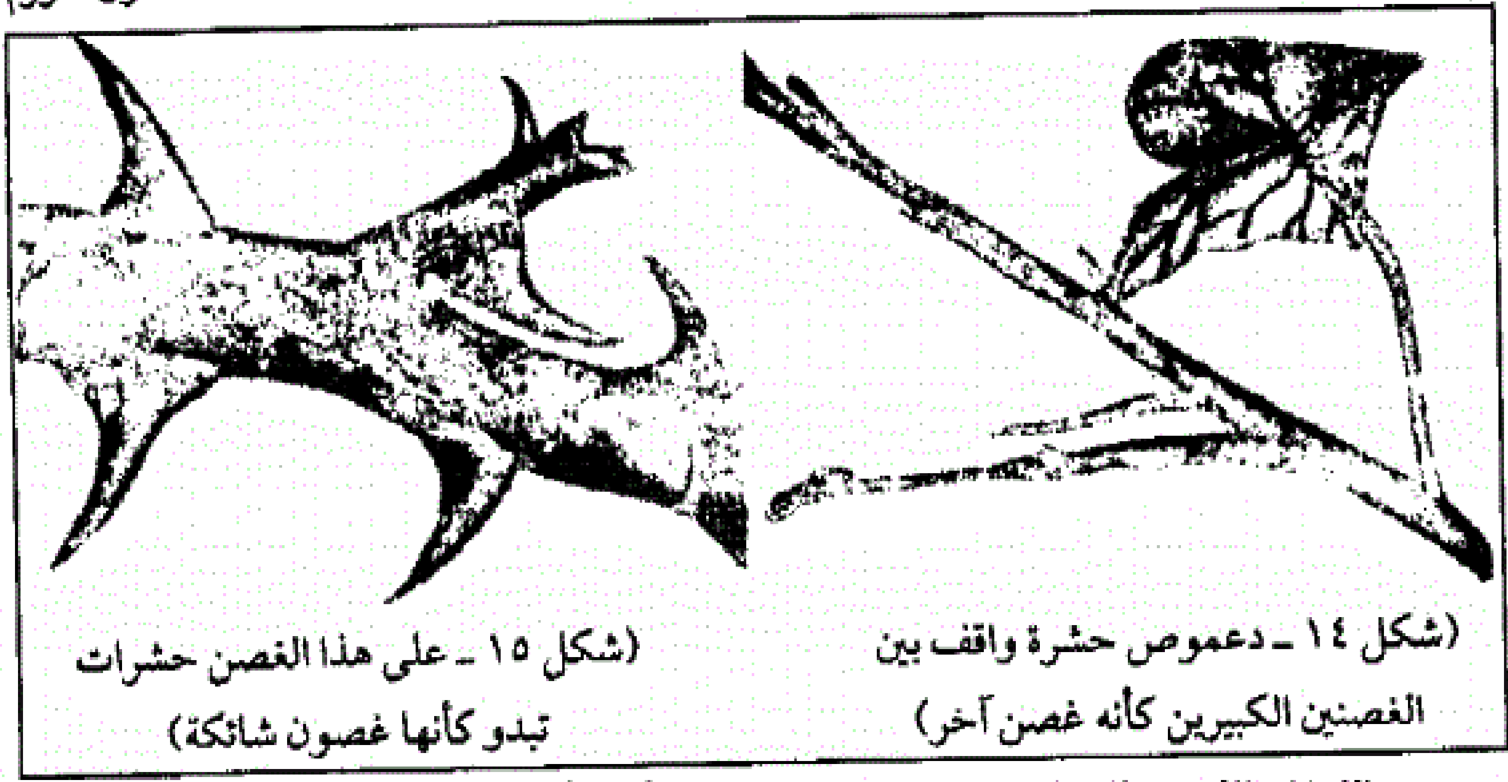
لو حاول أحد الفلاسفة أن يجد أصلاً للآداب في الطبيعة يجعله أساساً للأخلاق العليا لأعجزه ذلك، فإن في الطبيعة من الخداع والمكر والغش ما يدهش له الإنسان.

فبين السمك مثلاً سمكة تعيش وكأن على رأسها طاقية الإخفاء، إذ هي شفافة لا تظهر في الماء إلا خيالاً ضعيفاً، وهي تستعمل هذه الشفوفة في الاقتراب من فريستها وقتلها ثم التهامها.

والأخطبوط يخدع فريسته بأن يفرز في الماء سائلاً أسود حتى لا تراه ثم يلتفت حولها وهي في عماها فيقتلها ويأكلها.

وبعض طيور الماء يبيض على الشاطئ فلا يبني عشاً لبيضه وإنّما يلقيه بين مدر الشاطئ وحصاه، فيمتزج لون البيض بهما بحيث إذا مر إنسان أو حيوان لما استطاع تمييز البيض مما حوله.

ومن ضروب الغش التي تتبعها الحشرات مع العصافير وتحتمي بها أنها في طورها الثاني عندما تخرج من البيض وتصير «دعموصة» تشبه الدودة تكون عندئذ طرية مملوءة بالدهن ليس فيها عظمة، والطيور عندئذ تشتهيها لقمة سائغة، ولكن هذه الدعاميص تنبت لأنفسها قروناً زائفة ووجهاً مخيفاً وأحياناً تشبه الثعابين فتخشاها الطيور وتنخدع عنها حاسبة أنها شيء آخر غير تلك اللقمة الدسمة من الدهن. انظر شكل ١٤، وشكل ١٥ في الصفحة التالية.



(شكل ١٤ ـ دعموص حشرة واقف بين الغصنين الكبيرين كأنه غصن آخر)

(شكل ١٥ ـ على هذا الغصن حشرات تبدو كأنها غصون شائكة)

والفراش الذي يتطاير في الربيع حول الزهر يكون أحياناً كثيرة زاهي اللون، فتراه العصافير فتحط عليه، ولكنه سرعان ما يرى ظلها ويحط على زهرة فيندغم لونه في لونها، فتروح العصفورة وتجيء وهي كالبلهاء لا تراه. ووقت حصيد القمح نرى آلافاً من الجنادب تنفر وتقفز فإذا حطت على الأرض اختفت لأنها غبراء مثل الأرض، وأحياناً تعيش الحشرات على الأشجار فتتراءى للناظر كأنها أوراق حرشفية تغطي البراعم، وبعض الحشرات يشبه غصناً جافاً مكسوراً. وأخيراً يعرف كل منا أن الحرباء تتلون بلون الوسط الذي تعيش فيه كي تختفي عن أعين أعدائها، فهي خضراء بين أوراق الشجر غبراء على الرمل، وكل هذا غش وخداع يقصد منه خداع العدو والفريسة معاً. انظر شكل ١٦، وشكل ١٧.



(شكل ١٦ ـ حشرة تتراءى كأنها ورقة)



(شل ١٧ ـ فراشة قد أتقنت محاكاة الورقة حتى في العروق)

فهذه المرتبة الثالثة من الكتاب جاءت بتعليل لهذه الأشكال والصور والعجائب للقراء، وإن أكثر القراء في بلاد الشرق اليوم قد فشا بينهم الإلحاد، وقد نسبوا ذلك الإلحاد إلى علماء أوروبا فصارت هذه فكرة عامة، فلذلك تجد هذا الكاتب في المجلة بدل أن يسمو بالقراء إلى آراء كتاب أوروبا ويذكر ما وصلوا إليه من سمو الفكر والعلم ويبين أن هذه الألوان خلقت لحياة الحيوان وليست مصادفة أو رمية من غير رام، يقول: إن هذه الألوان في الحيوان أو المشابهات ما هي إلا غش وخداع، وإذا أراد الإنسان أن يقلد عجائب الطبيعة في الأخلاق لم يجد إلا الغش والخداع، وتكون النتيجة إذن أنه لا كمال في الأرض إلا لرجال السياسة والمنافقين والمخادعين والكاذبين وأهل الضلال.

فانظر أيها الذكي لأهل الشرق وأهل الغرب الآن، واعجب لهذه المراتب الثلاث: مرتبة في الغرب تقرب من نهاية الحكمة، ومرتبتان في الشرق: إحداهما: لا تثبت ولا تنفي. والثانية: قلبت العلم جهلاً والكمال نقصاً، وألبست الطبيعة ثوب النقيصة، وتركت قراءها حيارى في الوجود لا يرون إلا ضروب الاختلاس وأفانين الأكاذيب، تبعاً لما تعلموا من الطبقة الكاذبة الخاطئة، وهذه الطائفة يحق لها أن تقول: إن المرأة التي ترضع ولدها ابتغاء نفعه لها في المستقبل ثم فقدته فإن هذه العاطفة فيها خائنة كاذبة غاشة. فانظر كيف يسمي كتاب الإفرنج هذه العجائب حماية للحيوان، وكيف يسميها كتاب الشرق غشاً وخديعة.

هذا ما أردت أن أبينه الآن في مراتب الكتاب في الشرق والغرب. ومن هنا تعرف أيها الذكي لماذا تباطأ الشرقيون في الشرق الأدنى في درجات الرقي إلى العلا، ولماذا أسرع الغربيون. فالشرقي اليوم قامت عنده فكرة خاطئة جاهلة، وهي أن هذا الوجود كله خبط عشواء وأن هذه الفكرة فكرة الغربيين، ويكذبه ما تراه في هذا التفسير من آراء القوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد: ١١].

فانظر أيها الذكي في هذه المراتب الثلاث ووازن بينها وبين أعمال القراء، فالذين يقرؤون المرتبة الأولى تجدهم قوماً جادين في أعمالهم مرقين لمدنهم، لأنهم يعتقدون أن هذا الوجود مبني على حكمة ونور، فأما الآخرون فإنهم لا يرون في هذا الوجود إلا لهواً ولعباً لا عقل فيه يزنه ولا كمال، فهؤلاء تجدهم في مصر وسوريا والعراق وكثير من بلاد الشرق لا يعملون عملاً نافعاً، ويضيعون أوقاتهم بلا عمل، ويجلسون في مشارب القهوات ومحل الفرنجة، وهذا هو الذي قعد بالشرقيين، فكن أيها الذكي نوراً لأمتك معلماً لها ناشراً للحكمة ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾[الصافات: ٦١]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦].

أتدري أيها الذكي مم أخذت هذه المراتب الثلاث؟ أخذتها من قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢] - بكسر اللام - فجعل الله اختلاف الألوان آيات للعلماء الذين يقربون من المرتبة الأولى، ومعنى هذا أنه ليس آيات لغيرهم من الطبقة التي لم تفكر وهي الثانية، ومن الطبقة التي جعلت هذه الأشكال والألوان غشاً وخديعة، والحمد لله رب العالمين.

نور على نور في آية:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

من القواعد الحكيمة في النبات أن اختلاف لونه يصاحب دائماً اختلاف شكله وورقه وثمره وزمانه ومكانه وجميع أحواله. إذن ليس العجب والابتداء في الاختلاف خاصاً باللون، فإن كل اختلاف فيه إبداع وجمال، فانظر رعاك الله كيف جعل الله ذكراً وأنثى، وجعل آكلاً ومأكولاً كالنمر والأسد وكالثور والغزال والعنز، ومن عجب أن هذا التقسيم الأخير لا يختص بنوع ما من الحيوان فهو في الهواء وعلى اليابسة وفي البحر، وكما يكون في ذوات الأربع والسمك ونحوها يكون في الحشرات، وليست أريد الآن أن أذكر إلا ما جملت حكمه وظهر جماله في الإبداع، وهو ما جاء في جريدة الأهرام في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه:

الذئب في عالم الحشرات

أنشئ حديثاً في إنجلترا مفرخ غريب للحشرات تحت إشراف بعض موظفي الحكومة الذين يقضون أوقاتهم فيه يعنون بجيوش من الجنود الصغيرة ذوات الست الأرجل، هي حشرات تفتك بالحشرات التي تتلف المزروعات، وترسل هذه الحشرات المقاتلة إلى مختلف أنحاء الإمبراطورية البريطانية لمساعدة المزارعين على التخلص من شر الآفات. وتجري تجارب من هذا القبيل في ولاية كليفورنيا بأمريكا حيث يقوم الدكتور «ستانلي» أستاذ علم الحشرات في جامعة «كليفورنيا» في مهمة تفريخ ملايين الملايين من بيض الذبابات السابحة بحجم البعوضة، وهي من فصيلة الزنبار ويقال الزنبير والزنبور، وتضع بيضها في بيض الحشرات الأخرى المؤذية، ومتى نقف فرخها بيضته نما في البضة الأخرى وفتك بفرخ الحشرة الأصلية، وقد اضطر الدكتور «ستانلي» من مدة قريبة أن يرسل مائة ألف بيضة من بيض هذه الحشرات تلبية لطلب مستعجل في البريد الجوي ضمن علبة صغيرة، ومن جملة أعداء الحشرات المؤذية للزراعة حشرة تعد من أشرس الحشرات وأبرعها في ضروب القتال، وهي أشبه بقنبلة صغيرة ذات أجنحة، لونها كلون الفولاذ الأزرق المصقول يتخلله بقع برتقالية اللون وتعرف بالزنبار الحفار، ومعروف عن هذه الحشرة أنها تهاجم حشرة أخرى أكبر منها نحو عشر مرات، وكثيراً ما تقتحم العنكبوت الكبيرة المعروفة باسم «ترانتولا» في الولايات الجنوبية الغربية، وهذا سبب تلقيبها بصقر «الترانتولا»، ويبلغ طول جسم هذا الزنبار بوصة، وله خصر نحيف في دقة الخيط هو في الحقيقة الصديق الصدوق للفلاح، لأن معظم الحشرات التي يهاجمها هي من الديدان المضرة بالزراعة، وقد كتب المستر «وارد» الإنكليزي العالم بطبائع الحشرات يقول: إنه وجد في أحد أجزاء مقاطعة «ديفونشير» ألوفاً من الزنبار الحفار ولم يعثر بدودة واحدة، وقد استدل من ذلك على أن الزنابير أفنت الديدان كلها في العام الماضي، وأنثى الزنبار الحفار هي التي تقوم بحفر الوكر وهي التي تقاتل الديدان وتفتك بها، وتقع المعارك عادة بجوار الوكر، وتبدأ العمل في شهر يوليو عند اشتداد الحر، إذ تظل طائرة حتى تهبط على ضفة جدول أو جانب طريق حيث تكون الأرض صلبة قاسية، وتشرع في الحفر كما تحفر الثعالب أوجارها، أي: إنها تنحت التراب بيديها الأماميتين وتقذفه بعيداً بأرجلها الخلفية، ويستغرق حفر الوكر الذي يمتد غالباً إلى مدى ثلاثة بوصات طول النهار تقريباً، ويكون عادة

متسعاً من الداخل ضيق المدخل . ومتى انتهت من عملها تبحث عن حصوة تصلح سدادة لباب الوكر ، وقد تمضي ساعة تأتي بحصوة تلو أخرى إلى أن تعثر بالحصوة الملائمة لسد باب الوكر سداً محكماً ، وعندما تتوفق إلى غايتها هذه تجول هذه الصيادة البارعة باحثة عن طرائدها وحينما تشعر الدودة بدنو الزنبار منها تضطرب وتحاول المقاومة فتتقوس وتنفرد وتسرع الزحف لتلوذ بالفرار ، ولكن أنى لها ذلك والزنبارة تنقض عليها بسرعة البرق الخاطف ، وتقبض عليها بأرجلها فتكبلها وتداورها إلى أن تتمكن من إدخال حمتها بين مفصلين ، وهو مركز جهازها العصبي ، وتلقحها بمادة مخدرة فتشل حركة الدودة ، وقد تلقحها بإبرتها هذه في عدة مواضع لتتأكد من بقائها حية غير قادرة على الحركة مدة أسبوع أو أكثر ، وقبلما تشرع في جرها إلى الوكر تقلبها على ظهرها لكيلا تستعمل أرجلها للمقاومة ، ومتى وصلت إلى باب الوكر تضع بيضة أو أكثر في جانب الدودة قبلما تجرها إلى داخل الوكر حيث تدخرها مؤنة حية لفراخها عندما تنقف بيضها ، ثم تنطلق لتأتي بدودة أخرى وهكذا حتى يفرغ بيضها ويمتلئ الوكر ، وحينئذ تشرع في سد باب الوكر بدقائق التراب التي تحيلها بمادة رطبة من جسمها ، وبعد ختم الوكر بيومين أو ثلاثة أيام يفقس البيض وتخرج منه الفراخ فتأكل من جسم الديدان إلى أن تبلغ أشدها ثم تنسج لنفسها شرنقة تبقى فيها حتى شهر يونيو التالي إذ تخرج من الوكر زنباراً كاملاً فتياً لتحل محل آبائها التي يقتلها صقيع الشتاء . اهـ .

هذا ما ظهر أثناء طبع هذه السورة من العلم ، فيا ليت شعري ماذا يريد الله بهذه الأساليب من الحكمة ؟ وماذا نفهم من هذه العجائب ؟ نفهم أنه يقول لنا : أيها الناس ، أيها المسلمون إما أن تتعلموا وإما أن ترحلوا من أرضي ، هل عميتم عن النظر إلى حكمتي أفلا تعقلون ! سلطت الدود على زرعكم وقلت لكم : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر : ٢١] ، فهل سلطت الحشرات على زرعكم لإهانتكم كلا . وحق حكمتي ورحمتي التي وسعت كل شيء فكيف تسع رحمتي كل شيء وتتعدى أشرف خلقي ، فأسلط عليهم كل هوام الأرض والحشرات ؟ كلا كلا . وعزتي وجلالي إنّما سلطتها عليكم لتدرسوا ، والدرس يرقي عقولكم ويجعلكم اليوم في جنة العرفان العالية ، ويرفع نفوسكم عن الدنايا . وقد جاء في الأخبار : تداووا عباد الله فإن لكل داء دواء ، فكما جعلت لأمراضكم أدوية جعلت لأمراض نباتكم أدوية ملائمة ، وما هذا وذاك إلا لإشراق نفوسكم فهي المقصودة .

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة　　　على غير ليلى فهو دمع مضيع

اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وعلى بهجة الحكمة ، فقد علمتنا ما لم نعلم إنك أنت العليم الحكيم .

الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للطيفة الخامسة

في هاتين اللطيفتين ثلاثة مقاصد :

المقصد الأول : تنوع المادة إلى صور كثيرة .

المقصد الثاني : تنوع الصوت إلى لغات كثيرة وكيف كان الثاني نموذجاً للأول .

المقصد الثالث : كيف كان الترتيب في الآية يشعر بأحسن النظم في المدارس الشرقية والغربية التي هي قائمة الآن .

المقصد الأول:تنوع المادة

اعلم أن هذا المقام وهو مقام العناصر والمقام الثاني وهو الحروف قد ذكرتهما في سورة « البقرة » بطريق إجمالي ، فلنعد الكرة الآن لنرى كيف كانت المادة أصلها عالم رقيق لطيف هو الأثير ، وهذا العالم لم يره الناس ، وإنّما استدلوا عليه بأدلة طبيعية وكيماوية لا نطيل بها ، فرأوا أن هذه المادة منه تفرعت ، فهذا العالم المشاهد الذي يضيء والذي يستضيء كلاهما يرجعان لمبدأ واحد وهو الأثير. وهذا الأثير نتجت منه المادة الأصلية ، والمادة الأصلية هي كل شيء بل أرجعها بعضهم إلى حركات فيه ، وهذه المادة منها ما ينبعث الضوء منه وهي الشموس ومنها شمسنا ، ومنها ما يقبل الضوء كأرضنا. والضوء ما هو إلا حركات منتظمات وبها يكون الحر والبرد الخ ، وتتنوع الحوادث على الأرض ، والأرض والهواء والماء ما هي إلا عناصر قد شرحناها في الجدول السابق في سورة « العنكبوت » ، وقد علمت أن له حساباً ونظاماً كما أن سير الكواكب له حساب ، فالأنوار تأتي إلى الأرض بحساب ، والعناصر لم تكن إلا بحركات المادة وتنوعاتها ، فتنوع المادة كانت منه العناصر ولا معنى لتنوعها إلا تحرك ذراتها ، فلتعجب من الأمرين ليل ونهار بحساب . عناصر منتظمات من حيث جداولها بحساب .

فيا ليت شعري من كان يظن أن هذا العالم على هذا النظام ، من ذا الذي كان يظن أن عناصر المادة بينها هذه النسب ، تلك النسب التي أوضحتها هناك ، تلك النسب التي قرنت بين عنصر وعنصر بل بين كل عنصر وسائر العناصر.

إن العنصر الواحد له نسبة إلى ما فوقه وما تحته في الجدول. وكل صف منسوب إلى ما فوقه وما تحته . نعم هذا العلم وهو علم النسبة بين العناصر حديث ، ولكن ظهرت ثمرته في معرفة ثلاثة عناصر كانت مفقودة وخواصها التي بلغت ١٨ ، ومن ذا كان يظن في هذه المادة الميتة أن حركاتها منتظمة انتظاماً أدق من انتظام كل ما نراه من الأوفاق ومن قطع الشطرنج كالبيدق والشاه الوزير وأمثالها . إن الدقة هنا أحكم وأبدع . فهناك حركات الكواكب وخواص العناصر ومن بينها نشأت هذه الحوادث . ولا جرم أن من يعلم خواص هذين يعرف نتائجهما إلى الأبد . إن أدوار الفلك محسوبة معروفة وصفات العناصر معلومة عند مبدعها ، فنتائجها معلومة كلياتها وجزئياتها . بمثل هذا كان العلماء يقربون إلى الناس علم الله بكل ما كان وكل ما سيكون .

نتائج العناصر المركبة

أما نتائج العناصر المركبة فهي واضحة ظاهرة كما تقدم في أنواع النبات والحيوان ، وهناك ما هو دقيق لا يعرفه إلا الذين برعوا في علوم الكيمياء وغيرها . ولأقتصر لك على مقال واحد وهو ما جاء في الأخبار اليوم بجريدة الأهرام في يوم الخميس ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٦م ، ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ تحت العنوان التالي وهذا نصه :

كشف علمي جديد
استخراج البترول من الفحم

أثارت الصحف الألمانية ضوضاء شديدة حول الخطبة التي ألقاها الدكتور «فريدريك برجيوس» في مؤتمر الفحم الدولي في « بتسبرج » وبسط فيها طريقته الجديدة المسماة « تحويل الفحم إلى سائل » ،

وملخص هذه الطريقة أن الفحم مؤلف من جزء من الهيدروجين و١٦ جزء من الكربون في مقابل جزء من الهيدروجين و١٨ جزء من الكربون في البترول، فيكفي لتحويل الأول إلى الثاني أن تزاد نسبة الهيدروجين إلى الكربون في الفحم ضعفين، بحيث تصبح ٢ إلى ١٦ ليتحول إلى بترول. ولما كان الفحم ليس من السهل تحويله إلى سائل عمد الأستاذ «برجيوس» إلى تعريض الفحم لضغط يعادل ضعف الضغط الجوي في حرارة تختلف بين ٣٠٠ و٣٥٠ بميزان سلسليون، وقد حصل حينئذ على مادة كالعجين صوب إليها الهيدروجين بواسطة طلمبة خاصة بعد رفع الحرارة إلى ٤٥٠ درجة، فرأى أن الهيدروجين قد زاد مقداره بالنسبة إلى الكربون، وأن الفحم بدأ يتحول إلى سائل، فمن كل طن من الفحم يستخرج بهذه الطريقة ١٥٠ كيلو غراماً من الفازولين، و٢٠٠ كيلو غراماً من البترول الثقيل، و٦٠ كيلو غراماً من الدهون، و٨٠ كيلو غراماً من البترول الصافي، كما أن هناك سوائل أخرى أقل شأناً، فإذن يكون نصف الفحم الذي يعالج بهذه الطريقة يتحول إلى سوائل، ويقال: إن هذه الطريقة إذ عمت ألمانيا فإن مناجم ألمانيا تزيد قيمتها ثلاثة أضعافها الآن وتستغني عن كل ما تأخذه من الأمم، فإذا عمت هذه الطريقة ألمانيا تقتصد خمسمائة مليون جنيه «نصف مليار» ويقال: إن المستقبل للسوائل القابلة للاحتراق، وهذه الطريقة ستحدث انقلاباً عظيماً في أوروبا بحيث يمكن تدفئة المدن وتوزيع الماء الساخن على المنازل من المعامل التي تحول الفحم إلى بترول بطريقة الأستاذ «برجيوس». اهـ.

هذا ملخص ما جاء في الجريدة المذكورة، وأنت ترى أني ذكرته هنا في التفسير وربما تعجب من هذه المفارقة، فأقول لك: كلا، والله ما هي مفارقة بل هي موافقة أشد الموافقة، وإلا فلماذا يظهر هذا الكشف اليوم سواء أتم أم لم يتم، كيف ظهر هذا وأنا أحضر التفسير للطبع، أليس هذا أيها الفطن عين ما ذكرته؟ الله أكبر إنه مثل ضربه الله نفسه لما نطقت به هذه السور، إنه من أسرار أوائل السور، أوائل السور فيها الحروف مقطعة، وقلنا هنا وفي السورة قبلها أن ذلك يقصد به الرجوع إلى أصول العلوم، فكما أن الكلام مرجعه الحروف المقطعة هكذا هذه العوالم مرجعها العناصر المختلفة.

الله أكبر، ظهر السر المكنون في القرآن في آخر الزمان، وظهر أن المقصد من هذه الحروف في أوائل السور أن ندرس هذا العالم ونحلله إلى عناصره، بل الله يشير بهذا القرآن إلى ما حصل فعلاً في الدنيا. فالله رب العالمين، والعالمون منهم قوم في الأرض، وهاهم أولاء في ألمانيا حللوا المركبات فأرجعوها إلى عناصرها، ولما أرجعوها إلى عناصرها استخرجوا منها منافع لهم ولنا، إن الله خلق عباده وأنزل لهم آخر الأديان وجاء صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فنطق بهذه الحروف، ومما جاءت في أوائله من القرآن هذه السور «العنكبوت» و«الروم» و«لقمان»، و﴿الٓمٓ﴾ في هذه السور كما كررناه مراراً تشير إلى آيات في السورة اشتملت على الحكمة والبحث في هذا الوجود كما أوضحته لك، فهذه الحروف للحكمة التامة التي ترجع الأشياء إلى أصولها الطبيعية، والأمم اليوم لا ينتظم لها زرع ولا طب ولا حرب إلا بحساب العناصر كما يعرفه الأطباء وغيرهم. وهذه مسألة الفحم انظر إليها تجد الفحم هو نفس البترول كلاهما مركب من هيدروجين وكربون واختلفت النسبة. ثم إن ما قدمناه نقلناه عن الجرائد فالظاهر أنه يحتاج إلى تصحيح بعض الأرقام، وهذا لا يضر أصل الموضوع، فالفحم والبترول يرجعان لعنصرين اختلفت نسبتهما، ومتى أرجعت

النسبة كالمطلوب حول الفحم إلى بترول. وإذا صح هذا أصبح الناس في رخاء وسعادة، لماذا هذا؟ لأن المركبات رجعت لأصلها، وهذا هو زمان النور والعرفان الذي تشير له الحروف في أوائل السور. إن من أجل معجزات القرآن أن يظهر قوم يحللون المركبات إلى عناصرها ويعرفون نسبها ويتصرفون. وهذا هو سر القرآن. أما المسلمون الحقيقيون الذين وعدهم الله بالنصر فهم أولئك الذين يأتون بعدنا ويقرؤون ما كتبته الآن ونحوه، فيعلمون حق العلم أن دين الإسلام أفضل وأشرف مما عليه المسلمون الآن، وأن هذا الدين يراد به أن يكون المسلم فوق كل علم وكل حكمة.

اللهم إن ديننا هو الدين الذي به تحول أرضك إلى جنات ونعيم باجتهاد علماء هذه الأمة في علومك التي خبأتها لهم في أرضك وإذن تعود الأرض جنة للمسلمين ولغير المسلمين، ويكون السلام العام في الأرض، ويكون هذا السلام سببه المسلمون.

هذا هو التنوع في العناصر. أما التنوع في غيرها فلقد تبين لك فيما تقدم في هذا التفسير عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الحجر: ١٩]، وكيف كان تنوع الزهرات في مختلف الأشجار، وقد رتبوا النبات على مقتضاه إلى ٢٤ رتبة، كل رتبة تحتها أجناس، والأجناس تنقسم إلى أجناس أقل منها، وهكذا حتى بلغت مئات الألوف من الأنواع. كل ذلك بالتنوع في الزهر، ولا تنوع في الزهر إلا بتنوع في الشجر، ولا تنوع في الشجر إلا بما دخله من العناصر في مواد التغذية التي لا سبيل لها إلا تلك الأنابيب الشعرية التي في عروق الشجرة والفتحات التي في الورقات، فتنوع الفتحات في الورقات وفي العروق يتنوع بحسبه الغذاء الداخل في النبات، وبمقتضى هذا الغذاء يكون النبات، وهذا من أعجب العجب دقة في الصنع وإبداعاً في الشكل، وترى أوراق النبات وأشكالها وألوانه وفروعه وطعمه ورائحته وطوله ومدة مكثه في الأرض ومنافعه والأرض التي يصلح فيها، وما يناسبه من السماد وما يلائمه من الحيوان وما يكون منه من المنافع كالدواء والغذاء واللباس والعطر والزيت واللبن ـ كما تقدم ذلك ـ وما أشبه ذلك مما لا يحصى، كل ذلك قد اختلف فيه النبات اختلافاً عظيماً، وترى أن ألوان النبات على وجه العموم الخضرة، ولكن المدهش أن خضرة كل نبات لا تشابه خضرة الآخر، وانظر إلى نوع الحيوان قد اختلف ذلك الاختلاف وأكثر. ناهيك ما ترى من أن الصنف الأبيض اللون لا ترى منه اثنين يتشابه لونهما ولا شكل وجههما ولا بقية الأعضاء، ومسألة خطوط الإبهام معلومة فلا تشابه بين إبهامين وهكذا الكرات الدموية، ولأكتف بما جاء في بعض المجلات العلمية بمصر تحت العنوان الآتي:

تحقيق شخصية المجرم

تعددت وسائل تحقيق الشخصية التي يستعملها المحققون في اكتشاف أسرار الجرائم العويصة حتى صار من الصعب جداً على مجرم أن يفر من يد البوليس الذي يقتفي أثره. فذوو السوابق لهم الآن سجلات متقنة فيها طوابع أصابعهم وطوابع مسام جلدهم. ومما هو جدير بالذكر عن طابع الأصابع أنه لا يتغير، ولو شيط الجلد بالنار. وقد حاول بعض المجرمين أن يفعل ذلك فلم يمكنه إضاعة معالم أصبعه الثابتة في السجل، أما مسام الجلد فقد كثر اعتماد المحققين عليها هذه الأيام لأنها أسهل في المراجعة. ويمكن أخذها من أي مكان من الكف، وطريقة المراجعة أن تكبر صورة الطابع بالفوتوغرافية

ثم تطابق الخطوط أو المسام على الأصل، ولا يوجد اثنان في العالم يتفقان في خطوط الأصبع أو مسام الجلد، مع أن الصورة الفوتوغرافية للوجه كثيراً ما تختلط بصورة أخرى حتى يصعب تمييز الأصل وذلك لأن الوجوه كثيراً ما تتشابه، أما نظام المسام والخطوط فلا تتشابه مطلقاً عند شخصين. والأوروبيون لعنايتهم بالكلاب يحققون شخصيتها الآن بطبع أنفها. فلكل كلب أنف خاص له خطوط ممتازة وكذلك الحال في سائر الماشية. ومن وسائل التحقيق فحص الدم، فإن دم الإنسان يختلف عن سائر دماء الحيوان اختلافاً عظيماً عند التحليل، ولا يتفق إلا مع دم القردة العليا، فإذا وجدت لطخة دم مهما كان صغر حجمها على ثياب متهم وادعى أنها ليست دم الشخص الذي جنى عليه أمكن عند فحصها معرفة حقيقتها وهل هي دم إنسان أو دم حيوان؟ وأقرب الدماء إلى الإنسان في التحليل الكيمائي هي دماء القردة العليا، وبوليس نيويورك يستعمل الآن جملة طرق في تحقيق شخصية المقتول، فإن بعض المجرمين إذا قتلوا أحد الناس أزالوا اللحم عن الوجه وهشموا العظام حتى لا تعرف شخصية المجني عليه، فيضل المحققون في الاهتداء إلى القاتل، ولكن في بوليس نيويورك اختصاصيين يضعون على العظم نوعاً من المصيص اللين ويدهنونه بألوان البشرة الطبيعية فيعود الشخص إلى هيئته الأولى ويمكن بذلك معرفته. أما الاهتداء إلى التزوير فقد كثرت الآن وسائله، فمن ذلك أنه يوضع تحت المكرسكوب فيعرف اختلاف الحبر أو قوة ضغط القلم أو مقدار خدشه للورق، ثم تؤخذ صورة الخط بالفوتوغرافية وتكبر، فيعرف عندئذ اختلاف الطريقة في الكتابة لأنه مهما قلد الإنسان خط أحد الناس فإن طريقته لا تزال ظاهرة في الكتابة المقلدة. وأيضاً يمكن فحص الحبر بتسليط الأحماض عليه، فالحبر القديم لا يؤثر فيه الحمض كالحبر الجديد وهلم جراً. انتهى، ولأكتف بهذا القدر في العناصر.

عجيبة

انظر اختلافاً لا حد له في الإشخاص من الإنسان ومن كل حيوان، وكيف أصبحنا نرى أن كل إنسان مثلاً يستحيل أن يشارك غيره في صفاته الجسمية، فتصور بني آدم من مبدأ الخليقة إلى يوم فناء العالم كيف اختلفوا في هذه الصفات والخطوط والأشكال، وقس على ذلك علومهم وعقائدهم وإيمانهم وكفرهم وسعدهم ونحسهم، فإذن كل امرئ يكون علمه منوعاً تنوع جسمه كما تنوع لونه وصوته ومسامه. هاهنا تجلت وحدانية الله إذ جعل الوحدة سارية في سائر المخلوقات. فكل منا واحد في نفسه جسماً وصوتاً ولوناً وعلماً وخلقاً. فإذا أنا كنت واحداً أفلا يكون خالق العالم واحداً؟ انتهى المقصد الأول.

المقصد الثاني: الكلام على الحروف

الحروف الهجائية عبارة عن تنوعات الصوت في الهواء، والصوت إنّما حدث من التنفس، والتنفس لغرض التغذية، فهو في النبات لمجرد الغذاء، وفي الحيوان له ولبعض الأغراض بتنوعه. وفي الإنسان تكون لغات شتى على مقتضى الأمم، وهنا وصل الصوت إلى أقصى منتهاه. فمنه الشعر والنثر في اللغات المختلفة المتفرعة من اللغات السامية والطورانية والسنسكريتية، وهذه لها فروع في الشرق والغرب مثل السريانية والعبرية والحبشية والعربية والآرامية في اللغة السامية وغير ذلك. فانظر كيف تنوع الصوت الذي لم يدخل في الرئة إلا لإصلاح الدم إلى ما لا يعد من الكلمات باللغات

المختلفة. وهذه الكلمات بإزاء الموجودات، وفي نظيرها صور في النفوس الإنسانية لمعانيها. فانظر وتعجب من صوت في الشهيق والزفير يقوم مقام المادة في إحداث صور الموجودات، فالمادة قبلت صور الأشياء في ذاتها، والصوت أحدث هذه الصور في نفوسنا، إن الصوت قام مقام المادة فكان منه الشعر اللطيف والغزل الرقيق والخطب المؤثرة والقصائد المحررة والأقوال الشارحة والكتب المصنفة والديانات المنزلة والفلسفة الرائعة، وكان به نظام الدولة وإقامة العدل والمدن ومحاسن الآداب وتاريخ الأمم وحفظ الذمم وصيانة الحقوق وتعليم الجاهلين وشكر العالمين.

وكما أن للمادة مروجاً واسعات وثغور زهر باسمات وحدائق وجنات وأثماراً بهجات، هكذا للصوت من القصائد حدائق ومن النثر شقائق ومن الخطب قصور ومن الشعر زهور ومن الحكم ثمار ومن الأمثال فاكهة ورمان ومن الغزل مروج ومن الآيات البينات بروج، في المادة شعر رقيق وفي الصوت زهر أنيق. ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢-٥٣]، ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] وللناس في حدائقها مقاعد ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤].

واعلم أن الله عز وجل جعل العالم المادي والمعنوي واللفظي بينهما تناسب واشتقاق وتفرع وانتظام في ذلك كله، فإذا رأينا أن الجسم ينقسم إلى نام وغير نام؛ والنامي إلى ما له حس وحركة وإلى ما ليس كذلك، والذي له حس وحركة إما ناطق وإما غير ناطق، فغير النامي هو المعدن وما له حس وحركة هو الحيوان، وما ليس كذلك هو النبات والناطق هو الإنسان، فيكون هكذا: جسم نام حساس ناطق. فهكذا نرى العلم والحكمة معرفة الشيء على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية، والشيء يقسم إلى العلوم كلها ويتبعها الصناعات، فيقال هكذا: الشيء إما علمي وإما عملي.

فالعلمي إما علم أعلى كمعرفة الله والأرواح وتقسيم العلوم. وإما علم طبيعي ورياضي، فالرياضي يشمل الأرثماطيقي والهندسة والفلك والموسيقى. والأرثماطيقي من هذه الأربعة يشمل الحساب المفتوح وحساب الخطأين والجبر والمقابلة والتخت والميل والدرهم، والطبيعي يشمل سماع الكيان والكون والفساد والسماء والعالم والآثار العلوية والمعدن والنبات والحيوان والإنسان. هذا هو القسم العلمي.

أما القسم العملي فهو سياسة النفس وسياسة المنزل وسياسة المدينة. وسيأتي إيضاح ذلك كله وشرحه في سورة «لقمان» مفصلاً تفصيلاً تاماً.

فانظر كيف ترى أن الإنسان والحيوان والنبات والمعادن كأنها شجرة لها أصل واحد، هكذا العلوم أيضاً هي شجرة أصلها الشيء، أي: الموجود المنقسم إلى علم وعمل. وهكذا ترى العلماء في علم ما وراء الطبيعية يقولون: إن الوجود ينقسم إلى جوهر وعرض. والعرض يكون صفة ومقداراً كالبياض وكالطول، ويكون نسبة كالأبوة والنبوة الخ. وفرعوا فروعاً شملت كل العلوم فهي من حيث النتيجة كالتقسيم المتقدم بشكل يخالفه، وكل الوجود تلازمه الوحدة. فالوجود كله واحد وكل كثرة أو قلة منه يقال لها واحد. فالوحدة تسير مع كل موجود ويوصف بها قليلاً أو كثيراً. العالم كله واحد والوحدة ملازمة لكثرته وقلته. انظر إلى الألوان فهي مثل السواد والصفرة والبياض والنحاسية مثلاً

كأهل ت السودان والصين وأوروبا وأمريكا الأصليين حمر الوجوه. انظر كيف ترى أن النوع الأبيض من هذا الإنسان يتفقون جميعاً في اللون، ولكن يستحيل أن يكون بياض زيد كبياض عمرو وهذا هو العجب بل هذا هو الآية الإلهية. يسع البياض مثلاً مئات آلاف الآلاف من الناس ولكن لكل واحد في لونه هيئة تخالف لون الآخر. هذا معنى قوله تعالى ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[الروم: ٢٢] فهذا هو اختلاف الألوان ومثله اختلاف العلوم واختلاف الأنواع والأجناس كما تقدم.

وكما رأيت اختلاف الألوان واختلاف العالم هكذا ترى اختلاف اللغات كاختلاف الأصوات. ليس أحد من الناس يشبه صوته صوت الآخر ولا كلامه ولهجته كلام الآخر ولهجته. ويمتاز كل امرئ في لونه وصوته وهيئة كلامه كما امتاز في لونه وإن شارك الناس في البياض والصوت والكلام.

هذه هي الحكمة المتقنة التي جاءت في هذه الآية ولولا هذا الجمال لم نميز الأشخاص. فبألوانهم الخاصة وأصواتهم الخاصة ولهجات حديثهم يختلفون فنميزهم لنعيش معهم، فجلّ الله الذي أتقن كل شيء وهو الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى والهداية هنا باختلاف المخلوقات فهو قد حسنها وهدى إليها مع جمالها، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]. وبهذا تم الكلام على الاختلاف في الألوان ونحوها.

الاختلاف في اللسان

الاختلاف في اللسان قسمان: قسم قد تقدم وهو الأمور المتعارفة، وقسم شرحه العلماء وهو قسمان: قسم لفظي وقسم خطي. فالقسم اللفظي قالوا فيه: إن اللغات تفرعت من أصل واحد إلى لغات مرتقية وغير مرتقية. وغير المرتقية هي أولاً: الزنجية، (١) وهي في الأرخبيل الهندي. (٢) وفي أواسط أفريقيا. ثانياً: الأمريكية التي يتكلم بها أهل أمريكا الأصليون. ثالثاً: اللغة المستعملة في البلاد الشرقية الشمالية الأسيوية في جزائر «سفالين» ونحوها. رابعاً: اللغة الصينية وهي أحادية المقطع لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف.

أما المرتقية فهي إما غير متصرفة وإما متصرفة، فغير المتصرفة هي اللغات الطورانية كالتركية والمغولية والقفقاسية والإغرانية. واللغة المتصرفة تنقسم إلى قسمين: الآرية والسامية

فالآرية هي أولاً: الجرمانية وفروعها: (١) الايسلاندي. (٢) والنرويجي. (٣) والسويدي. (٤) والدانيماركي. (٥) والإنجليزي. (٦) والهولندي.

وثانياً: الصقلابية مثل: (١) السربية. (٢) والبلغارية. (٣) والبوهيمية. (٤) والبولونية. (٥)والروسية.

وثالثاً: الهندية. ورابعاً: الفارسية. وخامساً: الأرمنية. وسادساً: اليونانية. وسابعاً: اللاتينية الكلية.

فروع اللغة الفارسية ثلاثة: لغة الماديين ولغة بني ساسان، والفارسي الجديد.

فروع اللغة اللاتينية هي:

(١) الفرنسية. (٢) والإسبانية. (٣) والبرتغالية. (٤) ولغة رومانيا المعروفة الآن في البلقان.

وبهذا انتهى الكلام على اللغات الآرية.

أما اللغة السامية فهي:

(١) اللغة المصرية القديمة وقد قيل إنها أصل اللغات السامية، وأقول: قد قال لنا معاشر مدرسي اللغة العربية المرحوم كمال بك مؤلف قاموس اللغة المصرية القديمة ما نصه: إن اللغة العربية بحالها اليوم ناقصة ولا يكملها إلا لغة قدماء المصريين التي تزيد عليها كثيراً فإني وجدت العربية مع الحذف والإبدال والتحريف بعض تلك اللغة. وشرح هذا شرحاً وافياً رحمه الله.

(٢) واللغة البابلية والآشورية. (٣) والحبشية. (٤) والحميرية. (٥) والسريانية أو الآرامية. (٦) والفينيقية. (٧) والعربية.

فسبحانك الله وبحمدك، سبحانك ربنا قد علمت وألهمت وأحكمت ونوعت. قلت في كتابك: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢]، اللهم إنك جعلت هذا العالم واحداً. لماذا؟ لأنك واحد وهذه الوحدة جرت مع العالم كله كما جرت مع كل فرد، فلقد رأينا امتياز الأشخاص في كل نبات وحيوان، ورأينا امتياز الأصوات والألوان واللغات. جعلت اللهم لكل علم من علوم الحكمة حدوداً مخصوصة بحيث ميزنا علوم الطبيعيات وعلوم الرياضيات، وفرعنا العلوم الجزئية كما فرعت أنت الجسم الواحد إلى أعضاء والأعضاء إلى أجزاء والأجزاء إلى ذرات صغيرة، هكذا رأينا العلوم تختلف فيكون الرياضي كالحساب والطبيعي كالنبات، ثم نرى صناعات تفرع على تلك العلوم كالزراعة والبذرة للنبات، وكالطب والبيطرة للإنسان والحيوان، وكالحدادة وكالنجارة للمعدن والنبات، وهكذا مما قدمناه في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، وأصل هذه العلوم كلها الشيء. هكذا في اللغات فقد رأينا نوع الإنسان كما اختلف في ألوانه وجميع أحواله اختلف في لغاته وجرت اللغات شوطاً كجري الألوان حتى وصلت إلى نحو خمسة آلاف لغة تقريباً. ففي أوروبا نحو (٥٨٧) وفي آسيا (٩٣٧) وفي أفريقيا (٢٧٦) وفي أمريكا (١٦٢٤) لغة، والإنجليزية وحدها (٢٥) ألف كلمة، ولغة غالا ثمانية آلاف كلمة، والعربية (٨٠) ألف كلمة. ويقال: إن المستعمل منها عشرة آلاف كلمة، والإيطالية (٢٥) ألف كلمة، والفرنسية (٣٠) ألف كلمة، والإسبانية (٢٠) ألف كلمة، واللغة المستحدثة المسماة «الاسبرانتو» (٣٢٠٠) مادة مقتبسة من اليونانية واللاتينية والجرمانية، وقد ألحقوا بها (٣٠) لفظة تركب مع ألفاظها لتدل على نوع المعاني الوضعية، وهكذا (١٧) زيادة في الصيغة لتقوم مقام التصريف في اللغات الأخرى، فتراكيبها ربما تبلغ عشرة ملايين كلمة، وإذن تكون أوسع اللغات ثروة.

حكمتان في تقارب اللغات

الحكمة الأولى فيما يعم اللغات كلها

انتشر العلم وتعددت المعاهد العلمية وأصبح من مميزات القرن العشرين تشعب اللغات وكثرتها، حتى إنه يمكن أن يتاح لنا أن نصف هيئة المجتمع بحالته الراهنة من تعدد الألسن المتداولة، بأنه قريب الاتصال ببرج بابل، ومن المعلوم أن كثيراً من هذه اللغات يرجع منشؤها إلى لغة أصلية واحدة، مثلاً اللغة اللاتينية تفرعت منها اللغات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإيطالية والرومانية وتسمى

اللغات اللاتينية . وأما الإنجليزية والألمانية والنمساوية والهولندية ولغات شبه جزيرة اسكندناوه والدانيماركية ، فترجع كل هذه اللغات إلى الأصل الجرماني .

واللغات التي ذكرت ترجع مع اللغة الروسية واليونانية والفارسية إلى أصل واحد هو مجموعة اللغات الآرية التي تتفرع منها بعض لغات في الهند وتسمى الهندية الأوروبية ، وبجانب هذه المجموعات توجد مجموعات لغوية أخرى وإن لم يكن لها في عصرنا هذا من الأهمية ما لغيرها من اللغات سالفة الذكر ، إلا أنها مع ذلك كانت من اللغات الحية في الأزمنة الغابرة وبعضها للآن ما زالت متداولة ، الأمر الذي يجعلنا نقدر حق قدرها بالرغم من تقادم العهد عليها ونختار منها مجموعة اللغات السامية التي نزلت بعض الكتب السماوية بها وهي لغات بني سام ، وأعني بها اللغات العربية والعبرانية والسريانية والآشورية والآرامية والكلدانية والحميرية والأبهرية الحبشية واللغة المصرية القديمة والقبطية الحديثة ، وكل هذه يرجع أصلها إلى بني سام ، وبالنسبة لقدم عهد تلك اللغات أصبح من المتعذر تحديد وقت انسلاخها من بعضها ، إذ كانت قبل التاريخ بآلاف من السنين ، بيد أنه قد لوحظ بعض التشابه بين هذه اللغات وبعضها في النطق والمعنى ورسم الأحرف . وأن جل اهتمامنا في مصر يتجه إلى اللغة العربية التي هي لغة القطر واللغة الرسمية للبلاد ، ولا يخفى أن مصر لغة وشعباً هي جزء من بني سام إلا أن انسلاخها من الساميين كان قبل التاريخ ، انتهى والله أعلم .

الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم

فقد جاء في كتاب « المد والجزر » ما يأتي :

قال جماعة من المؤرخين : إن التمدين العربي كان تمديناً إسلامياً صرفاً ، والقرآن مصدر جميع العلوم التي عنى بها المسلمون في أوج حضارتهم . فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ، ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ، ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية . ثم أليس الجغرافيون الأول أو علماء المسالك والأمصار هم الذين مضوا من أقاصي أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير المألوف .

ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آي القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه؟ ألم تطلب أرصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعيد الحج والصوم؟ ألم تستدع مسائل الوقاية الصحية والنظافة اهتمام الأطباء كما ظلت بعد تحثهم على البحث والتنقيب ، نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم إلا لأن آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض أو شرح قول مستغلق ، ومذاهب علماء الكلام هي التي نبهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساتذة الفلسفة الحديثة .

سبق القول أن قد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهباً سياسياً بين شعوب مختلفة ، أي : اليونانية واللاتينية ، فقد كانت اللاتينية مستعملة من كمبانيا في إيطاليا الجنوبية إلى الجزر البريطانية ، ومن نهر الرين إلى جبل الأطلس . واستعملت اليونانية من أقاصي صقلية إلى شاطئ دجلة والفرات ، ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة ، لكن ما أضيقه انتشاراً إذا ما

قوبل بانتشار العربية التي امتدت إلى أسبانيا وأفريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد التتر.

أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلامي وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال فقد أوجدت تبديلاً محسوساً في الفارسية والهندية والهندستانية والتركية ولغات أفريقيا ولهجات التتر. كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو المقتبسات منها كلمات كثيرة أصلها عربي. لقد عدت اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنياتهما، فما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدنية العرب بقرون سبعة؟ إن الذي كان باعثاً على تكوين المدنية العربية وهو الذي ما زال حافظها إلى اليوم هو القرآن. لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الإسلام حياً وما دام في أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور.

أقول: أليس من العجب أن الهواء الخارج من الرئتين الذي لم تكن وظيفته إلا إدخال الصالح للحياة وإخراج الضار لها قد نال وظيفة شريفة عالية غالية وهي الإفهام وحمل جميع العلوم وتنوع إلى نحو خمسة آلاف لغة، وبعض اللغات قد تبلغ عشرات الألوف من الكلمات، يا سبحان الله قد تنوعت اللغات كما تنوعت المادة لأن اللغات دالة والمادة مدلول عليها، فتنوع الدال وتنوع المدلول ولولا حركة هذه الكائنات لم يتنوع الدال ولم يتنوع المدلول.

فيا ليت شعري، ألا يعلم المسلمون أن هذا هو اختلاف الألسنة والألوان، أفليس من المخجل المحزن أن نرى أن الباحثين عن اختلاف اللغات هم الأوروبيون، وأما اختلاف الألوان وتنوع العلوم فقد دون في كتب أسلافنا، ولكن المتأخرون من المسلمين جهلوا النوعين. اللهم إنك جعلت اختلاف اللغات واختلاف الألوان من آياتك، والمسلمون ملزمون أن تقوم طائفة منهم بدرس تفرع اللغات وبدرس العلوم وتفرعها والصناعات المرتبة عليها، وكيف يعرفون أنها دالة على جمال صنعك إلا بعد معرفتها، اللهم إنك قد بينت على لسان رسولك ولكن المسلمين لا يفكرون، وهذا التفسير قد وضح فيه كثير مما تركه المسلمون من علم أو عمل، والله هو الولي الحميد. انتهى يوم السبت ١٦ من شهر مايو سنة ١٩٢٧م.

المقصد الثالث

في نظام المدارس المفهوم من هذه الآية

إذا تأملت فيما كتبناه ألفيت أني قدمت المادة والكلام عليها على أقسام الحروف، ولكن في الآية قدم الله الألسنة على الألوان. أما تقديمي لذلك فلأن المادة أصل والصوت فرع، فأما في القرآن فاسمع ما ألقي عليك:

اعلم أن الله عز وجل علم أننا معاشر النوع الإنساني لا قبل لنا بجميع الحقائق إلا بالتعلم والتدريج فأعطانا الحروف الهجائية الناجمة من المقاطع الصوتية لنحللها ونركبها أولاً حتى ندرب أنفسنا على تحليلها وتركيبها نثراً ونظماً وكتابة وفهماً، وليس يمكن لأحد أن يعرف اللغة حق العلم إلا إذا حلل الكلمات إلى حروفها ورفع ونصب وركب الجمل وعرف نسبها والموازنة بينها.

هذا هو الصراط المستقيم في تعليم جميع الأمم. يبتدئون بالقراءة والكتابة ولا يشرعون فهم العلوم حتى يتموا اللغة، والعلوم التي عليها مدار الحياة ترجع إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية وهذه لا تعرف إلا بتحليل الأشياء وإرجاعها لأصلها، ولذلك تجد الناس كما أرجعوا الكلمات إلى حروف ليعرفوا اللغة أرجعوا المركبات جميعها إلى عناصر تبلغ ٨٦، فهذا التحليل بدونه لا تعرف حقائق الأشياء، والذي سهل ذلك على الناس أنهم حللوا الألفاظ أولاً فتعودوا على تحليلها، فإن الأسهل وهو تحليل الألفاظ مقدم على الأصعب وهو تحليل المادة في العلوم الطبيعية وحركاتها في العلوم الرياضية، وهكذا يبتدئ الناس بالعلوم الأدبية وفيها النثر والنظم والروايات وهكذا الخرافات التي تمثل فيها الحقائق بصور خيالية وكل ذلك باللغة، ثم يشرعون في العلوم الطبيعية فتصقل العقل صقلاً.

هذا هو نظام المدارس وهاهو الذي ظهر في هذه الآية، فإنه قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[الروم: ٢٢]، فقدم الألسنة ليفيد تقديمها في التعليم المدرسي على التعليم الطبيعي المنوه عنه بلفظ ﴿ أَلْوَٰنِكُمْ ﴾، وليكون التحليل اللفظي مقدماً على التحليل المادي، وهذا التحليل مرموز له في أول السورة بلفظ ﴿ الٓمٓ ﴾ فكأنه يقول: إن اللغة مركبة من حروف هجائية هي هذه ﴿ الٓمٓ ﴾ وبتحليلها تدرسونها، ولقد قدم سورة «العنكبوت» إذ ذكر ﴿ الٓمٓ ﴾ وجاء فيها: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[العنكبوت: ٢٠]، وفي هذه السورة ذكر بدء الخلق وإعادته مرتين، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[الآية: ١١]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[الآية: ٢٧]، وفي الآيات التي بين هاتين الجملتين ذكر اختلاف الألسنة والألوان وأنها آيات للعلماء، وليس يعرف بدء الخلق إلا بالتحليل المرموز له بالحروف المذكورة في أول سورة «العنكبوت» وأول «الروم»، فأما الألسنة المدلول عليها باللغات فأمرها ظاهر، وأما المادة فلا تعلم إلا بذلك وهذه مما يشير إليها ﴿ الٓمٓ ﴾.

ابتدأ الله السورتين بالتحليل ليطلب من الناس تحليل العلوم وتحليل اللغات في الألسنة والألوان وبعبارة أخرى: جميع العلوم، وهكذا إذا سار الناس في الأرض فلا سبيل لعلمهم كيف بدأ الله الخلق إلا بالتحليل المدلول عليه بذلك، وقد بينت لك تحليل المادة هناك كما أشار لك بلفظ ﴿ الٓمٓ ﴾.

فأما السير الظاهري فإنه يستوي فيه الجاهل والعالم، فكأن الله يقول: قبل أن تنطق بحرف من هذه السورة اسمع التحليل وحلل، فحلل الجمل وحلل الكلمات لتعرف معانيها وتراكيبها، وحلل معانيها فلا علم إلا بالوقوف على التفاصيل، فذكر الألوان بعد الألسنة ترتيب مدرسي، فأما الذين يقرؤون اللغات وهم خلو من العلوم فإنهم يكونون قوماً خياليين كأهل الأندلس نبغوا في الشعر واللغة وجهلوا العلوم، فأخذتهم أسبانيا وأذاقوهم سوء العذاب، وهكذا أمة الإسلام اليوم لا علم عندها إلا قليلاً وهم خياليون ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[هود: ١١٩]، فعليهم أن يدرسوا العلوم الرياضية والطبيعية، ولعلك تقول: هل الترتيب هنا يفيد ما ذكرت؟ إن هذا أمر بعيد، أقول: على رسلك، أين أنت من ذكر خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة؟ ألم يقل للأنصار: نحن المهاجرون وأول الناس إسلاماً وأحسنهم وجوهاً وأكثرهم ولادة في العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه

وسلم، أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾[التوبة: ١٠٠]، واستنتج من ذلك قوله: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحي من مضر فإن نعق ناعق منكم وقع بين فكي الأسد يجرحه المهاجر ويعارضه الأنصاري.

فانظر كيف استنتج من تقديم المهاجرين على الأنصار أن الخلافة فيهم دون الأنصار. فانظر هذا الأمر الجليل العظيم كيف حرمت منه أمم وأمم من الأنصار في أجيال متعاقبة، وحظي بها أبناء قريش، لماذا؟ لتقديم وتأخير، فلنقل هنا كذلك، وإن العلماء هم الذين يدرسون الألسنة والألوان، وبعبارة أخرى: إن العالم الإسلامي هو من يدرس اللغة تمام الدراسة بعلومها المشهورة ويدرس العلوم الطبيعية بسائر ملحقاتها على ما تقتضيه سنة الدراسة في الأجيال المتعاقبة، لأن الحكمة هي معرفة الأشياء بقدر الطاقة البشرية، فإذا استنتج الصديق من كلمتين خلافة أعظم أمة في العالم فلنستنتج من نظيرتيهما دراسة أعظم أمة في المستقبل إن شاء الله تعالى، وهي الأمة التي يظهر دينها على الدين كله وهي ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، وعلماؤها هم الذين يدرسون اللغات وسائر العلوم الطبيعية والفلكية.

فإذا قال الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الروم: ٢٢] الخ فذلك ابتداء بذكر ما منه الأضواء ثم ما منه العناصر، وبإشراق الضوء على عناصر الأرض تظهر المواليد الثلاثة ودراستها بتحليلها إلى عناصرها كالكلمات. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للخامسة.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾

اعلم أن الإنسان له حالان: حال يقظة وحال نوم، ففي حال النوم يرى مزارع وطرقاً ومدارس ومساجد وأناساً، ويأكل ويشرب ويحارب، فإذا استيقظ لم يجد شيئاً من ذلك، فالنوم بالليل يرينا العوالم التي لا حقيقة لها بالنهار، فمتى استيقظ الإنسان أدرك الأكاذيب الليلية، ولا تظن أني في مقام الرؤيا الكاذبة أو الصادقة، كلا بل كل ما تخيلناه في المنام فإنا نعده حقيقة، ونحن في تلك الحال ولا يخطر بأنفسنا إذ ذاك غير ذلك، ولنا في المنام تعقل وجهل كما لنا في اليقظة كذلك. ألا ترى أننا كثيراً ما نرى أنا نكلم أصحابنا في مسائل علمية عقلية عويصة؟ ألم تر أن ابن سينا كان يحل أغلب المعضلات العلمية في حال النوم، فنحن في اليقظة نفكر وفي النوم نفكر وفيهما أيضاً نأتي بالخيال الكاذب ونكذب في الحالين، فحال النوم هي حالنا وحال اليقظة حالنا ونحن نحن في الحالين، ثم إن حال النوم تنسخ حال اليقظة كما نسخ النهار الليل فأزال ظلامه، إن ذلك من آيات الله لأن نفوسنا في المنام اخترعت أرضاً وسماء وعوالم، وكل من الناس يخترع هذا الاختراع وهذا أمر عجيب جداً، نحن في المنام لا نكذب العالم الذي نكون فيه، نحن نخترع عالماً ونعيش فيه، نسر ونفرح ونحزن فإذا استيقظنا لم نجده.

عجباً أفليس هذا مما يذكرنا أن حياتنا بالنهار ربما كانت على هذا المنوال؟ وأن حواسنا اخترعت هذه العوالم؟ فإذا متنا وجدنا هذه العوالم لا أصل لها، وأن ما نسميه أرضاً وسماءً وشمساً وقمراً ونباتاً وحيواناً ونهراً وجبلاً ما أكسبها هذه الصفات إلا حواسنا فاستعبدتنا، فإذا متنا كانت لنا حواس أخرى فأدركت هذه العوالم بحال أصدق من هذه. أوَليس هذا هو الذي ظهر في العلم الحديث في

نظرية « اينشتين » التي قدمنا ذكرها في هذا التفسير؟ فهذا العالم قد نشر نظريته في أوروبا، وقال كما قال غيره قديماً وحديثاً:

إن هذا العالم لا شيء فيه مما نراه، وأن هذه الدنيا ما هي إلا حركات في الأثير، وباختلاف الحركات كماً وكيفاً ظهر لحواسنا ما نحن فيه، وإلا فالضوء والحرارة والثقل والخفة والصلابة وأمثالها هي خواص كسبتها المادة بالنسبة لحواسنا لا لها في نفسها. أوليس هذا يفهمنا ما روي « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ».

إن الله يقول هنا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الروم: ٢٣]، فإذا أخذ على ظاهر اللفظ عد معجزة لأن هذه هي النظرية الحديثة، فإنا بالليل نيام وبالنهار في يقظتنا نيام، لأن حواسنا اخترعت نهاراً كما اخترعت مخيلتنا ليلاً، وهذا يعرفنا قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، ولماذا لا نعد هذا معجزة مع أن ظاهر اللفظ يقتضيه ولو على سبيل الرمز الذي هو من أقسام الكناية، فنحن نام بالليل وننام بالنهار، مع ملاحظة الكناية في معنى النوم ما دام العلم قد كشفه فهذه معجزة.

ومن تأمل قوله تعالى: ﴿ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[الروم: ٢٢] والعالمين جمع عالم ـ بكسر اللام ـ رأى أن هذه فيها ﴿ الٓمٓ ﴾ على الترتيب مفرقة في الأولين مجموعة في الأخير وهكذا سورة « العنكبوت » جاء فيها: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾[الآية: ١٩] ففيها ﴿ الٓمٓ ﴾ وكأنه لما قيل في أول السورتين ﴿ الٓمٓ ﴾ يوقظنا الله لبحث العالم بهذه الإشارة لنكون علماء ونحلل العوالم لنكون حكماء، وهذا من أسرار القرآن التي ظهرت في آخر الزمان واتحدت الوجهة والمعنى والرمز في السورتين معاً والله أعلم.

وهاهنا ثلاث عجائب:

العجيبة الأولى

ما جاء في بعض الصحف المصرية تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

الانتقال الفكري، التلباثيا، النظر المضاعف

(١) جاء في كتاب « أشباح الأحياء » ما يأتي:

كتب لنا المحترم « نومان » من خدمة البروتستانت في « ذيفنبورت » قال: في شهر آذار سنة ١٨٥٤ كنت مقيماً بـ« أكسفورد » فاعتراني ذات ليلة ألم شديد في رأسي اضطجعت على أثره في فراشي دون خلع ثيابي، وكانت الساعة التاسعة ليلاً، فبعد أن غفوت حلمت بنفسي جالساً في بيت من تزوجت بها فيما بعد، ولما انتهينا من الحديث ذهب كل إلى الرقاد فودعتهم وحملت بيدي الشمعة وانصرفت. ولما بلغت الدهليز لمحت خطيبتي صاعدة السلم وحدها وقد بلغت أعلاه، فهرعت إليها بلمح البصر وطوقت خصرها بذراعي، وعندها استيقظت وجرس الساعة يدق العاشرة، فتأثرت لهذا الحلم إذا كان غاية في الوضوح، وكتبت لخطيبتي أعلمها به، وقبل وصول رسالتي إليها جاءني كتاب منها تقول لي فيه: هل كنت الليلة البارحة مفتكراً فيّ بحدة نحو الساعة العاشرة؟ فإني عند صعودي السلم للرقاد سمعت همس خطواتك ورائي وأحسست بذراعيك طوقتا خصري. وقد ذكرتها اليوم الحادث فلم تنسه بعد السنين الطوال. ا هـ.

(٢) وجاء فيه أيضاً ما نصه: روي لنا المستر «مونتون» سكرتير شركة البسيكولوجية ما يأتي:

توليت إدارة المدرسة الكبيرة سنة ١٨٧٢م وهناك صادقت لأول مرة الآنسة التي صارت فيما بعد امرأتي، وعندما برحت منصبها أوصيتها لأسباب صوابية بعد مفاتحتها إحدى رفيقاتها في المدرسة بأمر زواجنا، وأن تتجنب مكاتبتهن لهذه الغاية. وبعد مضي ستة أشهر على زواجنا كنت إحدى الليالي على عادتي قاعداً في فراشي أقرأ وإذا بامرأتي هبت من رقادها قائلة: حلمت أني ذهبت إلى المدرسة ودخلت غرفة أعرفها في الطابق الأسفل فرأيت فيها أربع نسوة اثنتان من رفيقاتي والاثنتان الأخريان لا أعرفهما، وكن يتحادثن ويضحكن وقد هممن بالذهاب للرقاد، فتبعتهن ورأيت صديقتي «بيستي» قد دخلت غرفة النوم مع اثنتين من رفيقاتها، ثم خلعت ثيابها واضطجعت فدنوت منها وأخذت بيدها قائلة: دومي على صدقاتنا يا بيستي. ثم استيقظت وأنا متأكدة أني كنت حقيقة في مخادع المدرسة، فقلت لها: هذا علم بسيط وربما كان أوضح من غيره. وبعد مدة ذهبت امرأتي لزيارة والدتها فأطلعتها هذه على رسالة جاءتها من إحدى صديقاتها في المدرسة تلتمس أن تخبرها هل الآنسة ابنتها ـ وهي امرأتي ـ حية بعد أم ميتة؟ فخطر لي أن أذهب بنفسي عند صاحبة التحرير أستوضحها عن داعي هذا التحرير؛ فقالت لي: إن الليلة الفلانية كانت راقدة في غرفة واحدة مع صديقتها «بيستي» وأن هذه صرخت فجأة من الذعر فهرعت إليها لتسألها عن السبب، فقالت: رأيت الآن أمامي الآنسة «ك» وهي امرأتي قد أخذت بيدي، وقالت: دومي على صداقتنا يا بيستي، وغابت، وفي ثاني يوم سرى الخبر بين الرفيقات، فقال بعضهن: هذا حلم بسيط حلمت به «بيستي» في نومها. وقالت أخرى: كلا، هذه رؤيا في اليقظة تدل على موت صديقتنا. وهذا ما حملهن على إرسال الكتاب لتحقيق الأمر، ثم استنطقتها عن وجود الرفيقتين اللتين كانتا مع «بيستي»، وامرأتي لا تعرفهما، وعن موقع سريرهما في غرفة النوم، فكان ذلك كله مطابقاً لما رأته امرأتي في الحلم. اهـ.

(٣) ذكر العلامة الروسي «أكساكوف» من مستشاري حكومة القيصر سابقاً الحادث الآتي في كتاب له في هذا الموضوع ذائع الشهرة. قال ما نصه:

كانت أسرة «ك» مقيمة في مصيف لها في «بافلوسلك» في ضواحي «بطر سبورج»، وهي مؤلفة من الرجل وامرأته وابنة صبية تدعى «فيرا» وغلام في ريعان الشباب برتبة ضابط بحري، وكان للأخوين تعلق شديد ببعضهما منذ نعومة أظفارهما، فاتفق للشاب وهو في المصيف مع أبويه وأخته أن صدر الأمر إليه بالسفر شهراً في عرض البحار، فرافقه آله إلى المرفأ، وهناك تعاهد الأخوان على مداومة الذكرى مدة الفراق، ومرت الأسابيع والرسائل تتوارد من الشاب تعرب عن سلامته وحنينه إلى اللقاء، إلى أن تغير الجو يوماً وعصفت الرياح وهطل المطر كأفواه القرب، فقلقت «فيرا» وثارت أعصابها وأخذت تتساءل كل لحظة عما حلّ بأخيها، حتى انحرفت عند المساء صحتها وانزوت في غرفتها لتستريح. ولما كانت الساعة العاشرة سمع صوت مروع من غرفة الفتاة فأسرعوا إليها فرأوها تتخبط وتصيح متشنجة وقد أصابتها نوبة عصبية، ولم يتمكنوا من تسكينها إلا بعد الجهد الجهيد. ولما أفاقت أخبرتهم قائلة: رأيت نفسي وأنا يقظى في وسط ضباب كثيف والعاصفة تعصف حولي بما يصم الآذان، وإذا بوميض برق أراني البحر يعج بأمواجه المزبدة، ثم تلا ذلك لمعان نور أحمر رأيت على

ضيائه أخي يتخبط في وسط الأمواج، ثم عادت الظلمة وعقبها بعد هنيهة وميض برق آخر رأيت من خلاله أخي ممدداً على صخرة وقد تضرج رأسه بالدم. يا للهول. وفي ثالث يوم نقلت الجرائد خبر غرق الباخرة التي كان عليها الضابط الشاب بالقرب من « كرونستاد »، فأسرع المسيو « ك » إلى هذا المرفأ فوجد ابنه حياً يتألم من جرح في رأسه، فأخبره أنه كان في إبان اشتداد العاصفة على ظهر الباخرة يهجس ببيته وآله، وقد وجه فكره خاصة إلى شقيقته يسألها أن تصلي لأجله، وإذا بالباخرة ارتطمت بصخرة فارتجت رجة هائلة سقط على أثرها في البحر وأخذ يعارك الأمواج لعله يتوصل إلى العودة للمركب. وبعد هنيهة رأى وميض نور أحمر يصحبه صوت طلق مدفع من الباخرة، فعلم أن لا سبيل له إليها فسلم أمره إلى الله وأيقن بالهلاك، وإذا بضبابة لاحت له من بعد وقد تجلى من خلالها شبح أخته « فيرا » تبتسم له وتمد إليه ذراعيها، فأخذ يعوم نحو الشبح ولا يعلم كم دام ذلك إلى أن شعر بلطمة في رأسه وغاب عن الحس، وفي ثاني يوم رآه بعض الصيادين متمدداً على الشط مغمى عليه وفي رأسه جرح بليغ. اهـ.

(٤) هذا الخبر نشرته مجلة « الأخبار النفسية » في أحد أعداد سنة ١٨٩١ نقلاً عن كتاب أتاها من المسيو « ويلموت » أحد أصحاب المعامل في مدينة « بريد جبورت » قال ما ملخصه:

أبحرت على الباخرة « سبتي أوف ليمريك » إلى مدينة « نيويورك » في ٣ تشرين الأول سنة ١٨٦٣، وفي مساء ثاني يوم ثارت عاصفة هائلة دامت تسعة أيام لم نر في خلالها شمساً ولا نجماً ولا مركباً، وفي الليلة الثامنة هدأ البحر قليلاً فتمكنت من الرقاد لأول مرة من ركوبي الباخرة، فحلمت عند بزوغ الفجر بامرأتي التي كنت غادرتها في « نيويورك » واقفة بباب غرفتي بقميص النوم، وقد لحظت وجود شخص أجنبي معي في الغرفة فترددت هنيهة ثم انسلت نحوي وقبلتني، وبعد أن كلمتني لحظة عادت بهدوء من حيث أتت، ثم استيقظت حالاً فوجدت رفيقي محدقاً ببصره إليّ وهو يقول: ما أسعدك تزورك سيدة وتقبلك وأنت نائم. فاستغربت قوله واستنطقته بإلحاح، فأخبرني أنه كان على أتم اليقظة وقد رأى عياناً ما رأيته أنا في الحلم بكل عوارضه، واسم هذا الرفيق « ويليام تيت » وهو رجل رصين صادق الشهادة ومن أهل التقى لا يحب الهزل. ولما بلغنا نيويورك بالسلامة اجتمعت بامرأتي فكان أول سؤالها لي: هل تذكر زيارتي لك يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضي؟ قلت: زيارتك لي؟ كيف يكون ذلك وأنا بعيد عنك مسافة ألف ميل وأكثر في عرض البحر؟ قالت: لا أجهل ذلك إنما يلوح لي أني رأيتك في الباخرة. قلت: هذا مستحيل ومع ذلك أخبريني عما حملك على هذا الظن. قالت: استحوذ عليّ قلق شديد وقت هبوب العواصف وكنت أفكر دائماً فيك وفي الخطر المحدق بك إلى أن كانت ليلة الثلاثاء وقد سكنت العاصفة قليلاً، فلاح لي الساعة الرابعة أني سرت إلى لقائك وقد جزت البحر الهائج حتى بلغت مركباً وطيئاً أسود تتجاذبه المياه، فصعدت ظهره وتفقدت الغرف إلى أن بلغت حجرتك، وكان في معيتك شخص آخر متكئاً على التخت الثاني الذي فوق تختك أخذ ينظر إليّ بتحديق، فترددت برهة في بادئ الأمر ثم دنوت منك وضممتك إلى صدري وانصرفت. ثم استرسلت امرأتي في وصف الباخرة وما عليها فكان ذلك مطابقاً للحقيقة مع أنها لم تقع عينها عليها بتاتاً. اهـ.

(٥) جاء في كتاب « فلاماريون » ما نصه :

كتب إلي من « غاليسيا » المحامي الشهير الدكتور « برونيسلانمايكي » يقول : قرأت من بضع سنين في مجلة إنجليزية عن صديق لـ « جون فرنكلان » وهو أشهر رحالة حاول اكتشاف القطب الشمالي وهلك في رحلته ، يدعى « والترسنو » أنه رأى ليلة في حلمه الصقع المجهول الذي هلك فيه الرحالة الشهير « فرنكلان » ، ولما استيقظ صور البقعة التي رآها في حلمه بكل عوارضها مع القوارب وقطع الجليد والجثث المتجمدة وما جاورها ، ثم نشر هذه الصورة في جريدة أمريكية من باب الغرائب ، ولما اكتشفت بعد سنين آثار فرنكلان ورفاته في الأصقاع المتجمدة ورسم المصورون مكان الفاجعة جاءت رسومهم مطابقة بالتمام لما كان قد صوره « والترسنو » . انتهى والله أعلم .

العجيبة الثانية

جاء في إحدى جرائدنا المصرية في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ ما نصه :

اكتشاف جريمة غريبة بعد عشر سنين

روى مكاتب « الديلي كرونكل » في برلين أن مزارعاً ألمانياً يدعى « فردريك ديكرت » اختفى فجأة منذ عشر سنوات ، وكان جيرانه يعلمون أنه كان دائماً في نزاع مع زوجته وأولاده وهم ثلاثة ، فقبض عليهم بتهمة قتل أبيهم ، ولكن أطلق سراحهم لما لم يجد رجال البوليس بعد البحث والتحري دليلاً يثبت إدانتهم ، وكان في القرية نجار قضى السنوات العشر في البحث عن جثة المزارع دون جدوى ، إلى أن صرح أخيراً بأنه رأى « فردريك » في المنام فأخبره أن جثته مدفونة في مكان معين في مزرعته . ويقول النجار : إن هذه الرؤيا تكررت ثلاث ليال متوالية ، فلم يسع الرجل إزاء ذلك إلا أن ينهض من فراشه وسط الليل البهيم وأخذ يحفر في النقطة التي أرشده إليها حتى عثر على هيكل عظمي على عمق أربع أقدام ، ثم واصل رجال البوليس بحثهم بعد ذلك فوجدوا ساعة فضية عتيقة مكسورة بجانب الجثة شهد ساعاتي القرية أنه أصلحها مرة لـ « فردريك ديكرت » ، فألقي القبض مرة أخرى على الزوجة والأولاد الثلاثة ، فاعترف أحدهم بأنه قتل والده دفاعاً عن أمه وهي في خطر عظيم من جراء اعتداء أبيه ، وبعد أن قتله دفنه في هذا المكان مع أمه . اهـ .

العجيبة الثالثة

جاء في مجلة « كل شيء » ما نصه :

تشتية الحيوان وهل هي ممكنة للإنسان؟

حيوان يبقى ٣١ سنة بلا طعام أو هواء ويظل حياً

في هذا العام منذ بضعة أشهر كان العمال في « تكساس » بأمريكا يكسرون حجراً فوجدوا في قلبه ضباً صغيراً حسبوه ميتاً ، ولكنه تحرك وسعى ، وكان هذا الحجر في بناء مضى على بنائه ٣١ سنة وقد بعثوا به إلى حديقة الحيوانات في « فيلادلفيا » وهو لا يزال حياً للآن . والمشهور عند الأوروبيين أن الضفادع والعلاجيم تبقى حية عدة سنوات وهي محبوسة ، وأن بعض الأحجار إذا كسرت خرجت منها هذه الأحياء وهي ضامرة الجسم مهزولة اللحم ولكنها حية ، وهذه القصة عن الضب الأمريكي لا تزال مثاراً للشك بعضهم يصدقها وبعضهم يستبعد بقاء حيوان بلا طعام أو هواء ٣١ سنة .

ولكن التشتية حقيقية لا يشك فيها أحد، فهناك حيوانات كثيرة إذا أحست البرد عند هجوم الشتاء وقل الغذاء واكتست الأرض بالثلج انكفأت إلى جحورها، وبقيت طول الشتاء أي نحو خمسة أشهر أو ستة أو سبعة وهي رابضة لا تتحرك ولا تأكل، وكلنا يعرف أن الثعابين لا تسعى في الشتاء بل تتحوى في جحورها وتبقى كذلك إلى أن تحس الدفء فتخرج. ومشهور عن الدب في القطب الشمالي أنه يفعل ذلك، وكذلك السنجاب والوطواط والغربان، ولكن التشتية ليست عامة بين اللبونات، أي: تلك التي ترضع أولادها، ولكنها تكاد تكون عامة بين الزواحف والحشرات، وقد فحصت بعض الحيوانات مدة تشتيتها فوجد أن السنجاب الذي يتنفس عادة مدة الصيف نحو ٢٠٠ مرة في الدقيقة في وقت التشتية لا يتنفس سوى ثلاث مرات أو أربع في الدقيقة، بل أحياناً لا يتنفس سوى مرة واحدة كل دقيقتين.

ومعنى هذا أن الجسم لا يحترق منه إلا جزء قليل جداً، بحيث إن مائة يوم من أيام التشتية لا تساوي سوى يومين أو ثلاثة من مدة الصيف حين ينشط الحيوان ويسعى. وفي هذه المدة أي مدة التشتية يأكل الحيوان نفسه، فإذا كان آخر الشتاء نزل وزنه إلى النصف، وكما يحدث هذا البطء في التنفس تنزل حرارة الحيوان إلى نحو ١٠ أو ١٢ فوق الصفر، ونزول الحرارة يجعل الحيوان مستغنياً عن الغذاء إلا أقله، والمعروف أننا جميعاً ننام في الشتاء أكثر مما ننام في الصيف، وأننا ننزع أنفسنا من الفراش في الصباح نزعاً لأننا نستنيم إلى الدفء ونكره السعي في البرد، ولكننا في الصيف نبادر بالاستيقاظ ونستطيع كذلك السهر، ويقال: إن الإنسان الذي يعيش قريباً من القطب الشمالي يكثر من النوم في الشتاء بما يشبه هذه الحيوانات التي آلفت التشتية، فالإسكيماويون والبوريات وهم المغول الروس يقضون معظم الشتاء في بيوتهم نائمين لا يستيقظون إلا ريثما يتناولون مزعة من شحم الفقمة أو لحم السمك ثم يعودون إلى نومهم، فالتشتية تكون طبيعية في الإنسان والحيوان وهي وقوف أو بطء في الوظائف الفسيولوجية للجسم، بل يمكننا من هذه الوجهة أن نقول: إن النبات نفسه يعرف التشتية فإنه يتجرد من أوراقه التي هي سبيل غذائه من الهواء، وإذا كانت ٣١ سنة كثيرة على الضب فإنه مما لا يمكن الشك فيه أن الحيوان يمكنه أن يعيش بضع سنوات إذا أحيط بالبرد الشديد وهو نائم نوم التشتية بدون أن يهلك. انظر شكل ١٨.



(شكل ١٨ ـ ضب أمريكي يقال إنه قضى ٣١ سنة وهو حي لا يأكل ولا يشرب)

والأسماك التي تعيش حول القطب الشمالي يدركها الثلج أحياناً فتجمد فيه، فإذا ذاب عادت إليها الحياة.

وفي النيل سمكة مشهورة تدعى «سمكة الطين» إذا انحسر الماء عنها اندست في الطين، فيجف عليها وتبقى كذلك جامدة كأن لا حياة بها، فإذا جاء الفيضان استيقظت وسبحت. انظر شكل ١٩.



(شكل ١٩ ـ سمكة متجمدة في الثلج إذا ذاب عنها عادت إليها الحياة)

لقد علمت أيها الذكي كيف يكون نوم الإنسان نوماً طبيعياً أو صناعياً مما يجعله هائماً في عوالم أخرى تعطيه أخباراً ورؤيا صادقة وأخرى كاذبة، ثم كيف ينام السمك في الثلج أياماً وأياماً. وأنت إذا قرأت ما جاء في «إخوان الصفاء» في هذا المقام وما قصة «اليعسوب» وهو رئيس النحل وملكه، وهو يخطب في حضرة ملك الجن في تلك الرواية الخيالية البديعة التي جمعت أوصاف جميع الحيوان وأبانت أصنافه وأشكاله وأخلاقه وعواطفه وتربيته لأولاده وتحننه ورأفته وذكاءه وتصرفه لأمور الحياة، لاعتراك الدهش ولرأيت العجب من يعسوب النحل الذي ناب عن الحشرات في تلك الحضرة، وأخذ يبين أن النحل ينام أيام الشتاء، وأن النمل تجمع القوت، ولكن لم يقل إنها تنام كالنحل، وأبان أن الجراد في زمن الشتاء يموت. وأن دود القز ينام أياماً ثم يستيقظ، والزنابير الحمر والصفر والسود تنام أيام الشتاء كالنحل، ولكنها لا تجمع لأنفسها قوتاً مثله كما تقدم في السمك النائم في الثلج ثم تستيقظ في فصل الربيع، وأما البراغيث والبق والديدان فإنها عند تغير الزمان لا تنام بل تموت كما تقدم في الجراد، في هذا كله يفسر قوله تعالى هنا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[الروم: ٢٣]، وذلك لأن النوم يقدر بقدر الحاجة فيكون للإنسان ساعات، ولشرنقة النحل ودود القز ودود سائر الحشرات أياماً معدودات كما تقدم في سورة «طه» وغيرها، إذ رأيت أيها الذكي هناك أن جميع الحشرات تنام وهي شرنقة أياماً وتنسج على أنفسها كرة تناسبها، لا فرق في ذلك بين دود القز والذباب وغيرها من مئات الألوف منها، ثم تستيقظ كما يستيقظ دود القز، وهذا مشروح شرحاً تاماً بالصور والأشكال. وعند الاستيقاظ تصبح طائراً يطير في الجو، ويكون ذلك النوم لنفس النحل ولنفس الزنابير بأنواعها شهور فصل الشتاء، وهذا الأخير هو الذي أوضحه كتاب «إخوان الصفاء».

هنالك حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ولما اطلع على هذا قال: هذا القول حسن في تفسير الآية، ولكن لو ذكرت لنا نص ما قاله «إخوان الصفاء» في هذا المقام لكان أتم للفائدة. فقلت: قال: ثم تكلم النحل وقام خطيباً مذكراً مسبحاً، وقال: الحمد لله الواحد فاطر السماوات وخالق المخلوقات ومدبر الأوقات ومنزل القطرات والبركات ومنبت العشب في الفلوات

ومخرج الزهر في النبات وقاسم الأرزاق والأقوات نسبحه في صباحنا بالغدوات ونحمده في رواحنا بالعشيات بما علمنا من الصلوات والتحيات، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

أما بعد أيها الملك العادل، يزعم هذا الإنسي بأن لهم علوماً ومعارف وفكراً وروية وتدبيراً وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا ونحن عبيدهم، فلو أنهم فكروا في أوامرنا واعتبروا أيضاً أحوالنا لبان لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا أن لنا أيضاً علماً وفهماً ومعرفة وتمييزاً وفكراً وروية وسياسة وتدبيراً أدق وألطف وأحكم وأتقن مما لهم. فمن ذلك اجتماع جماعة النحل في قراها وتمليكها عليها رئيساً واحداً واتخاذ ذلك الرئيس أعواناً وجنوداً ورعية، وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوتات المسدسات المتجاورات المكتنفات من غير بركار ومعرفة هندسية كأنها أنابيب مجوفة مسدسة، ثم كيفية ترتيبها البوابين والحجاب والحراس والمحتسبين وكيف تذهب في المرعى أيام الربيع وليالي القمر في الصيف وكيف تجمع الشمع بأرجلها من ورق الأشجار والعسل بمشافيرها من زهر النبات، ثم كيف تخزنها في بعض البيوت، وكيف تشد رأسها كأنها رؤوس البراني مشدودة بالقراطيس، وكيف تبيض في بعض البيوت وتحضن وتفرخ وكيف تأوي في بعض البيوت وتنام فيها أيام الشتاء والصيف والبرد والرياح والأمطار، وكيف يتقوتون من ذلك العسل المخزون هي وأولادها يوماً بيوم لا إسرافاً ولا تقتيراً، إلى أن تنقضي أيام الشتاء وتجيء أيام الربيع وينبت العشب ويطيب الزمان ويخرج النبت والزهر والنور، وكيف ترعى كما كانت عام الأول وذلك دأبها من غير تعليم من الأستاذين ولا تأديب من المعلمين ولا تلقين من الآباء والأمهات، بل تعليماً من الله تعالى ووحياً وإلهاماً وإنعاماً وتكرماً وتفضلاً علينا، وأنتم يا معشر الإنس تدعون علينا بالرقة وأنتم موالينا، فلم ترغبون في فضالتنا وتفرحون عند وجدانها وتستشفون عند تناولها، فمن كان ملكاً كيف يحرص ويرغب في فضالة الخدم والخول ونحن مستغنون عنكم؟ فليس لكم سبل إلى هذه الدعوات إذ الدعوى زور وبهتان.

وأيضاً أيها الملك لو علم الإنس من حال النمل فإنها كيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتاً وأزقة ودهاليز وغرفاً وطبقات منعطفات، وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء، وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضة مصوناً كيلا تجري إليها المياه وبعضها مرتفعاً، وتخزن الحب والقوت في بيوت منعطفات إلى فوق حذراً عليها من المطر، وإذا ابتل منها شيء كيف تنشره أيام الصحو، وكيف تقطع حب الحنطة نصفين، وكيف تقشر الشعير والباقلا والعدس لعلمها بأنه لا ينبت مع التقشير؛ وتراها كيف تعمل أيام الصيف ليلاً ونهاراً باتخاذ البيوت وجميع الذخائر وكيف تتصرف في الطلب يوماً يمنة ويوماً يسرة في القرية كأنها قوافل ذاهبين وجائين، وأنها إذا ذهبت واحدة منها فوجدت شيئاً لا تقدر على حمله أخذت منه قدراً ما وذهبت راجعة مخبرة للباقين وكلما استقبلتها واحدة شامتها مما في فيها لتدلها على ذلك الشيء، ثم ترى الكيفية كل واحدة منها على ذلك الطريق الذي جاءته من هناك، ثم كيف تجمع على ذلك الشيء جماعة منها، وكيف يحملونه ويحترزونه بجهد وعناء في المعاونة، وإذا علمت أن واحدة منها توانت في العمل أو تكاسلت في التعاون اجتمعت على قتلها

ورمت بها عبرة لغيرها. فلو تفكر الإنسي في أمرها واعتبر أحوالها لعلم أن لها علماً وفهماً وتمييزاً ومعرفة ودراية وتدبيراً وسياسة مثل ما لهم ولما افتخر علينا بما ذكر.

وأيضاً أيها الملك لو تفكر الإنسي في أمر الجراد إنها إذا سمنت أيام الربيع من الرعي كيف تطلب أرضاً طيبة التربة رخوة الحفرة وكيف نزلت هنالك وحفرت بأرجلها مخاليبها وأدخلت أذنابها في تلك الحفرة وطرحت بيضها فيها ودفنته وطارت وعاشت أياماً وأكلتها الطيور ومات من بقي وهلك من حر أو برد وفنت، ثم إذا دار عليها الحول وجاءت أيام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء فكيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الأرض وأكلت من ورق الشجر وسمنت وباضت مثل عام أول، وهذا دأبها وذلك تقدير العزيز العليم، فليعلم هذا الإنسي أن لنا علماً ومعرفة، وهكذا أيضاً أيها الملك دود القز التي تكون على رؤوس الأشجار والجبال فإنها إذا شبعت من الرعي في أيام الربيع وسمنت أخذت تنسج على نفسها من لعابها في رؤوس الجبال شبه العش والكن ثم تنام أياماً معلومة، فإذا انتبهت طرحت بيضها في داخل ذلك الكن الذي نسجته على أنفسها ثم ثقبتها وخرجت منها وسدت تلك الثقب وخرجت لها أجنحة وطارت، فيأكلها الطير أو ماتت من الحر والبرد والريح والمطر ويبقي ذلك البيض في تلك الجوازات محروزة أيام الصيف والخريف والشتاء من الحر والبرد والرياح والأمطار، إلى أن يحول الحول وتجيء أيام الربيع ويحضن ذلك البيض في الجوازات، ويخرج من ذلك الثقب مثل الدبيب الصغار وتدب على ورق الشجر أياماً معلومة، فإذا شبعت وسمنت نسجت على نفسها من لعابها مثل العام الأول وذلك دأبها أبداً ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦]، ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] إلى أمور مصالحها ومنافعها، وكذلك أيضاً أيها الملك حال الزنابير الصفر والحمر والسود فإنها تبني أيضاً منازل في السقوف والحيطان ومن بين أغصان الأشجار مثل ما يفعل النحل، وتحضن وتبيض وتفرخ ولكنها لا تجمع القوت للشتاء ولا تدخر للغد شيئاً ولكن تتقوت يوماً بيوم ما طاب لها الوقت، فإذا أحست بتغيير الزمان ومجيء الشتاء ذهبت إلى الأغوار والمواضع الكنينة الدفئة، ومنها ما يدخل في نقب الحيطان والمواضع الكنينة الحصينة وتنام فيها أياماً طول الشتاء، وإذا جاء الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نفخ الله تعالى فيما سلم من تلك الجثث روح الحياة، فعاشت وبنت البيوت وباضت وحضنت أولادها مثل عام الأول فهذا دأبها ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[الأنعام: ٩٦]، وكل هذه الأنواع من الحشرات والهوام تبيض وتحضن وتربي أولادها بعلم ومعرفة ودراية وشفقة ورحمة ورأفة وتحنن ولطف ورفق، ولا تطلب من أولادها البر والمكافأة والجزاء، فأما أكثر الإنس فيريدون من أولادهم براً وصلة وجزاء ومكافأة، ويمنون عليها في تربيتهم إياهم، وأين هذا من المروءة والفضل والكرم والجود والسخاء الذي هو من شيم الأحرار الكرام من أرباب الفضل، وبماذا يفتخر الإنس علينا إذ ألذ مأكولاتهم فضالتنا وأحسن ملبوساتهم فضالة دود القز، فهم في مأكولاتهم وملبوساتهم تحت متناولنا أيدي النعمة عليهم، فكيف يدعون أنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم، ثم قال النحل: أما البراغيث والبق والديدان وما شاكلها من أبناء جنسها فإنها لا تحضن ولا تلد ولا ترضع ولا تربي أولادها ولا تبني البيوت ولا تدخر العشب ولا تتخذ السكن بل تقطع أيام حياتها مرفهة ومستريحة مما يقاسي غيرها من برد الشتاء والرياح والأمطار وحوادث

الزمان، وإذا تغير عليها الزمان واضطرب الكيان وتغالبت طبائع الأركان أسلمت نفسها للنوائب والحدثان وانقادت للممات لعلمها يقيناً بالمعاد، وتعلم أن الله تعالى منشئها ومعيدها في العام القابل للكون كما أنشأها أول مرة، ولا تقلول ولا تنكر كما أنكرت الإنس وقالت: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، فلو اعتبر هذا الإنسي أيها الملك فيما ذكرت من هذه الأشياء من تصاريف أمور هذه الحشرات والهوام لعلم وتبين له بأن لها علماً وفهماً ومعرفة وتمييزاً ودراية وفكراً وروية وسياسة وتدبيراً. كل ذلك عناية من الباري تعالى، ولما افتخر علينا فيما ذكر أنهم أرباب ونحن عبيد لهم. أقول قولي هذا وأستغفر الله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]. فلما فرغ النحل من كلامه قال له الملك: بارك الله فيك من حكيم ما أعلمك، ومن خطيب ما أفصحك، ومن مبين ما أبلغك. انتهى.

هذا ما أردت نقله من كتاب «إخوان الصفاء» للدلالة على نوم بعض الحيوان في الشتاء شهوراً كما نام بعض دودة أسابيع كما نام الإنسان ساعات، فهل لك أن ترى أعجب مما تقدم، لقد علمت فيما مضى في هذا التفسير في مواضع مختلفة أن النبات له حياة وله إحساس وهو أيضاً ينام، وذلك ظاهر في زهره المشروح شرحاً وافياً فيما تقدم، إنّما الذي يخر له العقلاء سجداً أن يقال: إن الحبوب كالقمح والشعير والذرة وهكذا مما لا عد له تتنفس كما يتنفس النبات وكما يتنفس الحيوان، وإذا كانت الحبوب تتنفس فعندها نوع من الحياة، إذن هي حية ولكنها نائمة، إذن هي كالجنين في بطن أمه وكأصول الفرخ في البيضة، كل هذه عندها نوع من الحياة إذن الحبوب نائمة، فهل لك أن تسمع ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهذا نصه:

الحياة حتى للحب

كيف يمكنك أن تفسر ما تراه في كل يوم من الظاهرات الكيميائية

كائن حي يعيش ١٠٠٠ سنة

نرى أن البقول والحبوب تحيط بها أغلفة صلبة، ويقرر العلماء أن في داخل كل حبة منها كائن حي كامن في نواتها، فهل تعتقد أن هذا الكائن الحي يمكنه أن يتنفس من وراء هذا الغلاف الصلب؟ ولا ريب في أن يتنفس الكائن الحب الموجود في داخل الحبة مثلي ومثلك ولكن بأسلوبه الخاص، فهو يستمد الأوكسجين من الهواء، وبعد أن يتمثل في جسمه يرسله في الجو ثاني أوكسيد الفحم، أي مثل الإنسان بالضبط، ويستمر بفطرته على هذه الظاهرة طالما يبقى في الحبة ولو أقل جزء من قوتها الحيوية أي إن لم تحطمها بعض الجراثيم أو الحشرات أو تحرق بالنار، وقد يمتد أجل الكائن الحي الموجود في الحبة إلى ٨٠٠ سنة، ولا ينقطع تنفسه الذي تقدم شرحه، فإذا وضعت الحبة في تربة صالحة استمد منها ما يلزم من الغذاء وظهر في الوجود شجرة نضرة. اهـ.

زيادة إيضاح قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾

يقول بعض علماء العصر اليوم: إن الحبوب تتنفس ولا عجب في ذلك، فإنها تخالف الأحجار والطين. فتلك لا تنفس لها لأنها جماد أما هذه فهي أصل النبات وجرثومته. وهل يكون الحي وهو

النبات من غير حي وهو الحب كلا . بل الحب له حياة ضئيلة كحياة النائم . ولما كان نوم الإنسان هو المذكور في الآية وإنه من آيات الله كان من حقنا أن نقول : لا فرق بين نوم ونوم في كونها كلها من آيات الله ، بل من أعجب آيات الله أن أصبحنا نرى حب القمح الذي نأكله له حياة وقد جعلناه من العوالم النائمة ، إذ من الحكم وعجائب العلم ما يفعله هذا الإنسان ، إنه قد نظر فرأى الزنابير الصفر والحمر والسود تنام زمن من الشتاء كما تقدم ، ورأى بعض الحيوان ينام ببرد الثلج شهوراً فماذا فعل؟ قال في نفسه : أفلا يمكنني أن أفعل ما يفعله الحيوان والحشرات ، ولماذا لا أنام شهوراً ؟هنالك قام البوذية والبراهمة بهذه التجربة فناموا ستة أشهر ، وقد اطلعت على كيفية ذلك في كتاب « راجا يوقا » المترجم من الهندية إلى الإنجليزية ونقلت عنه كثيراً في هذا التفسير ، فماذا يفعل هؤلاء القوم؟ يحبسون النفس داخلاً تارة وخارجاً أخرى بالتدريج أطول فأطول حتى تقدر النفس أن تتحكم في التنفس ، وهناك تصير الدودة الدموية تحت إدارة الإنسان ، هنالك متى أراد النوم نام ويبقى نائماً ستة أشهر كما قلت لك ، وهذه قوة من هذا الإنسان قدر بها أن يغير عاداته بنفس النوم ، وهذا قول سبق بعضه في سورة « الإسراء » وفيها ذكر التجارب التي ظهرت في مصر من هذا النوع .

هذه تجارب أهل الهند قديماً ولكن الإنسان الحالي نظر نظرة أخرى فقال : الطير يطير والأرض والجو مسخرات لي فلماذا لا أطير في الجو؟ ولماذا لا أفعل في المادة ما أشاء؟ ولا أقف مكتوف اليدين أمام الطبيعة فلأغير كل شيء .

هذا ولما كان نوم الإنسان يعقبه العمل قال الله تعالى : ﴿ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾[الروم: ٢٣] وهذا فتح باب للكلام على الحركة . فهنا حالان : نوم بعدم الحركة ، ويقظة بالحركة . وإذن وجب أن نذكر شذرة من كلام الأطباء في النوم وفي اليقظة تسهيلاً لقراء هذا التفسير في علم الصحة وتذكرة لمن يتفكرون . فلنذكر أولاً ساعات النوم ، ثم نتبعها بما جاء في الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان .

الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه

جاء في كتاب « التدبيرات الصحية » الذي ألفه طبيبان مصريان في علم الصحة للمدارس المصرية ما نصه :

النوم

الإنسان في حاجة شديدة إلى النوم لأنه من ضروريات الحياة ، فلا يحيا بدونه كما دلت على ذلك التجارب في الحيوانات . فالكلب مثلاً لا يعيش أكثر من خمسة أيام بدون نوم . والإنسان لا يمكنه أن يعيش زمناً طويلاً من غير أن يأخذ حظه من النوم ، إذ يتغير لونه ويحصل له آلام في الرأس وضعف عن مزاولة أعماله لاضمحلال جسمه . وإذا استمر على عدم النوم انصرم حبل حياته .

أوقات النوم وعدد ساعاته

يختلف احتياج الجسم إلى النوم باختلاف السن . فالطفل محتاج إلى النوم مدة أطول مما يحتاج إليها الشاب كما يظهر ذلك من البيان الآتي :

الذين سنهم من ٤ إلى ٨ سنوات ينامون من ١٠ إلى ١٣ ساعة .

الذين سنهم من ٩ إلى ١٢ سنة ينامون من ٩ إلى ١٠ ساعات .

الذين سنهم من ١٣ إلى ١٦ سنة ينامون مقدار ١٠ ساعات.

الذين سنهم من ١٦ إلى ٢٥ سنة ينامون مقدار ٩ ساعات.

يقول المؤلف: ومعلوم أن الكلام خاص بتلاميذ المدارس، ومعلوم أن كبار السن تنقص مدة نومهم ساعة أو ساعتين على حسب السن والأحوال.

فلكي يتمكن الإنسان من نومه المدة اللازمة له يجب أن يعجل النوم حتى يستيقظ من نومه مبكراً فيذهب إلى المدرسة في الميعاد المحدد، فإذا أطلت السهر ولم تنم المدة الكافية لسنك ضعف جسمك وعقلك فلا يمكنك فهم دروسك أو القيام بعملك. وإذا أصبت بأرق فاستشر الطبيب ليرشدك إلى ما يجب اتباعه، كما أنه يجب ألا تكثر من ساعات النوم لأن ذلك يجلب الكسل وضعف الجسم وآلام الرأس وضعف شهوة الأكل، فتصبح متأخراً عن إخوانك في الدراسة لتأخرك في الذهاب إلى المدرسة وصعوبة فهمك، فلا ينتظر منك حينئذ أن تكون نشيطاً في مستقبل حياتك بل تعيش نكداً، لا تنم عقب تناول العشاء لأن ذلك يسبب الأحلام المزعجة، وربما أرقت وقد عرفت مضار الأرق فلا تذهب إلى فراشك إلا بعد مضي ساعتين على الأقل من تناول عشائك، وإياك أن تنام عقب الانتهاء من مذاكرتك أو لعبك لأن ذلك ينجم عنه عدم راحتك في نومك، فإذا استرحت قليلاً نمت نوماً هادئاً واستيقظت قوياً نشيطاً، اغسل وجهك ويديك وفمك وأسنانك وقدميك قبل النوم لكي تنام نظيفاً مستريحاً، وغير ملابسك بسواها من الملابس الخاصة بالنوم، ويجب أن تنام على جنبك الأيمن.

يجب أن تكون حجرة نومك بحيث يسهل تجديد هوائها بعيدة عن كل محل تنبعث منه رائحة كريهة، وأن تنفذ إليها أشعة الشمس نحو ساعتين كل يوم، ولا تستعمل مصابيح الغاز أو الزيت أو الشمع في حجرة نومك، واترك إحدى نوافذها البعيدة عن مرقدك مفتوحة طول الليل، ولا تخش البرد ما دام جسمك مغطى بغطاء كاف للدفء.

فراش النوم

يوضع الفراش على شيء مرتفع عن الأرض مثل السرير ليكون الجسم بعيداً عن رطوبة الأرض ويتكون الفراش من حشية «مرتبة» ويحسن أن تكون من القطن، فوقها طهارة «ملاءة» من التيل أو القطن لتحفظها من الاتساخ، وعليها وسادة مغطاة ولحاف أو قطيفة «بطانية» للغطاء، وينصب على السرير كله ناموسية للوقاية من الأمراض التي تنتقل بالبعوض.

تجديد الهواء في قاعات النوم والفراش

بعد النهوض من النوم صباحاً تفتح نوافذ الغرفة جميعها، وتنزع جميع أجزاء الفراش وتنشر على النوافذ وتترك القاعة على هذه الحالة نحو ساعتين يكون الفراش فيهما معرضاً لأشعة الشمس، ثم ينفض الفراش من الأتربة وينقى من الحشرات وغيرها. وبعد تنظيف القاعة جيداً يوضع الفراش على السرير وتقفل النوافذ إلا جزء من نافذة يترك طوال النهار مفتوحاً، وقبل ميعاد النوم بساعة تفتح النوافذ ليتجدد الهواء، ويجب غسل خشب السرير الذي توضع عليه الحشية «المرتبة» كل أسبوع وتعريضها للشمس لتنقى من بيضات بعض الحشرات كالبق المنتشر في كثير من المنازل. انتهى الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه.

الكلام على الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾

معلوم أن هذا الابتغاء إنّما يكون بالحركة، فليكن الكلام في أنواعها فنقول: جاء في كتاب «قانون الصحة المنزلية» تأليف الأستاذ «جون سايكس» ما نصه:

الرياضة البدنية

من الحكم المأثورة ما ورد: «العقل السليم في الجسم السليم»، ولذلك يلزم حفظ وظائف الجسم في حالة جيدة باستعمال الرياضة، فحفظ العقل يكون باستمرار رياضة الجسم، العضلات غير الإرادية تنقبض وتنبسط بنظام خاص وذلك لحفظ وظائفها الطبيعية، وتفيد الرياضة البدنية جميع الأشخاص مهما اختلفت سنهم، إلا أنها تفيد أكثر في سن الطفولية، ولذلك يلزم أن تكون الرياضة البدنية جزء مهماً من الدراسة للبنين والبنات.

فوائد الرياضة البدنية هي:

(١) جعل العضلات أشد صلابة ومتانة.

(٢) زيادة التنفس وبذلك يزيد فعل الرئتين فتزيد تهوية الدم.

(٣) تقوي القلب وتزيد سرعة الدورة الدموية فتعتدل الحرارة في جميع الجسم.

(٤) تزيد فعل الجلد فيكثر التبخر من سطحه.

(٥) سرعة الهضم وتحريض أعضاء الإفراز والأمعاء والكلى على العمل وبذلك تخرج جميع الإفرازات التي لا تفيد الجسم.

(٦) وأخيراً تنشيط القوى العقلية.

وإذا تمادى الإنسان في الرياضة البدنية وتحمل منها أكثر من طاقته أضر بنفسه كثيراً بدل الفائدة التي كان ينتظرها، ولذلك يلزم الإنسان التدرج في التمرينات البدنية حتى يصل إلى الدرجة التي تفيده منها، لأن إجهاد الجسم فيها ينجم عنه أضرار عديدة ولا سيما الإجهاد الذي يقوم به المتسابقون في الحفلات، ولذلك يجب عدم الترخيص بالتسابق إلا لأقوياء البنية والذين تمرنوا على الألعاب تدريجاً حتى وصلوا لدرجة الدخول في المسابقة، وكلما تنوعت أنواع التمرينات كانت النتيجة مرضية.

أنواع الرياضة البدنية المختلفة

يمكن عمل الرياضة البدنية داخل المنازل أو خارجها، وتمتاز الرياضة خارج المنزل عن التي داخلها بتغيير المناظر ونقاوة الهواء، إلا أنه في فصل الشتاء يفضل عملها داخل المنازل، ولكن يمكن الجمع بين الاثنين بأن يمشي الإنسان مدة من الزمن قدر ساعة يومياً خارج المنزل ويقوم ببعض الألعاب الرياضية داخله كالربع وهو اللعب بالربائع وهي أثقال التمرينات البدنية مدة عشر دقائق بعد حمام الصباح، وذلك يفيد سكان المدن على الخصوص لحرمانهم من الهواء النقي. والرياضة البدنية على أنواع كثيرة، فمنها ما يقصد منه المكسب كالنجارة والحرث والحفر وغيرها.

يقول المؤلف: وهذا قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[الروم: ٢٣]، ومنها ما يقصد منه التسلية والصحة كالتمرينات البدنية.

العوم والتجديف

تتحرك أغلب عضلات الجسم في الحركات التي يقوم بها الجسم أثناء العوم، والعوم يفيد لأنه يقوي البنية ويزيد في نظافة الجسم ويعلم الأطفال الشجاعة والاعتماد على النفس وإغاثة الغرقى، والذين يعرفون العوم يسرون من التجديف وهو رياضة بدنية صحية تقوي عضلات الأطراف والجذع.

ركوب الدراجات

لا يفيد الصدر كالتجديف إلا أنه يفيد الإنسان من حيث التمتع بالهواء الطلق ويلزم الاحتراس من إجهاد الجسم في هذا التمرين فإنه ربما أضر القلب، ويجب الامتناع عن صعود الجبال على الدراجات ولها ضرر آخر وهو الضغط على الأجزاء المرتخية من جسم الإنسان.

المشي

المشي أكثر أنواع الرياضة البدنية استعمالاً، وفيه تتحرك كثير من العضلات زيادة عن عضلات الساقين ويمتاز عن غيره من التمرينات بالتمتع بالمناظر التي لا يمكن الوصول إليها راكباً.

الجمباز والتمرينات الحربية

تكسب الجسم صحة وتعلم الإنسان النظام وتغرس في نفسه الميل للعمل بنظام خاص وتعلمه حب الاجتماع ببني جنسه.

ركوب الخيل

ركوب الخيل من أحسن أنواع الرياضة البدنية وأصحها لمن استطاع ذلك، ويمكن معه الصيد باستعمال الأسلحة النارية، ومن الرياضة البدنية كرة القدم والكرة والصولجان والكرة والمضرب والشيش.

الصلاة

الصلاة مع كونها فريضة دينية لا بد من القيام بها، فهي رياضة صحية تكسب الجسم نشاطاً وهمة بحركات الركوع والسجود والتسليم. اهـ.

هذا وإني أذكرك أيها الذكي بما ذكرته في علم الصحة في سورة « طه » وفي سورة « الشعراء » فإنك تجد كلاماً أوفى وأتم في الرياضة البدنية التي تشعر بها هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[الروم: ٢٣]. انتهى الكلام على القسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الرابع

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ
ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم
مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ
وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ
كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ
كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ
أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ
مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ

ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم ﴾ منتزعاً ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: من أحوالها، ولا جرم أنها أقرب الأمور إليكم ﴿ هَل لَّكُم ﴾ يا معاشر الأحرار ﴿ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾ من مماليككم ﴿ مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ من العقار والمنقول والنقد فتكونون أنتم وهم فيه مستوين يتصرفون فيه كتصرفكم، وهذا قوله: ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ ﴾ أن يستبدوا بالتصرف فيه ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. المعنى هل أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم في أموالكم فيساوونكم في التصرف فيها ولا تنصرفون فيها إلا بإذنهم خوفاً من لائمة تلحقكم منهم كما يخاف بعضكم بعضاً، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده له شركاء ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك التفصيل ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ نبينها بالتمثيل الكاشف للمعاني ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ بكفرهم وإشراكهم ﴿ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ جاهلين ولا علم يردعهم، فأما العالم فربما رده علمه إلى الصواب يوماً ما ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أي: لا أحد يقدر على هدايته ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يخلصونهم من الضلالة والعذاب ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهذا استعارة تمثيلية للتوجه التام وعدم الميل عن الدين والاهتمام به اهتماماً مصحوباً بجد ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي: حال كونك غير ملتفت عنه، وهذا من بقية التمثيل، الزموا ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له، ولذلك قال: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ أي أن الله خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له لكونه مساوقاً للنظر الصحيح، فمن غوى منهم فإن الشياطين هم المغوون. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء أي مستوية لم يذهب من بدنها شيء هل تحسون فيها من جدعاء، أي هل تشعرون أو تعلمون بها من مقطوعة الأذن أو الأنف» وهذا الحديث رواية البخاري ومسلم وعجزها للبخاري وحده، واعلم أن الإيمان إيمانان: إيمان فطري وقد علمته، فالعقل الإنساني كصحيفة بيضاء قابلة لنقش ما يراد فيها فهو أشبه بالمادة التي خلقنا منها وكل ما يغرس فيه من حسن أو قبيح أو شريف أو وضيع ينبت كما تنبت الأرض حنظلاً وفاكهة ودواء

وسماً، فالأرض نوعت الزروع فيها وهي قابلة لها والنفوس تزرع فيها الديانات والعلوم فتقبلها، ولكن من صفات الفطرة والخلقة الكونية أن يكون الخير عليها أغلب، ألا ترى أن نبات الأرض كله يصلح للمراعي فما لا يصلح لأكثر الحيوان يصلح لأقله فالسم قليل والنفع أكثر من الضر، هكذا عقول بني آدم وقد خلقوا كجميع خلق الله فهم تامو بنية الجسم بيض الصحائف في القلب، فقوله عليه الصلاة والسلام: «كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء» معناه أن البهيمة تكون كاملة الأعضاء أيام ولادتها، هكذا العقل صحيفته بيضاء لم ينقش فيها نقش علمي يغيرها، وكما أن البهيمة لا تجدع إلا بما يجدعها من الخارج هكذا صحيفة العقل لا تدلس بالآراء الفاسدة إلا بمن يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين والنصرانيين، ولو ترك الطفل وشأنه لعرف وحدانية الله. فهذا الاستعداد الفطري والإيمان الفطري لا اعتبار بهما في أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المأمور به. ويروى أنه قيل: يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين. ومعنى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي أن تبدل فطرة الله أو تغير أو لا تبدلوا دين الله بالشرك، ولا تخصوا البهائم فذلك تغيير لخلقها، ولا يغير ربك ما جبل عليه الإنسان من شقاوة أو سعادة بل كل ميسر لما خلق له ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الحق المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن دين الله هو الإسلام. وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حال من فاعل «أقم» أي: فأقم وجهك يا محمد وأمتك معك راجعين إليه، من: أناب، إذا رجع مرة بعد أخرى أو منقطعين إليه ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أدها في أوقاتها ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة. ثم أبدل من قوله: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ جعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم وقلة عقولهم وقصور إدراكهم، إذ سولت لهم أنفسهم أن الاختلاف في بعض الفروع يوجب الاختلاف في الأصول ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فرقاً مختلفة كأهل البدع في هذه الأمة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ راضون لأنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه واطمأنوا لما علموا ككثير من رؤساء الطوائف في الأمة الإسلامية اليوم؛ يقول الأستاذ لتلاميذه: لتكن وجهتكم كذا من أعمال البر، ويفهمهم أن من عداهم جهلة غير واصلين الله، فتختلف الوجهة ويحقرون غيرهم من أهل دينهم، فتتفرق الأمة ولات حين مناص. واعلم أنه لا دواء للفرق المتشعبة في الأمة الإسلامية إلا بنشر العلوم الطبيعية والرياضية، لأن هذه متى امتلأت بها العقول أدركت جمال الله، فكل ما جاء بعد ذلك لا يؤثر فيها ولا يفرق وحدة الأمة، فأما ما دامت العقول خاوية والنفوس جاهلة فإن أقل تعليم يحول الإنسان عن بقية الأمة، فإذا أمر بذكر خاص كسور يتلوها أو عبادة يتجه إليها فإنه يغرم بها، ويظن أن كل علم أو عبادة غير ذلك لا يدفع عاراً ولا يذكي ناراً ولا ينفع جاراً، فلا وسيلة لاتحاد الأمم الإسلامية إلا بنشر جمال النجوم وجمال النبات وبدائع المعادن ونظام هذا العالم في مدارس المسلمين، فهذه هي ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فالله خلق هذه العوالم ومتى عرفها الناس صارت معرفتهم متحدة فلا تغير وجهة عقولهم العامة كما لا تغير وجهة السنن التي سنها الله في خلق العوالم. إن الله هو الذي زين هذه الدنيا وهو الذي خلقها وهو الذي خلقنا، فعلينا أن ننظر فيما خلق ونفرح بما أبدع ونسر بما أنشأ، فلا تغيير لسنة الله في الخلق،

فإن القانون العام في نمو النبات وسير الكواكب لا تغيير فيه، فالعلم به ثابت والذين يعرفونه تثبت عقيدتهم بربهم ويفرحون به فلا يلويهم عن وجهة الأمة العامة صارف، لأنهم ثبتوا على الحقائق التي لا تغير وجهتها. والله أسأله أن يقيض لهذه الأمة من يرشدهم إلى هذه السبيل إنه لسميع الدعاء.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدة وبلاء ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من تلك الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم لما عافاهم ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أمر للتهديد، ثم التفت للمبالغة فقال: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتعكم ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجة وعذر، أي: بل أنزلنا عليهم ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يشركهم ويأمرهم به ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالنعمة والصحة والثروة والقوة ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ بطروا بسببها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشؤم معاصيهم وجهلهم لسنن الحياة وعصيانهم أوامر الدين والحكمة ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: فاجؤوا القنوط من رحمته ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فما لهم لم يشكروا في السراء ويحتسبوا في الضراء كالمؤمنين، فإن من فطر هذا العالم على وجه الكمال لا ينزل الشدة بعباده إلا لما يعود عليهم بالخير، كالتأديب والتذكير وابتلائهم وامتحانهم وتربيتهم، فإنه يربيهم بالرحمة ويربيهم بالتعذيب، فلو أنهم شكروه عند السراء وتضرعوا له واحتسبوا عند الضراء لكان خيراً لهم ولكانوا منيبين لربهم في حال الضراء والسراء، إن هؤلاء الذين يضرعون إلى ربهم عند الشدة فإذا أزالها عنهم أشركوا به، وهؤلاء الذين يبطرون بالنعم ويقنطون عند الشدة ليسوا منيبين لربهم وليسوا ملازمين الفطرة، فلينيبوا له في الرخاء والشدة فلا يعوقهم عن الإنابة نعمة تبطرهم بعد شدة ولا شدة تحدث في قلوبهم اليأس بعد رحمة، بل عليهم أن يكونوا له في السراء والضراء منيبين، إذا تقرر ما تقدم من أنه تجب الإنابة لله بحيث لا ييئس الإنسان إذا مسه شدة بعد رحمة ولا يبطر إذا زال عنه الضر وتمتع بالرحمة، بل يجب أن يكون منيباً في الحالين، أمر أن يكون واصلاً للرحم محسناً لغيره إذا أنعم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ كصلة الرحم، وقد أوجب أبو حنيفة رضي الله عنه النفقة للمحارم من هذه الآية: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر والضيف ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يطلبون ثواب الله بأعمالهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ أعطيتم ﴿مِّن رِّبًا﴾ من عطية تتوقعون بها مزيد مكافأة ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ بأن يعطي الرجل غيره عطية ليثيبه أكثر منها، فهذا جائز لا حرمة فيها ولكن لا ثواب له يوم القيامة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يكثر عند الله بالتضعيف ولا يقبله، فإن ذلك ليس خالصاً لله، ويلحق بذلك الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله لالتماس عونه لا لوجه الله تعالى فهذا لا ثواب له، ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي: أعطيتم من صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ بتلك الصدقة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها، والمضعفون ذوو الأضعاف من الثواب كالمقوي والموسر لذي القوة واليسار، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن

ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا ظاهر.

واعلم أن الآيات المتقدمة دلت على عدم ثبات الناس وأنهم يبطرون في النعماء وييئسون في الشدة بعدها وينفقون المال لحطام الدنيا، وكثير منهم لا يصلون الرحم، وإنما يبذلون المال لشهواتهم، فناسب أن يذكر بعدها أن أهل هذه الأرض مصابون، اعتراهم النقص المشين، كيف لا وقد ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ ﴾ بالحرب والغارات والجيوش والطيارات ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ بالسفن الحربية والطوربيد والغواصات الخارقة للسفن وقطع الأسلاك البرقية أيام الحرب ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أي: بكسبهم إياه تارة كما تقدم أو بشؤم نقصهم وطبيعة أرضهم، وأنهم هكذا خلقوا في الأرض ليكون ذلك لهم ابتلاء، وذلك كالطاعون وأنواع الحمى وتلك الحيوانات الدقيقة التي تسمى بالميكروب، فإنها تملأ السهل والجبل وتحدث الأمراض والجدري والحصباء وهذا ينزل الطاعون في نوع أو أنواع من الحيوان وكذا النبات، فإن ما ينفع الناس منه يصاب بآفات تعرض له كما يصاب قطن مصر وعنب فرنسا وسائر الأشجار النافعة بالجوائح المهلكة والفاتكات، كل ذلك لأن هذا الإنسان أودع هذه الأرض وقد استحق هذا لنقصه، وذلك لتدريبه وتهذيبه، وإلا فلماذا يكون النبات الذي ينتفع به تسطو عليه عاديات الدهر والمدمرات المهلكات من الجوائح، ويخلق بجانبه نبات آخر يسطو على غذائه فيهلكه ولا يهلك هو، ذلك لنقص هذا الإنسان ويراد به كماله، وملخص ما تقدم أن ظهور الفساد في البر والبحر إما بعمل الإنسان وإما بعمل طبيعي خلق لمناسبة نقص الإنسان ابتلاء له وامتحاناً، وقوله تعالى: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أي: بعض جزائه، وذلك لأن تمامه في الآخرة، وهذا راجع لأحد القسمين وهو ما كان بفعل الإنسان، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية وكيف هلكوا بذنوبهم ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ فلذلك أهلكوا بكفرهم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ البليغ الاستقامة وهو الإسلام ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ ﴾ لا يقدر أن يرده أحد ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ متعلق بـ « مرد » أن لا يرده الله لأنه أراده ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتصدعون، أي: يتفرقون فريق في الجنة وفريق في النار ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي: وبال كفره وهو النار المؤبدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ يسوون منزلاً في الجنة. ثم علل قوله « يمهدون » فقال: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أثبت المحبة للمؤمنين والبغض للكافرين ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ بالمطر، أي: ومن آياته إرسال الرياح لتبشركم بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ بالمطر والخصب ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ بهذه الرياح ﴿ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني تجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي: ولتشكروا نعمة الله فيها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ بتدميرهم ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مع إنجائهم من العذاب، وفي ذلك بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنهم منصورون وقد تم ذلك فعلاً، وهكذا كل من قام بأمر عام لخدمة الأمة وإسعادها فإن الله معه وناصره وإن حقاً على الله أن ينصره ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ ﴾ متصلاً تارة ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ في سمتها

﴿ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ سائراً أو واقفاً، مطبقاً وغير مطبق، مسيرة يوم أو أقل أو أكثر ﴿ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا ﴾ قطعاً تارة أخرى ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ ﴾ المطر ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ ﴾ من وسطه ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ ﴾ بالودق ﴿ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ يفرحون بالمطر ﴿ وَإِن كَانُواْ ﴾ أي: وقد كانوا ﴿ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم ﴾ المطر ﴿ مِّن قَبۡلِهِۦ ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر ﴿ لَمُبۡلِسِينَ ﴾ لآيسين ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ﴿ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذي قدر على إحياء الأرض ﴿ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ﴾ لقادر على إحيائهم ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٥٠) وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا ﴾ حارة أو باردة على الزرع ﴿ فَرَأَوۡهُ ﴾ أي: الزرع ﴿ مُصۡفَرّٗا ﴾ متغير اللون بعد الخضرة ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ أي: من بعد اصفرار الزرع ﴿ يَكۡفُرُونَ ﴾ يجحدون ما سلف من النعمة وهذا كإيضاح للآية المتقدمة: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦]، فهاهنا أذاقهم الرحمة بالمطر وبه حييت الأرض فلما أرسل الريح على الزرع فاصفر كفروا ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ وهؤلاء مثلهم لأنهم لا يسمعون الوعظ ﴿ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ وهذا القيد إشارة إلى شدة إعراضهم لأن الأصم إذا أقبل ربما فهم بالإشارة، وهؤلاء لا يفهمون بأي طريق ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ ﴾ أي عمي القلوب ﴿ إِن تُسۡمِعُ ﴾ أي: ما تسمع ﴿ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ منقادون لأوامر الله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ﴾ أي: ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ﴾ إذا بلغتم الحلم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ ﴾ وهو تمام النقصان ﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ أي: من الضعف والقوة والشباب والشيبة ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ بتدبير خلقه ﴿ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ على ما يشاء ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ يحلف المشركون ﴿ مَا لَبِثُواْ ﴾ في القبور ﴿ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ ﴾ وهذا استقلال لمدة لبثهم في البرزخ مع طولها فهاهم أولاء صرفوا في الآخرة عن حقيقة مدة مكثهم في البرزخ ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴾ يصرفون في الدنيا عن الحق ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ ﴾ أي: قال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان بالله للمنكرين: لقد لبثتم إلى يوم البعث في قبوركم ﴿ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم علمكم به الآن ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ أي: ولا هم يدعون إلى ما يقتضي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة، يقال: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته. أي: لا تطلب منهم التوبة التي تزيل الجريمة لأنها لا تقبل منهم. ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ ﴾ يشير بذلك إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار أي: ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم الخ، ﴿ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ ﴾ من آيات القرآن ﴿ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ من فرط عنادهم ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ﴾ أي: ما أنتم يا محمد ومن معك ﴿ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴾ مزورون ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ لا يطلبون العلم ويتمسكون بعقائد

اعتقدوها، والجهل المركب يمنع العلم ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذاهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بنصرتك وإظهار دينك ﴿ حَقٌّ ﴾ لا بد من إنجازه ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالبعث والحساب. انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

في هذه الجوهرة أربع لطائف:

(١) في فطرة البحث عن أصل العالم والإذعان لخالقه.

(٢) وفي فطرة العلوم الرياضية.

(٣) وفي فطرة العلوم المنطقية.

(٤) وفي فطرة مظاهر المخلوقات.

اللطيفة الأولى: في البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية

اعلم أن من فطرة الله تعالى الإذعان للربوبية. فهذه فطرة لا تفارق الناس مركوزة في النفوس سارية فيها سريان الماء في العود الأخضر والكهرباء في كل جسم جامد وغاز وسائل، ومن عجب ما أذكره لك الآن لتدهش كما دهشت أنا حتى أني لما اطلعت على ذلك هذه الليلة وهي ليلة الاثنين آخر شهر رمضان المعظم قبل الليل لم أجد بدأ من كتابتها فرحاً بنعمة العلم وتبياناً لجمال الحكمة الإلهية، ذلك أن الله يقول: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذه الآية قد فسرها العلماء بأحد طريقين: إما بأن هذا تم فعلاً وقد نسي الناس ذلك، وإما بأن هذا مجاز يعرب عن الحقيقة، وما الحقيقة إلا أن عقل الإنسان يشهد بذلك لأن الأدلة في هذه الكائنات شاهدة بذلك، فانظر ماذا جرى.

رأيت الليلة المحاورة بين أفلاطون وطيماوس ـ وطيماوس اسم حكيم من حكماء الفيثاغورسيين جعله أفلاطون المتكلم في محاوراته ـ شرع طيماوس يتكلم في أنه يبتهل إلى الله أن يلهمه الصواب من القول، وأن يساعده هو ومن يسمعه في حسن الإلقاء منه وإجادة الفهم عنه والقبول، ثم قال ما ملخصه: إن الموجود قسمان: قسم دائم وليس بحادث وهذا يعرفه العقل لثباته على حال واحدة، وقسم لا يدرك إلا بتخمين الوهم المشارك بالحس لأنه يحدث ثم يفنى وليس له وجود حقيقي، فهذا لا بد له من علة، ثم إن الصانع إذا جعل نصب عينيه ما لا يتغير قط، وحاول أن يحاكي صورته وقوته، فلا بد أن يبلغ مصنوعه درجة عالية من الجمال بخلاف ما إذا جعل نصب عينيه مثلاً فانياً، فإن مصنوعه يبقى دون مرتبة الجمال، فإذا تقرر هذا فإن أول ما ينبغي الشروع في البحث عن السماء أو العالم أو كيف ما شئتم أن تدعى هو المسألة التي يجب دائماً الابتداء بها، وهي هذه أعني: هل كان العالم دائماً ولم يكن له حدوث أم هو حادث وله مبدأ؟ فأقول: إنه حادث، ومصداقه أن العالم مرئي وملموس ومادي وكل ما له هذه الصفات فهو محسوس، وكل ما هو محسوس فهو مدرك بالوهم والحس، فهو إذن حادث، ثم أقول: إن كل حادث لا بد له من علة، فإذا سئل: من هو صانع العالم وأبوه؟ أقول: إنه يصعب الوجدان، ثم إذا وجدناه فإعلام الجمهور به ضرب من المحال، ثم ينبغي بعد ذلك أن نبحث عن المثال الذي اتخذه صانع العالم عند صنعه إياه هل هو المثال الدائم

الغير المتغير أم هذا المثال الحادث؟ فأقول: إذا كان العالم جميلاً وصانعه أكمل الموجودات فلا شك أنه جعل نصب عينيه المثال الدائم الأفضل، وإذا كان كلاهما ما لا أتجاسر أن أقوله فهو قد اتخذ المثال الأسفل، إلى أن قال: إن ما بين الوجود والحدوث نسبة ما بين الحق والظن، فلا يعجبك يا سقراط أني غير قادر على أن أشرح لك الإله ومنشأ الموجودات شرحاً شافياً متصلاً في جميع أجزائه، والأولى أن تقنع بكلامي إذا كان مشبهاً وألا تنس أن كلاً منا المتكلم والمستمع من أبناء البشر، فلا بد لنا أن نقنع في مثل هذا الموضوع بما هو أشبه ولا نطلب ما فوق ذلك، ثم شرع يبين أن صانع العالم صنعه لأنه جواد وقد أراد أن يجعله خيراً على قدر الإمكان ولا يكون فيه شر على قدر الإمكان، فهو أخذ الأشياء المضطربة فنظمها ثم أبدع العقل في النفس والنفس في الجسد ونظم العالم على أفضل صورة وأجمل شكل، فلزم من ذلك أن نقول: إن هذا العالم موجود متنفس وعاقل أوجدته الحكمة الإلهية. وقد اتخذ الله لهذا العالم صورة الحيوان المطلق المشتمل على صور جميع الحيوانات، فالعالم حيوان عاقل مرئي يتناول سائر الحيوانات، ثم ذكر تكوين هذا الحيوان من العناصر الأربعة باعتبار ما كانوا يعرفون، وقد جعله بشكل كري، إذ هو أكمل الأشكال وأفضلها، ثم ذكر تكوين نفس العالم من العقل والمادة وشيء مشترك بينهما، ثم أوجد الأيام والليالي عند تركيبه السماء وما هي إلا أجزاء الزمان الماضي والحال المستقبل، وقد نتوهم لجهلنا أن مثل هذه الأجزاء لها نسبة إلى الموجود الأزلي، كلا. فهو موجود أزلي لا غير لأن ما له تعلق بالزمان الماضي وبالمستقبل لا يناسب إلا ما يتغير في الزمان ويمر فيه ومنشؤه الحركة، لكن الموجود الأزلي الذي لا تغير فيه ولا حركة لا يمكن أن يذكر فيه ذلك، ثم تكوين الأفلاك السيارة وقال: إنها أجرام حية ذوات نفوس، وبين حركاتها وتقدير الزمان بها وتقسيم الزمان على نسبة هذه الحركات على الأيام والليالي والأشهر والسنين، ثم تكوين الكواكب ثم لما تم تركيبها جمعها الصانع وخاطبها بهذه الخطبة، ومما قال فيها: أنتم قد أحدثتكم ومع ذلك أنتم غير مائتين لأن إرادتي أقوى لكم من أن تكونوا قدماء من أصل نشأتكم، والآن فانصتوا لي واعلموا ما أريده منكم، أنه قد بقي أنواع من الحيوان لم تخلق بعد ولو لم تخلق لبقي العالم ناقصاً، إذ لم يحتو على جميع أصناف الحيوان وهو لا يتم إلا بذلك، فلو منحتهم أنا الوجود والحياة لأصبحوا مثلكم لا يموتون، فاجتهدوا أنتم في تصوير هذه الحيوانات على حذو ما فعلته في إيجادكم حتى يكونوا قابلين للموت ولا ينقص من العالم شيء، أما من لهم جزء إلهي من الحيوانات ــ يريد الإنسان ــ فهو قادر على الأمر بالخير إذا اتبع، وأنا أعطيكم بذره وأصله وعليكم بعد ذلك تأليف الجزء الميت بالجزء الذي لا يموت وجعلهما حيوانات، وتنميتهم بالغذاء اللازم وتلقيهم عند موتهم. ثم ذكر بعد ذلك خلق الأرواح البشرية وأن الإله ركبها من العناصر التي ركب منها نفس العالم الكلية إلا أنها دون ذلك صنعاً وكمالاً ثم جعل الأرواح في الكواكب. فمنها ما جعله في الأرض، ومنها ما جعله في القمر، ومنها ما هو في الكواكب الأخرى فأوقفها على نظام العالم وعلى الترتيب الذي اقتضته حكمته، وبين لها أن لجميعها أصلاً واحداً لا فرق بين روح وروح، ولكن لا تتظلم من عدم المساواة بينها. ثم شرح لها أنها عند اقترانها بالأبدان إنّما يلحقها التأثير من الحواس وما يتبعه من شهوة وغضب وخوف. فمن قهرها عاش مستقيماً. ومن يذعن لها يكن عديم العدالة. ومن انتفع بحياته لإصلاح ضميره إنّما يرجع كوكبه

المختص به فيبقى فيه سعيداً. ومن قصر في ذلك فقد يصير أنثى في حياته ثانية. فإذا دام على الشر يصير حيواناً على شكل ما اعتاده في حياته من أنواع الخطأ، فلا يزال يموت وينتقل من بدن إلى بدن إلى أن يرجع إلى الصلاح ويسخر ما فيه من العناصر ويجعلها منقادة لرئاسة عقله، ثم ذلك تصوير بدن الإنسان على يد الله وتصوير الآلات المختلفة فيه من البصر والسمع وغيره الخ. انتهى المقصود منه.

ولما اطلع على هذا أحد الإخوان قال: ما مناسبة هذه القصة المخالفة للدين لهذه الآية؟ قلت: المناسبة أن الله عز وجل ألهم أفلاطون وهو رجل ليس بنبي ولكنه مفكر بعقله. أو لعله أخذ هذا القول عن نبي آخر، فقد ذكر أن الله خلق أرواح الناس في الكواكب المختلفات وألقى عليها نصائح وحذرها من الخضوع للشهوات، فهذا وإن لم يكن عليه دليل هو من دلائل النبوة. كيف يلقي الله على قلب رجل قبل الإسلام بنحو ٩ قرون فحوى آية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[الأعراف: ١٧٢] الخ.

أفليس هذا من العجب. فأما قولك: إنه مخالف للدين، فهذا لا يضرنا نقله، بل هو يفيدنا فوائد عظيمة ويبين لنا مناهج أمم قبلنا نقل آباؤنا عنها وأخطؤوا في النقل، فانظر كيف يقول: إن هذا العالم حادث، في هذه الجملة.

أليس هذا من العجب أن يكون هذا الرأي منقولاً بالنص عن نفس أفلاطون وهو عمدة فلاسفة اليونان؟ ثم نسمع آباءنا ينقلون عن صغار علماء اليونان أن العالم قديم، أليس نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية أيام عز الدول الإسلامية كان فيه مصائب ومصائب، فأين القدم إذن؟ ألست تراه يذكر أن الزمان لا يصدق إلا علينا نحن، وهذا معقول لأن الله هو الذي خلق الزمان، إذن من أين جاء لآبائنا ما يهزأ به أبو العلاء المعري بالديانات فيقول في معنى أبيات: «إذا كان الإله لا زمان له ولا مكان فمعناه ليست لنا عقول».

فأما المخالفة للدين فهي في أمور منها: أنه جعل الكواكب غير ميتة مع أنها حادثة. فأقول: الكواكب عنده تدبرها الملائكة، وقد صرح هو بأن العالم كله حيوان حي. وعندهم أن كل كوكب عاقل كأنه إنسان، فأما ديننا فإنه يقول: إن الملائكة تدبر هذه الكواكب. ومن المعقول أن الخطاب لا يكون لنفس الأجرام، بل هو للملائكة، وهذا لا ينافي ديننا، والملائكة كما يقول هو: حادثون ولكنهم لا يموتون. ومما ذكره أيضاً أن الرجل الفاسق مثلاً يرجع امرأة أو حيواناً، فهذا ليس يقيناً عنده، بل هو يقول: نحن نكتفي بما هو الأشبه، فالقوم ليس عندهم نبي، فقالوا باعتبار ما تخيلوه، والإسلام أتى لنا بأمر مجمل بعد ذلك، فذكر جهنم ثم هو ذكر العقل والنفس والمادة وهذا حسن أيضاً. إن سكان الكواكب أي الملائكة المدبرين يستقبلون الأرواح عند موتها وهذا هو نفس ديننا. وهذه الأرواح إن أحسنت رجعت إلى الكوكب الذي خلقت فيه، وإن أساءت رجعت إلى حياة تعسة. ولا جرم أن هذا لم يجزم به، وإنّما قال لنا: إنه هو الشبه لأمثالنا نحن بني آدم في الأرض والله ذكر الجنة وأننا نكون في قصورها إذا صلحت أعمالنا.

وبالجملة إن ذكر هذا القول في مبدأ العالم وخلق الأرواح والأجسام وتعليم الأرواح قبل خلقها ثم مجازاتها بعد موتها جمع ملخص الكتب السماوية، وهذا أمر عجب أن يصدر مثل هذا بالعقل قبل القرآن بنحو ٩ قرون. إن أمثال هذا أعده معجزة للقرآن قبل نزوله، بل هو ملخص الآيات السابقة في

هذه السورة. فانظر كيف يذكر الله أنه خلقنا من تراب وخلق لنا الأرواح والليل والنهار ونومنا فيهما واستيقاظنا، وخلق السماوات والأرض والبعث، فهذه المقالة ترجع في فحواها إلى هذه الآيات. ولعل هذا القول منقول عن أنبياء كانوا قبله والقرآن مصدق لما قبله من الديانات الحقة. اهـ.

تذكرة: هذه المقالة كلها تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[الروم: ٢٠]، إن تفسير الآية اللفظي لا يفيد هذه العجائب. فأما ما كتبناه هنا فإنه قد ابتدئ فيه بذكر العالم الإجمالي أولاً منذ خليقته، وذكرت العناصر وعوالم السماء وعوالم الحيوان وعالم الإنسان، وما علاقة الإنسان بربه وما علاقته بالأرواح المدبرة للكواكب ومم يتركب الإنسان، وأنه مركب من مواد مائية أرضية وأمر إلهي دائم، وباتحادها صار هناك أعضاء حس وأعضاء حركة ومكان هو مقر الشهوة وآخر هو مقر الغضب ومنافع جمة في أعضاء الجسم من فرقه إلى قدمه. ثم ذكر المرض والصحة. فهذا المقال جمع ما بين التراب الذي نشأ منه الإنسان وبين روحه ثم انتشاره في الأرض. وبهذا وأمثاله تنشر العقول الخامدة في الشرق بعد موتها وتبعث من مرقدها ولا تقف عند حد في العلم والتعليم وارتقاء المدنية.

ثم انظر إلى قول أفلاطون على لسان طيماوس: إن المادة لا صورة لها وهي نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر، مستعد لأن يقبل كل شيء له نسبة ما إلى الوجود المعقول وهي نسبة مبهمة عديمة الإدراك.

ووازن هذا القول رعاك الله بما يقوله علماء العصر الحاضر: إن المادة ما هي إلا نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية في العناصر المعروفة تقريباً وفي النور الشمسي مثلاً من ٤٠٠ إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة في الثانية. فهذا الدوران السريع يجعلها دوائر ضوئية، وهذه الدوائر الموهومة بكثرتها واختلاف حركاتها تكون منها العناصر المختلفات، ثم تكون هذه العوالم العلوية والسفلية، فانظره في سورة «النور» عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٣٥] في مقال تحت عنوان «قطرة ماء»، فإنك تجد أن العلماء أجمعوا اليوم أن المادة هي ذلك الذي ذكرناه، وأن الذرات بينها خلاء كالخلاء بين الأرض وبين الشمس والقمر. إذن المادة أصبحت أخت العدم قديماً وحديثاً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص: ٨٨].

ومن عجب أن يتفق العلماء قديماً وحديثاً على أن المادة معدومة. ويقول علماء العصر الحاضر: إن الأصل هو عالم يسمى الأثير لا يرى ولا يحس. إذن لا فرق بين المحدثين والقدماء. فالحمد لله على نعمة العلم والحكمة. انتهى عصر يوم الاثنين ١٩ من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧هـ.

اللطيفة الثانية: في العلوم الرياضية

هذا ما خطر لي يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٧ هجرية

يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[فاطر: ١]، فالسماء مفطورة والأرض مفطورة والحيوان مفطور والإنسان مفطور ولكل مخلوق حال خاصة جاءت له من أصل فطرته. وهذه الحيوانات مفطورة على أعمال بغرائزها التي فطرها الله عليها، كما نرى الطيور مفطورة على

الطيران وعلى بناء الأعشاش وتربية الذرية وبعضها مفطور على التغريد، وبعض الحشرات مفطورات على الهندسة كالنحل والعنكبوت كما تقدم في هذا التفسير، والإنسان له فطرة أوسع من فطرة الحيوان. إنه مفطور على القياس والاستنتاج والتفكير بحيث يستنتج الأصعب من الأسهل، والبعيد من القريب، والغائب من الحاضر، وعظائم الأمور وجلائلها من أقلها وأضعفها.

ألا ترى رعاك الله أنه استنتج علم الهندسة من أمور معروفات تسهل على عامة الناس وجهلائهم ورعاعهم، فتراه يستنتج من هذه القضايا الأولية الآتية أفانين الهندسة وبدائع النظم، والقضايا الأولية الآتية وهي:

(١) الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية.

(٢) إن زيد على المتساوية متساوية صارت كلها متساوية.

(٣) وإن نقص من المتساوية متساوية صارت الباقية متساوية.

(٤) وإن زيد على غير المتساوية متساوية صارت كلها غير متساوية.

(٥) وإن نقص من غير المتساوية متساوية صارت الباقية غير متساوية.

(٦) والتي كل واحدة منها مثلان لشيء واحد بعينه فهي متساوية.

(٧) والتي كل واحدة منها نصف لشيء واحد فهي متساوية.

(٨) والكل أعظم من الجزء.

(٩) وإذا كان شيئان كل واحد منهما أعظم من كل ما الآخر أعظم منه وأصغر من جميع ما الآخر أصغر منه فهما متساويان.

(١٠) والنفي والإثبات لا يجتمعان.

هذه هي القضايا الأولية التي استنتج العلماء منها الأشكال الهندسية في المقالة الأولى، وهكذا فعلوا في الثانية والثالثة إلى المقالة الثامنة في الهندسة، حتى أنهم بلغوا شأواً عظيماً فيها ونظموا المدن والممالك، كل ذلك من نفس الفطرة.

فالفطرة التي بها انبعث النحل والنمل والعنكبوت والأرضة إلى نظم أعمالها وهندستها وسياسة جماعاتها هي التي خلقت في الإنسان ففتحت له أبواب العلم على مصراعيه مما يشاهده في غدوه ورواحه مما يعتاده؛ غاية الأمر أن الفطرة على قسمين: فطرة جامدة. وفطرة قويمة كاملة. فالفطرة الجامدة هي الكاسلة الخامدة التي لا تفكر فيما حولها، والفطرة القويمة الكاملة هي التي تفكر وتستنتج تستخرج العلوم والمعارف مما حولها.

والفطر كلها من الله، وقد أرسل الأنبياء ليوقظوا الناس لهذه الفطرة. فإذا سمع المسلم قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ اندفع إلى العمل والجد بالتشمير. إذن الديانات جاءت لسوق الفطرة وإيقاظها لا لكسلها وإنامتها. فهذه القضايا التي في أوائل الهندسة بها استخرج القوم علومهم ونظموا دولهم.

هكذا فعل علماء الطبيعة بطرق أخرى غير طرق علماء الهندسة، فاستخرجوا من صغائر الأمور عظمائها، فانظر رعاك الله إلى بعض ما فطر عليه هذا الإنسان.

(١) يقيس محيط الدائرة وقطرها ويعرف النسبة بينهما.
(٢) يقيس المربع ويستنتج قانونه.
(٣) يقيس المستطيل ويستنتج قانونه.
(٤) يقيس متوازي الأضلاع ويستنتج قانونه.
(٥) يقيس المثلث ويستنتج قانونه.
(٦) يقيس الأشكال المنظمة المضلعة من مربعة ومخمسة ومسدسة وهكذا.
(٧) يمسح الدائرة ويستنتج قانونها.
(٨) يمسح القطاع ويستنتج قانونه.
(٩) يمسح المضلعات غير المنتظمة ويستنتج قانونها.
(١٠) يمسح السطح الجانبي للأسطوانة القائمة ويستخرج قانونها.
(١١) ثم يمسح السطح الجانبي للمخروط القائم ويستخرج قانونه.
(١٢) ثم يمسح الكرة ويستخرج قانونها.
(١٣) ثم يمسح حجم المكعب ويستخرج قانونه.
(١٤) ثم يمسح حجم متوازي المستطيلات والمنشور القائم والأسطوانة القائمة والأسطوانة المائلة.

هذه المساحات في علم الطبيعة مركب بعضها على بعض كأنها سلالم. وهذه درجات بعضها فوق بعض لا يعرف الناس أعلاها إلا إذا توصلوا لها بأدناها. فلا نعرف مساحة الأحجام إلا بمساحات السطوح، وكل درجة مرتبة على ما قبلها كما في أطوار الإنسان طفلاً ومراهقاً وشاباً الخ. وكما في أحوال الأمم في رقيها. وكما في انتقال الإنسان من حال إلى حال في أمور الدنيا والدين.

فلأشرح لك أيها الذكي بعض ما تقدم لتنظر فطرة الإنسان وكيف سارت في السبيل التي سنها الله فيه، وكيف جاء القرآن مؤيداً لهذه الفطرة وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنّما أرسلهم الله ليوقظوا هذه الفطرة لا ليخمدوها، فإيقاظها كما حصل في العصور الأولى من الإسلام، وأما الخمود فهو في العصور المتأخرة. ومعلوم أن الله خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة، ومن شأن هذا العالم أن الضد يكون بعد ضده. فإذا كان المسلمون الآن في حال ضعف فسيكون من بعد ضعفهم قوة، وأي مسلم يقرأ ما نكتبه الآن في هذا التفسير ثم هو لا يبذل نفسه وماله في رقي نفسه والمسلمين. وكيف لا يفعل ذلك وقد علم من هذا التفسير بالبرهان العقلي والنقلي أن حب الله عز وجل ورضاءه مرتبطان بالتفوق في البحث والتنقيب والدراسة والنظر في آيات الله وعجائبه. ومن أحب أحداً أكثر من البحث في آثاره وأعماله. وهذه أجسامنا وأجسام العوالم حولنا كلها من آثار رحمة الله. فالمسلم بدراستها يقترب من الله في كل لحظة ونفس. والتقرب المذكور من جهتين: جهة العلم الذي اتصف به، وجهة العمل وهو انتفاع أمته بعلومه ومباحثه إذ يستخرج لهم من صغيرات الأمور كبيراتها، ويقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران: ٧٩] إن الربانيين هم الذين يعلمون الناس واضحات المسائل من العلم قبل دقيقاتها كما ترى في علم الطبيعة.

فعلماء هذا الفن يبتدئون :

(١) ـ بقياس محيط الدائرة وقياس قطرها فيجدون أن النسبة التقريبية بينهما ٣ ١/٧ ثلاثة وسبع ٢٢ على ٧ أو ٣,١٤ أي ثلاثة و١٤ من مائة، وهذه النسبة يرمزون لها بحرف « ط »، إذن طول المحيط يساوي القطر مضروباً في « ط »، ومعنى هذا أن طول المحيط بمقدار قطره ٣ مرات وسبع مرة إلى آخر ما تقدم. أو طول المحيط يساوي « ٢ط » في نصف القطر، ويرمز لنصف القطر « نق »، إذن مساحة المحيط تساوي « ٢ط » مضروبا في « نق ».

(٢) ـ مساحة المربع : أولاً يرسمون مربعاً « أ ب ج د » بحيث يكون كل ضلع من أضلاعه ٥ سنتيمترات، والسنتيمتر جزء من مائة من المتر، ثم يقسمون « ب ج » خمسة أقسام متساوية فيكون كل جزء منها سنتيمتراً واحداً. ثم يقيمون من نقط التقسيم أعمدة على الضلع المذكور، ثم يقسمون الضلع « جـ د » إلى ٥ سنتيمترات أيضاً ويقيمون من نقط التقسيم أعمدة عليه، فيرون إذن أن المربع الذي تراه أمامك وهاهو ذا :

مثلاً انقسم إلى ٢٥ مربعاً صغيراً طول كل ضلع منها سنتيمتراً واحداً، فكل منها « سم » سنتيمتر مربع. إذن تكون مساحة المربع المذكور تساوي ٢٥ سنتيمتراً مربعاً « ٥ في ٥ » سم، فتكون النتيجة أن مساحة المربع تساوي حاصل ضرب طوله في نفسه أي مربع طول ضلعه.

(٣) ـ مساحة المستطيل : وهو ما لم يتساو طوله وعرضه وزواياه قائمة مثل مساحة سطح الباب والشباك ومؤخر الكرسي، ويفعلون به ما فعلوه في المربع، فينتج أن مساحة المستطيل تساوي حاصل ضرب قاعدته في ارتفاعه.

(٤) ـ مساحة متوازي الأضلاع : فبعد أعمال يجرونها مثل ما تقدم يجدون أن مساحته تساوي حاصل ضرب قاعدته في ارتفاعه، ولا يتم ذلك لهم إلا بعد موازنته بالمستطيل المذكور قبله فهو مبني عليه، فلا حاجة إلى الإطالة في ذلك، ومتوازي الأضلاع المذكور لا تكون أضلاعه صانعة زاوية قائمة مع بعضها، ويكون كل ضلعين متقابلين متوازيين.

(٥) ـ مساحة المثلث : ومساحة المثلث بنوها على مساحة متوازي الأضلاع، فيرسمون ذلك المتوازي ويجدون له قطراً يقسمه إلى مثلثين وكل مثلث مساحته نصف مساحة متوازي الأضلاع المتحد معه في القاعدة والارتفاع، فتكون النتيجة أن مساحة المثلث تساوي القاعدة في نصف الارتفاع فهو مبني على متوازي الأضلاع، ومتوازي الأضلاع مبني على المستطيل.

(٦) ـ مساحة المضلعات المنتظمة : فيرسمون مسدساً مثلاً منتظماً كمسدسات بيوت النحل ويقسمونه إلى ستة مثلثات متساوية، ويستنتجون من ذلك مساحة المسدس المنتظم كله وهو ضرب نصف القطر في نصف طول المحيط، وهذا واضح لأنه إذا كان المثلث يساوي ارتفاعه في نصف قاعدته وكان عندنا ست أنصاف قواعد فضرب هذه الأنصاف في نصف القطر وهو الارتفاع المشترك بينها

يكون هو مساحة المسدس المنتظم، ومثله مساحة جميع المضلعات المنتظمة . ولا جرم أن هذا البرهان منطبق تمام الانطباق على جميع المضلعات المنتظمة، فالمخمس ينقسم إلى خمس مثلثات والمسبع إلى سبع مثلثات، والقاعدة واحدة وهي ضرب نصف القطر في نصف طول المحيط .

(٧) ـ مساحة الدائرة : أنت ترى أن المضلع المنظم قد عرفنا قانون مساحته . ولا فرق بين ذي الأضلاع القليلة والأضلاع الكثيرة . وما الدائرة إلا مضلع كثير الأضلاع لا نهاية لعدد أضلاعه . إذن فلنقل : إن مساحة الدائرة تساوي ضرب نصف القطر في نصف المحيط، كما قلنا في الأشكال المنظمة : إن مساحتها تساوي نصف القطر في نصف أضلاعها، أو مساحة الدائرة تساوي نصف حاصل ضرب نصف قطرها في طول محيطها . ومعلوم أن طول المحيط ٢ط مضروباً في نصف القطر، فيكون هكذا : مساحة الدائرة تساوي نصف القطر مضروباً في ٢ط مضروباً في نصف القطر على اثنين، أو مساحة الدائرة تساوي « ط نق ٢ »، أي : تساوي « ط » في نصف القطر مربعاً، فهانحن أولاء احتجنا في مساحة الدائرة إلى مساحة الأشكال المنظمة، وفي مساحة الأشكال المنظمة إلى مساحة المثلث، وفي مساحة المثلث إلى مساحة متوازي الأضلاع، وفي مساحة متوازي الأضلاع إلى مساحة المستطيل . هذا من جهة، ومن جهة أخرى استعملنا أول نظرية وهي مساحة محيط الدائرة، وبوضع هذا مع ذلك حدث عندنا نصف القطر المربع، فقلنا : « ط نق٢ »، فهذه درجات بعضها فوق بعض كدرجات العلوم ودرجات الارتقاء في جميع أعمال الحياة، كما قال تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[المطففين : ٣٥]، وكما قال تعالى أيضاً : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾[ص : ١٠]، فهذه أمور مرتبة منظمة أعلاها متوقف على أدناها، كما تتوقف آراء الإنسان وعلومه بعضها على بعض . ولا جرم أن الله عز وجل أعطى كل إنسان في الأرض فطرة مشتركة مع الفطر العامة ولها اختصاص ما فإذا لم يعطلها وفتح الله لها أبواب المعارف ولم يمنعها تقليد أو كسل نالت درجات العلم درجة فدرجة منظمة انتظام هذه الأشكال بعضها على بعض . ولا ينال الإنسان العلم الأعلى إلا بعد معرفة الأدنى كما لم يعرف مساحة الدائرة إلا بعد مساحات الأشكال قبلها من محيط الدائرة والمستطيل والمتوازي الأضلاع والمثلث والشكل المنظم الخ . فاعلم ذلك وأيقن بأنك لا تنال علماً إلا بعد أن تعرف ما قبله ولن تنال الأعلى إلا بعد أن تنال الأدنى وإلا خر أعلاها على أدناها وذهب العلم أدراج الرياح .

(٨) ـ مساحة القطاع : فإذا وجدنا أن مساحة الدائرة تساوي نصف حاصل ضرب نصف القطر في المحيط، فليكن الجزء من الدائرة وهو القطاع يساوي نصف حاصل ضرب نصف القطر في طول القوس، لأن القوس جزء من المحيط وهذا واضح .

(٩) ـ مساحة المضلعات غير المنتظمة : وهذه مبنية على مساحة المثلثات كما بني ما تقدم عليها فيقسم ذلك الشكل الذي لم ينظم إلى مثلثات وبجمعها تكون مساحة ذلك الشكل .

(١٠) ـ مساحة السطح الجانبي للأسطوانة القائمة كالأعمدة التي ترى في المنازل والمساجد، ولا جرم أننا لو لففنا حول الأسطوانة ورقة ثم بسطناها لم نجدها إلا مستطيلاً قاعدته تساوي محيط قاعدة الأسطوانة وارتفاعه يساوي ارتفاعها، ومعلوم أن مساحة محيط الدائرة « ٢ط نق » ولم يزد هنا إلا الارتفاع « ع » فتكون مساحة السطح الجانبي للأسطوانة القائمة تساوي « ٢ط نق في ع ».

(١١) ـ مساحة السطح الجانبي للمخروط القائم: لما كان المخروط القائم في الحقيقة يرجع إلى قطاع دائرة قوسه يساوي محيط قاعدة المخروط ونصف قطره يساوي راسمه، وكانت مساحة قطاع الدائرة تساوي حاصل ضرب قوسه في نصف قطره، كانت مساحة السطح الجانبي للمخروط تساوي نصف حاصل ضرب محيط قاعدته في راسمه، أي أن مساحة السطح الجانبي للمخروط تساوي نصف محيط القاعدة في الراسم أو « ٢ ط نق » على ٢ في الراسم، أو « ط نق » في الراسم، وصورة المخروط أشبه بقمع السكر.

(١٢) ـ ثم تمادى القوم في البراهين فعرفوا أن مساحة سطح الكرة «١٢» تساوي «٤ ط نق٢» و« نق ٢ » معناه نصف القطر مربعاً.

(١٣) ـ وحجم متوازي المستطيلات والمنشور القائم والاسطوانة القائمة يساوي في جميعها ضرب مساحة القاعدة في الارتفاع.

(١٤) ـ وحجم المنشور المائل والأسطوانة المائلة يساوي كل منهما ضرب مساحة القاعدة في الارتفاع.

(١٥) ـ وحجم الهرم القائم يساوي «١ من ٣» من مساحة القاعدة في الارتفاع، ومثله حجم الهرم المائل.

(١٦) ـ وحجم المخروط يساوي « ١ من ٣ » من مساحة القاعدة في الارتفاع أو « ١ من ٣ ط نق ٢ ع ».

(١٧) ـ وحجم الكرة يساوي « ١ من ٣ » من مساحة السطح في نصف القطر، أو « ٤ على ٣ ط نق ٢ في نق »، أو « ٤ على ٣ ط نق ٣ ».

هذه هي أهم المقاييس في هذه الدنيا عرفها الناس بالبراهين فاستدلوا بالأقل على الأكثر وبالأسهل على الأصعب، وانتقلوا من السطوح المستوية إلى السطوح المنحنية. فبعد أن كانوا يقيسون الباب والشباك أخذوا يقيسون سطوح الهرم وأحجام الكرات العظيمة. وبهذا عرفوا مساحات الكرة الأرضية، ومساحات الشمس سطحها وحجمها، ومساحات الكواكب العظيمة، حتى عرفوا أن بعض الكواكب الصغيرة التي نراها بأعيننا تقدر بحجم الشمس ٢٥ مليون مرة.

هذه هي ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠]. فطرة وثابة لا تستقر على حال حتى تصل إلى النهايات. يجلس أحدنا في حجرته مفكراً، فيجد روحه تطوف أرجاء العالم براً وبحراً وجواً وسماء وأرضاً في لحظة. فما هذه القدرة؟ هذه الروح لو خليت وشأنها ولم تقيد بالقيود الأرضية لطارت إلى عوالم أجمل، ولكنها قيدت وأوثقت حتى تربى في هذه الأرض وتدرس هذه الأمور لتكون عوناً لها في مستقبل سفرها، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]. انتهى في صباح يوم الأربعاء ٢٢ مايو سنة ١٩٢٩.

بهجة العلم في مساحات هذه الأشكال

هذا هو النظام الإلهي الجميل الذي يمر عليه أكثر الناس وهم غافلون. يا الله ما أجمل فطرنا وأبهجها.

هذه ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، فطر الله أرواحنا على البحث الجد. فماذا نظرت؟ العوالم، فوجدتها ذات سطوح مستوية وأخرى منحنية، أخذت تنظر فوجدت السطوح المستوية يمكن الاستغناء عن مساحتها بمساحات خطوطها المستقيمة. فما عليهم إلا أن يربعوا ضلع الشكل المربع فيعرفون المساحة، ثم نظروا في محيط الدائرة فوجدوا أنهم إذا داروا حولها كان ذلك نصباً لهم فاكتفوا بقطرها بل بنصف قطرها وضربوه في اثنين مع الضرب في النسبة أيضاً، وقالوا: محيط الدائرة يساوي «٢ نق في ط»، بدل أن يقيسوا طول القطر كله ويضربوه في النسبة التقريبية «ط»، فما عليهم إلا أن يضربوا نصف القطر في «٢» ثم يضربون ذلك في «ط»، واستعملوا هذا الاختصار في مساحة الدائرة فقالوا: «ط نق ٢»، وفي مساحة سطح الكرة فقالوا: «٤ ط نق ٢»، فإذن لا مساحة في محيط الدائرة ولا في الدائرة ولا في سطح الكرة إلاّ لنصف القطر، غاية الأمر أنهم إما أن يضربوا تلك المساحة في «٢» ثم في «ط»، وإما أن يربعوا تلك المساحة ثم يضربونها في «ط» أو في «٤ط»، ولما وصلوا إلى حجم الكرة لم يصنعوا شيئاً أكثر من مساحة نصف القطر أيضاً، وقالوا: إن حجم الكرة «٤ من ٣ ط نق ٣»، ومعنى هذا أنهم لم يحتاجوا في محيط الدائرة ولا في الدائرة ولا في سطح الكرة ولا في حجم الكرة إلا إلى مساحة نصف القطر وحده، وهذا يضرب في أعداد تقل في مساحة الخطوط المنحنية وتزيد في مساحة السطوح وتكون أكثر في مقادير الأحجام، ففي حجم الكرة يكعبون نصف القطر ويضربون ذلك المكعب في النسبة المتقدمة «ط» ويأخذون «٤ على ٣» من ذلك كله فيتم المقصود. هذه فطرنا الوثابة التي لا تهدأ ولا تفتأ تنتقل من حال إلى حال، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. اللهم إن فطرنا أنوار أرسلتها إلى الأرض ونورها مرسل منك، فهي تختصر الطريق للوصول إليك.

هاهي ذه وجدت الأحجام حولها محكومة بقوانين فعرفتها وتصرفت فيها وحكمتها. هاهي ذه عقولنا رأت الأرض والسماء والكواكب فحكمتها بالقوانين، وجعلت لها وحدة. وأصبح أحدنا يرى هذه العوالم على قسمين: عوالم في أنفسنا وعوالم في حولنا، أما العوالم التي في أنفسنا فإنّما هي قوانا الحيوية من الشهوة والغضب وما معهما من العواطف والأخلاق والرذائل والفضائل، وأما العوالم التي هي حولنا فهي تلك الأشكال المنظمة وغير المنظمة. ثم يرى كل منا أن له قوتين: قوة عقلية، وقوة إرادية، فبقوة الإرادة نحكم على شهواتنا وعواطفنا ونهذب أخلاقنا، وبالقوى العقلية نحكم على المادة، فإرجاع المساحات المتنوعة إلى مساحة الخطوط المستقيمة بحكم قوانا العاقلة، وإرجاع قوة الشهوة والغضب إلى حكم العقل إنّما يكون بقوة عزيمتنا وإرادتنا، إذن الذي حكم العالم الداخلي في أنفسنا والخارجي في عوالمنا هما أمران: العلم والإرادة، والعلم والإرادة فينا من المواهب الإلهية المنبعثة من العالم الإلهي الأعلى، والله هو الولي الحميد.

نظرة أعلى في فطرتنا

هذا عمل الفطرة في عواطفنا وفي عوالمنا حكمتهما ولجمتهما بالتهذيب في الأولى والقوانين في الثانية. إذن هذه الأجسام الإنسانية وهذه العوالم الجسمية ألواح جعلت لتقرأها أرواحنا بدليل أننا نرى هذه العوالم وهذه الأجسام في تغيير مستمر، كما أن الألواح للأطفال تمحى كتابتها ثم تكتب. فما دام

الطفل في المكتب يدوم الإثبات والمحو فدوام التبدل في أجسامنا وفي عوالمنا ما هو إلا علوم تظهر لنا فترسم في أذهاننا ثم تتلوها أخرى ونفوسنا هي الباقية، ألا ترى رعاك الله أننا نتذكر صوراً وأشكالاً كنا اطلعنا عليها في الصغر فنراها الآن كما هي في أنفسنا ولا وجود لها في المادة.

سبحانك اللهم وبحمدك، أريتنا وعلمتنا ولا سعادة لنا والله إلا بما في نفوسنا، أما هذه المادة فما هي إلا ألواحنا، وهذه الألواح كما تقدم في سورة «النور» عند آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية: ٣٥]، ما هي إلا نقط ضوئية يجري سالبها حول موجبها، وباختلافها تكونت العناصر ومن العناصر كانت المركبات، إذن هذه المادة أشبه بالصور المتحركة المسماة «السينما» قد صار هذا الخيال عند حواسنا حقائق ثابتة رحمة من الله لنا ليعلمنا حتى نلحق بالعالم الأعلى عالم الكمال والجمال.

لقد أجمع القدماء من علماء الفلسفة والمحدثون ألا وجود للمادة وكل ما نراه ما هو إلا صفات وظواهر كما يعرف هذا من قرأ فن المقولات في الفلسفة القديمة، أو أضواء وكهرباء متكاثفة في الفلسفة الحديثة، والكهرباء والأضواء ترجع إلى حركات، والحركات إنّما تكون في الأثير والأثير عالم أقرب إلى عالم الأرواح لا يرى ولا يلمس ولا يحس، هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فطرهم أن يرتقوا في الأسباب حتى تصل النفوس إلى عالمها فتكون هناك سعادتها، وما مثل سعادة الأنفس في الأرض بالمآكل والملابس والملك والعز والغلبة والقهر بالنسبة للسعادة الروحية إلا كنسبة الجهل إلى العلم أو نسبة العدم إلى الوجود أو نسبة الوجود المادي الموهوم إلى الوجود الروحي المحقق، وما تنوع اللذات في عالم المادة إلا ضرب مثل لتنوعها هناك في عالم الأرواح.

أيها الذكي متى عرفت هذا وأيقنت به فهمت قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، فليس ما ترونه من التبدل والتغير المستمر محواً وإثباتاً لعباً ولهواً، بل ذلك تعليم وتدريب لكم، وليس تبدل الحوادث عليكم وتعاقبها إذلالاً لكم وانتقاماً بل تهذيباً وتعليماً، ولم أخلق هذه الفطر الوثابة فيكم إلا لغاية نافعة لكم، أفلا ترون النحل وكثيراً من الحشرات هاأنا ذا قد كونت لها الأزهار بالألوان الجميلة لغاية حقيقية وهي أن تعشقها تلك الحشرات فتأتي إليها سراعاً ثم تشرب منها العسل لغايتين: غاية منفعة النحلة ونحوها بحياتها، وغاية إلقاح النبات بفعل الحشرات. فإذا كان هذا فعلي بالفطرة الحيوانية ولا أعطي لها فطرة إلا لغاية نافعة لها، فهل أعطي الإنسان هذه الفطرة الشريفة التي هي أرقى من فطرة الحشرات إلا لغاية عالية؟ فإذا طارت النحلة للزهرة الملونة باللون الجميل فنالت العسل بهذه الطريقة أفلا يكون حبكم وغرامكم بالاطلاع على العوالم العلوية والسفلية والبهجة بكشف الكواكب الجديدة في العصر وعدم وقوف نفوسكم على حال من تلك الأحوال الكثيرة دليلاً على أنكم متجهون إلى حال عالية شريفة تنتظركم ومقام سام شريف؟ وهل يكون هذا إلا بالعلم؟ هذا بعض سر قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، لأن من يجهل أمر الحشرات وإلقاحها كأغلب أمم الإسلام اليوم فهو حري أن يجهل أن خلق السماوات والأرض مبني على النظام، وأن خلق الإنسان لغاية سامية شريفة عالية وسعادة باقية.

ففز بعلم تعش حيًّا به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطيفة الثالثة: في العلوم المنطقية

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شيء خلقه فهدى، فلكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافلة بشؤونه العامة والخاصة، فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملأها بالعسل وربى ذريته، وللعنكبوت نسيجها الخاص بها الذي يكون فيه مأواه وبه يصطاد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر في هذا التفسير في مواضع كثيرة. هكذا الإنسان له فطرة بها يهتدي لثدي أمه ويمسكه ويمتصه ويبكي عند الجوع ويضحك عند الفرح. وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشؤونه وأعماله جميعها، فيستعمل سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه، كل ذلك بفطرته بلا معلم يعلمه ولا مرشد يرشده، وقد وجد الناس في عصرنا أنهم عثروا في الآثار المتوغلة في القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود، واختلافهم إنّما هو في أوصافه وعدده، ولكنهم جميعاً متفقون على وجوده، إذن الاتجاه إلى موجود له سمو وعلو مسلم به في الفطرة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠]، فإن هذا النوع الإنساني قد اتفق تاريخ أممه على أنهم جميعاً كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالموجود الأسمى، وفطرة الناس منحصرة في أمرين اثنين لا ثالث لهم:

الأمر الأول: إنماء الجسم والمحافظة على النسل، فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما وتربية ذريتهما، هذه فطرة فيهما ولولاها لخلت الأرض من نوع الإنسان وهكذا كل حيوان.

الأمر الثاني: المحافظة على إسعاد الروح، وآية ذلك ما تراه من حفظ العرض والخوف من الشماتة والعار والخزي والذل وما أشبه ذلك، وهكذا ما ذكرناه من توجهها لمبدع الكون واعترافها به، وعموم ذلك في كل زمان ومكان قديماً وحديثاً، حتى إن الحيوانات عند حدوث الملمات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هناك مصدر لوجودها تستغيث به ليس في هذه الأرض إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم إجمالاً، هذه الفطرة كما ألهمت الصبي التقام ثدي أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة، فالناس عاملون في الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء، ولقد تجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهراً يجري كالنيل والفرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها، وهنا يساعد تلك الفطرة مدربون ومعلمون فيعلم الكبار الصغار كيف يحرثون الأرض وكيف يبذرون البذر، وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها في غدوها ورواحها وتكون قدوة لها، وهذه الفطرة كافية للأمم في حال بداوتها وفي حال طفوليتها، فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة، وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم سمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن في فطرهم من فنون العلوم كالهندسة والحساب والجبر، ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزاً كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة في فطرهم إلى حيز الوجود وذلك بالعوم الطبيعية والرياضية وغيرها. وبيانه أن الإنسان يسمع ويبصر المسموعات والمبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة، فالألوان والبعد والقرب

والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر، وأنواع الأصوات تعرف بالسمع، فإذا كان المحسوس لا يعرف إلا بحاسة واحدة وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة في حكمها عليه، ألا ترى أن الصوت إنّما يعرف بالسمع، أما اللون والشكل مثلاً فالسمع لا يدركهما، هكذا الصوت لا يدركه البصر، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لا يشاركها سواها في إدراكه إذن يصدق السمع في المسموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها.

التفاحة واللبن

فأما أمثال التفاح واللبن فإنهما لا يختصان بحاسة واحدة، فإذن لا نصدق العين في حكمها على التفاحة ولا في حكمها على اللبن، وبيانه أن الإنسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة. وقد يكون مخطئاً لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولوناها بون التفاح ورأيناها ثم شممناها لحكمنا في أول الأمر خطأ أنها تفاحة مع أن هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فإن حكمتا فبها وإلا فلا.

هكذا إذا صنعنا ما يشبه اللبن كالدقيق المخلوط بالماء، فالعين تراه ويخيل للعقل أنه لبن، فلا بد من حكم القوة الذائقة مع العين، فهاهنا ثلاث مراتب في الحكم: حكم بحاسة واحدة، وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس. فإذا خالفنا هذه القواعد فإن العقل قد يحكم خطأ. ألا ترى أن يرى السراب في وسط النهار فيحكم بأن ماء والعين صادقة في أنها رأت لون الماء وهيئته، فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لا يعرف بحاسة البصر وحده، فلا بد من انضمام حاسة اللمس إليه ليعرف أنه سائل، وحاسة الذوق ليعرف أنه ماء، وما دام ذلك متعذراً على من بالصحراء فحكمه معرض للخطأ. هذا مجمل الأدلة وهي في أحكام الحواس في محسوساتها.

مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها

للعقول الإنسانية المنبعثة من الفطرة مقاييس خمسة: مقياس يحكم حكماً قاطعاً. ومقياس يحكم حكماً ظنياً. ومقياس يقيس ويكون أضعف حكماً مما قبله. وقياس يكون أقرب إلى الوهم. وقياس قصد أن يكون حكمه خطأ. فأما المقياس الأول فهو البرهان، وأما الثاني فهو الجدل. وأما الثالث فهو الخطابة، وأما الرابع فهو الشعر، وأما الخامس فهو السفسطة. أما البرهان فذلك هو المبني على ما شهدت به الفطرة في مبادئ أمرها بحيث لا يختلف فيها ولا يشتبه جميع الناس من جهال وعلماء وأغبياء وأذكياء مثل:

(١) إن الواحد نصف الاثنين والكل أعظم من الجزء.

(٢) والشيئان المساويان لشيء واحد متساويان.

(٣) والنفي والإثبات لا يجتمعان.

(٤) وإذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين.

(٥) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويين.

(٦) وإذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير متساويين.

(٧) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير متساويين.

(٨) وإذا ساوى شيئان نصف الشيء كانا متساويين .

(٩) وإذا ملأ شيئان حيزاً واحداً على التعاقب كانا متساويين .

وهكذا مما ذكره « إقليدس » في أوائل الهندسة ، وهذه وأمثالها هي المسميات أوليات لأنها تعرف في أوائل العقول ، ومثلها المحسوسات المتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشرائط التي أشرنا إليها . وهكذا ما تصدقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والمنومة والمعطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهذا المتواتر الذي شهد به جموع يحكم العقل قطعاً بصدقهم ، كما تقول في مصر : إن في الأرض بلاداً تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو أستراليا ومكة والمدينة واليمن ، فهذه نقطع بوجودها وإن لم نرها . وهكذا ما لاحظناه مراراً وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلاً للشمس امتلأ ضوءاً وكلما اقترب منها قل ضوؤه ، ومتى كان مقارناً لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمد نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلاً كان وجهه المشرق في جهة الشمس لا في جهتنا ، ثم تكرر هذا فحكمنا حكماً يقينياً كما حكمنا في المجربات سابقاً . وهكذا نلاحظ أن في باطننا آلاماً نسميها جوعاً وآلاماً نسميها عطشاً وأخرى نسميها شبقاً وأخرى نسميها مرضاً وهي كثيرة لا حد لها ، ونجد لنا غضباً وحسداً وحقداً ورغبة ورهبة وحباً وكراهة فهذه يقينيات . فهذه كلها إذا جعلت مقدمات في أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة . هذا هو المسمى بالبرهان ويليه في القوة الجدل .

الجدل والخطابة والسفسطة والشعر

أما الجدل فهو ما يستعمله المناظران بحيث يورد كل منهما ما يسلم الخصم به كالمسلمات والمشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة في كل أمة ، فهؤلاء يكفيهم في أدلتهم ما يوجب الظن والترجيح لا غير . وأقل من الجدل الخطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بما يخلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلاً ويحببهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب ، كالأسلوب الشعري وهناك ما يقصد به التحسين والتقبيح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق ، والسامع لها قد يعرف كذبها ، ولكن لها أثر في النفس وأدناها كلها المغالطة وهي السفسطة التي يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق ، وقد أرادوا بها باطلاً وقد شبهوها بالدينار ، فإن كان ذهباً خالصاً فهو مثال للبرهان الذي لا يخطر ضده بالبال ، وإن كان فيه زغل لا يعرفه إلا الحاذقون كان مثالاً للجدل ، وإن كان زغله يعرف بسهولة كان مثالاً للخطابة ، وإن كان نحاساً كله كان مثالاً للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقبيح لا البرهان .

فهذا كله ملخص من علم المنطق ، وعلم المنطق ملح العلوم كلها ، وما ذكرناه هو أحد قسميه المسمى بالتصديق . واعلم أن المطلوب علمه :

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لا يبرهن عليه ، ولكن سبيل العلم إليه إنّما يكون بالتحليل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فترى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت ، فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التي حواها كلاهما فيحكمون حكماً قاطعاً .

(٢) وإن كان نوعاً كالإنسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين في المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب في الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد في الثاني .

(٣) وإن كان المطلوب جنساً فلا حكم عليه بحد ولا بتحليل ، بل بالقياس كحدوث العالم وكنفع العقاقير وضرها ، وهكذا فهذه لا بد فيها من القياس .

(٤) وإن كان المطلوب إنّما هو تمييز الكليات بعضها من بعض فلا سبيل لها إلا بالتقسيم كمعرفة الفرق بين المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والمسموعة والمذوقة والملموسة ، ومن نسبتها إلى غيرها كالأبوة والبنوة ، ومكانها وزمانها وفعلها في غيرها وانفعالها لغيرها . فهذا كله لا يتم إلا بالتقسيم ، وله فن يسمى « فن المقولات » من علم المنطق وهو أيضاً من الفلسفة العامة .

واعلم أن المتعلمين في مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم في علم الكيمياء بسائر فروعها ، فهذا يورثهم يقيناً فيما يزاولونه ، وبه استنتجوا منافع للنوع الإنساني ، وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدي أمه وعلى إغماض عينه سريعاً إذا أحس باقتراب جسم غريب إليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم ، غاية الأمر أن الفطرة في الأول لا تحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن في أنفسنا ، وهم أيضاً يقسمون الكلمة إلى ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف ، وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضاً يقرؤون الهندسة وكلها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التي يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذي به استخرج الناس المجهول بواسطة المعلوم ، وهذا الاستخراج سببه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فإذا فطر الله الناس على استعمال الفاكهة التي يرونها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد والبحث ما يوازي ما استعملوه بلا جد ولا نصب ، وإذا رأيناهم أجابوا الأنبياء كنبينا صلى الله عليه وسلم إذا أسمعهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن ، وهكذا نراهم استخرجوا بعقولهم وفطنهم من هذا المسموع ومن المعقول الموافق له علوماً استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد البنات بمجرد سماعه ، ولكن لا ننظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وإعمال فكر بمساعدة فطرتنا .

مراتب الناس في الاستدلال

(١) مرتبة الصبي : إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم ما بين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فإذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لابد له من علة .

(٢) إذا رأى زوجاً وزوجة قال لهما : أين ولدكما؟ وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد ، لأن العلة لا تنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها ، والزوجان لا يلزم من وجودهما وجود الولد لأنهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة .

(٣) وهكذا كلما رأى ولداً ظن أن له اخوة كإخوته وداراً ودابة وجوعاً وشبعاً على حسب ما يقوم بنفسه هو في وقت الاتصاف بذلك، فإن جاع ظن جميع الأولاد جياعاً، وهكذا إن عطش، وعلى ذلك فقس، ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه.

(٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن المطر في كل بلد حين يكون ببلده، وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهكذا كله خطأ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس، وعلى ذلك فقس وذلك يمنعه التعلم.

(٥) إن كل نتيجة لا بد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أو هندسي أو غيرهما وقد تكون المقدمات كثيرة جداً، مثل قولهم: زوايا المثلث تساوي قائمتين، لم تكن إلا بعد اثنين وثلاثين شكلاً. وقولهم: مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلاً، وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس.

(٦) وقد يكتفى في البرهان بالقليل من المقدمات. مثال ذلك الاستدلال على النفس فيقال: «كل جسم فهو ذو جهات»، ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لا عوج فيها، «وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة» وهذه مقدمة أيضاً صادقة في أولية العقول، «وكل جسم يتحرك إلى جهة دون جهة فلعلة ما تحرك» وهذا إثبات للنفس، ويراد بعد ذلك إثبات أنها جوهر لا عرض فيقال: «وكل علة محركة للجسم لا يخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة في جهة واحدة مثل حركة الثقيل إلى أسفل والخفيف إلى فوق، فهذه تسمى علة طبيعية، وإما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بإرادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية» وهذه قسمة عقلية مدركة حساً، «وكل علة محركة للجسم بإرادة واختيار فهو جوهر» فالنفس إذن جوهر لأن العرض لا فعل له.

هذا ملخص ما ذكره «إخوان الصفاء» هنا، وأنا أقول: أيها الذكي هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل، فمعنى هذا كله أن الإنسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها، وذلك كأدلة الهندسة فهي متصل بعضها ببعض حتى تبلغ المئات، ولكنها في آخر أمرها ترجع إلى ما يعرف في أوائل العقول مثل ما تقدم، وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال في الاستدلال على النفس: إن الجسم لها جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة؟ فلا بد من سبب، فإن رأيناه تحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناه علة طبيعية، ومعنى هذا أن الذي حرك الجسم ليس جسماً بل هو أمر معنوي، وإن رأيناه يتحرك إلى جهات مختلفات بإرادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفساً، وذلك كالحيوان والإنسان، ولكن هذه القوى التي سميناها نفساً ربما كانت عرضاً أعني شيئاً كاللون والخفة والثقل، وإذن يكون تابعاً للجسم لأنه من أوصافه، فنقول: كل شيء يحرك الجسم بالإرادة والاختيار لا بد أن يكون جوهراً، أي إنه ليس عرضاً لأن العرض لا فعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يعقل ويفهم وهكذا الثقل والخفة، وهذا تأباه الفطر الإنسانية.

هذا كله من فطرة الله التي فطر الناس عليها، فالاستدلال بالبرهان والمعرفة بالمنطق وتحري الصدق في النظريات، كل هذا من موجبات الفطرة، فإذا رأينا قوماً يعيشون في الأكواخ ويكتفون

بالصيد ولا يعرفون الحرث والقناطر ولا الجسور، قلنا: هكذا رأينا في الحيوان أمثال الناس تربي ذريتها بغير وجود آبائها، أي: إن الحيوانية هناك ناقصة. هكذا الإنسانية هنا ناقصة لم تستحكم. وإذا رأينا أناساً شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا؛ قلنا: هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربي ولدها وهذا كله سميناه فطرة، فالطير تربي وتحضن بيضها بالفطرة، كما أن الجراد ترك بيضه وفقس وحده بالفطرة. هكذا هنا عاش الناس في الأكواخ بالفطرة مع نقصهم، وآخرون عاشوا بالعلم فحرثوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها، كما حضنت الطيور البيض وربت أفراخها بالفطرة، غاية الأمر أن الفطرة في الطير والإنسان المدني أكمل من الفطرة في الإنسان الهمجي، كما أن الفطرة في الطير أكمل منها في الجراد والناموس والذباب. ونسبة الطير إلى الآساد والوحوش أبعد جداً من النسبة بين الإنسان المتوحش وذي المدنية في عصرنا الحاضر.

إذن هذا الدين الإسلامي ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠]فهو دين المتوحشين لأن الوحشية من الفطرة، ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة، ولا يخرجها عن الطفرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور، لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلاً عن أمثال الجراد والذباب والناموس التي لا ترى ذريتها أصلاً، فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله، وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشيين، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للخاصة إيماء إلى ما قلناه، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان، كما أن فيه مدح المؤثرين على أنفسهم والقانعين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافاً. اهـ. هذا ما فتح الله به يوم الاثنين الخامس من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٨م، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: بيان فطرة الإنسان في مظاهر المخلوقات

بهجة العلم، يوم شم النسيم، ٦ مايو سنة ١٩٢٩م

في هذا اليوم تبدت لي أعمال في مزرعتنا التي هي بالقرب من القاهرة وقد ذكرتها مراراً في هذا التفسير يا سبحان الله، سبحانك اللهم وبحمدك لا تنفذ عجائب صنعك، لقد توجهت لهذا الحق مراراً وفي كل مرة أشاهد في طريقي عجائب تخالف ما قبلها مع أن الطريق لم تتغير وإنّما الذي يتجلى في كل مرة يكون على حسب الفكرة التي تشغل العقل، فمرة كنت أتفكر في العنكبوت التي ضربت خيامها في تلك الفيافي وقد مر ذلك في هذا التفسير. ومرة تفكرت في أمر الحشرات التي تقتل الأشجار. وقد قابلني هناك بعض عمال الحكومة لإبادتها وقد تقدم هذا في أول سورة «الأنفال» والحشرة تسمى «الهبسكس» فراجعها هناك.

أما في هذه المرة فإني أخذت أفكر في الفطرة الإنسانية. إن الفطرة الإنسانية جعلت معياراً لهذه العوالم، وبيانه أن الإنسان لو فكر في العوالم وكيف تخلق وعلى أي أسلوب توجد؛ لم يفضل حالاً عن حال. وبعبارة أخرى: إن العوالم الحيوانية والنباتية لو خير الإنسان في خلقها وقيل له: أيها الإنسان أتريد أن تكون كل الحيوانات صغيرة الأحجام أم متوسطة أم كبيرة وهكذا النباتات؟ وبالنظر إلى ألوانها هل تحب أن تكون كلها بيضاء أم صفراء؟ وهكذا مساكنها أتكون في الجو أم في البحر أم فوق اليابسة؟ وفي أصواتها أتكون غليظة أم دقيقة لطيفة أم متوسطة؟ لو سئل الإنسان هذه الأسئلة لم تكن

له وسيلة في الإجابة إلا بعلم المنطق، إذ يقول: إذا سألتموني عن اختياري فأنا أفضل ألا يدع خالق العالم حالاً إلا أعد لها خلقاً، فلا يدع الصور الصغيرة ولا الكبيرة ولا المتوسطة في النبات والحيوان وتشغل هذه الخلائق الهواء والماء واليابسة. إن فطرتي تميل للعدل والعدل يقضي أن تعطى كل مرتبة ما يليق لها. فلا السواد من الألوان مثلاً بمتروك ولا الخضرة ولا غيرهما ولا يحرم الماء ولا الهواء من هذه العوالم ويعطى كل مقداراً من الصور الصغيرة والمتوسطة حظه، ولتكن جميع الأصوات في الوجود، فليكن صوت دقيق جداً وليكن متوسط وليكن عال.

ثم يقول الإنسان بحسب فطرته: أما من جهة النشوء والارتقاء فأنا أهتم بأني أرى في كل مرتبة الخلق المناسب لها. فأرى كل معدن وكل نبات وكل حيوان، ويهمني أن أرى جميع الدرجات بعضها فوق بعض لأن فطرتي تشهد أنه لا يصح خلو درجة من درجات الوجود من عوالم تخلق فيها، فأرى سلسلة المعادن والحلقة المتوسطة بينها وبين النبات، وهكذا النبات يهمني أن أرى كل درجة من الدرجات السفلى والوسطى والعليا وهكذا الحلقة المفقودة بين النبات والحيوان، وهكذا الحيوان أحب أن أرى درجاته متناسبة صاعدة من أسفل إلى أعلى حتى أصل إلى الإنسان، وهناك يهمني أن أرى هناك حلقة بين الحيوان والإنسان.

هذا هو الذي تشهد به الفطرة ومعنى هذا أن مذهب النشوء والارتقاء الذي شرحه «طيماوس» الحكيم في حديثه مع «سقراط» هو الذي تشهد به الفطرة وهو الذي قال به «داروين»، وليس هذا المذهب له بل هو قديم، ولكن الفكرة في حد ذاتها يشهد بها النظام، غاية الأمر أن بعض الجهال ظنوا أن القصد من هذا المذهب نفي الألوهية وأنه مذهب حديث، ولكنهم لجهلهم الفطرة الإنسانية خاب فألهم وضل سعيهم.

إن الفطرة شاهدة بهذه السلسلة التي يقول الله تعالى فيها: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ ﴾[الملك: ٣]، فليقل «داروين» و«لامارك» ذلك فهما لم يقولا شيئاً جديداً، وهذا تشهد به الفطرة فالعوالم متناسبة أعلاها مرتبط بأدناها، هذا أول الأمر وهذا آخره، وما هذه الدرجات إلا كدرجات الإحساس في الإنسان التي تبتدئ بالأقل وهو اللمس وترتقي بالذوق فالشم فالسمع فالبصر هذه درجات بعضها فوق بعض شهدت بها الفطرة وشهد بها العقل، أما كون أعلاها مشتقاً من أدناها فأمر يفرح به صغار العلم الذين لا يعقلون، وإنّما ذكرت هذا في هذه السياحة لأنني ما كدت أتوسط تلك الأرض التي بعد بلدة المرج وأنا أمشي في الخلوات حتى رأيت الجاموس والبقر والمعز والغنم دائبة في رعيها ساعية في جلب رزقها من تلك الحشائش الطالعات في الأرض، وبينما أنا أرى تلك الأنعام في مراتعها إذ شاهدت الخطاطيف طائرات في الهواء ذات اليمين وذات الشمال، وهكذا أنواع العصافير والقنابر والعصافير المغنية والهداهد ثم الغربان والطائر المسمى بالعنز وهكذا أبو قردان. فهذه كلها كنت أشاهدها وهي فرحات طربات مغردات مبتهجات ترتع في نعيم الحرية والسعادة. ولعمري كيف كنت أرى الغراب الأسود وأبا قردان الأبيض يطيران وهما مقتربان ولا يبغي أحدهما على الآخر، كما يبغي البيض في أمريكا بالولايات المتحدة على السود فيها ازدراء بهم واحتقاراً لشأنهم، حقاً ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤].

شاهدت الطائر المسمى بالعنز كبير الجثة طويل الأجنحة التي ابيضت من الأمام واسودت من الخلف ولم أره طغى على أبي قردان ولا الغربان ولا العصافير احتقاراً لشأنها ، بل يسعى لاصطياد الحشرات التي خلقت له فلم يتعد ما رسمته له الفطرة ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

هذه سطور الكائنات

كنت أقرأ هذه السطور المكتوبات التي كتبها الله لي ، كتبها لي وقال : اقرأها ، فتقبلت الهدية من الله وقرأت ما سطره لي سبحانه ، وإنما قلت : إن الله سطره لي ، لأني نظرت الحيوانات التي أمامي إذا كل واحد منها مهتم بشأنه عاكف على عمله ، ولم أر على حسب ما ظهر لي أحداً منها مهتماً بما اهتممت به ، فأنا أقول : إن الله سطر هذا لي على حسب ما طبعت عليه نفسي .

** وللناس فيما يعشقون مذاهب **

فمن كان من الناس على شاكلتي فيحق له أن يقول : إن الكتابة له أيضاً ، فالسور المكتوبة والقراء يقرؤون منها ما يواتي عقولهم ، فهاأنا ذا أسمع أصوات الغناء من العصافير المغنية كما أسمع نقيق الضفادع في الماء ونعيق الغراب ، فأرى الاختلاف اقتضاه العدل الذي هو شأن الفطرة ، ففي الفطرة وجود جمال الأصوات وقبحها وصغر الأشكال وكبرها وتباين الألوان والأشكال والعادات والأخلاق حتى يتم التوازن ويكون النظام ، فلئن ظهر على الأرض الفيل العظيم الجثة والجمل ذو السنامين ليظهرن النمل الذي رق جسمه ودق صنعه وحسن وضعه وجملت هندسته ، وبينما أنا سائر في الطريق أنظر هذه العوالم وكأني في جنة عرضها السماوات والأرض وقد فهمت قوله تعالى : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، إذ رأيت النمل غاديات رائحات ـ وقد كنت إذ ذاك أكتب في تفسير سورة « النمل » عجائب صنعها وبديع إتقانها ـ فأخذت أتتبعها فوجدت لها منفذين تدخل فيهما تحت نخلة هناك والنملات يسرن في طريق ذاهبات كأنهن صف الجنود متوجهات إلى ساحات الحرب ، فأخذت أتتبعها وعددت خطواتي إذا هي خمسون خطوة ، وفي أثناء تلك الخطوات كانت جماعات النمل تسير في طريق واحدة لا تتعداها وهن قد ملأنها من أولها إلى آخرها . وبعد هذه المسافة رأيتهن متفرقات يحملن القوت من هنا ومن هناك ويقبلن على هذه الجماعات في طريقها ويسرن معها على حسب نظامها ، فوقفت إذ ذاك أفكر في هذه الجماعات وأقول لقد نقلت في هذا التفسير في سورة « النمل » أن أعظم جماعات النمل ما وصل عددها إلى ٥٠٠ مليون نملة ، أما جماعات الإنسان فإن أعظمها لم تصل إلى هذا العدد .

ولقد تقدم في هذا التفسير هناك أن للنمل حرباً وأسرى ، وهذه الأسرى تخدم السادات وتطعمها ، وهذه السادات تصبح عالة على هؤلاء الأسرى ، وعليه يصبح السادة عاطلين ويحيق بهم النكال والوبال كما حاق بالإنسان إذا كان من المترفين ، فتشابه في الإنسان وفي النمل وسائل الهلاك وأبواب العطب وأدلة الخسران .

فظلم جماعات النمل لغيرها واستعمارها مهلك كما يكون ذلك أيضاً مفسدة للإنسان كما دل عليه حال آبائنا العرب ، إذ تنعموا فهلكوا وهكذا دولة الرومان ، هنالك نظرت نظرة في حال هذا الإنسان وقلت قولاً حقاً :

يا بني آدم، إن الأرض صنع الله والله متقن الصنع، أعطى كل شيء خلقه ثم هداه. ليس في قدرة النمل مدنية أعظم من هذه. إن مدنية النمل محدودة، ليس في نمل الشرق قدرة على معرفة نمل الغرب والانتفاع بأعماله، بل جماعات النمل المختلفات في بلدة واحدة لا قدرة لها على منفعة الجماعات الأخرى، وليس بين الجماعتين صلة ولا مخاطبة، لأنها ليس في فطرتها ما هو فوق ذلك.

أما هذا الإنسان فيظهر لي أنه إلى الآن طفل صغير هو جهول، إنه أعطي عقلاً ولكنه إلى الآن لا يزال في حال التجربة، أليس من العار أنه لا يزيد في مدنيته عن مدنية النمل؟ فهو ذو حرب وأسرى وظلم ثم ترف ثم هلاك، إني أشهد الله وأشهد الناس جميعاً وأبرأ من هذه الإنسانية الجاهلة الظالمة الإنسانية الفاسقة الغشومة الغرة الجاهلة، وأقول: ليس من المعقول أن تفنى هذه الأرض قبل أن يرتقي هذا الإنسان ويصل إلى منتهى درجات الإدراك، ولا يكون ذلك إلا إذا أصبحت كل الأمم يساعد بعضها بعضاً شرقاً وغرباً، لأن هذا هو الفارق بينها وبين النمل وأمثالها. ليس عند النمل طرق حديدية ولا بريد ولا طيارات ولا مدارس ولا علوم ومع ذلك نرى لها مدنية لم يرتفع عنها هذا الإنسان.

إن هذا الإنسان لا يزال في حال الطفولية، وجدير بالكتاب والحكماء أن يهدوه إلى فطرته. هذا ما فهمته يوم شمّ النسيم. ولما وصلت إلى المزرعة وجلست تحت الأثلات بين المزارع والحقول تذكرت أني منذ أسابيع كنت قد أتيت إلى هذه المزارع وقد مررت بمزرعة نخيل في الطريق ضحى:

ذهب الضحى في الروضة الفيحاء	والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ههن أوانساً في الحلة الخضراء	فأرى الزهور عوانساً ووجو
ث كل حين في صفاء ووفاء	وغصونهن موائساً متعانقا

فحرك مني هذا المنظر ما سكن، وأخذت أفكر في أمر الرياح ومصدرها، وأنها آتية بسبب حرارة الشمس التي سلطها الله على الهواء والأرض، فجرت الرياح عند خط الاستواء شمالاً وجنوباً إلى ٣٠ درجة في الجانبين، وهناك تفرعت كل ريح منهما إلى فرعين: فرع يرجع إلى جهة خط الاستواء وهي الرياح التجارية، وفرع اتجه إلى الجهة القطبية وهي الرياح العكسية أو الضدية. وهناك رياح أخرى تسمى القطبية تهب من جهة القطبين، كما أن هناك رياحاً تهب من البر إلى البحر ليلاً ومن البحر إلى البر نهاراً، وهناك أخرى تهب من البحر إلى البر صيفاً وبالعكس شتاء وهي الرياح الموسمية. فأصل هذا الاختلاف في الرياح جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً أمر واحد هو الحرارة، فبالحرارة واختلاف طباع الماء والهواء اختلف اتجاه الرياح فكان السحاب والمطر والزرع والشجر وغنت الأطيار وبهرت الأزهار في سائر الأقطار.

علم الله أن الناس في هذه الأرض لا يحفظون الفطر التي خلقوا عليها، لأن طبيعة هذه الأرض والبيئات والأحوال العامة تقتضي أن يغيروا تلك الفطرة، وما هي الفطرة؟ هي أن يكون الناس مسلمين ولا معنى للإسلام إلا الانقياد لله ولأوامر الله، والله أرسل رسلاً كموسى وعيسى ومحمد، وأتباع الأنبياء يعلمون أن كل نبي جاء لمنفعة الناس ولم شعثهم، فأبت نفوسهم المنحرفة أن تتبع الفطر، فقال قوم: لا نؤمن بمحمد ولا بعيسى الخ. وقال قوم: لا نؤمن بمحمد ولكن نؤمن بعيسى وموسى الخ. والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالت طائفة منهم: نحن نكره الطائفة الأخرى لأنها تخالفنا

في بعض فروع الشريعة، وهؤلاء وهؤلاء مثلهم في الدين كمثلهم في أحوالهم العادية إذ ينعم الله عليهم ثم يصيبهم الضر فيكون اليأس، أو يكونون في شدة فينالون الرحمة فيبطروا، وهذا معناه عدم الثبات، فخير لهم أن يكونوا مع الله في الشدة واللين والعسر واليسر، فإن كان خيراً حمدوه أو شراً التجؤوا إليه ودعوه، هكذا في الدين، فإن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بمن بعده إذ لم يوافق أهواءهم، والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد لأنه لم يكن على هوى من يعاشرونهم، وهكذا أهل كل مذهب من أهل البدع الإسلامية. إن أهل الأرض يتبعون أهواءهم وأخلاقهم وما اعتادوه لا الحقائق.

كيف لا ونحن نرى أبناء كل أمة يتبعون آباءهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والإسلام لله والخضوع له أن يمجد كل من نفع الأمم قديماً وحديثاً، وألا تجعل الفروق القليلة سبباً في الافتراق، وإلا فكيف افترقت طوائف المسلمين أحزاباً وأحزاباً؟ وكيف كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم؟ إن ذلك دلالة على عدم الانقياد لله والطاعة له، وإلا فإن الناس يقرؤون علوم العلماء وأشعار الشعراء وحكم الحكماء في مختلف الأمم فكيف جعلوا الديانات مفرقة للناس؟ وأصحاب الديانات يحبون الناس كلهم، ونصائحهم تنفع الناس قاطبة غالباً بل كيف افترق أتباع الدين الإسلامي فرقاً، أليس ذلك لجهلهم أنهم قد اتحدوا في القرآن وفي الصلاة وغيرهما وفي أكثر الفروع؟ وإنّما يختلفون في أمور جزئية فكيف يفترقون بها؟ إن ذلك كله للجهل الذي طمس على القلوب، ومخالفة الفطرة تقتضي النظر الصحيح، فأهل الأرض إذا اختلفوا في الدين فإنّما ذلك الاختلاف ناجم من تقلبهم واتباعهم أهواءهم وعدم نظرهم الصحيح، فعليهم أن يسلموا لله وينقادوا له ويكونوا كالمسلمين فهم يؤمنون بكل نبي، هكذا فلتفعل سائر الأمم، هذا هو دين الفطرة. وليعلم أرباب المذاهب في الإسلام أن اختلافهم لا يوجب التفرقة بل هم أمة واحدة. وما دام النوع الإنساني هكذا فإنه كفور بنعم ربه غير شكور يتبع الأهواء، وسيكون له عواقب في عالم البرزخ والعوالم المتتابعة وهناك يتدرج في معرفة الحقائق ويعذب الجاحدون وينعم الصالحون.

ولا سبيل لسلامة الأمة الإسلامية إلا أن تعمم التعليم وتدرس جمات هذه العجائب الأرضية والسماوية، ليرسخ في الأذهان جمال الطبيعة والعجائب الإلهية، فتشرق النفوس وتقترب العقول كما قدمناه في هذا التفسير. انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة، والحمد لله رب العالمين.

جوهرتان

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾

جاء في بعض المجلات العلمية ما نصه:

نكبة العالم من الأسنان الدقيقة

ترى الفأر فتزدريه بل قد تراه غير جدير باحتقارك. ولكن هذا المخلوق الضئيل تعده أقوى دول العالم أروع عدو للجنس البشري، وتشن عليه الحرب العوان في كل مكان لما ينشأ عنه من الأضرار العظيمة، فهذا «السير وليام بول» يقدر ما تحدثه الفئران من الخسائر في إنكلترا بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، ولذلك أصدر البرلمان الإنجليزي قرارات شديدة في هذا الشأن. وإذا بلغت الحكومة عن أي شخص بأنه يوجد في ملكه فيران أرسلت له مندوباً يكلفه باستئصالها، فإذا لم ينفذ ذلك أرسلت

أشخاصاً يقومون بإعدامها، وتتخذ ضده الإجراءات القانونية الزاجرة. وقد وضعت الحكومات الأمريكية جوائز لمن يصطادون الفيران، ويبلغ ما قتلته فتاة في ولاية «تكساس» في ستة أسابيع ٧,٣٩٨ فأراً، وقد أربى على ذلك ما اصطاده غلام على مقربة من هذه الولاية حيث قتل في نفس المدة ١٥,٥٥٠ فأراً. ويقدر ما يتلفه الفأر في السنة بنحو ١٠ شلنات على الأقل، وإذا تناسل فأران لمدة ثلاث سنوات نشأ عنهما ١٨ جيلاً ويبلغ عدد أفرادها ٣٥٩,٨٠٩,٤٨٢ فأراً.

وإذا كانت نكبة العالم من الفيران في غاية الفداحة من الوجهة الاقتصادية فإن ما تلحقه بالجنس البشري من الوجهة الصحية يعد من أكبر الكوارث، لأن الفيران تعيش في أقذر الأماكن فتخرج من جحورها الملوثة إلى حيث توجد الأغذية فتترك جراثيمها في مواد الغذاء وتنشرها في غرف الدور، ويقرر الطب أن الجراثيم التي تحملها الفيران في فرائها أفظع أنواع الميكروبات، فإن منها جراثيم الطاعون وغيره من محدثات الأمراض، وتعد ضحايا الجنس البشري من جراثيم الفيران أكثر عدداً من ضحايا الحروب التي ذكرها التاريخ، فإن الطواعين والأوبئة التي كانت تخلي أوربا من سكانها في القرون الماضية لم تنشأ إلا من الفيران التي كانت تنقل العدوى، وقدر ضحايا أحد هذه الطواعين في يوم واحد ١٠,٠٠٠ نسمة في مدينة القسطنطينية في سنة ٤٠٥ بعد الميلاد، وكم من مرة حصدت الطواعين أهالي إيطاليا، ولقد طاف الطاعون أرجاء أوروبا في القرن الرابع عشر وحصد أهلها حصداً، وسمي بالموت الأسود وبلغت ضحاياه ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، وكان من ضحاياه في الهند وحدها في سنة ١٨٩٦ نحو ٩٠٠٠,٠٠٠ نسمة.

ويذهب بعض العلماء إلى أن ما يحدثه الفأر من النكبات يرجح على ما يقع من الأسود والنمور والذئاب إلى آخر ما يوجد في العالم من وحش.

ويرى ساسة الدول وعلماؤها أن مشكلة استئصال الفيران من البلاد يجب أن يعنى بها مهندسو المدن، فإنهم إذا كانوا قد عالجوا البيوت الحديثة بأن بنوا سقوفها بطراز مخصوص لا يسمح بمعيشة الفأر يجب أن يصنعوا علاجاً آخر لأرض المدن بحيث لا يمكن أن تتخذ فيها الفيران جحوراً لها، وليس واجب الطبيب في هذا الشأن بأقل من واجب المهندس، فقد ظهر أن المدن التي يعنى فيها بالأمور الصحية توجد فيها كميات قليلة من الفئران بخلاف القرى والمدن التي تهمل فيها الشؤون الصحية، ولذلك فإننا نوجه أنظار كل صاحب أسرة إلى استئصال ما في داره من هذا الحيوان المريع لأنه لا يختلف في الحقيقة عن اللص القاتل، بيد أنه يقوم بهذين الوظيفتين في وقت واحد.

بسبب الفأر أيضاً

يقرر معهد طبي في إنكلترا أن زوجاً من الفيران يتناسل في السنة الواحدة هو وأولاده وأولاد أولاده إلى أن يصيروا في نهاية العام ١٠,٠٠٠ فأر، وتبلغ قيمة ما يتلفه ألف فأر في السنة ١,٥٠٠ جنيه، وتقدر خسائر إنكلترا من الفيران التي فيها ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كل سنة، انتهى ما جاء في تلك الصحيفة. ولما كان الفساد في البر والبحر ليس مقتصراً على ما جاء هنا بل يتعداه إلى أمور كثيرة وجب أن أذكر لك ما جاء في كتاب «قانون الصحة المنزلية»، ثم أتبعه بجمال العلم والحكمة والإبداع والعجب العجاب.

الأمراض المعدية

تنتقل هذه الأمراض بالماء والغذاء والهواء والتلقيح، فمن الأمراض التي تنتقل عادة بواسطة الماء والأغذية: الدوسنتاريا والإسهال والكوليرا والحمى التيفودية وغيرها، وأحياناً تنتقل باللبن كالقرمزية والدفتريا. ومن الأمراض التي تنتقل بواسطة الهواء أو الملامسة: الحمى التيفوسية والتهاب الرئة وجدري الدجاج والحصبة والأنفلونزا والسعال الديكي والدفتريا والجدري وغير ذلك.

وهناك بعض أمراض تنتقل بواسطة الناموس أو البق والبراغيث كحمى الملاريا والحمى الراجعة. وينتقل الطاعون بواسطة البراغيث من الجرذان.

ومن الأمراض التي تنتقل بالتلقيح: الحمرة وحمى النفاس وتسمم الدم وجدري البقر وداء الكلب والتيتنوس والدرن والجذام وغيرها، وتقي الإصابة الأولى ببعض الأمراض المعدية من إصابة أخرى بها إما لأجل مسمى أو غير مسمى، وذلك لوجود مضادات للميكروبات المسببة للمرض في الدم، ونشأت من الإصابة السابقة، وهذا ما يسمونه بالوقاية الطبيعية وعلى نسقها استنبطت الوقاية الصناعية بالتلقيح، كما يفعل في طريقة الوقاية من الجدري بتطعيم المادة الجدرية نفسها المحتوية على ميكروباته، فتولد في الجسم مضادات تقيه شر الجدري لو أصابه.

الأمراض المعدية الخطرة

هذه الأمراض هي:

الجدري، والقرمزية، والدفتريا، والحمى التيفوسية، والحمى التيفودية، وحمى النفاس، والحصبة، والسعال الديكي، والجدري، والنكاف، والأرماد المعدية، والسل والكوليرا.

الجدري

هو أشد الأمراض عدوى، وميكروباته توجد في قشور بثراته، وينتقل بالملامسة والثياب والفراش وأدواته والهواء، وذلك على الخصوص مدة التقلص أو التقشر، ويسبق الإصابة عادة حمى شديدة مدتها من يومين إلى ثلاثة وقيء وآلام شديدة في الظهر، وفي الغالب تظهر البثور في اليوم الرابع ابتداء على الوجه والجبهة، ثم على الأجزاء الأخرى من الجسم، ثم تجف وتتقلص، ثم تبتدئ في السقوط وذلك من اليوم الرابع عشر من ابتداء الإصابة أو شهر من ابتداء العدوى. وجميع مدة الإصابة تكون الحرارة مرتفعة، وقد يظهر هذا المرض عند الملقحين أيضاً ولكن بحالة خفيفة جداً.

القرمزية

مرض معد جداً وتنتشر العدوى على الأخص بالقشور التي تتساقط من الجلد على الملابس أو غيرها من الأشياء التي تمسها. ويظهر المرض بعد العدوى بيومين أو ثلاثة عادة، وعلاماته: البرودة والحمى وقيء أحياناً وطفح أحمر وآلام في الحلق، وقد تخف الحمى والطفح في الثلاثة أو الأربعة الأيام التالية، وفي الأحوال الخفيفة يظهر المريض كأنه شفي تماماً، ولكن يلزم الاحتراس وبالأخص من البرد خوفاً من إصابته بمرض في الكلى، ويبتدئ تقلص أو تقشر البثرات من اليوم العاشر إلى اليوم الرابع عشر وربما تأخر للأسبوع الثالث أو أكثر، ويستمر هذا التقشر من أسبوع إلى ثلاثة أو أربعة ويلزم الاحتراس من العدوى في دور التقشر.

الدفتيريا

هذا المرض يعدي بإفرازات الفم أو الأغشية التي تتكون في الحلق والأنف، ووسائط العدوى هي التقبيل وأواني الشراب والثياب وأدوات الفرش، والسعال يكون سبباً في العدوى بانقذاف بعض المفرزات والأغشية المعدية في غرفة المريض ثم جفافها على الأثاث والأرض، وحينئذ تنتشر في الهواء بالكنس، وبذلك تكون سبباً للعدوى مدة طويلة من الزمن، ولذا يجب تطهير غرفة المريض وأثاثها، ومن المهم جداً أن تجمع كل المفرزات لإعدامها أولاً فأولاً، وتحرق أيضاً الأقمشة التي كانت تستعمل لمسح الفم والأنف مدة المرض. وتظهر الدفتيريا بعد العدوى بغاية السرعة، فقد تتكون الأغشية التي كانت تستعمل بعد مضي أربع وعشرين ساعة من الإصابة، والذين يشكون من ألم في الحلق معرضون للإصابة أكثر من غيرهم، وبعد الشفاء يصاب المريض أحياناً بمرض الكلى أو بشلل موضعي أو عمومي أو بغير ذلك، وأهم الوسائط لمعرفة المرض بحيث المفرزات بالميكرسكوب « منظار معظم » للتحقق من وجود الميكروب الخاص.

الحمى التيفوسية

مرض معد جداً، ويساعد على انتشاره ازدحام المساكن وإهمال التهوية والنظافة، ومدة هذا المرض أسبوعان عادة، ويظهر فيه من اليوم الرابع على الجلد بقع حمراء مستديرة، وفي نهاية الأسبوع الثاني ينحط المرض بسرعة، وينتهي النقه في آخر الأسبوع الثالث.

الحمى التيفودية

يعدي هذا المرض ببراز وبول المصاب، ولذلك يلزم أن يضاف إلى هذه المفرزات مطهر قوي كحامض الفينيك أو محلول السليماني لإعدام ميكروبها قبل إلقائها، وينقل العدوى الماء واللبن إذا اختلط بهما شيء من المفرزات السالفة الذكر، ولذلك يجب تطهير ملاءات الفرش أولاً بإلقائها في محلول مطهر ثم إغلائها، ومدة هذا المرض عادة ثلاثة أسابيع، ومن الصعب معرفته في دور التفريخ وهو من الأمراض الخطرة بالنسبة لارتفاع الحرارة بالنسبة لما يحصل أحياناً من انثقاب الأمعاء من تقرحها، ولذلك يجب ألا تعطى أغذية صلبة، ويجب ألا يتحرك المريض إلى أن يدخل في دور النقه الذي يمكن أن يكون من ٥ إلى ١٠ أسابيع.

حمى النفاس

هي مرض خطر تصاب به النساء بعد الوضع، ويتجنب حصوله بالاعتناء بالنظافة الشخصية التامة وتعقيم جميع ما يستعمل للولادة، وينشأ هذا المرض من تسمم الدم بميكروبات خصوصية.

الحصبة

الحصبة مرض من أمراض الطفولية وأكثر حصولها من السنة الثانية إلى الخامسة، وتظهر بعد العدوى بأربعة عشر يوماً، فيحصل ألم في الرأس وحمى، ثم تظهر في اليوم الرابع من الإصابة بقع حمراء على الوجه والجسم، وتزول في اليوم السابع أو الثامن بالتدريج، وينتهي المرض بسقوط قشور نخالية من الجلد، وربما استمر ذلك إلى الأسبوع الثاني أو الثالث، وهي تعدي قبل ظهور الطفح وتستمر العدوى على الأقل إلى نهاية الأسبوع الثالث.

السعال الديكي

هو مرض شديد العدوى، ودور تفريخه من عشرة إلى أربعة عشر يوماً، ويمتاز بشهيق شديد يشبه في بعض الأحيان صوت الديك، وهو معد بواسطة النفس وضرره كالحصبة في مضاعفات الرئتين ومدة المرض من ثلاثة إلى ستة أسابيع غالباً في الأحوال العادية.

الجدري

لا يعتبر من الأمراض الخطرة ولكنه من الأمراض الشديدة العدوى، وعدواه تحصل بواسطة الملابس وغيرها، ومدة المرض ثلاثة أسابيع على الأقل.

النكاف

مرض معد غير خطر، علاماته ورم في مقابلة زاوية الفك السفلي في الغدة النكفية، ومدته من ثلاث إلى أربع أسابيع.

الأرماد المعدية

تنتشر عدوى الرمد الصديدي والرمد الغشائي «الدفتيريا» والرمد الحبيبي بأصولها المعدية التي في إفرازاتها إذا تلوثت بها الأصابع والمناديل أو أوراق التجفيف أو المناشف أو المخدات وغير ذلك، فيجب الاحتراس من ذلك في المدارس.

السل

السل وعلى الأخص السل الرئوي يعدي وينتشر بواسطة البصاق، ولذلك يلزم الاحتراس من بصاق المسلولين، فمتى جف يكون معدياً بمروره في المسالك الهوائية، ولاجتناب العدوى يلزم المريض أن يبصق في إناء خاص محتو على محلول مطهر قوي، وإذا بصق المسلول في منديل يجب إغلاؤه في الماء أو إحراقه، ولا يجوز نوم السليم مع مسلول أبداً.

الكوليرا

تحصل العدوى في هذا المرض من انتقال ميكروباته التي في براز وقيء المصابين، فلا يجوز لمس المواد المذكورة وكذلك ما تلوث منها. وعلاماتها: الإسهال والقيء والمغص وتشنج العضلات مع برودة وزرقة في الوجه واليدين والقدمين، ويلزم عند ظهور الوباء اتخاذ الاحتياطات الشخصية الآتية:

(١) إغلاء ماء الشرب ومنع استعمال المياه المثلوجة.

(٢) تجنب أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة.

(٣) غمر الخضر والأثمار واللحوم في ماء مغلي مدة نصف دقيقة وقت إحضارها من الخارج ثم طبخها بأسرع ما يمكن، وأن يوضع الخبز في الفرن ثلاث دقائق.

(٤) إغلاء اللبن جيداً.

(٥) غسل أواني الطعام في ماء مغلي وتنشيفها جيداً بقماش جاف نظيف، وكذلك نغمر أدوات المائدة من ملاعق وشوك وسكاكين وغير ذلك في الماء المغلي قبل استعمالها مباشرة.

(٦) تغطى جميع الأطعمة لمنع تلوثها وبالأخص من الذباب.

(٧) تغسل الأيدي جيداً وتنشف بكل اعتناء قبل الأكل.

(٨) يجتنب أكل الأطعمة العسرة الهضم.

(٩) تطهر مراحيض المنزل جيداً كل يوم مرة مع الاعتناء بتطهير مقاعدها.

(١٠) يجب تهوية المنزل جيداً كل يوم والاعتناء بنظافته.

(١١) غسل الأيدي جيداً عقب الخروج من المرحاض حالاً وتطهيرها. اهـ.

ولما اطلع على هذا أحد الأصحاب من أهل العلم، قال: هذا حسن، ولكن التفسير بهذا انقلب إلى علوم والعلوم لها كتب خاصة، فأما أنك تعمد إلى مقالات عامة في أمثال هذا المقام وتذكر ما يقوله الأطباء وإن كان منتقى مصطفى فإنه ليس مما يلائم التفسير. فقلت له: حياك الله أيها الأخ، أنا أكتب في التفسير زهرات من العلوم وثمرات من الحكم، وهذه الزهرات والثمرات هي المناسبات لتفسير القرآن بل لا يتضح المعنى إلا بها.

إن لله كتابين: كتاباً كتبه بيده، وكتاباً أملاه علينا بالوحي، والكتاب الذي أملاه علينا بالوحي نتلقاه بأسماعنا، والكتاب الذي كتبه بيده نراه بأبصارنا، ومن عجب أن الذي كتبه بيده مجسم ظاهر واضح، ومع ذلك الوضوح أصبح عندنا في غاية الخفاء، فالذي كشفته أبصارنا مجسماً هو الشديد الخفاء، والذي سمعته آذاننا نتلقاه ونفهمه، ولكن هذا الفهم فهم ضئيل، نسمع الله يقول: إن الفساد ملأ البر والبحر وما السبب؟ فيقول: ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾[الروم: ٤١]، فالمسلم العادي الجاهل بل كثير من صغار العلماء إذا سمعوها يفهمون المعنى اللغوي، والمعنى اللغوي يكفي فيه القاموس، ويكفي الرجل البدوي الذي يعرف اللغة العربية في جزيرة العرب، ولكن أين الحقائق؟ إن حقائق أمثال هذه الآية في الكتاب الموحى به الذي فهمناه فهماً ضئيلاً لن نعرفها ولن نعقلها إلا بدراسة الكتاب الذي كتبه بيده، وهي هذه الأجسام والصور والأشكال والألوان والأحوال، إذن فلندرس هذا الكتاب الذي كتبه الله بيده فنقول: الله أكبر جلّ الله وجلّ العلم.

هانحن أولاء يا الله نظرنا في تلك المشاهد ففرحنا بعملك وسعدنا بالنظر إلى حكمتك. وجدناك يا الله بنيت هذه الطبيعة على صراط مستقيم لا عوج فيه ولا خلل. أنت أيها الذكي قارئ هذا التفسير قد قرأت قريباً الأشكال الهندسية التي يستعملها علماء الطبيعة، فماذا وجدت؟ أقول: إنك وجدت فيها صراطاً مستقيماً.

إذن الذي يصنعه الله يكون على صراط مستقيم. ألم تر أن مساحة محيط الدائرة ومساحة سطح الكرة ومساحة الكرة كل هذه قد رجعت إلى أمر واحد وهو نصف القطر، فمتى مسحناه فقد مسحنا ما بعده، فلو أنك أيها الذكي عمدت إلى قطعة أرض ورسمت فيها دائرة ثم عمدت إلى المحيط ووصلت بين نقطتين منه بخط فهذا الخط هو القطر ونفرضه ٦ أمتار، وهذا القطر وجدنا أن المحيط قدره ثلاث مرات وسبعاً، وبناء عليه قلنا: إن طول هذا المحيط يساوي نصف هذا القطر مرتين مضروباً في ثلاثة وسبع وهو الذي عبرنا عنه بحرف « ط » فيما تقدم، فإذا أردنا مساحة سطح الدائرة فإننا نربع نصف هذا القطر فيكون ٩ ونضربه في ٣ وسبع، فإذا أردنا مساحة سطح الكرة ضربنا هذا المربع في ٤ فيكون ٣٦ ثم نضرب هذا كله في ثلاث وسبع. فإذا أردنا مساحة حجم الكرة كعبنا ٣، ومعنى هذا أننا نضرب ٩ في ٣ فيكون ٢٧، وهذا العدد يسمى مكعب عدد ٣، ثم نضربه في ٣ وسبع

فيكون ٨٤ وستة أسباع، ونضرب هذا كله في « ٤ على ٣ » أي في واحد وثلث فيكون ذلك مساحة حجم تلك الكرة.

فتبين من هذا كله أن نصف القطر هو الذي يمسح في الأحوال الأربعة والنسبة باقية وهي ثلاث وسبع، وإنّما اختلف الأمر في التربيع والتكعيب، فنرى نصف القطر يمسح بلا تربيع في مساحة ذلك الخط المنحني، ويربع في مساحة الدائرة وسطح الكرة، ويكعب في مساحة حجم الكرة.

تباركت يا الله هذا هو صراطك المستقيم، أنت خلقت المادة، وما هي المادة؟ ما هي إلا حركات في شيء يا ربنا سميناه « الأثير »، وما الأثير الذي تخيلناه إلا أمر نشبهه بخيالنا. وهذه الحركات صارت ضوءاً وكهرباء، والكهرباء بقسميها من الموجبة والسالبة تنوعت فصارت عناصر، ويا للعجب هذه العناصر التي زادت على ثمانين مشروحة في سورة « العنكبوت » صلحت لأن تكون مواد غازية كالهواء وكالهيدروجين وكالأكسوجين وغيرها؛ فهذه كلها لا أشكال لها بل هي ذرات متجاورة سميناها غازاً، وهكذا السوائل بجميع أنواعها من ماء زيت وعسل وهكذا، ولا جرم أن أكثر المواد الجامدة الآن يمكن جعلها سائلة وجعلها غازية بأعمال خاصة، إذن المادة الجامدة قابلة لتنوعات لا حصر لها، فأنت يا الله لما خلقت هذه المادة وعلمت أن أشكالها التي لا نهاية لها في نظرنا ليس منها ما هو أقرب إلى منفعتنا من الأشكال المنتظمة، كالخط المذكور والدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة أفضت على عقولنا معرفتها وألهمتنا استعمالها في جميع مرافق الحياة، وجعلت مساحتها كلها من واد واحد فتعجبنا كيف يكون نصف القطر في هذه الأحوال الأربعة كافياً في المساحة، وكيف يشترك الخط والسطح والحجم في مساحة نصف القطر، غاية الأمر أنه يكون لا تربيع فيه في مساحة الخط، ويربع في السطح ويكعب في الحجم. الله أكبر. هذا هو الصراط المستقيم. صراطك الذي أبدعته في المادة. وهذا سر مصون. نعم هو مصون عن أكثر هذا النوع الإنساني، إن المهندس وعالم الميكانيكا أي فن الجيل وعالم الطبيعة كل هؤلاء يعرفون هذه المساحات وغيرها، ولكنهم ينظرون إليها نظر العامة إلى الأواني التي ينتفعون بها، فلا سر فيها ولا حكمة ولكنها أمور طبيعية. فلا يقولون: إن هذه الأشكال مصطفاة مما لا يتناهى من أشكال الطبيعة التي هي غير منظمة واستخلصت منها وأخرجت لنا وعلى منوالها رسمنا وصورنا، ولا يعجب أكثر هذا النوع الإنساني من أن نصف القطر قد كان سبباً في معرفة الخط والسطح والحجم مع أن هذه أمور مختلفة في طبيعتها.

فيا سبحان الله، إن المناسبة بين السطوح والأحجام والخطوط واتحادها في تقديرها بمساحة نصف القطر كالمناسبة بين النبات والحيوان والإنسان. هذه كلها اشتركت في التغذية والتناسل والنمو والحس والحركة، ولكن الحس والحركة في الحيوان أرقى، والغضب يظهر في الحيوان، والعقل يكون أظهر وأكمل في الإنسان، فما هذا الاشتراك والتكامل في هذه المواهب إلا كالاشتراك بين الخط والسطح والحجم في مساحة نصف القطر، ويزداد مضاعفة في السطح، ثم في الحجم، كما ازداد الحس في الحيوان عن الإنسان وازداد الإنسان عقلاً. فعقل الإنسان أرقى من غريزة الحيوان، وغريزة الحيوان أرقى من إحساس النبات ـ المشروح في هذا التفسير سابقاً ـ فإحساس النبات بسيط وإحساس الحيوان كأنه مربع له وعقل الإنسان كأنه مكعب. فصراط الله واحد في الطبيعة الجمادية وفي الطبيعة الحية. فالتربيع في

السطوح نظير الغريزة في الحيوان، والتكعيب في الأحجام نظير العقل في الإنسان. هذا خلق الله وصراطه إذن صراط الله واحد.

الناس خلفاء الله في الأرض

ولما كان الناس خلفاءه في الأرض كان عليهم أن يهتدوا بهديه ويسيروا على منواله في أحكامه. فهاك ما فعله الإنسان وما عاقبه الله به في الحياة الدنيا. انظر ماذا جرى، خلقه في الأرض وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، نظر الله عمل الإنسان فيها، فماذا فعل هذا الإنسان؟ أخذ يستخرج المنافع من الأرض وارتقى في الأسباب، فظهر أقوام في الشرق وفي الغرب، وكان منهم بدو وحضر، وكلما اجتمعت أمة وكان لها دولة عظيمة نسوا المبادئ الأولى وظنوا أن المدار في الحياة على التمتع بلا عمل، وأخذ الملوك والأمراء والعظماء يستكثرون من السلاح والكراع ويستعمرون الأمم، وما نتيجة ذلك إلا أن يخرج خلق جديد لا همّ له إلا الشهوات وحشد المال، وهناك تكون اللذات مقصدهم، فلا يزالون يتنزلون حتى يرسل لهم من يزيل ملكهم، والذي يزيل ملك هؤلاء أقوام آخرون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة. مثال ذلك: دولة الرومان، فقد أهلكتها البطنة والجشع ولم يهلكها إلا أمم بربرية وحشية. ودولة الإسلام: فإنها لما استفحلت وعظمت وأمنت ونامت أرسل الله لها أمة وحشية وهم التتار فأزالوا ملكهم، وهكذا أهل الأندلس أزال الله ملكهم بقوم أقرب إلى الوحشية منهم، وهؤلاء في سكرهم وخمرهم وغزلهم يعمهون.

فبينما ترى هذا الإنسان في بداوته مجداً في عمله قانعاً بقوته معتداً بنفسه شهماً كريماً، إذ هو نفسه قد انقض على أهل الترف والنعيم الذين أصبحوا لا يصلحون للحياة، فاستحوذ على ما عندهم ثم انغمس هو في النعيم.

وقد أعد الله له قوماً آخرين متوحشين فانقضوا عليه فسلبوه ملكه. إن الأمم العربية كانت في بداوتها همجية، فلما أسلمت استحوذت على ملك الرومان والفرس الذين انغمسوا في الشهوات، ولما صار هؤلاء منغمسين فيها كسابقيهم سلط الله عليهم من هم متوحشون. إذن الأمم البربرية في أوروبا أزالوا دولة الرومان، وعرب الحجاز واليمن تمموا ما فعله برابرة أوروبا فأزالوا دولة الرومان من الشرق مع دولة الفرس. وهؤلاء العرب لما أصبحوا كالفرس والروم السابقين اجتاحهم التتار المتوحشون في الشرق والإسبانيون في الغرب.

وهاهي ذه أوروبا اليوم أصبحت منغمسة في الترف والنعيم وقد جاء يوم حسابها، وهاهي ذه مستعدة لذلك القانون، وترى أهل الشرق جميعا قاموا يتملصون من عذابها ويخرجون من حكمها دولة دولة، لأن أهل الشرق الأدنى اليوم يريدون أن يأخذوا دورهم.

هذا هو تاريخ هذا الإنسان عامة والمسلمين خاصة، ومنهم دولة بني عثمان في بلاد الترك، فهذه لما أخذت الدول الإسلامية - التي جاءت بعد الأمم العربية تضمحل كالسلجوقية وبعض الدول الفارسية - تنحل بسبب التخمة والترف، دخل هؤلاء في الإسلام وهم على فطرتهم الوحشية في الجبال ووضعوا يدهم على الأمم الإسلامية وأذلوا الأمم العربية وحاربوا العجم، ولم تقم لهذه الأمم قائمة والتعليم اضمحل وبقي الناس قروناً على ذلك، وانتهى الأمر بأن الملوك الذين سموا أنفسهم خلفاء

صاروا مترفين منغمسين في الشهوات، فظلموا أمتهم وظلموا الأمم الإسلامية جمعاء، فانقضت أوروبا على المسلمين في الحرب الكبرى وزالت الخلافة عقبها.

وإني لأعجب كل العجب أن يكون هذا كله مصداق حديث رواه البخاري في باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب من كتاب الجهاد والسير، وفي باب ما يحذر من زهرة الدنيا من كتاب الرقاق وفي كتاب « رياض الصالحين » للإمام النووي وقد عزاه إلى البخاري ومسلم في صحيحهما وهذا نصه:

عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين. فقالوا: أجل يا رسول الله. فقال: أبشروا وأملوا ما يسركم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم.

أقول: فهل يعرف هذا الحديث إلا من درس التاريخ على النحو الذي نسير به في هذا التفسير؟ أوليس هذا الحديث قد جمع كل تاريخ الأمم، ما تاريخ أمم الأرض؟ هو تاريخ واحد، استقلال في البادية، وشظف عيش، ثم ميل إلى الحضارة والترف، ثم ذل وهكذا دواليك، إن هذا هو تاريخ الأمم وهذا الحديث قد جمعه كله، إذن ماذا فعله هذا الإنسان؟ خلقت له المواهب وأعطيت له الأرض وقيل له أنت خليفة لربك في أرضه، فنسي العهد وجهل المقصود من الحياة وجهل اللذات غاية، فكل هذا الإنسان يسعى لأن يكون كالزنابير يأكل عسل النحل، أو كالبراغيث والقمل والبق لا تعيش إلا على أجسام الناس والحيوان. الإنسان نسي عقله فهو لا يسعى إلا إلى أن يكون مصاصاً للدماء. لا فريق بين عباد الوثن وأتباع الأنبياء الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم. وقصارى الأمر وحماداه أن هذا الإنسان يسعى جهلاً أن يكون كالحشرات يعيش من كد غيره، بل الحشرات أفضل من هذه الوجهة لأن البرغوث لا يعيش على جسم البرغوث، بل على جسم نوع آخر كالإنسان، أما الإنسان فحق عليه قول الله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧].

أنا اليوم أكتب في تفسير القرآن فكلامي يكون عاماً للمسلمين وغير المسلمين، لأن القرآن للناس قاطبة لا للمسلمين وحدهم، فلي الحق إذن أن أقول قولاً عاماً منطبقاً على الأمم كلها، فأقول: تبين من هذا كله أيها الناس أنكم لم تقوموا بالخلافة حق القيام، لأن خليفة الله الذي هو قائم بالقسط في خلق الكرات والسطوح والخطوط ومساحاتها المنظمة والذي فعل ذلك النظام نفسه في المخلوقات النامية ونسقه واحد في الجميع لا تغيير لسنته؛ لا يصلح لخلافته من يرجع إلى أخلاق الحشرات في حياته ويكون بعيداً عن الصراط المستقيم. أتدرون ماذا فعل الله بكم؟ سلط عليكم الآفات في الزراعة وفي حياتكم وأحوالكم جميعها، فأمر أنواع البق والبراغيث والقمل أن ترعى أجسامكم والجراد والدود وأنواعاً أخرى سلطت على زرعكم لأني فعلت معكم ما هو أليق بكم وأنتم أهل له، فأنتم تسعون

لأن تأكلوا مال غيركم. هذا هو تاريخكم، إذن أنتم حشرات كالجراد والقمل، فسلطت عليكم هذه المزعجات ظاهرة وباطنة، والباطنة هي أنواع الحيوانات الذرية «الميكروبات» التي تولد فيكم الطاعون والحمى التيفوسية والجدري والقرمزية والدفتريا والحصبة والسعال الديكي والنكاف والكوليرا الخ.

هاأنا ذا سلطت عليكم هذه المهلكات وأمرت الرياح والماء والفيران وغيرها فنشرت ذلك بينكم، أفلا تفقهون من عملي هذا فيكم أني أقول لكم بخطاب مفتوح: إن لم تتحدوا جميعاً يا أهل الأرض على هذه المهلكات المتحدة عليكم فأنتم المقصرون الجاهلون، وإن اتحدتم جميعاً في الشرق والغرب وتركتم ما كمن في فطركم سعدتم سعادة لم يحلم بها الأولون.

ألا ترون أن هذه كلها سلطها الله عليكم لتفعل معكم مثل فعلكم، ولو أنكم رجعتم عن هذه الأعمال لرفعت عنكم الضنك. ألا ترون أن الحياة والثعابين السامة لا أخلقها إلا في المواضع القذرة، فأما الأماكن التي ليست ملوثة بالقاذورت ولا هي برك ولا مستنقعات فإني أجعل حياتها لا سم فيها ولا أذى. فمن أين يأتي السم والأرض صالحة نقية؟ فهكذا أنتم يا بني آدم لو أنكم وجهتم عقولكم لإصلاح النوع الإنساني كله فبدل أن يطرد الإنجليز من يكون أسود اللون من أهل أمريكا من مطاعمهم وأماكن لهوهم ولعبهم احتقاراً لهم؛ ويترك النوع الإنساني المتعلم تعليم المتوحشين من السودانيين وغيرهم؛ يتحدون جميعاً على ترقية أرضهم وجعلها جنة دنيوية، فبدل هذا كله أخذ كل من وجد نفسه قوة منكم يذل غيره، لذلك انتقل الملك من أمة إلى أمة ومن دولة إلى دولة، ولا سعادة لهذا الإنسان إلا أن يكون كل رجل وكل امرأة في الكرة الأرضية عاملاً أي عمل كان، وهنالك تظهر مخبآت هذه العقول ومخبآت هذه الأرض والهواء والماء، فأما ما دام الناس على هذا المنوال فإن الماء والهواء ـ كما تقدم ـ وجميع ما على الأرض تتعاون على إذلالكم، فترون الهواء ينقل الأمراض، ومثله الماء والذباب والبق والفيران والقمل وأنواع الطيور الداجنة. هذه كلها جعلتها عذاباً لكم حتى ترجعوا فتتعاونوا جميعاً على تطهير أرضكم من أدرانها وعقولكم من جهلها وإلا فلا كرامة لكم عندي، وأقول لكم: لما جهلتم كتابي الذي كتبته بيدي ولم تفهموا لماذا خلقت الزلازل والحشرات المهلكات والوباء والطاعون وأنواع الأمراض والآفات العارضة، أنزلت عليكم كتاباً مسموعاً أوحيته إلى رجل منكم، فقلت فيه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، فهاأنا ذا فتحت لكم الباب ووعدتكم بالسعادة العلمية والجسمية في الدنيا إذا رجعتم، فهاأنا ذا استخلفتكم في الأرض لأنظر كيف تعملون، فأحوالكم يا أهل الأرض اليوم وفيما مضى تنطبق على أحوال الحشرات تارة وعلى أحوال الطيور تارة أخرى، ففي حال البداوة يكون لكم بعض الشبه بالطيور تأكل بسعيها، وفي حال التنعم والحضارة تكونون كالوحوش وكالحشرات تعيشون من كسب غيركم وتتركون مواهبكم، وأنا ما خلقت خلقاً عبثاً فأعمالي كلها الحكمة ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان: ٣٨-٣٩]، والحق هنا أن تشغل كل أمة فيما استعدت له وكل فرد فيما خلق له، وتكون الأمم كلها متعاونة تعاون أعضاء الجسم الواحد، وهذا هو العدل الذي رأيتموه في مساحات الخطوط والسطوح والأحجام، هنالك تعيش الأمم والأفراد ولا تقتلهم البطنة والبطر ويكون الناس كلهم أمة واحدة كل لكل مساعد،

وتزول الفوارق الكاذبة التي أزالها الإسلام، فأذن بلال على الكعبة بمحضر من قريش يشير صلى الله عليه وسلم بذلك إلى زمان ارتقاء الأمم بعد زماننا إذ يخجل الأمريكيون والإنجليز من احتقارهم للسود لمجرد لونهم، إذن دين الإسلام جاء لترقية الإنسانية وإزالة الوحشية من نوع الإنسان، هناك تمتد آجال الأمم، إذ التربية عامة ولا كسل ولا ترف ولا تنعم، وإنما هو العلم والعمل، وهنالك يكون لكل امرئ عمله ومن خالف قتل، فلا أمة تكون عالة على أمة بل تشترك جميع الأفراد والأمم بقوانين صارمة حازمة، وهنالك يكون السلام العام ولا أحد إذ ذاك يقبل الصدقة، لأن كل فرد عامل وغني بعمله، وهذا مصداق الحديث الشريف الذي جاء فيه ما ملخصه: إن الصدقة يطاف بها على الناس فلا يقبلها أحد لأن المال يفيض فيضاً، وإذن يكون الناس في عملهم خلفاء الله في الأرض حقاً على صراط مستقيم كصراطه في مساحة السطح والخط والحجم بهيئة منتظمة لا تتغير. وهنا لا تغير لأحوال الناس من همجية إلى حضارة، بل يستمر النظام على وتيرة واحدة نظامية كنظام المقادير المساحية فيما ذكرناه. انتهى صباح يوم الاثنين ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٩م.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

اعلم أيها المطلع على هذا التفسير أن هذا الكلام لي ولك أيضاً، فإنك تجد أناساً نقص علمهم الطبيعي والرياضي فظنوا أنهم عرفوا كل شيء، فينكرون هذا القرآن ويقصون عليك بعض ما عرفوه فإياك أن تركن إليهم واحذر أن يستخفوك، فإن قرآننا طلب منا كل العلوم، ومتى تحققت العلوم إجمالاً وأحكمتها فأنت حكيم، وهناك لا يخاف عليك من الاستخفاف. إن المتعلم في هذا الزمان عرضة لهذا الاستخفاف، فإن الذين يتبعون دين الإسلام غالباً جهلاء بهذا الوجود في عصرنا، فمتى أدركوا شيئاً من العلم ظنوا أنهم عرفوا ما جهله الأنبياء، وفاتهم أن القرآن يطلب كل شيء، فأنصح لكل من تعرض له هذه الفكرة أن يقرأ هذا التفسير ويتأمله ويصبر عليه، وحينئذ يستحيل أن يستخفه الذين لا يوقنون. إن هذا التفسير به اليقين لشبان المسلمين الذين يعيشون بعدنا، وهو الذي كنت أسعى له من مبدأ حياتي.

واعلم أن في هذا النوع الإنساني أناساً خلقوا مفكرين وفطروا على عشق الحكمة والعلم فهؤلاء تحدثهم أنفسهم في اليقظة أو في المنام بأن يكونوا نوراً لأمتهم وأنهم منصورون، فهؤلاء يحتاجون للصبر حتى ينالوا ما يناسب عقولهم من النفع العام. واعلم أنه كما أن في الشجر زهراً ينتج ثمراً هكذا في شجرات الأمم أناس خصصوا بالفطرة لنفعها، وهؤلاء تحت نظر الله وفي كنفه، ومساعدتهم حتم لازم قضتها الحكمة الإلهية لأنهم أشبه بالملائكة وبالشمس والقمر. خلقوا لنفع الناس وهم لا محالة نائلون ما أملوا إذا صبروا على ما يمتحنون في هذا العالم، وهذه السورة فيها هذا المعنى لأنه سبحانه وعد نبينا صلى الله عليه وسلم أن الروم ستغلب الفرس ليكون ذلك من دلائل النبوة، وهو وعد من الله كما يعدك ويعد المستعدين لنفع الأمم، فقال في آخر السورة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] سواء أكان لك أو لغيرك ممن فطروا على نفع الأمم العام. وإذا كان وعد الله حقاً فالصبر لا بد منه حتى يأتي حينه فاحذر أن يستخفك الذين لا يقين عندهم. ولما كان اليقين لا يتم إلا بالحكمة وهي تمام العلم أتبعه بسورة تسمى باسم حكيم وهو لقمان عليه السلام، وفي كلمة لقمان ﴿الٓمٓ﴾، وفي كلمة

«الحكمة» كذلك، فالأولى غير مرتبة والثانية مرتبة، فلذلك ولغيره مما يأتي ابتدأها بحروف ﴿الٓمٓ﴾.

انتهى تفسير سورة الروم في ٨ فبراير سنة ١٩٢٥، والحمد لله رب العالمين.

استدراك

قلنا فيما تقدم في صحيفة ٥٦ من هذا المجلد: إن اللغات على قسمين: قسم لفظي وهو ما كان نهايته السطر السابع عشر من صحيفة ٥٩، وقد فاتنا أن نضع القسم الخطي منها، فرأينا أن نضعه في آخر تفسير السورة إتماماً للفائدة، وهاهو ذا هذا الجدول. انظر شكل ٢٠.

لاتينية	يونانية حديثة	يونانية قديمة	كنعانية	هيروغليفية كانت تستعمل لكتابة الأحجار	هيروغليفية كانت تستعمل لكتابة الورق	حجازية كوفية قديمة	حجازية كوفية قديمة	عربية حالية
A	A	A	[illegible]	[illegible]	[illegible]			[illegible]
		.			[illegible]	6	[illegible]	ا
B	B	B	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	ب
C	Γ	Γ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ج
D	Δ	Δ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	د
E	E	E	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ه
F	F	F	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	و
Z	I	I Z	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ز
H	H	B	θ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ح
	Θ	⊕	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ط
I	I	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ى
K	K	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ك
L	Λ	Λ	L	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ل
M	M	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	م
N	N	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ن
	Ξ	⊞	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		س
O	O	O	O	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ع
P	Π	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ف
		[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ص
Q	Ϙ	Ϙ	Ϙ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ق
R	P	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ر
S	Σ	[illegible]	W	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ش
T	T	T	+	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ت

(شكل ٢٠)

جدول رسم الأحرف العربية والبربائية والإفرنجية القديم منها والحادث

مأخوذ من أحد النشرات العلمية لبروكش باشا

تنبيه: الصواب أن خانة (١) هي لكتابة الأحجار، وخانة (٢) هي لكتابة الورق لا كما ذكر أعلاه.

تفسير سورة لقمان
هي مكية

إلا من قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ فمدنية

آياتها أربع وثلاثون ـ نزلت بعد الصافات
وهي أربعة أقسام

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في معنى ﴿الم (١)﴾.

القسم الثالث: في المقدمة وحكم لقمان عليه الصلاة والسلام، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾.

القسم الرابع: من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

اعلم أيها الذكي أني رأيت في هذا التفسير عجباً. هذه البسملة قد فسرت في سورة « الفاتحة » وفي سورة « هود » من الربع الثاني من أرباع القرآن جاء في تفسيرها الأحاديث الدالة على الرحمة للحيوان، وهناك قد فصل الكلام تفصيلاً في تلك الرحمة وما يجب على المسلمين من حفظ الحيوان ورحمته والرأفة به، وجاء في سورة « الروم » السابقة أمر آخر وهو أن آلام الحيوان من المرض والجوع والكسر وغيرها لم تجعل إلا لرحمتها، وذلك تبيان أن تلك الآلام جند من جنود الرحمات الواسعة التي اتصف الله بها. وفي هذه السورة ستسمع في تفسير البسملة معاني أخرى، ولماذا هذا؟ لأن الله عز وجل يريد أن يجعل المعاني متفرقة على أوائل سور كثيرة لئلا يمل المسلم من قراءة كلام طويل في سورة واحدة لتفسير آية واحدة. وبهذا يعرف بعض السر في تكرار هذه الآية في أول كل سورة، فلأجعل تفسير البسملة هنا مقسماً إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في ذكر أسماء الله الحسنى التي منها اصطفى الله ثلاثة أسماء في آية البسملة.

القسم الثاني: في أن معاني أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى ذاته تعالى وصفاته، وآيات القرآن مفصلات لتلك المعاني التي تضمنتها الأسماء.

القسم الثالث: في معنى ﴿ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ وهي الأسماء التي في البسملة.

القسم الأول

في ذكر أسماء الله الحسنى التي اصطفى الله ثلاثة أسماء منها في البسملة

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن لله تسعة وتسعين اسماً؛ مائة إلا واحداً؛ إنه وتر يحب الوتر، من أحصاها دخل الجنة، هو: الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي الوارث، الرشيد، الصبور ». انتهى القسم الأول.

القسم الثاني والثالث

في أن معاني أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى صفاته تعالى وفي معنى الله الرحمن الرحيم

ولأقدم مقدمة فأقول: لقد تقدم في سورة « الروم » عند قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[الروم: ٢٢] أن اللغات كلها ترجع إلى ثلاثة أقسام: سامية وطورانية وآرية.

ومن الأخيرة اشتقت أكثر اللغات الأوروبية والإيرانية، ومن الطورانية اشتقت لغات الترك والقازان ونحوهما. ومن اللغة السامية كانت الحبشية والعربية وغيرهما.

وبناء عليه تكون اللغة العربية التي نزل بها القرآن وجاءت فيها هذه الأسماء الإلهية من اللغات التي وضعها الناس لما يحتاجون إليه.

إذن اللغات موضوعة وضعاً أولياً لنوع الإنسان، وغاية الأمر أنهم لما فكروا بعقولهم ونظروا بهممهم وجدوا أن هذه العوالم صائرة إلى الزوال، بل هي اليوم مذبذبة متغيرة حكموا بأن لها صانعاً، وساعدهم على ذلك أنبياؤهم ومنهم نبينا صلى الله عليه وسلم وقال لنا: إن هذه أسماء الله تعالى، فلما نظرنا إليها وجدنا هذه المعاني التي تطلق علينا لا يجوز أن تطلق على الله تعالى لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع العليم، فهو سميع عليم ولكن ليس علمه وسمعه كعلمنا وسمعنا، لأن علمنا مبدوء بحواسنا وسمعنا أصله بآذاننا وبالأعضاء المفصلة في داخلها وهكذا لا نسمع إلا إلى أمد محدود ولا جرم أن الأعضاء المذكورة وحصر المسموع كلاهما مستحيل على الله، فهو ليس جسماً، كما أن سمعه ليس بمحدود لأنه ليس كمثله شيء، وهكذا وجدنا أن الرحمة عندنا عبارة عن رقة في القلب تقتضي التفضل والإحسان، ولا جرم أن هذه الرأفة نقص، إن الحيوان ناقص ومنه الإنسان، ولهذا النقص وضع في جبلته الألم لما يراه من ضعف طفله أو جروه أو فلوه فلا دافع لذلك الألم عن نفسه

إلا بأن يهيمن على طفله وجروه فلوه وفصيله ويرضعه اللبن ويشمله بكل رعاية . إذن مبدأ الرحمة عندنا ضعف فينا ، وهذا الضعف بسببه أنعمنا على ذريتنا فبقيت إلى ما شاء الله بسبب ذلك الإنعام . بل بسبب هذا الضعف الذي نسميه رقة في قلوبنا قاتلنا الأعداء فأخرجناهم من بلادنا مرحمة بالضعفاء فيها وقدمنا أنفسنا للهلاك وأسلمناها للمنون .

وبسببه أيضاً قدمنا أموالنا للضعفاء والمساكين إذا رأيناهم في حالة يرثى لها فلا سبيل لدفع هذا العذاب عن نفوسنا إلا بأن ننعم على هؤلاء المساكين فنحس بفرح وفوز ونصر وانشراح صدر . إذن أكثر رحمات هذا الإنسان والحيوان راجعة لقصور الفطرة الحيوانية عن الرحمة الحقيقية ، لأن كمال الرحمة عقلاً أن تعطى بلا فائدة لك ، وهاهنا الفائدة عائدة عليك ، وهذه الفائدة إما أن تكون فطرية كما تقدم ، وإما أن تكون شرعية جاءت بها الشرائع الإلهية وهي ثواب الآخرة ، فإذا أغدقت النعم على الناس وقصدت ثواب الآخرة وأن الله يعطيك في الآخرة بدل ما أعطيته للفقير في الدنيا ، فهذه وإن كانت شرعية جاءت بها جميع الشرائع وأعظمها الإسلام ، فهي لا تزال ناقصة بالنسبة للرحمة التامة التي لا جزاء فيها ولا شكوراً ، وهذه قد قصد فيها الجزاء وربما يتبعه الشكر في الدنيا من الناس . إذن الرحمة الفطرية المغروسة في هذا الإنسان وفي الحيوان ناقصة لا يتصف بها الله . إذن الرحمة بالنسبة لله تعالى ترجع إلى إفاضة الإحسان وإسباغ النعم على جميع الخلق براً وفاجراً . إذن هذا مجاز لأن حقيقة الرحمة راجعة لما فطرت عليه نفوسنا ، وهي مفطورة على النقص والله هو المتصف بالكمال . إذن الرحمة بالنسبة لله راجعة إلى الإنعام وإفاضة الخير مطلقاً .

فيا سبحان الله . إنك يا الله قد أريتنا هذه المعاني في مخلوقاتك . إنك يا ربنا لما اتصفت برحمة لم ندركها من نفوسنا أردت أن تظهر لنا آثار هذه الصفة في المخلوقات وفصلتها لنا تفصيلاً . إنك قد أودعت الرقة في قلوب الأمهات من الإنسان والحيوان من ذوات الأربع والطيور ، وقلت لها : أيتها الحيوانات إياك أن تفرطي في ذريتك أو في بيضك . فإياك ثم إياك وإلا أنزلت عليك عذاباً أليماً يستقر في باطنك ، وضربتك بمقامع من حديد تجدينها في باطنك ، أيتها المخلوقات إن رحمتي سبقت غضبي ، فعليك أن تعطفي على ذريتك ، وإلا أنزلت عليك غضبي بالحزن والألم في أنفسك ، وأخذت تندبين حظك وتبكين على ما فرطت في تلك الذرية .

إن هذه الرحمة لم أختص بها آكلة الحشائش من الحيوانات ، كلا ألم تروا أن الصقور والشواهين والأسود والنمور ، تلك الحيوانات التي انتزعت من قلوبها الرحمة على الحيوانات المأكولة وألهمتها أكلها ، وما نزعت الرحمة من قلوبها في ذلك الأكل عبثاً وباطلاً ، لأنها لو رحمتها فلم تأكلها لضاعت مزيتان : المزية الأولى : أن الحيوانات الكاسرة تموت عن آخرها . المزية الثانية : أن الحيوانات التي تأكل الحشائش كالغزلان والبقر الوحشي وغيرها لو لم تأكل بعضها السباع لملأت السهل والجبل وعند ذلك لا تكفيها حشائش الأرض ونباتها وأشجارها ، فمن حكمتي أن خلقت تلك الحيوانات الجريئة التي لا تعيش إلا بلحمان هذه الحيوانات لتكون رحمة لأنفسها بالبقاء وللمأكولات بحفظ لموازنة لبقاء ذرياتها متهنئة بسعادتها في الفلوات ، ولو أن الأرض كلها صلحت للزراعة ولم تقم فيها موانع ، وكفى الماء لريها لأبدعت للحياة أسلوباً غير هذا الأسلوب . كلها قد فطرت على رحمة ذرياتها كما فطرت عليها

آكلات الحشائش، ففي هذه الحيوانات المفترسة اجتمع الضدان: رحمة وغضب، ولكن الرحمة سبقت غضبي، فالأم تعطف على أولادها، وبهذا العطف تحضر لهن الغزالة والغزال بقوتها الغضبية، ولكن هذا الغضب ليس بالغضب المطلق لأنه لرحمة اللبؤة مثلاً ورحمة ذريتها ورحمة نوع الغزلان بتقليل عددها لتكفيهم حشائش البرية ولتكون اللحوم المأكولة متخللة أجزاء اللبؤة وأولادها فيمتنع فساد الجو بما يموت من تلك الحيوانات.

وملخص ما تقدم أن الرحمة في الحيوان رقة والرقة ألم، والإنعام على الذرية وعلى المساكين ونحوهم دافع لهذا الألم، فهي رحمة ناقصة، والرحمة الكاملة تخلو من ذلك كله، وهذه ليست في الأرض، وإحسان أكثر المسلمين وغير المسلمين رحمة ولكنها لمقابل في الآخرة، وهذا أيضاً نقص ولكنه كمال بوجه ما في نوع الإنسان، والرحمة في قلوب الحيوانات الكاسرة والمفترسة لأولادها كرحمة الحيوانات المأكولة لأولادها سواء بسواء، والحيوانات الآكلة تجتمع في قلوبها الرحمة على ذريتها والغضب على الحيوانات المأكولة، والرحمة سبقت الغضب في الجميع. إذن الرحمة في الأرض واحدة وتنوعت أنواعاً شتى، ففي المرأة والناقة والغزالة وفي الحمامة والدجاجة وأنثى الصقور حمل وإرضاع وغيرها، ومحافظة على البيض وعلى الفرخ عند خروجه من البيضة، وترى الديك لا يبالي بالبيض ولا بالفرخ الخارج منها، وذلك لأنه مشغول بالقوة الشهوية، أما الرحمة فلا لأنها لا حاجة إليها إذ الفرخ قوي عليه ريشه، ولكنا نرى ذكر الحمام يساعد أنثاه، لماذا؟ لأنه رأى فرخه خرج ضعيفاً لا يقدر على إحضار قوته فركز في نفسه مساعدة أنثاه فساعدها، إذن الرحمة في الأرض قد وضعت بقدر ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٢٨].

إن هذه المسألة وحدها تكفي العاقل المفكر أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الحياة كلها سعادة لأنها مبنية على الحكمة، وإذا أصابنا شر أو خير فهو بحكمة، وإلا فلماذا نرى هذا النظام المتقن، رحمة نزعت من قلب الديك لماذا؟ لأنها لا حاجة لها وإذا وجدت كانت حملاً ثقيلاً لا فائدة منها، فهذه وحدها كافية لسعادة القلوب في هذه الأرض. إن العلم اليوم صار شارحاً لمعاني أسماء الله الحسنى لأنها معبرات عن صفاته تعالى، كالوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام.

هذا معنى كون الرحمة واحدة وقد تنوعت، ثم انظر إلى ما بعد هذا من أنواع الرحمات المذكورات في هذا التفسير؛ انظر إلى السمك المرسوم المشروح في سورة « طه » فإنك ترى أن السمك لا يساعد ذكره أنثاه كلا. ولا تعطف الأم على ولدها. كلا. إذن رقة القلب هناك على الذرية وألم الآباء لآلام الأبناء معدومة لماذا. لأن الله تكفل بالأجنة، فماذا فعل؟ قال لأنثى السمك: أيتها الأنثى اذهبي إلى قرب الشاطئ وضعي بيضك بقدر، وأنت أيها الذكر اذهب إلى ذلك البيض وضع عليه مادتك الشهوية، وعيشا أيها الذكر والأنثى في البحر فلا مغازلة ولا خطبة ولا زواج ولا نفقة ولا عدة ولا حيض ولا نفاس ولا أتعاب ولا قضاة ولا محتاجين ولا تعب ولا نصب ولا سوء معاشرة ولا خيانة بالزنا ولا سفاح ولا ذل مما أوجعت به قلوب بني آدم وأحرقت قلوبهم لحكمة علمتها وعبرة أنزلتها، ثم أنت أيها الجنين في البيض. أنت الذي جمعت فيك سر الذكر وسر الأنثى قم بسلام ومعك كيس مملوء من الأغذية فكل منه حتى تكبر، ثم بعد ذلك استقل استقلالاً تاماً وكل من أعشاب البحار

وأنا البر الرحيم بك ، فإن أكلك غيرك فأنت بنعمتي تربيت وإن أكلت غيرك فهي نعمتي عليك وعلى كل حيوان في البر والبحر.

فهذه الرحمة التي تراها في صور السمك المذكورة في سورة « طه » قد خلت من المؤلمات التي أودعت في الحيوانات العليا ، لأن الأعلى يكلف بما لا يكلف به الأدنى ، كما أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بما لم يؤمر به من دونهم .

وهناك رحمات أخرى في الجراد وفراش القز ودوده ، إن الجرادة تعيش في الأرض ويقال لها : أيتها الجرادة كلي واشربي هنيئاً ولا تدخري كما يدخر النمل والنحل ، لأنك لا تعيشين إلى العام القادم ، أما ذريتك فأنا المتكفل بها ، فضعي بيضك حيث شئت في أماكن أعددتها لك ، فإذا جاء أجلك فأنا المتكفل بها أحفظها حتى ترزأ بني آدم في زرعهم وهم يجتمعون ويحاربونك ، ولكن هيهات فأنت لا تزالين في الوجود مهما فعل الإنسان ، فهذه الحشرات وأمثالها كالبق والبرغوث والذباب وأمثالها لا تحفظ أولادها ولا رقة لها عليها ولا ألم .

فالله عز وجل أرانا الرحمة في قلوبنا وفي قلوب الحيوان ، وعلم قصورنا حين وضعت اللغات وعلم أننا يوماً ستتكلم في رحمته تعالى ، قال : هاؤم اقرؤوا رحمتي في سطور الكائنات ، ألم تروا أنها ألم في قلوب الحيوانات العليا؟ ولكن أمثال السمك والجراد والبق قد وجدت الرحمة على أولادها ولكن من عالم آخر غير عالمكم ، وتدبير محكم غير تدبيركم ، فإذا كنتم علمتم علم اليقين أن الإعطاء قد ظهر في الأرض بلا ألم يصحبه فاعلموا أن ذلك يفهمكم رحمتي ، فرحمتي أسبغتها على العالم وليست كرحمتكم . إذن ظهر سر قول علمائنا رحمهم الله : « إن الرحمة تطلق على الله مجازاً بحسب وضع اللغة فهي لله بحسب نتائجها لا مبادئها » . إذن وضع اللغات السامية والطورانية والآرية وما تفرع منها لم يكن إلا لأحوال هذا الإنسان لا لموجود فوق مداركه ، والله لما أراد أن يعرفنا ذلك وأن أسماءه تعالى لها معان باعتبار الغايات لا باعتبار ما وضعت له اللغة أرانا ذلك في تنويع المخلوقات أمامنا ، وقال لنا : هذه رحمتي شملت بها أمثال الناموس الذي ترونه في مائكم الآسن الذي تحقرونه وأنا الذي شملت البيض الذي يضعه ذلك الناموس برحمتي ، ولا ألم يصحب تلك الرحمة كالألم الذي تحسونه ليحثكم على الإنعام على الذرية وعلى الضعفاء . إذن أقول : إن المعاني التي عرفها العلماء في عقولهم أظهرها الله اليوم في هذا التفسير ، والحق يقال : إن معاني أسماء الله تعالى المعبرة عن صفاته الوجودية التي اتصفت بها ذاته العلية قد أصبحت تظهر آثارها في العلوم المنشورة اليوم في الأرض ، فانظر ببصرك أولاً ثم ببصيرتك ثانياً أيها الذكي ، واقرأ أسماء الله في الشجر والحجر والبر والبحر والسمك والجراد والنمر والغزال ، انظر بعقلك فسترى ببصيرتك أن الشجر والحجر والشمس والقمر كلها سطور مكتوبات مجسمات بمعاني الأسماء الحسنى ، والأسماء الحسنى معبرات عن القدرة والإرادة والعلم والحياة الخ .

الرحمة لا حد لها ولا حجر عليها

لقد عرفت أيها الذكي كيف كانت الرحمة لا ملازمة بين إنعامها وبين الألم المسبب لها ، وقرأت ذلك مجسماً في الجراد وفي السمك المذكورين في الحديث : « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك

والجراد والكبد والطحال »، وهاتان الميتتان قد جاءت فيهما الرحمة بلا ألم، ولقد أحلا لنا ليكون من آثارهما ما جاء في هذا المقام إذ يتذكر المسلم نعمة العلم التي جاءت مصاحبة لحل الأكل، ولا جرم أن الكبد والطحال لهما سر عظيم في الدورة الدموية التي بها الحياة، والحياة تلازمها الرحمة ورقة القلب، فكأنه جمع في هذا الحديث الحيوانات التي فيها بعض الرحمة بلا ألم. والحيوانات التي رحمتها ملازمة للألم ليكون الحديث مذكراً بكل ما كتبناه هنا، وإذن هذا الحديث الذي لم يخطر لي في هذا المقام إلا الآن فيه سر هذا الموضوع كله. إذن هذه المعاني كلها أدمجت فيه، فإذا كانت الرحمة في الحيوانات العليا ملازمة لرقة القلب، فالرحمة في الحيوانات الدنيا تأتي من الله مباشرة ويلقيها إلى ملائكته ولا يجعلها مصحوبة بألم. إذن لا حجر في الرحمة وطرقها مختلفات، وهذا اتضح في هذا المقام وضوح الشمس في رابعة النهار، وهذا كله في الحيوان العام، فانظر إلى الرحمة التي أجريت على يد الإنسان.

الإنسان سخرت له الأنعام فركبها وأكل لحوم بعضها، وقال حين ركبها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[الزخرف: ١٣]، وسخرت له الأرض فهو يزرعها ويستثمر زرعها من نبات وشجر. هذا هو الإنسان، ولكن الله يقول له اليوم: أنا وإن سخرت لك الإبل والبقر والغنم لتركبها ولتكون زينة لك فليس هذا آخر رحماتي، لأن هذه الرحمة مصحوبة بألم. الحيوان سخرته لك وهو رضي بالتسخير لأنه ضعيف الإدراك يخاف منك ويرجو برك له، وأنت ذو عقل أيها العبد فلتخرج من هذا الحبس؛ وإذا كنت أنا قد نوعت في الرحمة فلم أقصرها على نوع واحد في الحيوان، فهكذا أنا سأريكم أيها الناس شئتم أم أبيتم أن سفركم لا يتوقف على الدواب بل هكذا قضيت بإظهار آثار النار والكهرباء، وحملتكم بهما في البر والبحر، وأن الزرع الذي تزرعونه ليس قاصراً على ما تصنعونه اليوم كما ظهر في الطبيعة. كلا. ثم كلا. أنتم تسخرون الحيوان لزرعكم كما تسخرونه لسفركم. أنا سخرت الرحمة في نحو الجراد وفي نحو الغزال، فجعلتها في الأول بلا ألم يصحبها، وفي الثاني بألم يصحبها، هكذا أنوع في الزرع فلا أجعله على وتيرة واحدة. فهذه المزارع التي اعتادها آباؤكم لها موازين محدودة، وهذا الموازين والأصول متى عرفتموها ووضعتموها في الماء في أي أرض كانت ظهر لكم زرع خير من الزرع الطبيعي.

أيها الناس. هذا خلق الله. أنا الذي خلقت الإنسان، وأنا الذي خلقت النبات، وأنا الذي ألهمت علماء بقسم «الفسيولوجيا النباتية» بجامعة كلفورنيا بأمريكا أن يتوصلوا بالتجارب إلى أن ينتجوا خضراوات وحبوباً وزهوراً وفواكه بأقراص كيميائية مركبات من هذه الأجزاء السبع، وهي: النيتروجين والفوسفور والمغنيسيا والحديد والبوتاسا والكبريت والكلس والجير. وتلك الأقراص توضع في الماء في أحواض خشبية توضع في أي نقطة من الأرض في الرمل في الجبل فوق سقوف المنازل في أي مكان كان، وهذه الأقراص المركبات الموضوعات في ذلك الماء تغذي النبات فيخرج كاملاً صحياً نافعاً للإنسان ليست تلحقه الآفات التي تلحق زرعكم الآن، وبه يمكن زرع الأرض كلها ويكون المحصول أضعاف ما عندكم الآن.

أيها الناس. إن هذا العمل عظيم به تزرعون الصحراء، حتى إن مصر التي يبلغ ما زرع من الأرض فيها جزء من ثلاثين فقط، تصبح بهذا العمل جنة أكبر مما هي عليه الآن ٣٠ مرة، والثمرات

أضعاف أضعاف ذلك كله، وبهذا تزرعون الأزهار والفواكه في غير أوانها والقمح والشعير يزيد محصولهما ٥٠ في المائة تقريباً، وبهذا تزرعون الورد في المنازل في فصل الشتاء.

أنا ألهمت هؤلاء العلماء في أمريكا فجربوا خمسة آلاف تجربة في خمسة أعوام، وهذا الكشف وصفه الدكتور « جاريك » رئيس قسم تشريح النبات في جامعة كلفورنيا بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لفن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد المزروعات حتى الآن، ويقول الدكتور « جاريك » المذكور: إن الحياض التي فيها الماء إذا وضع فوقها أغطية وفيها ثقوب يخرج منها النبات وتتصل جذورها بالماء في داخلها، وتلك الجذور تتغذى بالأقراص المذكورة، وتلك الأقراص مقدرة في كل نبات بحسابه لأن أغذية النبات مختلفة مقاديرها باختلاف أنواعه كما تقدم في سورة « البقرة »، فإن محصول سنتين اثنتين يأتي بنفقة تلك الحيضان وهي تعيش ٥٠ عاماً، وبهذا يمكن زراعة جميع الأراضي القفرة في العالم كله. ثم قال: والعمل الذي يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لا يبلغ عشر معشار ما تتطلبه خدمة الأرض.

هذا ملخص المقال المنشور في العالم وفي مصر يوم الخميس ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩م بجريدة الأهرام ولعلك ستراه بتمامه عند قوله تعالى في سورة « سبأ »: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ [الآية: ٣١] الخ، إذ تذكر هذه المقالة هناك ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن التقليد ووقوف العقل في أمور الحياة الدنيا جهل محض، وأننا خلقت فينا العقول لنسير إلى الأمام ولا نقف عند حد ما عرفناه، ولما وقفت عقولنا خلق الله في العالم قوماً آخرين، وقال لهم: فكروا، وذلك إجابة لأمره تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذ يقول له: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [الآية: ١١٤]. اقرأ تفسير هذه الآية في سورة « طه ».

المسلمون أولى بهذه العلوم من جميع الأمم

اعلم أن هذه العلوم ورقي الصناعة والزراعة وكشف مخبآت الطبيعة هي الخاصية التي سيختص بها المسلمون بعد ظهور أمثال هذا التفسير، ألم تر أن المسلم قد أمر أن يتخلق بما يمكنه من صفات الجلال ليقرب من الحق قرباً بالصفة لا قرباً بالمكان، فيأخذ من الاتصاف بها شبهاً من الملائكة المقربين عند الله تعالى، ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكناً للمستعظم، فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة، وهذه نفسها عبارة الإمام الغزالي، ولا جرم أن الزراعة التي ظهرت في أمريكا والتي هي نعمة عامة تعطي ثمراً وحباً وفاكهة وأباً ونعماً لا تحصى في أرض الله الواسعة ولا نصب فيها ولا تعب إلا أقل من عشر ما ينصب الناس فيه الآن.

أقول: إن هذه الرحمة من رحمة الله الواسعة التي لا حد لها، فهو كما لم يجعل لها حداً في تربية الأمهات لذريتها في ذوات الأربع والطيور والحشرات وجعل من الذرية ما تربى بلا ألم في نفوس الآباء ولا الأمهات هكذا جعل هناك آلات وأدوات بها نسير من مكان إلى مكان ونسافر حول الكرة الأرضية بغير إجهاد الحيوان الذي سخر لنا بنص القرآن، وهكذا جعل هناك زرعاً لا شقاء فيه ولا نصب

ولا تعب ولا خوف من حر ولا برد ولا آفات زراعية ولا حرث ولا تنقية حشيش وهكذا مما ابتلي به الإنسان، وقال: أيها الناس هذه نعمتي التي أنعمت عليكم بها وألقيتها إلى عقولكم فاقبلوها.

هذه إحدى رحمات الله وإذا قبلها المسلم وعمل بها فقد قرب من الملائكة الذين هم في قرب ربهم، وهذا القرب بالصفة لا بالمكان، وعلى ذلك يكون قول المسلم: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إن لم يكن عنده ولوع بأمثال هذا الذي ذكرناه ولم يحث المسلمين عليه يكون سلوكه ناقصاً.

ولما اطلع على ذلك صاحبي العالم الذي يناقشني في أمثال هذا، قال: ما هذا الذي تقوله؟ أيتصف المسلم بصفة الله؟ أليس هذا كفراً؟ وكيف يكون المسلم ناقصاً كما تقول إذا لم يعمل كما تعمل أمريكا؟ هذا أمر عجيب. فقلت: حياك الله. هذه اعتراضات لفظية يتسلى بها غيرك من صغار العلماء وجميع العامة الذين لا يعرفون من ديننا الحنيف إلا الألفاظ، وأنا موقن أنك تقول ذلك لأجل تفهيم غيرك. فقال: نعم. فقلت: اعلم أني لا أكتب مثل هذا إلا وقد أعددت له عدته. قال: وما هي عدته؟ قلت: أقوال العلماء، فإن الأمم الإسلامية اليوم كلها تتبع ما خطه سلفنا رضي الله عنهم، فإذا أسمعناهم ذلك قلنا: قد قطعت جهيزة قول كل خطيب. فقال: فاسمعنيه الآن. فقلت: العلامة الإمام الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» قال ما نصه:

فصل: في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما تتصور في حقه

اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله، فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي بها يدرك الأصوات وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها، وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلا معرفته العربية، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي بل الغبي البدوي، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها، وهذه رتبة يشارك فيها العامي بل الصبي، فإنه بعد فهم الكلام إذا ألقى إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها واعتقدها بقلبه وصمم عليها، وهذه درجات أكثر العلماء فضلاً عن غيرهم، ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من يشاركهم في هذه الدرجات الثلاث، ولكنه نقص ظاهر إلى ذروة الكمال، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين بل حظوظ المقربين من معاني أسماء الله الحسنى ثلاثة:

الأول: معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر، وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلمين تقليداً والتصميم عليه وإن كان مقروناً بأدلة جدلية كلامية.

الحظ الثاني من حظوظهم: استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قرباً بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً من الملائكة المقربين عند الله تعالى، ولن يتصور أن يمتلئ القلب

باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكناً للمستعظم بكماله، فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة، ولا يخلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين: إما لضعف المعرفة واليقين بكون الوصف المعلوم من أوصاف الجلال والكمال، وإما لكون القلب ممتلئاً بشوق آخر مستغرقاً به. فالتلميذ إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث بشوقه إلى التشبه والاقتداء به، إلا إذا كان مملوءاً بالجوع مثلاً، فإن استغراق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعاث شوق العلم، ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خالياً بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى، فإن المعرفة بذر الشوق، ولكن مهما صادف قلباً خالياً عن مسكة الشهوات فإن لم يكن خالياً لم يكن البذر منجحاً.

الحظ الثالث: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربانياً أي قريباً من الرب تعالى، فإنه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة فإنهم على بساط القرب، فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى.

ثم أورد هنا شبهة ترد على خواطر الناس في كل عصر، وهذه الشبهة قد خطرت لبعض قراء هذا التفسير، وكتب في بعض المجلات العلمية معترضاً ما قلته في سورة «الفاتحة»، وأجبته إذ ذاك بنحو ما ستسمعه الآن، أفلا تعجب من صنع الله أن أرى نفس ذلك الإشكال ذكره الإمام الغزالي وأبدع في الإجابة وبه استبان أن أكثر شبهات الناس لفظية سببها الجهل المطبق بحقائق العلوم والاكتفاء بالألفاظ والنوم على وساد الراحة الوثير. فانظر ما يقوله الإمام الغزالي وهذا نصه: فإن قلت طلب القرب من الله تعالى بالصفات أمر غامض تكاد تشمئز القلوب عن قبوله والتصديق به فزده شرحاً تكسر به سورة إنكار المنكرين فإن هذا كالمنكر عند الأكثرين إن لم تكشف حقيقته.

هذا هو السؤال وهاهنا أجاب بما يطول شرحه، ولكن سأذكر فحواه وملخصه بعبارات تناسب ما نذكره في هذا التفسير بحيث يألفها ويفرح بها قراؤه فأقول:

اعلم أيدك الله أن الموجودات لا كامل فيها كمالاً مطلقاً إلا الله، فأما ما سواه فهي إما ميتة وإما حية، والأحياء ثلاثة أقسام: قسم أعلى وهم الملائكة، وقسم أوسط وهو الإنسان، وقسم أدنى وهو الحيوان. وبيانه أن الحي هو الدراك الفعال، فالإحساس والحركة هما اللذان بهما يمتاز الأحياء. ولا جرم أن إدراك الحيوان محدود ناقص.

ألا ترى رعاك الله أن الذوق واللمس لا عمل لهما إلا فيما مسهما واختلط بهما؟ وأن الشم والسمع والبصر لا تدرك إلا ما قرب منها وهذا نقص؟ فالكمال أن يدرك المدرك ما لا حد لبعده ويكون القرب والبعد سواء في إدراكه.

هذا من جهة إدراك الحيوان، أما فعله فلا يتجاوز الشهوة والغضب، فالحيوان آكل الحشائش والنبات لا حركة له إلا في طلب قوته وحفظ ولده، وكل ذلك من فعل الشهوة وما يتبعها، والأسد والنمر بالقوة الغضبية يقتنصان فريستهما وبالقوى الشهوية يزدردانها. إذن عمل الحيوان لا يتجاوز هاتين الخصلتين.

أما الإنسان فلما كان أرضياً بجسمه سماوياً بروحه صار مركباً من بهيمة وملك، فهو في أول أمره بهيمة وفي حال رقيه يرتقي عن مرتبة البهائم بالإدراك، فلا يقف عند الحس والخيال بل يدرك المعقولات، والمعقولات لا نهاية لها، وما لا يقدر الإنسان على إدراكه منها لا حد له، وما يقدر على إدراكه منها أيضاً لا حد له، وإن كان ما يدخل في الوجود متناهياً، وبهذه الصفة يقرب من الملائكة وأعماله إذن لا يقصد بها إلا القرب من الله فهذا قرب من الملك بوجه آخر.

أما الملك فإدراكه لا يقتصر على ما لامسه أو قرب منه، بل القرب والبعد لا تأثير لهما إلا على الأجسام، والأجسام أخس الموجودات، وعمل الملك لا يكون إلا تقرباً لله فلا شهوة هناك ولا غضب كما قدمنا. ارتقاء الإنسان في المعقولات وعمله للمصالح العامة تقرباً إلى الله كلاهما يقربانه من الملك والملك قريب من الله، وهذا القول يثير شبهة وهي أن العبد يشبه الله والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. وهنا أخذ يدحض هذه الشبهة فلأسمعك فحوى عبارته ومقصودها إذ أصوغها لك بالقالب المعروف في هذا التفسير.

اعلم أيدك الله أن علم البلاغة ثلاثة وهي: المعاني والبيان والبديع، فلأخص الآن كلامي بعلم البيان وهو محصور في التشبيه والمجاز والكناية، والتشبيه باب واسع لا آخر له وجميع اللغات تستعمله لتقريب المعاني، والمجاز إما مرسل وإما استعارة مصرحة وإما استعارة مكنية، وهاتان الاستعارتان مبنيتان على التشبيه، إذن علم البيان أكثره يرجع للتشبيه.

فإذا قلت: الخد ورد والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

أو قلت: رأيت في الدار بدراً.

أو قلت: الذي يحمي البلاد له لبد أظفاره لم تقلم

فإنك في هذا كله لم تخرج عن التشبيه في المثال الأول، لأن الإنسان مشبه بالبدر في المثال الثاني الذي هو استعارة مصرحة، ومشبه بالأسد تشبيهاً مطوياً في المثال الثالث وهو استعارة مكنية. إذن التشبيه أصل عظيم في علم البيان وفي كلام العرب والعجم وهذا أمر مستفيض بين العامة والخاصة، ولكن الحجاب إذا أسدل على العقول حجبها عن الأمور البديهية، فانظر رعاك الله إلى قول النابغة يمدح النعمان لما وشي له به قال:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله أيضاً:

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فهل كان النابغة يعني بذلك أن النعمان شمس مضيئة في الثاني وليل مظلم في الأول؟ كلا. فالبداهة تقضي خلاف ذلك. وهل الخد هو كالورد في أخص أوصافه؟ كلا. ثم كلا. وإنّما الخد أشبه الورد في صفة زائدة على الذات لا أنها هي الحقيقة. نعم إذا قال قائل لأهل أوروبا اليوم: أيها القوم كيف تظلمون الزنوج؟ إن الزنوج آدميون مثلكم، فالمثلية هنا رجعت إلى الحقيقة، والحقيقة هنا هي الحيوانية والناطقية، أما كون النعمان كالشمس أو كالليل أو كون الخد كالورد فليس التشبيه هنا راجعاً لحقيقة الذات بل لصفات خارجة عنها.

إذن التشبيه قسمان: قسم يكون المدار فيه على الحقيقة الذاتية وهو قليل جداً، وقسم يكون وجه الشبه فيه راجعاً لأمور عارضة على الذات وهو الأعم الأكثر.

إذن فلنرجع إلى المقصود فنقول: إن الله عز وجل مجهولة ذاته لجميع الناس، فمحال أن يدركوها وهكذا صفاته. فالذات والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام كلها لا يعرفها الناس وإنّما عرفوها بالقياس على أنفسهم. إن الله عرف بمخلوقاته، وفي المخلوقات آثار عرف الناس بها أنه قادر وعالم، ولا ريب أن القدرة والعلم لا يعرفهما الناس إلا بالقياس على ما في أنفسهم، ولم يعرفوا ذاته تعالى ولا صفاته على وجه الحقيقة. إن من يعرف الحقيقة يتصف بنظيرها وذواتنا وصفاتنا ليست كذات الله وصفاته، فالصبي إذا أردنا أن نصف له لذة الجماع وجب أن نقول له: اصبر حتى تكبر وأنت تعرف تلك اللذة على وجه الحقيقة، أو نقول له: إنها كالسكر والحلوى التي تأكلها، والمعرفة الأولى حقيقة والثانية ما هي إلا تشبيه، وفرق بين ضرب الأمثال وبين الحقائق، فإذا قال الإنسان: الله قادر، فهذا اسم مشتق ومتى عرف المشتق منه عرف المشتق، والمشتق منه هي القدرة وقدرة الله لا تعرفها بالحقيقة كما قدمنا، لأنه يستحيل أن نرتقي حتى تكون لنا قدرة مثلها، كما يستحيل أن ترتقي نفوسنا حتى تساوي ذات الله.

إذن لا نعرف ذاته بالحقيقة ولا نعرف صفاته كذلك، فلم يبق إلا التشبيه فنقول: نحن لنا قدرة ولنا إرادة ولنا علم وكلام، فنقيس كلام الله على كلامنا وعلمه وهكذا، كما قلنا للطفل: إن لذة الوقاع كلذة السكر، ولكن هذا الكفل سيرتقي حتى يصل إلى الحقيقة، أما نحن فلا. هذا هو الفرق، على أن النسبة بين الحلوى والسكر وبين لذة الوقاع أقرب جداً من النسبة بين قدرتنا وقدرة الله. وهنا نقول: هل من يقيس لذة الوقاع على لذة السكر للصبي، أو من يشبه الورد بالخد، أو من يقول: إن هذا كالشمس أو هو كالليل؟ أراد هؤلاء كلهم أن وجه الشبه راجع للحقيقة الذاتية. كلا. بل الإنسان يقول: إن السواد كالبياض، في كونه عرضاً ومنظوراً ولوناً، ولا يكون مخطئاً وهما ضدان.

إذن الضد يشابه الضد ولم يخرجا عن كونهما ضدين، ولم ينقص مقدار البياض ولم يتزحزح بسبب هذا التشبيه. هكذا في مقام الألوهية، فالتشبيه الذي من هذا القبيل ليس محظوراً ولو كان محظوراً لكان الناس جميعاً مشبهة، فإنهم موجودون والله موجود ولنا سمع وله سمع ولنا قدرة وله قدرة وهكذا، فقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى: ١١] لا يشمل هذه المشابهة الوصفية التي هي أبعد مما بين لذة السكر ولذة الوقاع، وإنّما النفي منصب على الاتصاف بالحقائق الذاتية كمثال الزنجي مع الأوروبي فيما تقدم.

بِمَ يكون قرب العبد من ربه إذن؟

فإذا أقفل على العبد باب معرفة ذاته تعالى وصفاته لأنه لا مطمع له في الوصول إلى ذلك فليس له إلا أن يعرف آثار الصنعة. وعلى مقدار ما يعرف من الجمال والبهاء والحكمة يكون اقترابه من ربه، وبهذه تتفاوت أقدار الناس في معرفة ربهم عز وجل، فأرفع الناس قدراً وهم الأنبياء والأولياء جميعاً يتفاوتون في المعرفة من هذه الوجهة، وهم درجات لا حصر لها، وتفاوتهم في المعرفة أوسع نطاقاً من تفاوت الأغنياء في الملك، لأن الأجسام محصورة والمعقولات لا حصر لها، وهنا بيت القصيد.

فالنظر في مصنوعات الله عز وجل كالتي في هذا التفسير وغيره تجعل العبد ربانياً مشرق النفس قريباً من ربه قرباً بالصفة لا بالمكان. إن المرأة لا تعرف من زوجها إلا ما وصل لها من المال ومن اللذات المحسوسة. فأما علمه فهي في غفلة عنه وهكذا خادمه. فأما التلميذ فإنه على مقدار ما كسب من علم أستاذه يكون حبه، فإذا كان الأستاذ يعرف عشرين علماً والتلميذ عرف علماً واحداً فمعرفته له جزئية على مقدار ما عرف، وكلما ازداد علماً بأن قرأ علوماً أخرى عليه ازداد به معرفة وبمقدار المعرفة يكون الحب، وهذه المعرفة بالنسبة لله كما قلنا ليس معناها معرفة الحقيقة، بل معرفة آثار الصفات التي تعبر عنها الأسماء المشتقة منها، لا معرفة نفس الصفات الإلهية، كما أن الناس لا يعرفون حقيقة الموت إلا إذا ماتوا، ولا يعرفون حقيقة الجنة ولذائذها وحورها وقصورها إلا إذا ماتوا ودخلوها، لأن أوصاف الجنة ذكرت لنا على مقتضى ما ندرك نحن من اللذات؛ فصورت لنا تلك الصور بالألفاظ على مقدار ما نعرف نحن من لذاتنا في الدنيا، كما وصفت لذة الوقاع للطفل بالسكر، فإذا كانت الجنة التي هي من مخلوقات الله ومن الحوادث لا نعرف وصفها إلا بضرب أمثال بعيدة عن حقائقها التي يقربها حديث «في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، فكيف بمبدع الدنيا والآخرة؟ فهو أرفع من أن يعرف إلا بضرب الأمثال، والحمد لله رب العالمين.

تذكرة: مدح أحد الشعراء خليفة من خلفاء بني العباس فوصفه بأنه في الشجاعة كعمرو، وفي السماحة كحاتم، وفي الحلم كأحنف، وفي الذكاء كإياس، فقال:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

ثم أحس بأن ذلك ربما يكاد ينتقد، فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً عجيباً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

فهذا الشاعر شعر بما يشعر به أكابر الحكماء من انتقاد صغار العلماء والعامة على مجرد الألفاظ بلا تحقيق ولا هدى ولا كتاب منير.

وبالجملة فمعرفة ذات الله وحقائق صفاته مستحيلة، ولا اتساع لمعرفة الله إلا في معرفة أسمائه وصفاته، أي آثارها من عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض، وخلق الأرواح والأجساد، وفي الاطلاع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة، ممعناً في التفصيل، ومستقصياً دقائق الحكمة، ومستوفياً لطائف التدبير، ومتصفاً بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعالى، نائلاً لتلك الصفات نيل اتصاف لها. هذا ولألخص لك المقام بما يأتي:

أولاً: إن رحمة الناس جعلت مثالاً لرحمة الله مع ما بينهما من البون البعيد.

ثانياً: إن العلماء ذكروا أنها في حق الله مجازية لأنها راجعة إلى الغايات وهو الإنعام.

ثالثاً: إن نظام الطبيعة وحسن الصنعة الإلهية في الإبداع قد جاءت بمقتضى أقوال العلماء، إذ جاءت الرحمة في الحشرات ونحوها ولا ألم معها، وهكذا الآلات التي بها الانتقال والسفر لا ألم لحيوان فيها فهي رحمة انتفى معها تسخير الحيوان، وهكذا اخترع علماء أمريكا لنظام الزراعة الجديد ليس فيه ألم للبهائم التي اعتاد أن يسخرها الإنسان.

رابعاً : الكامل التام الكمال ، هو الله والملائكة مبرؤون من حصر الإدراك ومن الأسباب المورثات للنقص في الفعل كالغضب والشهوة ، والإنسان إذا أشبههم فقد قرب من ربه وذلك بالمعقولات والنظر في عجائب الصنعة الإلهية وبكسر الشهوتين .

خامساً : قرب العبد من الله قرب بالصفة لا بالمكان ، وليس معنى هذا أن العبد مماثل لله فهذا خطأ ، وإنّما المماثلة الممنوعة هي المماثلة في حقيقة الذات والصفات ، فليس مشاركة العبد لربه في أنه رحيم وصبور وشكور وسميع وبصير وعالم وقادر وحي وفاعل موجباً للمماثلة ، وإنّما الذي يوجب المماثلة أن يشارك العبد ربه فيما يختص به وهو أنه الموجود الواجب الوجود بذاته التي عنها يوجد كل ما في الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال .

سادساً : وما تقدم يعرفنا قول الجنيد : لا يعرف الله إلا الله تعالى . وقيل لذي النون وقد أشرف على الموت : ماذا تشتهي ؟ فقال : أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة . قال الإمام الغزالي : وهذا يشوش على النفوس ، وإنّما الذي يوضح المقام أن نقول : إن من يقول : لا أعرف الله ، صادق . ومن يقول : لا أعرف إلا الله ، صادق إذ لكل منهما معنى غير معنى الآخر .

سابعاً : كما لا يعرف الله وصفاته البتة لاستحالة الوصول إلى الألوهية فعلاً وإنّما يعرف بالآثار . هكذا لا يعرف الموت ولا الجنة ولا النار إلا بضرب الأمثال على مقدار عقولنا ، فإذا متنا عرفنا الموت وأدركنا الجنة وفهمناها ، فأما ضرب الأمثال فليست تفيد علماً بل مجرد تخييل كما تتخيل صفات الله بالقياس على أنفسنا .

ثامناً : نحن الآن في تفسير البسملة ، وقد عرفت أيها الذكي معنى الرحمة في ضمن ما تقدم وأول الأسماء في البسملة « الله » ، وهذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها . وسائر الأسماء تدل آحادها على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ، وهذا الاسم لا يطلق على غير الله تعالى . فهذان السببان بهما يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء . ثم إن معاني سائر الأسماء يتصور أن يتصف بها العبد بثبوت منها حتى ينطلق عليه الاسم كالرحيم والعليم والحليم والصبور والشكور وغيره .

والرحمن مشتق من الرحمة وهو أخص من الرحيم ، ولذلك لا يسمى به غير الله . إذن الرحمن يكون في السعادة الأخروية لأن العباد لا قدرة لهم عليها ، وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء ، وأن تكون كل معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعة رحمة لذلك العامي أن يتعرض لسخط الله تعالى ، وحظه من اسم الرحيم ألا يدع فاقه لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا يقوم بتعهده ودفع فقره إما بماله أو جاهه أو يسعى في حقه بالشفاعة إلى غيره ، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن لسبب حاجته رقة عليه وعطفاً ، حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته ، وحظ العبد من لفظ الجلالة التأله . قال الإمام الغزالي : أعني به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يتلفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم

من هذا الاسم الموجود الحقيقي الحق، وكل ما سواه فان وهالك وباطل إلا به؛ فيرى أولاً نفسه أول هالك وباطل كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «أصدق بيت قاله العرب قول لبيد»:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكـل نعيم لا محالة زائـل

فإذا فهمت هذا فاعرف بقية أسماء الله تعالى على هذا النمط، مثل أن تقول «الملك» هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود. وهذا المعنى لا يتصور في العبد وأعظم من اقتدوا بالله في هذا الوصف بقدر طاقتهم إذا ملكوا شهواتهم وأهواءهم وجميع جوارحهم، واحتاج إليهم الناس في الهداية ولم يحتاجوا هم إليهم هم الأنبياء ويليهم الأولياء الذين تعلموا من الأنبياء. قال: ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء: سلني حاجتك؟ حيث قال: أوَلي تقول ولي عبدان هما سيداك؟ قال: ومن هما؟ قال: الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك، وقال بعضهم لبعض الشيوخ: أوصني. قال: كن ملكاً في الدنيا ملكاً في الآخرة. ومعنى هذا قطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فإن الملك في الحرية والاستغناء.

هذا وليس يجوز لي ولا يصح أن أتوسع في هذا المقام أو أن أفسر بقية الأسماء فإنه خارج عن المقصود، لأننا الآن في تفسير البسملة بطريق خاص غير تفسيرها في مواضع أخرى من هذا التفسير. ولكن أختم المقال بما وعدت به من أن الأسماء كلها ترجع إلى ذات وسبع صفات، فقد جاء في الكتاب المذكور أن الاسم:

(١) إما أن يدل على الذات مثل: الله. الحق.

(٢) وإما أن يدل على الذات مع سلب مثل: القدوس والسلام والغني والأحد ونظائرها، فإن القدوس هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ويدخل في الوهم، والسلام هو المسلوب عنه العيوب، والغني هو المسلوب عنه الحاجة، والأحد هو المسلوب عنه النظير.

(٣) وإما أن يدل على الذات مع إضافة: كالعلي العظيم والأول والآخر والظاهر والباطن، فإن العلو والعظمة والأولية والآخرية وهكذا كلها بالإضافة إلى أمور أخرى. فالأول مثلاً هو السابق على الموجودات، والآخر هو الذي إليه مصير الموجودات وهكذا.

(٤) وإما أن يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة: كالملك والعزيز، فالملك لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء. والعزيز هو الذي لا نظير له وهو مما يصعب نيله والوصول إليه.

(٥) وإما أن يرجع إلى صفة: كالعليم والقادر والحي والسميع والبصير.

(٦) وإما أن يرجع إلى العلم مع إضافة: كالخبير والحكيم والشهيد والمحصي، فالخبير يدل على العلم مضافاً للأمور الباطنية. والشهيد يدل على العلم مضافاً إلى ما يشاهد. والحكيم يدل على العلم مضافاً إلى أشرف المعلومات. والمحصي يدل على العلم من حيث يحيط بمعلومات معدودة.

(٧) وإما أن يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة: كالقهار والمقتدر والمتين، لأن الاقتدار تمام القدرة والمتانة شدتها والقهر تأثيرها في المقدور بالغلبة.

(٨) وإما أن يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل: كالرحمن والرحيم والرؤوف والودود، فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف. والرأفة شدة الرحمة وهي

مبالغة في الرحمة، والود ويرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان والإنعام، وفعل الرحيم يستدعي محتاجاً، وفعل الودود لا يستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف، وقد عرفت وجه ذلك فيما تقدم.

(٩) وإما أن يرجع إلى صفات الفعل: كالخالق والبارئ والمصور والوهاب والرزاق والفتاح والقابض والباسط والخافض والرافع والمعز والمذل والعدل والمقيت والمجيب والواسع والباعث والمبدئ والمعيد والمحيي والمميت والمقدم والمؤخر والوالي والبر والتواب والمنتقم والمقسط والجامع والمانع والغني والهادي ونظائره.

(١٠) وإما أن يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة: كالمجيد والكريم واللطيف، فإن المجيد يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات، والكريم كذلك، واللطيف يدل على الرفق في الفعل، فلا تخرج هذه الأسامي وغيرها عن مجموع الأقسام العشرة، فقس ما أوردناه بما لم نورده فإن ذلك يدل على وجه خروج الأسامي عن الترادف مع رجوعها إلى هذه الصفات المحصورة المشهورة. انتهى باختصار من الكتاب المذكور.

يقول المؤلف: أنا أكتب هذه المقالة ليلة الخميس ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٩م، ولعلك تقول أيها الذكي: لقد جاوزنا في تفسير القرآن ثلثيه، فلماذا لم يفسر ﴿ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على هذا الوجه والتطويل إلا في هذه السورة؟ ولماذا أعقبنا ذلك بإجمال تفسير الأسماء كلها على وجه الاختصار؟ ولم اختصت هذه السورة بذلك مع أن هذا كانت الأولى به سورة «الفاتحة». فإذا كانت الإجابة على ذلك بأن كل سورة تأخذ بسملتها بعض العلوم فهذا لا يجدي، لأن السؤال: لم اختصت هذه السورة بذلك؟ والجواب عن ذلك: أنني أنا لم يخطر ببالي هذا السؤال إلا بعد تمام ما تقدم. والذي ورد في خاطري في الجواب عن ذلك الآن أن ذلك لم يكن قصداً مني ولا أنا الذي خصصت هذه السورة بذلك وإنّما الحكمة في ذلك أن هذه سورة «لقمان» والله فيها يقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾[الآية: ١٢] الخ. ولا جرم أن الحكمة هي العلم بأشرف المعلومات كما تقدم، وأشرف المعلومات معرفة الله عز وجل وصفاته وأفعاله. فالله عز وجل هو الذي حرك قلبي وأجرى لذلك قلمي، وأنا لا أقصد هذه الفكرة وإنّما عرفتها بعدما أتممت هذه المقالة، ذلك ليتفكر قارئ هذا التفسير في أسماء الله وفي صفاته وفي أفعاله، ويرى مجمل ذلك في البسملة حتى يلم بأشرف العلوم وهو الحكمة التي أعطاها الله لقمان. وهنا يدخل روضة العلوم الحكمية.

فإذا قرأت أيها الذكي في أثناء هذه السورة حكم الحكماء وعلم العلماء في معنى الحكمة فهاأنت ذا قرأت أشرف علوم الحكمة. ويا ليت شعري إذا رأينا علماء اليونان قد جمعوا علوم الحكمة كلها في عشر كلمات سموها «المقولات»، وهي: الجوهر والكم والكيف والإضافة والزمان والمكان والملك والوضع والفعل والانفعال»، وقد تقدم شرحها في أثناء هذا التفسير. فكيف جهل أكثر المسلمين أن أسماء الله الحسنى وهي عشرة في عشرة إلا واحداً قد جمعت العلوم كلها بطريقة ألطف وأعلى وأجمل، فإن معاني هذه الأسماء ترجع إلى الذات والصفات الإلهية، والله هو المعلم للأمم والعالم كله آثار صفاته.

فإذا قلنا في غير هذا المكان : إن « الفاتحة » تشير إلى مجمل العلوم وهي أفضل من تلك المقولات ، لأنها سهلة جعلت للتعبد بخلاف المقولات فهي معقدة ولا تصلح للتعبد . فهكذا هنا نقول : هذه الأسماء كذلك تصلح للتعبد كما أن فيها أصول العلوم . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ملخص سورة « لقمان »

الذي تضمنته الرحمة في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أولها

تقدم الكلام على الرحمة العامة في سورة كثيرة لا سيما في أول سورة « الروم » وأول هذه السورة ، واستبان من جملة ذلك كله أن الآلام والمرض والكسر والجرح كل ذلك لم يقصد منه إلا الإنذار . إذن الرحمة لا بد لها من جنود وهي تلك الآلام ، وقد تم شرح هذا في أول سورة « الروم » لأنه لوحظ هناك قتال الفرس والروم والمسلمين ، فهناك ويل وحرب وحوادث فهي مقيسة على آلام الأفراد .

إذن آلام الأفراد وآلام الأمم جميعها من الرحمة العامة ، فكما أننا نرى الجرح والكسر والإحساس بالحمى ونحو ذلك كلها منبئات منذرات بالهلاك إن لم يتلاف أمرها كما أن الجوع منذر بالهلاك أو المرض إن لم يتدارك الجسم بالغذاء هكذا أحوال الأمم ، فالعالم كله على قاعدة واحدة ووتيرة ثابتة يسير على منوال واحد من حيث إن كل ألم شرطي وجندي من جنود الرحمة .

هذا أصبح لمن قرأ هذا التفسير مما هو مبرهن عليه لا شك فيه ، وعليه فقس ما ستراه من الرحمة في نفس هذه السورة التي ابتدئت بالبسملة المشعرة بالرحمة فيما يقرؤه الناس فيها ، وبيانه أن تقول :

يا سبحان الله . الله خلق الخلق ، ووجههم إلى مقاصدهم ، فلم كان إنزال الكتب السماوية ، والإنذار والتحذير ، فهلا كان توجههم كتوجه الحيوان بالغرائز فلا نسمع وعيداً ولا زواجر ولا أموراً مشكلة ولا خلافاً ولا تكفيراً ولا شيعاً مختلفة في كل أمة من الأمم قديماً وحديثاً . والجواب على ذلك أن نقول :

اعلم ألهمك الله الحكمة أن للعقل الإنساني من السعة والجولان والخواطر ما ليس للحشرات والطيور ، فهي فيما يبدو لنا ليس لها من الحرية الفكرية ما لنا . فلهذا العقل من التحليق في جو الأفكار ما يجعله ذا طرق متباينة لا طريق واحد ، فهو إذن يعتريه الصحة والمرض في الآراء كما يعتري الجسم صحة ومرض جسميان ؛ فكما قدر لهذا الجسم أمراض من داخله وأخرى من خارجه ؛ وأحيط في الأول بالحيوانات الكاسرة والأعداء والحشرات ؛ وتخلله في الثاني مئات من الجيوش الجرارة من الحيوانات الذرية تفتك به تارة وتحافظ عليه أخرى وكلها ذات حياة حقيقية ، هكذا قدر لعقله جيشان : جيش من الحكمة والإرشاد والأصحاب والعلم يهديه إلى الهدى . وجيش آخر من قرناء السوء ظاهراً وباطناً يسولون له ما يرديه ويوقعه في هوة الهلاك . وكما أننا أعوزنا في الجسم الأطباء والعقاقير لنصر الجيوش الجرارة من الكرات البيضاء المحافظة عليه المقاتلة لجيوش الجدري والحمى والحصباء الخ ، هكذا أعوزنا في طب العقل والروح كتب وعلوم وأساتذة وأنبياء ينصرون جيوش النور التي تحيط بالمرء في بيته ، وخاصة جبلته على جيوش الرذيلة ، والذنوب التي تحيط به كل حين من أنصار السوء والآراء الخبيثة التي ملكت قياده .

فإذا جاء في أول هذه السورة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فالرحمة فيها مذكرة بالحكمة، وما هي الحكمة؟ هي التي سترى تقسيمها قريباً إلى علمية وعملية، والعلمية منها الرياضي والطبيعي والإلهي، والعملية ترجع إلى الأخلاق ونظام المنزل ونظام الأمم، وقد تفرع على علوم الطبيعة جميع الصناعات، إذن الحكمة المذكورة في هذه السورة هي جميع النعم الظاهرة والباطنة ولذلك أعقبها بقوله: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان: ٢٠]، إذن الرحمة في هذه السورة موجهة لإسباغ النعم علينا ظاهرة وباطنة وذلك بالحكمة، فنعمها الظاهرة علوم الكائنات الطبيعية التي ستقرؤها هنا. ونعمها الباطنة منها علم الأخلاق.

هذا هو السر الذي أنزله الله في هذه السورة. وهذه الحكمة بأقسامها هي الجيوش الجرارة القاتلة لجيوش الجهل، والأدوية المزيلة لأمراض الجهل وخراب العمران.

الله كما أنزل الأغذية والأدوية لنمو الأبدان وإرجاع صحتها أنزل الحكمة العامة لارتقاء النفوس وتهذيبها وتقويمها. فالنفس والجسم في ذلك سيان كلاهما تحوزه رحمة الرحمن الرحيم لاعتداله وبقائه.

فيا رب أنت أنعمت علينا بالعلم وبدأت السورة بالرحمة، وأريتنا أن الرحمة هنا ترجع للحكمة، فإنك بدأتها بقولك: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[لقمان: ٢] فكان هذا براعة استهلال استهلت به السورة، لتدل القارئ أن هذه الرحمة ذكرت هنا للحكمة التي ستفصلها، وذكرت فريقين: فريقاً اهتدى وأحسن، وفريقاً يعيش باللهو والباطل فهو بعيد عن الحكمة، ثم وصفت نفسك بالعزة والحكمة، فكتابك حكيم وأنت العزيز الحكيم. هنالك استعدت نفوس قراء كتابك لتلقيها، فبدأت بذكر خلق السماوات والأرض بلا عمد، وهذا عجيب لم نره في الأرض عادة، ثم ذكرت الجبال وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات، كل هذا خلقته بحكمة، هنالك أخذت تصف حكمة لقمان وأنها ترجع إلى علوم وأعمال، فهي من نور حكمتك التي ذكرتها وأتبعتها بأن نعمك أنت أسبغتها على الناس ظاهرة وباطنة، وأن علمك لا حصر له، ثم ذكرت سير الشمس والقمر والفلك في البحر، ووعدت وأوعدت، وكل هذا يحويه علم الحكمة ويعقله الحكماء، وكل هذا تتضمنه الرحمة في قولك: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

وبالجملة فإن أجسامنا في الذوبان والملاشاة ونفوسنا دائماً في الاضطراب والوساوس والشكوك والأوهام، فالروح والجسم متفقان إذن في الاضطراب، ولا يمسك الجسم عن سيلانه وذوبانه إلا الأغذية والأدوية، ولا يمسك النفس عن اضطرابها وأوهامها إلا علوم الكائنات الرياضية والطبيعية والإلهية وعلوم الأخلاق والسياسات العامة والخاصة، كل هذا من رحمتك المذكورة في البسملة؛ فبعلوم الكائنات غذاؤها، وبعلوم الأخلاق دواؤها، وهذه هي الحكمة التي أنزلت لها سورة «لقمان». فهل من سبيل إلى سعادة هذا الإنسان إلا بالوصول إلى ما استقر من الحكمة في هذا المقام بحيث يصبح المكروه والمحبوب معاً جنديين من جنود الرحمات في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وأي سعادة في الدنيا والآخرة أعظم من أن تصبح النفس مطمئنة إلى أن المقادير كلها رحمة وأن كل ما يصيبنا من مكروه هو مقدمات ضرورية للرحمة كما سبق تقريره؟ أوَليس من أعظم بل أعظم سعادة لكاتب هذه

السطور ولإخوانه قراء هذا التفسير أن تصبح نفوسنا مستقرة على أن كل ما في هذا العالم وما في نفوسنا من المكروهات أعمدة تقام عليها الرحمات.

اللهم إني أحمدك على ما أنعمت به من العلم الآن وعلى ما أريته لي في المنام منذ ٤٠ سنة. ذلك أني كنت إذ ذاك مجاوراً بالجامع الأزهر وتوجهت إلى قريتنا «كفر عوض الله حجازي» أيام العطلة، وبينما أنا ذات ليلة مساء أمشي في بعض الحقول قريباً من القرية وأنا أفكر في شرور هذا العالم وكيف تخلق فيه، ثم نمت تلك الليلة إذا قائل يقول لي: اقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[مريم: ٤٥] الخ، فاستيقظت وأدركت أن المقصود أن المعذب رحمن، وأن ما في قصة الإفك من الإيذاء ونحوه كلها رحمات لمن أوذوا، وأن التزكية والتطهير يكونان بحدوث المصائب والآلام، ولقد تبدت هذه المعاني في علوم الأمم الحكمية وظهرت في هذا التفسير، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. انتهى القسم الأول من السورة ليلة الاثنين ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٩م.

القسم الثاني

الكلام على معنى ﴿الٓمٓ﴾

تقدم الكلام على هذه الحروف في أول «آل عمران»، ولكن ربما كانت الإشارة هنا فوق ما تقدم هناك إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠] وإذن تكون ﴿الٓمٓ﴾ هنا وفي «الروم» وفي «العنكبوت» لفت نظر للأمة الإسلامية المستقبلة إلى دراسة كل العلوم الكونية في السماء والأرض، فإنك رأيت أن ﴿الٓمٓ﴾ جاءت في العنكبوت في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾[الآية: ١٥]، وفي سورة «الروم» قال: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[الآية: ١٦]، وهنا قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾[لقمان: ٢٠] الخ، فكل هذه السور جاءت فيها الحروف الثلاثة مرتبة متصلة تارة ومنفصلة أخرى في موضوع واحد وهو النظر في العوالم المحيطة بنا، فتارة تذكر على طريق كيف كان بدء الخلق، وتارة ذكرت بطريق اختلاف الألسنة والألوان، وتارة على سبيل أن النعم ظاهرة وباطنة.

إن الله يذكرنا بهذه النعم من كل وجوهها بدءاً وإعادة وظاهرة وباطنة وكثيفة في مادة أو لطيفة في صوت وهو ألطف المادة، ورمز لذلك العلم بالنطق بالحروف إشارة إلى تحليل العوالم والوقوف على الحقائق الثابتة، وهي مرتبة بحيث تكون اللغات مقدمة على العلوم، لأنه ذكر الألوان بعد اللغات لتصقل العقول بالحقائق بعد الخيال في اللغات، كما ذكر اليقظة بعد النوم فتظهر به الحقائق وتزول أضغاث الأحلام، وليتأمل المفكرون في هذه السور:

(١) كيف ابتدأ السورتين بمثل ما ختمهما، فذكر في أول «العنكبوت» الجهاد وختمها به فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾[الآية: ٦٩]، وابتدأ سورة «الروم» بالوعد بغلبة الروم الفرس أو المسلمين الروم وختمها بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[الآية: ٦٠].

(٢) وكيف كانت السورتان السابقتان كما قلنا لحوز العلم والحكمة، وكيف قال في آخرهما: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم: ٦٠].

ذلك أن الإنسان إذا لم يكن ثابتاً في إيمانه بالحكمة استخفه كل ما يطرأ عليه من أقوال الذين لا يقين عندهم، وهذا شأن أكثر المتعلمين اليوم يقرؤون ولا يقين عندهم لأنهم ليسوا ثابتين في الحكمة ولا يعرفون نفس الحقائق التي يدرسون قشورها وظواهرها، كما قال سبحانه في سورة «الروم»: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الروم: ٧]، فلهذين السببين أتى بهذه السورة ذاكراً حكمة لقمان مشيراً إلى أن الإنسان لا يصده عن الخفة وعن الشك إلا تمام الحكمة باليقين، فلذلك أتى بهذه السور فهي لتمام الحكمة ودراسة حكمة الحكماء حتى يقف على سر هذا الوجود. هذا وأذكرك أيها الذكي بما تقدم في سورة «الروم» من بعض أسرار ﴿الٓمٓ﴾ في هذه السورة. انتهى القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ معناه ظاهره مما تقدم في نظيره ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هو هدى الخ، ثم بين هؤلاء المحسنين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ صلة بينهم وبين ربهم ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ صلة بينهم وبين الخلق مع مراعاة الإخلاص لله ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ حتى ينالوا جزاءهم فيها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ لجمعهم بين العلم والعمل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ ما يلهي عن الحديث النافع، كأن يأتي بالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير والخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، كالنضربن الحارث كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث بها الناس، ويقول: إن كان محمد يحدثكم بعاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفندار والأكاسرة، وربما اشترى الفتيات وأمرهن بمعاشرة من أسلم ليحملنه على ترك الإسلام، ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي: ليضل عن قراءة كتاب الله وهو غير عالم بفضله ومكانته العالية، ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ أي: ويتخذ السبيل سخرية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لأنهم أهانوا الحق باختيارهم الباطل ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي: تشبه حاله في ذلك، فقال من لم يسمعها وهو سامع ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ثقلاً لا وقر فيها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: أعلمه بذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيمنعه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا لحكمة، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة «الرعد» ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً شوامخ، تقدم شرح هذا في سورة «الأنبياء» وغيرها، وتبيان معنى الرواسي في علم طبقات الأرض حديثاً وهو معجزة ظهرت في العصر الحاضر، كراهة ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي: تميل ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي: من كل صنف ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن، ومثل المطر والنبات قد تقدم في كثير من السور وهو في «البقرة» وغيرها، ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ أي: آلهتكم التي تزعمونها ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا إضراب عن التبكيت إلى إثبات أنهم ضالون ضلالاً ظاهراً.

ولما كان القول المتقدم اشتمل على ذكر من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم أعقبه بذكر النعم الظاهرة في السماوات والأرض والنعم الباطنة بالعلم والحكمة في قصة لقمان، ثم أردفها بأنه أسبغ علينا النعم ظاهرة وباطنة على الترتيب الذي تراه وهذا مبدأ قصة لقمان ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ العلم والعمل به، ولا يسمى الرجل حكيماً حتى يجمعهما، وسيأتي الكلام على ما قاله العلماء فيه، وقوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ ﴾ «أن» بمعنى «أي» المفسرة، ومعلوم أن الشكر ثناء باللسان على الله تعالى وإصابة الحق وحب الخير للناس بالقلب وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له، فسرت الحكمة بالشكر لله، ولا جرم أن الشاكر لله هو من جمع الخصال المذكورة في القلب واللسان والجوارح وجميع النعم فيكون حكيماً في قوله وفعله ومعاشرته واعتقاده وصحبته

﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأنه مرق لها ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ النعمة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ ﴾ لا يحتاج إلى الشكر ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد ومحمود من أهل السماوات والأرض، ثم ذكر بعض حكمه التي هي من جملة الشكر لله منه وهي نعمة اللسان المعبر عن حكمة الجنان وهي نصيحته لابنه، قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ ﴾ تصغير إشفاق ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ وقد كان كافراً، فيقال: إنه أسلم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فإنه تسوية بين من لا نعمة له ومن له جميع النعم، ثم ذكر الله جملة معترضة بين وصايا لقمان تذكيراً للناس بأن الوالدين اللذين يتلوان الله في التعظيم والإجلال لا يصح أن يطاعا في الإشراك بالله، فالله يوصي عليهما ويوصي أن لا يعصى سبحانه بسببهما لأنه خالق الجميع، وهذا قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ ﴾ حال كونها تهن ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ضعفاً على ضعف يتزايد كلما ازداد الحمل ثقلاً ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ ﴾ وفطامه ﴿ فِى عَامَيْنِ ﴾ وقوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ فيه مثل ما تقدم فهو تفسير للتوصية كما كان ما تقدم تفسيراً للحكمة، وصى الله الإنسان بشكره وشكر والديه ﴿ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فأجازيك على الشكر والكفر ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي باستحقاق الإشراك تقليداً لهما ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ صحاباً ﴿ مَعْرُوفًا ﴾ يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم ﴿ وَٱتَّبِعْ ﴾ في الدين ﴿ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ بالتوحيد والإخلاص ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي: مرجعك ومرجعهما ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن أجازيك وأجازيهما على الإيمان والكفر ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي: إن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك في الصغر مثلاً كحبة الخردل ﴿ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: في أخفى مكان أو أعلاه أو أسفله على الترتيب ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ يحضرها فيحاسب عليها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ يصل علمه إلى كل خفي، كما رأيت في وزن العناصر وانتظامها وجمال إتقان نسبها في سورة «العنكبوت» فهناك تبين سر هذه الآيات وأن الحبة من الخردل وأقل منها آلاف آلاف في الصغر وقد وضعت بحساب ونظام كما عرفته، وأن الله يأتي بها كما عرف في جدول مندلييف الروسي، فإن للذرات أوزاناً في العناصر لا تدع صغيراً ولا كبيراً إلا أحاطت به، والعنصر الذي لا يراه الناس وجيء به يضعونه في موضعه من الجدول لدقة الحساب الإلهي. فإذا كان هذا فعل العلماء من أهل الأرض وقد هداهم النظام في الذرات فما بالك بمن حسب ذلك ونظمه قبل خلقهم؟ فبهذا تعرف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ لأنه عالم بكنه كل شيء ولقد تقدم شرح هذا المقام في أول سورة «آل عمران» وغيرها، وذكرت هذه الآية نفسها هناك، ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ تكميلاً لغيرك بعد كمال نفسك ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ من الشدائد كلها لا سيما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الصبر وما تقدمه ﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: معزومات الأمور، أي: مقطوعاتها، أو خير الأمور أو حزم الأمور ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ولا تعرض عنهم تكبراً، وقرئ «تصاعراً» أي: أقبل على الناس بوجهك ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ولا تمش لأجل المرح والبطر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ والفخور راجع لقوله:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ و﴿ مُخْتَالٍ ﴾ راجع للمشي مرحاً، ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ توسط بين الدبيب والإسراع. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان عمر إذا مشى أسرع. وقال صلى الله عليه وسلم: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن». فإذن يكون إسراع عمر معناه أنه لا يدب دبيب المتماوتين كدبيب النصارى في ذلك الزمان، ولا يسرع كخبب اليهود. ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ وانقص منه ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ ﴾ أوحشها ﴿ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ والحمار مثل في الذم وأول صوته زفير وآخره شهيق. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة. ولنذكر هنا لطيفتين:

الأولى: في معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ ﴾[الآية: ١٣] الخ.

والثانية: في الكلام على لقمان عليه السلام.

اللطيفة الأولى: في معنى آية ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ ﴾

ابتدأ لقمان فنصح ابنه بنصائح مبتدئاً بأهمها وهو التوحيد، فأمره بألا يشرك به، وعلل ذلك بأن الشرك خلاف العدل، وأعقب ذلك بوصف الله بصفة العلم العام للعالم العلوي والسفلي، وأنه لا تخفي عليه خافية في صخرة أو سماء أو في أرض، فهو يعلم كل خافية ويقدر أن يأتي بأدق الأشياء أين كانت، ولما أتم ذلك أخذ يأمره بتكميل نفسه وذلك بالعبادات التي أهمها الصلاة لمن يعلم ما في قلبه ولا يخفي عليه خافية، فلما عرف ربه وكمل نفسه لم يبق بعد ذلك إلا إفاضة الخير على الناس، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن العظيم من يكون مثلاً أعلى للناس ينفع نفسه وينفعهم، فيكون كالكواكب المشرقة على الناس. ولا جرم أن الهداة معرضون لأذى الناس، فلذلك أمره بالصبر على ما يصيبه منهم وما يبتلى به في جسمه أو ماله أو أهله، فمن لا صبر له لا يكون كاملاً، ثم مدح الصبر مدحاً كبيراً، فإذا كمل الإنسان وكمل غيره واعتصم بالصبر على أذاهم، فإنه لا جرم يستهدف لذنوب عظيمة وهي الخيلاء والكبرياء، فأمره بعدم التكبر وعدم الخيلاء والإعجاب بالنفس، فيقول: من ذا مثلي علم وعمل وهداية للناس وصبر تام، فمن في الناس مثلي؟ ولما كان الإنسان قد يحمله طلب الكمال على الإسراع في قضاء الحاجات فيمشي لها مسرعاً، وقد يحمله الإعجاب والكبرياء أن يدب دبيباً متعاظماً أمره أن يكون مشيه وسطاً، والوسط حسن في كل شيء وهو العدل. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية

اضطربت أقوال علماء التفسير في لقمان من هو؟ ومن أي الأمم هو؟ تبعاً لعلم التاريخ وأقاصيص الأمم ودياناتها، فبنو إسرائيل عدوه من أنفسهم، وقالوا: إنه كان في زمن داود وإنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، وقال قوم: إنه كان عبداً حبشياً، وقال قوم: إنه كان خياطاً، وقال آخرون: إنه نجار ولم يذكروا من أي الأقوام هو، وآخرون قالوا: هو راعي غنم، وقال قوم: كان عبداً أسود عظيم الشفتين. فهذه الأقوال منقولة عن الأمم التي قبلنا ولكن الجميع متفقون أن حكمته ذاعت في الأمم كلها وذكروا بعضها.

واعلم أن هذا الحكيم الذي ذاع ذكره في جميع الأمم قال عنه اليونان: إنه منهم، وهذا كتابه بين يدي، فرأيت مشابهة بين الحكم المنقولة عنه وبين ما ذكره المفسرون منها، وكانوا يسمونه «ايثوب»

من قرية تسمى « امرتوم » وكانت ولادته بعد تأسيس مدينة روما بمائتي سنة . ويقولون : إنه كان من سقط المتاع في الجسم مشوه الخلقة والوجه معقود اللسان ، ولما اشتراه أحد الفلاحين أرسله إلى الحقل ليربح الناس من قبيح وجهه ، ولكن الله خلط القبح في وجهه عوضه حكمة في عقله ، كما عوض العمى عن البصر ذكاء في الأفئدة ، ولقد بقي هذا العبد معقود اللسان أمد طويلاً ولا يتكلم إلا بالإشارة ، وبينما هو نائم ذات ليلة إذا رأى ملكاً جاء في صورة إنسان وحل العقدة من لسانه ووهبه علم الحكمة ، فلما استيقظ أحس بانطلاق لسانه وصار من فرحه يحدث نفسه ، فسمعه رئيس الخدم يتكلم مع نفسه بفصاحة ، فذهب إلى سيده وقال : هذا العبد خبيث لأنه يدعي انعقاد لسانه وهو فصيح ، فأمره ببيعه فلما عرضه على تاجر ليشتريه أعرض عنه احتقاراً لشأنه ، فقال له « اثيوب » : اشترني وأنا أنفعك ولا أضرك بشيء ، فإن كان لك أولاد فخوفهم بي كأني عفريت من العفاريت ، فاشتراه بثمن بخس وأخيراً باعه هذا لرجل فيلسوف ، وله معه نوادر .

النادرة الأولى

سأل الفلاح في البستان سيد « ايثوب » فقال له : لماذا أرى القطعة التي لا أخدمها من هذا البستان تنبت أكثر وأكبر من القطعة التي أخدمها؟ فقال الفيلسوف سيد ايثوب « لقمان » : هذا فعل الطبيعة ، فضحك « ايثوب » وأخذ سيده على جانب وقال له : قل للفلاح إن هذه مسألة صغيرة لا قيمة لها ، وعبدي هو الذي يجيب عليها ، ففعل سيده فذهب « ايثوب » للفلاح وقال له : إن الأرض تشبه امرأة ذات أولاد فتزوجت برجل آخر ذي أولاد من امرأة غيرها ، فهي تلتفت إلى أولادها ليكونوا أحسن من أولاد الزوج .

النادرة الثانية

إن امرأة غضبت فاشترى أصنافاً من الحلوى إرادة صلحها ، وقال : أعطها لحبيبتي ، فأعطاه لكلبة عند سيده وكان يحبها . فلما رجع سأل زوجته عن الحلوى فقالت له : لم يأتني شيء ، فسأل لقمان فقال : أنا أعطيتها لحبيبتك كما أمرت لأنها تتحمل الذل والإهانة وتضرب ثم ترجع لك ، فأما المرأة فإنها غير حبية لأنها تطلب الطلاق لغير سبب .

النادرة الثالثة

إن زوجة سيده غضبت وأبت الرجوع من بيت أهلها ، فقال له : اشترِ أشياء لوليمة وادع لها من أحببت ، وأشع أنك تريد الدخول بامرأة غيرها ، فلا بد أنها ترجع عناداً أو غيره .

النادرة الرابعة وقد ذكرها المفسرون

جاء لسيده ضيوف أعزاء فقال له : اشترِ أحسن كل شيء ، فاشترى ألسنة الدواب كالثور والكبش والجاموس ، وأمر الطباخ أن ينوع الطعام ، فلما أكل الضيوف سئموا لأنهم وجدوا أول الطعام وآخره اللسان ، فقال له : لم أقل لك اشترِ أحسن كل شيء؟ قال : وأي شيء أحسن من اللسان ، هو رابطة العائلات ومفتاح العلوم وآلة الحق ، وبه تبنى المدن وتضبط ، وبه يحصل التعليم وإلزام الحجة ، والحكم في الأمم . فقال : لك الحق ، وفي اليوم الثاني دعاهم وقال : اشترِ أقبح شيء في السوق ، فأعد الطعام كاليوم الأول . فلما سألوه قال : إن اللسان أقبح كل شيء . هو أبو المتناقضات ورأس المشاكل والدعاوى

ومنبع الشقاق والحروب، وإن قيل عنه آلة الحق فهو آلة الغلط والنميمة. وبه تخرب المدن وبه المسبة وبه العار. فقال بعض الضيوف: إن هذا في إمكانه أن يقنع كل فيلسوف.

ثم علا أمره وعظم شأنه حتى صار يحضر مجالس الأعيان ويشاورونه في أمر الحرب والصلح وله حيل في ذلك عظيمة جداً، وكم أنقذ سيده من مشكلات حتى إنه اعتقه. وقد كان في أهل «ساموس» فتحرك يوماً ملك «اللديان» على أهل «ساموس» وأرسل لهم رسولاً يخيفهم من بطشه فيدخلون تحت طاعته، فمالوا إليه وخافوا من الحرب، فقال لقمان: إن الدهر فتح للناس طريقين: طريقاً للحرية كثير الصعوبات والأهوال ولكنه هنيء العاقبة. وطريقاً للاستعباد أوله سهل وآخره لا يطاق. فرجع السفير وأخبر الملك فطلبه فأرسل إليه فحقره لما رآه وكان أراد قتله، ولكن حكمه وحسن تخلصه جعله يعفو عنه، وبقي عند ذلك الملك المدة، وألف حكايات على ألسنة الحيوانات ستأتي وتركها عند الملك، وأخذ يسيح في الأرض فقابل ملك بابل وغيره ونال شهرة عظيمة ونالت حكمه ذيوعاً في الأرض، ومن هذه الحكايات كتاب «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ» وهي مائتا حكاية على ألسنة الحيوانات، ترجمها المغفور له المرحوم محمد بك عثمان جلال وطبعت بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ سنة ١٩٠٦م بمطبعة النيل بمصر، أولها «الصرار والنملة» وآخرها «الرجل والحية»، وفيها حكم بديعة ومنها: «حكاية الغراب والثعلب» و«حكاية الضفدعة» و«حكاية بغلة الأثقال وبغلة المال» و«حكاية الكلب والذئب» الخ. وهاك الحكاية الأولى:

الصرار والنملة

حكاية موضوعها صرار أودى به الجوع والاضطرار

وكان قضى الصيف في الغناء ... وما سعى في ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثليج ... ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مؤونة ... فراح يوماً يطلب المعونة
وقال للنملة أنت جارتي ... ما لي سواك في قضاء حاجتي
هل تصنعين معي المعروفا ... لا ذقت من أيامنا صروفا
وتقرضيني صواعاً غله ... وطبقاً ومترداً وحله
فإن أتى الصيف فقبل الصبح ... أردها عليك قبل الربح
قالت له النملة وهي تجري ... عذرك يا مسكين مثل عذري
ماذا فعلت في حصيد قد مضى ... قال لها كان زمان وانقضى
قالت وما ادخرت فيه للشتا ... قال لها مستهزئاً مبكتا
كنت أغني للحمير القمص ... قالت له يا صاحبي الآن ارقص
واعلم بأن السعي في الذخيرة ... يدفع كل غمة وحيرة
والدرهم الأبيض وهو في يدي ... ينفعني في كل يوم أسود

الحكاية التي قبل الأخيرة وهي حكاية الرجل وزوجته واللص

حكاية عن رجل وزوجته إذا نسبتها فبنت عمته

يحبها المسكين حباً جماً ويجتني منها الأسى والهما

فطالما سبته أو ذمته وقلما ناجته أو ضمته

وزوجة عاشت بلا محبه فتلك كالنعجة أو كالدبه

قال فجاء اللص ذات ليلة وجر من بعد العشاء ذيله

فألقت المرأة خوفاً نعلها وأقبلت تجري تضم بعلها

فضمها لصدره وقالا يا لص كل ليلة تعالى

قربت لي كثيرة النفار فاسرق جميع ما ترى في الدار

فسرق اللص جميع ما رأى وانفض عنهما مساء ونأى

وقصها الزوج علي في الغد فقلت ما من عجب يا ولدي

ألا ترى أن امرأ قد عشقا غانية وبيتها قد سرقا

وجاءها وقت الحريق والضرم فسلمت له قيادها وضم

فالخوف قد يكون للوصل سبب وربما أخيف ظني فانغلب

ذكر الحكمة

في ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة؛ فالأولى بما في السماوات والأرض، والثانية بالحكمة والعلم؛ اختار للثانية رجلاً لا يعرف نسبه على التحقيق تتنازعه الأمم ليرينا أن الحكمة ليس لها مكان، وأن الله يأمرنا أن نأخذ الحكمة أنى وجدناها من عبد وحر ومعلوم الأصل ومجهول وقديم وحديث، وبهذا نعلم أن النفوس الإنسانية كلها متعاونة قديمها وحديثها وأولها وآخرها وجميلها وقبيحها وسيدها ومسودها على العلم ونشره، وأن نفوس الأولين مشوقة لتعليم نفوس الآخرين بالكتب والتآليف والنقش على الأحجار وبالأخبار. كل ذلك ليعلمنا الله أن الأرواح جميعها متصلات من ملك ونبي وحكيم وعالم، وأن ما نراه من اختلاف الناس، وأن زيداً يكره دين عمرو لأنه ليس من معتقدي ذلك الدين وما أشبه ذلك. كل ذلك نقص في نوع الإنسان فعليهم جميعاً أن يأخذوا الحكمة أنى وجدوها لأنهم لله راجعون، وهو الحق ولا يقوم شيء إلا بالحق وأن عالم الأرواح أشبه بعالم الأجسام من حيث التعاون والارتباط. فإذا رأيت الشمس تضيء على الأرض بلا جزاء ولا شكور والأرض وما عليها كل يعين الباقي كما سترى إيضاحه فيما سيأتي، وأن زيداً لا يعيش إلا بنظام دولته وأسرته وحكومته وأمم الأرض المساعدات لأمته والشمس والأرض ودورانها على الشمس وهكذا عوالم متلاحقة متعاونة ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢].

فالعلوم ترسل من العقول الكبيرة إلى الصغيرة ومن المتقدمة إلى المتأخرة لتلاحق الأرواح وتحاب النفوس، وأن العظيم العلم حريص على سعادة الجاهلين.

ولما كانت الأرواح بهذا الوصف أمرنا الله في الصلاة أن نسلم على عباد الله الصالحين، وأن نصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأن نذكر إبراهيم وآله، وأن نسلم في ختام الصلاة على كل روح يميناً وشمالاً ذلك للصلة بين الأرواح، ويقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، ويقول: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، ويقول: اهدنا فيمن هديت، وذلك كله ليستأنس بالأرواح قبل مقابلتها بالموت. تم الكلام على لطيفتي القسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الرابع

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٢٤) وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٦) وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٢٧) مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ (٣٠) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ (٣٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ (٣٣) إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ (٣٤) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمطر ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الشجر والدواب ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ وأتمها عليكم ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة وما تعرفونه وما لا تعرفونه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاء من دليل ﴿وَلَا هُدًى﴾ من رسول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله، وإنما ذلك بالتقليد، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ تقليداً يتبعونهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ الضمير لـ«آبائهم» ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إلى الكفر والشرك وكل ما يجب به العذاب ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يخلص دينه لله بأن يفوض أمره إليه ويقبل عليه بكليته، كما تقول: أسلمت المتاع إلى الزبون، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ فهو كمن يتدلى من جبل فتمسك بأوثق عروة من عرى الحبل المتدلي منه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فهي صائرة إليه فيجازي كل على ما فعل، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ لم يسلم وجهه إلى الله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ فهو لا يضرك ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لأن الدليل واضح ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم الحجة وإلجائهم إلى الاعتراف ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا إليه لم يتنبهوا ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود يحمده من في السماوات والأرض وإن لم يحمده هؤلاء وهو مستحق للحمد، قال المفسرون: لما نزلت بمكة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ أتاه أحبار اليهود وقالوا: بلغنا أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] أتعنينا أم قومك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: كلاً عنيت. قالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هي في علم الله قليل وقد أتاكم بما إن علمتم به انتفعتم به. فقالوا: كيف تزعم هذا وأنت تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ تبري أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾ يعطيه المدد ﴿مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: مداداً، والخلائق يكتبون به كلام الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لأنها لا نهاية لها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يعجزه شيء ولا يخرج عن علمه وحكمته أمر بعد أن ذكر أنه خلق نعماً كثيرة ظاهرة وأنه أجرى الحكمة على لسان لقمان، وأتبعهما بأنه أسبغ النعم ظاهرة وباطنة، وأنه له ما في السماوات وما في الأرض، بعد ذلك كله ناسب أن يبين أن تلك النعم والمخلوقات لا تحصى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ولما كانت تلك النعم غير محصورة ربما ظن الإنسان أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنه يصعب على الله قيادتها، فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع

كل مسموع ويبصر كل مبصر ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ ﴾ من النيرين ﴿ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى منتهى معلوم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فهو يعلم سير الشمس والقمر والكواكب وحسابها وحساب عناصر الأرض والنتائج الحاصلة بينهما ومنها أنتم وأعمالكم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ المستحق للعبادة ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أي : لا يستحق العبادة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ المرتفع على كل شيء المتسلط عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ دلائله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على المشاق فيتعب نفسه في التفكر في الآفاق والأنفس ﴿ شَكُورٍ ﴾ يعرف النعم ومعطيها .

وكل ما يرد على الإنسان في الدنيا لا بد فيه من أحد أمرين : إما صبر إن كان مبغضاً ، وإما شكر إن كان محبوباً ، فأشرف النوع الإنساني لا يخلون من صبر وشكر في جميع الأوقات ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ ﴾ أي : علاهم وغطاهم ﴿ كَٱلظُّلَلِ ﴾ كل ما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لأن الفطرة آنذاك زال عنها ما يضادها من الهوى والتقليد ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ مقيم على طريق القصد الذي هو التوحيد ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ غدار فإنه نقض عهد الفطرة ﴿ كَفُورٍ ﴾ للنعم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ لا يقضي عنه ولا يغني ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ومعنى هذا أن الشفقة والرحمة في الوالد أوفر من غيرهما . فالوالد والولد كل منهما عادة يجزي عن الآخر في الدنيا ، فأما يوم القيامة فكل يقول : نفسي نفسي ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ لا يمكن خلفه ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أي : الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ علم وقت قيامها ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ في إبانة المقدر له والمحل المعين له في علمه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من خير أو شر ، وربما تعزم على أمر وتفعل خلافه ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ يعلم الأشياء كلها ﴿ خَبِيرٌۢ ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها . انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . اهـ .

شذرات على هذه الآية

الأولى : جاء في الإسرائيليات التي كان يقصها بنو إسرائيل على شعبهم أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ، فقال الرجل : من هذا ؟ قال له : ملك الموت . قال : كأنه يريدني ، وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان : كان نظري إليه ودوامه تعجباً ، لأني أمرت بقبض روحه ببلاد الهند وهو عندك ، فوصل إلى الهند في الوقت المعلوم ، فتم أمر الله .

الثانية : أن المنجم يحسب الخسوف والكسوف وغيرهما فيكون حقاً ، فهذا إنّما يقول بالقياس والنظر ، وما يدرك بالدليل لا يكون غيباً ، ومنه ما يعرف ظناً غير العلم .

الثالثة : رأى المنصور في منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره ، فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر أيام ، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه : هو أشار إلى هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله .

الشذرة الرابعة : قد جاء في علم الأرواح الحديث أن الأرواح لا تعلم مستقبل الناس القريب ولا البعيد ، ولما سئلت عن ذلك قالت : لأن الأمور في العالم الأرضي مرتبطة بأمور أخرى أقرب إليها وهناك أمور بعيدة لا تدرك ، فالأرواح الجاهلة تخبر بالعلامات القريبة وهي تجهل البعيد فتخطئ في خبرها ، ولما سئلت فقيل لها : إننا نعلم أن أناساً من أهل الأرض يخبرون بموعد الساعة واليوم الذي يموتون فيه ، ويقولون : قد أخبرنا في المنام به ، أجابت الأرواح قائلة : أولئك قوم علم الله أنهم لا يحزنون للموت وقد زهدوا في الدنيا ، فيخبرهم بذلك فيستبشرون بالموت ، وهؤلاء قليل في النوع الإنساني .

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾
وفي قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾
وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لقد قدمت لك في أول السورة أنها بدئت بحروف ﴿ الٓمٓ ﴾ ، وقلت لك : إن هذه إشارة منه تعالى إلى أمر عظيم في هذه السورة مبدوءاً بهذه الحروف ، وفيه إسباغ النعم ظاهرة وباطنة ، وقد تبعه أن خلقنا وبعثنا كنفس واحدة ، وأن كلمات الله لا تنفد ونعمه لا تحد . ولا جرم أن هذا أمر عظيم لا بد من التشمير والجد في التفكير حتى يتضح ، فأريد الآن أن أسمعك قولاً يظهر منه أمران : النعم التي لا تتناهى ، وانتظامها كأنها نفس واحدة ، فأقول :

أنت تعلم أن النعم التي تحيط بنا كثيرة ، ولست أريد التطويل بذكرها ، فإنها يشرحها كل العلوم فلأذكر لك أربع نعم فقط ، وهي : الغذاء والدواء والكساء والبناء ، ولست أتعرض إلا للغذاء ، وأترك البقية وأذكر منه قبضة من القمح تصنع رغيفاً يخبز فنأكله فنجعل هذا الرغيف محل بحثنا ، فنقول : إن هذا الرغيف له خابز وعاجن وناخل وطاحن ومغربل وخازن وبائع ومخلص التبن من القمح في الجرين ودارس وحاصد وساق وزارع وحارث ، فهذه ثلاثة عشر صانعاً إجمالاً ، فلندع هؤلاء كلهم ولنفض الكلام على الآلات التي يعملون بها ولا نذكر منها إلا الحديدة التي في المحراث « السلاح » فنقول :

هذه الحديدة لا بد لها من حداد سواها على مقدار الحراثة ، ونجار ركب الخشب المقوس عليها ، وتاجر جلب الحديد من أرض بعيدة ، وعامل حفر في المناجم فاستخرج منها الحديد . فلنترك هؤلاء كلهم ونتكلم على التاجر من بينهم ، فنقول : إن هذا التاجر لا يمر بالطرق البرية والبحرية إلا إذا كانت مأمونة ، ولا أمان إلا إذا كانت الأمم التي على وجه الكرة الأرضية منتظمة الحكومات قائمة بحراسة الطرق ، ولولا ذلك ما أمن التجار الطرق ولم يجلبوا ذلك الحديد من أرضه ، فلولا حسن النظام والأمن في أكثر الأرض ما انتظم أمر التجارة ولم يصل الحديد للفلاح وهو في حقله .

ثم إن هذه الأمم على الأرض لا نظام لها ولا ثبات إلا إذا كانت الأرض جارية بنظام حول الشمس حتى يكون الليل والنهار منتظمين، فلو اختلت المواعيد لم يكمل نظام أهل الأرض، ولو وقفت الأرض فلم تدر حول نفسها لتقبل ضوء الشمس لمات كل من على الأرض، إذ لا يكون إلا ليل في جهة ونهار في أخرى، ولو أن الأرض لم تدر حول الشمس دورتها السنوية لم يكن صيف ولا شتاء، ولاختل أمر الحياة، ولم تعرف السنون والحساب. فهذا كله لا بد منه لانتظام أمم الأرض لتحفظ التاجر في طريقه بالحديد المذكور، ثم إن الشمس تجري حول كوكب آخر لا بد من ثباته وإلا لاختل أمرها هي وما حولها من الكواكب، وهكذا إلى حد ينقطع الفكر دونه. كل ذلك لحفظ الأمم على الأرض. وأيضاً لو لم تكن الكواكب السيارة في مداراتها الخاصة بها لم تعرف الطرق البحرية، لأن الربان يرصد تلك الكواكب فيهتدي برصدها إلى الطريق.

فانظر كيف اشتركت الدول والأرض والشمس والكواكب وانتظام أمكنتها ومداراتها في حفظ التاجر الذي أحضر الحديد للمحراث الذي يحرث القمح لغذائك.

هذه نبذة يسيرة من سلسلة النعم التي جعلها الله للرغيف قبل أن يكون لديك. ولم نذكر الريح والمطر ولا نظام الحكومة التي يكون فيها الحقل، ولا هؤلاء العاملون الذين ذكرناهم، ولا ما يلزم كلًّا منهم من غذاء ودواء وحكومة حتى يعيش فيخدمك، كل هؤلاء ضربنا الذكر صفحاً عنهم لأن هذا لا يتناهى الكلام فيه، فلنبحث إذن في الرغيف بعد وجوده لديك.

إن الإنسان يأخذه بيده ويمضغه، ولا بد من أسنان طواحن كما يطحن الحب بالحجارة، وحادة السكين للقطع وهي القواطع، ومحدودبة كالرمح للتمزيق بحيث تكون كل طائفة لنوع من المأكول وإلا تعطل الأكل ولم تكن الثمرة المطلوبة، ثم يجري من تحت اللسان عينان تخرجان مادة لعابية تساعد على هضم الطعام، ثم يكون اللسان مستعداً لتحريك الطعام من جانب إلى جانب، ثم يمر الطعام فيجد أمامه الحلقوم المفتوح الذي يخرج منه النفس الوارد إلى الرئتين في الصدر، فيمر عليه ولو بقي مفتوحاً لمات الإنسان حالاً ولم يعش، فخلق له صمامة تسمى «صمامة المزمار»، فمتى أحست باللقمة أقبلت إلى المزمار حالاً فغطته فتمر اللقمة إلى المريء، ولذلك يجد الإنسان نفسه غاصاً بالماء أو بالطعام إذا كان يتكلم وهو يأكل، فإن الكلام يعوزه النفس والنفس يؤخر الصمامة فيندفع شيء من الطعام في الحلقوم فيتأذى الإنسان، فإذا مر الطعام إلى المعدة قابلته هناك سوائل فيها كالتي في الفم يقال لها العصير المعدي فتساعد على هضم الطعام، فإذا استحال إلى الكيموس ونزل إلى الأمعاء وجدها تبلغ في الطول ٧ أمتار وبعض سنتمترات، منها ٦ للأمعاء الدقاق ومتر واحد وبعض سنتيمترات للأمعاء الغلاظ، وفي أثناء ذلك يصير كيلوساً مستعداً لأن تجتذبه الشرايين، ويستحيل دماً شيئاً فشيئاً فيجري إلى الكبد ومنه إلى القلب، وهناك أربعة تجاويف: أعليان يسميان «الأذينين» وأسفلان يسميان «البطينين»، تصغير إذن وبطن، والدم يجري في هذه الأربعة بنظام بصمامات بين كل أذين وبطين، وهناك يتلاقى مع الهواء الجوي في الرئتين فيأخذ منه الهواء المادة الفحمية، أي التي احترقت في النسيج الجسمي، لأن الدم يدري في سائر الشرايين والأوردة وهي متفرعة فروعاً وراءها فروع تدق شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى ما لا يدركه الطرف من الفروع الشعرية، وهذه كلها تعطي الأنسجة دماً

ينقلب إلى لحم وعظم ودهن وظفر وجلد وشعر وصفراء وسوداء وبلغم وكبد وطحال وحال وقلب ورئة ومعدة ومخ وعصب وعظم وهكذا، ولا يتحول الدم إلى شيء من هذه إلا بعملية كيمائية بحيث يحصل الاحتراق، والاحتراق يتبعه مادة محترقة، ذلك هو الكربون الذي لو ترك ثواني لمات الإنسان.

فمن الحكمة إدخال الهواء، والهواء يلاقي الدم في الرئة فيعطيه مادة الحياة وهو الأكسوجين ويأخذ منه مادة الموت وهو الفحم، أي: الكربون، وهذا الفحم متى تسلمه الهواء سار به في الجو وأعطاه للنبات فكان منه الخشب والورق والعشب والفاكهة والأب. ففساد أجسامنا صلاح نباتنا وصلاح نباتنا صلاح أجسامنا، فما به فساد يصلح فيرجع لنا صلاحاً كرة أخرى.

إني لعلى يقين أنك أيها الذكي الآن عرفت النعم الظاهرة بقسميها: وهي التي خارج أجسامنا والتي هي داخل أجسامنا، ولم أذكر لك منها إلا رغيفاً واحداً، وهذا الرغيف قد اشتركت فيه العوالم كلها الأرضية والسماوية حتى وصل إليك، وهكذا اشتركت فيه سائر أعضاء الجسم حتى صار لحماً ودماً وعظماً ومخاً وطبقات العين من صلبة ومشيمية وشبكية وسائل زجاجي وجليدية وتسمى «عدسية» ورطوبة مائية وعنكبوتية وقزحية وقرنية شفافة وفوق ذلك كله الملتحمة. فهذه كلها نسيج نسج من الدم، والدم يجري في الجسم ويعطي كلاً ما يناسب من المواد التي حملها من العناصر الأرضية ومركباتها.

ألست بهذا عرفت كيف كانت النعم لا نهاية لها؟ وإذا كان الرغيف الواحد حرنا في أمره حتى اشتركت فيه العوالم العلوية والسفلية وجميع أعضاء الجسم؛ وهكذا النبات من حيث إنه يأخذ الفحم؛ بهذا عرفت الأمرين: كون النعم لا نهاية لها، وكون العالم الذي نحن فيه كجسم واحد والله هو المدبر له، فهو واحد ونحن في ذلك الجسم العام وأرضنا وشمسنا أشبه بعضو صغير منه، ونحن ودولنا عبارة عن ذرات في ذلك العضو ولنا اتصال بالجميع. إن تكرار هذه المعاني يعرفنا مركزنا في الحياة، ويفهمنا نظام الوجود، ويعرفنا معنى قول الناس: وحدة الوجود.

إن وحدة الوجود لا يفهمها أحد إلا الذين يقطعون العمر بالتفكير، وإياك أن تقول: إني عرفت وحدة الوجود بمثال مثل هذا، بل لا بد من عشقك أولاً للعلوم ثم البحث فيها والنظر وتكرار ذلك لأن مثلاً وأمثلة لا تكفي لإشراق هذا النور في القلب. أليس من العجب أن النمل الذي ندوسه بأقدامنا خلق ليقتل الدود الذي ينخر أشجارنا فتحفظ تلك الأشجار من العطب؟ فنحن في مساكننا ودورنا نعيش تحت السقوف ولا ندري أن النمل هو الذي حفظ لنا بعض الخشب لأنه كان يقتل الدود كما تراه في سورة «البقرة» هناك.

فظهر معنى إسباغ النعم ظاهراً وباطناً، وظهر معنى كون خلقنا وبعثنا كنفس واحدة، ومعنى كون نعم الله لا يحصيها الكاتبون ولو كان البحر يمده سبعة أبحر والأشجار كلها أقلام. ما أجمل العلم وما أبدع الحكمة ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٠].

وإني أسأل الله تعالى أن يحيي بهذا القول قلوباً ويرقي به أمماً ويفتح به عيوناً. ولتعلم أيها الذكي أن المسلمين لم تدخل عليهم الأمم من كل جانب إلا بجهلهم العلوم، ولو علموها لحفظوا عقولهم وديارهم وأموالهم ونظموا مدنهم، فإن أمثال هذه المباحث إذا درست دراسة نظامية انفتحت

لها العقول وذكت بها البصائر وارتقت ونشطت من عقالها وطلبت المعالي وحفظت الثغور ورقت نظام الجمهور.

وستقرأ النعم الباطنية عند الكلام على لقمان قريباً في آخر الكلام على هذه السورة.

ذكر العجائب في أسماء السور

لقد سميت السور بأسماء تذكر المسلمين بما تفيده، فسميت سورة الأنبياء والحج ومنها المؤمنون والنور والفرقان والقصص والنمل والشعراء والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة الخ.

فـ« الأنبياء » قد بين لك فيها أنها تجمع خصائص الأمم حتى يأخذ المسلمون بجميع فضائلهم كما قدمته، وإذن تكون مدنية أرقى من كل مدنية لو فهمت.

و« الحج » معلوم أمره لأنه يجمع الأمة.

وأما « المؤمنون » فالمقصد من التسمية بها استكمال الإيمان بخصال الكمال.

وفي التسمية بـ« النور » تشويق المؤمن لربه وأنه لا يمكن أن يعرف جلّ جلاله إلا بألطف وأجمل الأشياء التي نراها وهو النور، فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٢]، والنبي صلى الله عليه وسلم قال في حق الله: « إنه نور أنّى أراه »، وأرى أنواراً ليلة الإسراء عظيمة.

و« الفرقان » لتبيان الحقائق بالنور العلمي.

و« القصص » للاعتبار.

و« النمل » ليكمل للمسلمين عجائب الحيوان، فإنه في سورة « النور » قال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾[الآية: ٤٥]، فذكر لفظ النمل ليبين ما يمشي على ست وهي سائر الحشرات ومنها النمل.

و« الشعراء » سمى بها ليلفت نظر المسلمين إلى الشعر وأنه وسيلة لا نتيجة، وهو ظل غير ظليل من استظل به هلك.

و« العنكبوت » تذكرة بالحيوانات العنكبوتية ذات الأرض الثمانية.

و« الروم » ليذكر المسلمين بهم فإنهم أعداؤهم إلى يوم القيامة فليحترسوا منهم.

و« لقمان » لإذاعة الحكمة بين الأمم بغض النظر عن أقدارهم وأنسابهم.

و« السجدة » لتعليم العبد كيف يقرب من ربه.

و« الأحزاب » ليعرف الإنسان أن الأحزاب إذا تألبوا على مخلص نصره الله.

وسورة « سبأ » تذكير للأمة العربية بسابق مجد سبأ، وأنهم كانت لهم دولة ولكنها رجعت القهقرى بإهمالها، فمن العار على أمة الإسلام أن لا يكون مجدها كأمة جاهلية هناك، ولتذكير الناس بسد العرم والمدنية العظيمة ليبنوا كما كانت تبني أوائلهم. انتهى الكلام في أسماء بعض السور في الربع الثالث من القرآن.

الكلام على ذكر لقمان خاصة

لقد تبين لك فوائد أسماء السور في العلم، ولما كانت السورة التي نحن بصددها هي « لقمان » أحببت أن أخصها بالبحث فأقول: لقد اطلعت على نعم الله التي أسبغها علينا ظاهراً فيما تقدم وقد وعدتك أن أذكر شيئاً من النعم الباطنة هنا، وهاأنا ذا منجز الوعد فأقول:

إذا كانت النعم الظاهرة قد اتصلت من مبدأ الأجسام الإنسانية في داخلنا وأدهشنا كثرتها ثم إنها امتدت في الخارج إلى كل ما حولنا حتى وصلت إلى ما لا تدركه أبصارنا وعقولنا من عوالم متتالية متتابعة متواصلة ممتدة إلى عالم أرقى وأرقى ، فهكذا النعم الباطنة فهي تبتدئ من داخل نفوسنا فنرى عقولاً مشرقة ونفوساً صافية ، وللعقول حواس ظاهرة وحواس باطنة ، والنوعان يستنتج منهما علوم ومعارف تشمل العالم الذي تقدم ذكره في العجائب الظاهرة ، وليس المقام مقام الإطناب في العلوم ففي هذا التفسير ما يكفيك إذا رجعت إلى ما مضى ، ولكن المقام مقام أن الآية ذكر فيها النعم الظاهرة وقد قرنت بالنعم الباطنة بعد أن ذكرت العجائب السماوية والأرضية وذكر لقمان ، فلقمان يشار به للنعم الباطنة ، وهاهنا بيت القصيد فلننظر في الأمر ونقول :

عرفت قصص لقمان وعرفت أنه قد فتح الله عليه بالأمثال على لسان الحيوان ، وقرأت بعد هذا وأنا الآن أزيدك فأقول : كم من قارئ للقرآن يمر على هذه السورة مر النسيم على الهشيم . كم من قارئ يقرأ القرآن وهو غافل نائم جاهل . ذكر الله لقمان وذكر أنه آتاه الحكمة . فأي حكمة؟ هي حكمة الأمثال على ألسنة الحيوان وإلام ترمي الأمثال؟ ترمي للأخلاق ، للمعاشرة ، للسياسة ، لنظام الدولة ، للجد ، للاجتهاد ، لطلب العلم ، للاحتراس من الماكرين ، وهكذا ، ذلك ما ترمي إليه تلك الأمثال . إذن القرآن يحضنا على حكمة لقمان وهو كما عرفت مجهول الأصل ، مجهول الحال ، أنبي هو أم حكيم؟ على خلاف الناس ، وحكمته راجعة لحسن السلوك ، ولكن ليس هذا كل النعم الباطنة المذكورة في الآية بل هذه بعضها . إذن نقول :

لقد تقدم قبل هذا ذكر العنكبوت وذكر النمل تسمية ودراسة في نفس السورة . ذكر الله الحيوان والنبات في أكثر السور السابقة تكراراً كما قدمناه ، وقدمنا أن ذلك لمعرفة علومها وللانتفاع بها .

فالانتفاع كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾[النحل : ٨] ، وأما معرفتها فواضحة من كثير من الآيات كقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[يونس : ١٠١] ، وكقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾[الأعراف : ١٨٤] الخ ، وأمثال ذلك . فإذن الحيوان يعرف إما للتفكر في علومه . وهذا من علم الطبيعة ، وإما لمنافعه . وهذا فيها أيضاً مع مشاركة الجهال في بعض تلك المنافع . وإما بضرب الأمثال بها كما في أمثال لقمان .

فسبحانك اللهم . أنزلت الحكمة على قلب لقمان وألهمته أمثال الحيوانات لتعلمنا السير في الحياة ، ونفس هذه الحيوانات متاع لأجسامنا ولأغذيتنا وحملنا ، وهي هي غذاء لعقولنا ونمو لثروتنا وارتقاء لمدنيتنا . فالحيوان :

(١) مثال تفقهه عقول الحكماء لأخلاقنا .

(٢) ومنفعة للغذاء والحمل والمعاش .

(٣) ورقي للعقول بعلوم الطبيعة .

إذن في الحيوان ثلاث خصال : اثنتان منها عرفت قبل سورة «لقمان» ، والثالثة بسورة «لقمان» .

بهذه يوصي الله الأمة الإسلامية قائلاً : آتيت لقمان الحكمة والحكمة مستخرجة من المخلوقات التي أمامكم ، فالدنيا كأنها لوح وصور الحيوانات حروف وكلمات ، ولا يعقل ذلك إلا الحكماء ، وهم هم

الذين يشكرون الله ، فإن شكر الله بمعرفة عمله وقبول صنعه . هذا هو الذي تفيده قصة لقمان ولذلك سميت السورة باسم لقمان تنويهاً إلى ما ذكرناه وتبييناً لما الدهر طواه . وعلى ذلك يكون المسلمون مقصرين في ترك العلوم وحكمة الحكماء ، إن هذا كلام الله وهو الذي يؤتي الحكمة من يشاء ، وقد شوقنا إلى الحكمة ، وقال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[لقمان : ١٢] ، إن الله لم يقفل باب الحكمة إنه فتحه على مصراعيه ، إنه هو الذي علم لقمان ويعلم المسلم ويشوق المسلم إلى قراءة الحكمة . فكل حكمة قرأتها فلتعلم أن الله شوقك إليها ، وهو الذي ألهم قائلها على شريطة أن تكون صادقة لا تنافي العقل ولا الدين . وحسن بك إذا قرأت في أمثال « لقمان » حكاية الغراب والثعلب ، وأن الثعلب أخذ يتملق للغراب وأخذ منه غذاءه :

فاعتبر الغراب من ذي النوبه   وتاب ولكن لات حين توبه

أو قرأت حكاية الكلب والذئب وقول الذئب للكلب الذي يذله صاحبه :

وبالغنى لم يك لي افتتان   ما دام فيه الذل والهوان

أو قرأت حكاية الجدي والنعجة والعجلة والسبع إذ استبد بالجميع ، وأخذ الغزالة التي لم يصدها هو فكان هذا المثل :

فاجتنبوا السلطان عند الشركه   فليس فيها للشريك بركه

أو حكاية الذئب والخروف إذا ادعى الأول عليه دعاوى كاذبة ثم أكله بالقوة :

وقل لأهل العقل والفتوه   أحسن ما احتج الفتى بالقوه

أو حكاية الذئب والبطة إذ أغاثته وطلبت الأجر ، فقال : احمدي الله على السلامة :

وأدركت حقائق المعاني   والشهد ليس من فم الثعبان

أو حكاية السبع والحمار إذ نهق الحمار فخافت الحيوانات فافترسها السبع ، ثم قال للحمار محتقراً له :

جنسك معروف بغير قافيه   كثير صوت وقليل العافيه

أو حكاية الحصان والذئب وقد أراد الذئب أكل الحصان مدعياً علم الطب فرفسه الحصان وهو يعالج رجله :

وهكذا في الناس كل من بدا   بالخبث لا يخرج إلا نكدا

أو حكاية الثعلب والعنب وأنه أراد أكله فلم يستطع لارتفاعه عنه ، فأخذ يذم العنب بعد اليأس منه ، فقال القطف :

طول لسان في الهوى   وقصر في الذنب

أو حكاية الطاووس إذ أراد تقليد البلبل في صوته ، فقال صاحبه : كفاك ما زينت به ولكل طير نعمة خاصة به ، ثم نتف ريشه وجرده لعدم عفته ، وهكذا الغني يحسد الفقير على أي نعمة :

تلك عيون جفنها خراب   فإنما يملؤها التراب

أو حكاية الغراب المقلد للنسر إذ هجم على كبش فأخذه الراعي بيده هو وأولاده :

وقصها علي قلت سيدي   ما أضيع البرهان للمقلد

هذه بعض الحكايات التي نقلت عن لقمان عليه السلام .

جوهرة في أن الكلام على ذي القرنين يشبه بعض المشابهة الكلام على لقمان

ارجع إلى ما تقدم في سورة « الكهف » عند الكلام على ذي القرنين، فقد ذكرت لك هناك أن الخضر عليه السلام لما أقام جدار الغلامين اليتيمين ولم يأخذ أجراً يشبه ذي القرنين لما أقام السد ولم يأخذ من الذين طلبوا بناءه خرجاً، وإنّما قبل منهم الإعانة بالقوة وحدها لا بالمال. وأبنت لك أن هاتين القصتين إنّما نزلتا للأمم الإسلامية لنهتدي بهما فنساعد المحتاجين من الأمة ولا نأخذ أجراً منهم كما فعل الخضر، ونساعد الأمم بمالنا إذا كنا ملوكاً ولا نأخذ من تلك الأمم أجراً. وملخص هاتين القصتين أن نكفل الأفراد ونكفل الأمم متى قدرنا ونتعفف عن المال ما استطعنا. هذا ما ترمي إليه القصتان. هذا ملخص ما ذكرته هناك.

وقد ذكرت في غير ما موضع أن القرآن لا يجعل حقائق التاريخ هي المقصودة بل يعمد إلى المقاصد والنتائج، ويشير لذلك قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الكهف: ٢٢] الخ، ونرى القرآن لم يبين العدد حرصاً على المقصود من التنزيل وهي الموعظة الحسنة، وما عدا ذلك فهو كالقشر فلندعه ولنصل إلى اللب. هذا ما يؤخذ مما ذكرته هناك.

وذكرت في الكلام على ذي القرنين قولاً مطولاً في تعيين الأمة التي نسب إليها أهي أمة اليونان أم أمة اليمن؟ وهناك حللت أسماء الأمتين بقدر الإمكان فوجدت أن ذا القرنين واضح في اليمن وهناك « أذواء » كثيرون في نظم واضح هناك، فثبت أن « ذا القرنين » من اليمن ولكنه مبهم لم يعين، وإنّما لم يعين للحكمة المتقدمة إذ أننا لا نهتم بذاته نفسه وإنّما نهتم بنعته الذي نتشبه به. ولا جرم أن صفته القرآنية هي الأخلاق العربية التي نزل القرآن موافقاً لأجملها، منابذاً لسفسافها، فالعرب في البادية مفطورون على إعانة الضعيف والتجاوز عن الأجر في مقابلة المعروف، وهذه صفات شريفة أثبتها القرآن وأبقاها.

وهذه الصفات لا تتوقف على أن نعرف عين الذي اتصف بها أهو يمني أم هو يوناني؟ وإذا كان يمنياً فأي الأذواء هو؟ كل ذلك لا يهتم به التنزيل كما علمت.

هذا ملخص ما تقدم وهو موافق لأمر لقمان سواء بسواء، فلقمان قد ادعته غير أمة والقرآن ترك الأمر ولم يبين من أي الأمم هو كما لم يبين ذا القرنين.

هذا ما كنت وصلت إليه في سورة « الكهف » وكتبته هناك. أفلا تسمع اليوم ما فتح الله به وأنعم علينا، فلعمري لم يكن ليخيل لي إذ ذاك أن أطلع في موضوع ذي القرنين على بيان أبهى وكمال أجمل وحكمة أرفع وسعادة أتم وبهاء أوفى ونور باهر وعلم ساحر وزهر عاطر.

كيف لا وقد عثرت في كتاب « الأدب والدين عند قدماء المصريين » المؤلف حديثاً في زماننا أن قدماء المصريين اتخذوا القرنين رمزاً لهم في أعلامهم على شكل قرني الكبش بلون لامع، ووضعوا رسم القرنين على رأس المعبود « أمون رع » لأنهم رأوا أن الكبش كثير التناسل والبركة، وقد لقبوا بهذا اللقب ملوكهم لأنهم من نسل ذلك المعبود في عرفهم، وهاك نص ما جاء فيه:

القرنان

اتخذ المصريون القدماء رمزاً لهم في أعلامهم على شكل قرني الكبش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس المعبود « أمون رع ».

استطراد

بمناسبة ذكر القرن رأينا أن نستطرد هنا بذكر المعاني الكثيرة التي وضعتها اللغة العربية للفظة « قرن » ، خصوصاً أنها مستعملة الآن في معان عدة يحتاج إليها الإنسان أحياناً كثيرة ، نذكر منها ما هو متداول استعماله فنقول : القرن معناه في اللغة العربية العظم النابت في أعلى رؤوس كثيرة من الحيوانات الوحشية والمستأنسة كالبقر والمعز وجمعه قرون ، والحيوان المعروف بالكركدن « وحيد القرن » لأن له قرناً واحداً في مقدمة رأسه ينطح به الفيل فيشقه . ومن العجيب أنه مخالف لسائر الحيوانات لأن له مع القرن حوافر ، مع أن القرن والحافر لا يجتمعان في غيره . والقرن أيضاً ضفيرة شعر الرأس ومنه قولهم : له قرون طويلة ، والقرن : الخصلة من الشعر وإن لم تكن مضفورة . وقرن الجبل : أعلاه . وقرن السيف : حده . وقرن القوم : سيدهم . وقرن الشمس : حاجبها ، وقد قيل ما يبدو منها عند طلوعها . القرن : مائة سنة ، ومنه قول المؤرخين : القرن التاسع أو العاشر مثلاً ، وكقولهم : كان فلان في قرن فلان ، أي : في عصره ومدته . القرن : الميل « المرود » الذي يكتحل به ، وهو أيضاً اسم لجبل مشرف على عرفات . وقرن الشيء : طرفه . وقالوا : قرني الأرض ، أي : مشرقها ومغربها . وعلل بعضهم تسمية « إسكندر بن فيلبس المقدوني » بذي القرنين ، أي : صاحب قرني الأرض بمعنى مشرقها ومغربها ؛ ولكن الصحيح أن السبب في تلقيبه بذلك أن قدماء المصريين كانوا قد وضعوا في رأس المعبود آمون قرني كبش كما تقدم ، لأنهم رأوا الكبش كثير التناسل والبركة ، ولا تزال صورة هذا المعبود موجودة على هذا الشكل بالمتحف المصري بالطبقة السفلى وسط الطرقة الشرقية . ولما كان عصر الملك « تانوت أمن » من الأسرة الخامسة والعشرين لقب نفسه بالسيد ذي القرنين « نب أبوي » جرياً على مبدئهم من أن الملوك من سلالة هذا المعبود وهم أحق بأن يتخذوا شعاره ، ثم لما استولى إسكندر المقدوني على مصر ورأى أنه قد آل إليه ملك هؤلاء الفراعنة اتخذ هذا اللقب عنهم ليمثل به نفسه أمامهم في عقائدهم وشعائرهم . اهـ .

وأنا أحمد الله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك اللهم إني أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق ، سبحانك اللهم وفقت وعلمت فإنني كتبت ما تقدم في سورة « الكهف » بطريق الاستنتاج . فلما قرأت ما تلوته عليك الآن وجدت أن ذا القرنين مبدؤه مصر ، ومصر قرية من اليمن ، وأهل اليمن سموا بالأذواء ، ومن الأذواء ذو القرنين كما تقدم هناك ، ثم جاء إسكندر المقدوني فسمع بذي القرنين فسمى نفسه به ، إذن أصبح « ذو القرنين » لا يختص باليونان ولا باليمن ولا بمصر . فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾[الآية : ٨٣] ، وإجابته تعالى بقوله : ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾[الآية : ٨٣] ، يشير إلى ما قلنا فإنه قال : ﴿ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ فأنا لا أدون حوادث التاريخ التي تحوم حول كل من سمي بهذا الاسم ، بل أتلو عليكم ما يكون ذكر لكم وحكمة وعلماً ، لأن القرآن لهذا أنزل أما التاريخ فغير مقصود لذاته ولا فائدة في تحقيقه ولا غرض في تفصيله . وإنّما أذكر لكن صفات الكمال والجمال التي اتصف بها ، وذو القرنين سواء أكان

باليمن أم بمصر أم باليونان فتعيينه لا يفيد. وعلى هذا ربما كان ذو القرنين المذكور في القرآن من قدماء المصريين، وربما كان من أهل اليمن، فأما كونه من اليونان فلا، لأنا قدمنا أن تاريخ الإسكندر ليس فيه تلك الفضائل التي ذكرها القرآن. وإنّما كتبت هذا هنا لمناسبة ذي القرنين للقمان. وقد جاء ذكرهما معاً في كتب التوحيد كما قيل:

وذو القرنين لم يعرف نبيًّا   كذا لقمان فاحذر من جدال

هذا ما أردته في هذا المقام والله أعلم.

أقول: إذا قرأت ذلك كله فقل: سبحانك اللهم سبحانك، أنت الذي خلقت المروج وخلقت الطيور، أنت يا الله خلقت القلوب وأنت الذي ألهمتها أن تصور الحكمة من صور الطيور، إنك يا الله قد علمتنا في القرآن أن المقلد لا يعي، وأكثر سور القرآن مشحونة بذم المقلدين. مشحونة بالمعاندين والجاهلين الذين يقلدون ولا يعقلون. وأنت يا الله الذي ألهمت عبادك هذه الصورة الحكيمة التي توافق كتابك وفيها إنعاش للنفوس وإحياء للقلوب، أنت الذي أنزلت القرآن لتعلمنا الحكمة، والقرآن أشار إلى ما صنعته لنقرأه ونفهمه، والقرآن فتح لنا الباب وقال: ادخلوا، فمن سمع القرآن وعقله دخل الباب واحتمل الحكمة، ومن لم يعقل ولم يفهم وقف وقال: كفاني الترنم بألفاظ القرآن. لك يا الله الحقول والحيوان ولك الإنجيل والقرآن ولك قلوب نوع الإنسان، وأنت دللتنا بالقرآن على المروج وعلى الحيوان وعلى ما أنتجته العقول، ففتحت لنا الطرق ولكن الجهال أقفلوها أمام المسلمين. أناموهم طويلاً. لا لا، بل كفنوهم ودفنوهم في اللحود، وأوقفوا أوروبا على مقابرهم ليحرسوها خيفة أن يرجع أحدهم لكونه دفن خطأ في لحده، فعلوا ذلك وهم لا يشعرون، وقد آن أوان مجدهم وأيام سعدهم، وسيكون فيهم مرشدون صالحون وحكماء محققون وعلماء نابغون.

ولما اطلع على هذا صاحبي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في الأمور الهامة في هذا التفسير قال: لقد أحسنت فيما لخصت من حكم لقمان ومن أمر ذي القرنين وبهما تشابهاً، ولكن أريد أن تذكر عشر حكم أخرى منظومة من الكتاب المتقدم ذكره لتكون تفكهة للقارئين وموعظة للمؤمنين، فقلت: نعم سأذكر لك عشر مواعظ كما قلت وهاك بيانها:

الحكمة الأولى

في الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج

حمار بولاق له حمير   وفي البلاد شغله كثير

حمل جحشاً حمل ملح قاسي   وكان لا يرثي ولا يواسي

وحمل الآخر بالسفنج   وقال سبحان الإله المنجي

فحامل السفنج صار يسعى   وحامل الملح النهيق قطعا

وحين أقبلا على المعادي   ونزلا الماء ببطن الوادي

امتلأ السفنج صار مثقلا   والملح حين ذاب خف محملا

فغطس الحامل للسفنج   كغطسة البذرة في النارنج

ولفت الماء عليه بالكسا ... ففارق الدنيا وعاف النفسا
وطلع الملاح وهو ينهق ... وهكذا رب أسير يعتق
فاصبر على أهوالها ولا ضجر ... فربما فاز الفتى إذا صبر
وربما جاءك بعد اليأس ... روح بلا كد ولا التماس

الحكمة الثانية: في شجرة البلوط والسنبلة

حكاية من شجر البلوط ... نقلتها عن شيخنا السيوطي
قال إلى سنبلة من فول ... ليتك في العلو تحكي طولي
ليتك لو غرست تحت رجلي ... وكنت فارقت الحمى من أجلي
وكنت في أمن من العواصف ... قالت له ما مسني من تلف
إني وإن كنت نحيف القامة ... وفي الهوى لا أملك استقامة
فإن ما عندي من اللدونه ... وقت الرياح يوجب المرونه
وأنثني تيهاً على أمثالي ... وبالرياح قط لا أبالي
وبينما الاثنان في تنازع ... إذ نفخت منافخ الزعازع
واغبرت الآفاق والبطاح ... وجلجلت في الشجر الرياح
وقد أصابت قامة البلوط ... ونزلت به إلى الهبوط
وسنبل الفول يميل تاره ... وينثني أخرى مع الإماره
ولم يصبه من أذى ولا ضرر ... وربما كان الهلاك في الكبر

الحكمة الثالثة: في البغلة

حكاية وقعت في سالف الأمم ... عن بغلة خدمت شابندر العجم
وغرها العز والإقبال فارتفعت ... في رتبة المجد والأنساب والشيم
يا طالما ذكرت أن أمها فرس ... قد ألبستها الموالي أشرف اللجم
وأنها ذكرت من قبل في كتب ... وضمها صاحب التاريخ بالقلم
وبعدما خدمت توما الحكيم رأت ... ذا دونها فبدت تشكو من الخدم
وحين شابت وفي الطاحون قد دخلت ... وأصبحت شبحاً في حيز العدم
والذل أورثها ضعفاً وألبسها ... حلي الجراح على ثوب من الورم
قد فكرت في الحمار النحس والدها ... وحققت نسباً عنه من القدم
وسلمت لليالي عند شدتها ... إن الشدائد لا تبقى على الشمم

الحكمة الرابعة: في الضفادع وزواج الشمس

سمعت عن لقمان أنه حكى ... وبالذي رواه قد تمسكا
وقال إن الشمس يوماً قالت ... نفسي إلى حب الزواج مالت
فخرجت تشكو لها الضفادع ... وهي تقول كيف بعد نصنع
أما إذا ما زوجوك أهلك ... ثم دنا في الجو منك بعلك

لا بــد مــن أن تلــدي شموســاً وتحرقـي الضفـدع والجاموسـا
إنـك في جـو السـما وحيـدة وعـن بحـار أرضنـا بعيـدة
ومـع هـذا فـاللظى لا يخفـى فكيـف ذا لـو تلديـن ألفـا
تنشـفين البحـر والأنـهارا وتحرقـين الليـل والنـهارا
أسـألك اللـهم لا تقـدر وأنـت يـا لقمـان لا تنفـر
فالشـمس كالظـالم إن تزوجـا أنتـج ألفـاً مثلـه وأخرجـا

الحكمة الخامسة
حكاية الكلب الذي ترك الرغيف واتبع خياله

كلـب علـى النـهر رأى رغيفـاً فجـاءه مـن جوعـه ملـهوفا
ونـزل المـاء وصـار يسـبح وفي الـهوا علـى الكـلاب ينبـح
ومـذ دنـا منـه رأى خيالـه فـترك الرغيـف جـهلاً يالـه
واتبـع الخيـال وهـو الجـاني ظنـاً بأنـه رغيـف ثـاني
فكـبر النـهر وثـار المـوج ومن يـد الكلـب تلاشـى الـزوج
واضطـر للرجـوع والنجـاة محبـة في طلـب الحيـاة
وازداد مـن غـروره ضـلالا لا حصـل العيـن ولا الخيـالا
ومثلـه بيـن الـورى كثـير مـن شـأنهم في العيشـة الغـرور
مـا حصلـوا بالجـهل أي زمـن لا عنـب الشـام ولا كـرم اليمـن

الحكمة السادسة
في الشيخ وحماره

شيخ لـه جحش ومـر في الخـلا بـه علـى روض تجلـى وانجلـى
أطلقـه في الـروض حتـى يرعـى مـن الحشـيش ولذيـذ المرعـى
فانشـرح الجحـش بـه وقمصـا وفي الـهوا برجلـه قـد رقصـا
وبينمـا الجحـش بـه يـدب إذ جـاء مـن بطـن الفيـافي دب
عاينـه الشـيخ فـراح يمشـي وقـال قـم واجـر بنـا يـا جحشـي
قال له الجحش ولـم قـال العـدو مـن يلقـه فشـمله مبـدد
فغضـب الجحـش بـلا تـأني وقـال قـم يـا ابـن الكـرام عنـي
فـالموت لا يكـون إلا مـره والمـوت خـير مـن حيـاة مـره

الحكمة السابعة
حكاية الرجل والبرغوث

فحـل مـن الرجـال يسـتغيث في فرشـه يأكلـه برغـوث
فـهم يشـكو بصيـاح عـالي وهـو ينـادي سـيد المـوالي
يقـول يـا مـن خلـق البريـه بعونـك ارفـع هـذه البليـه

وأنت يا أستاذ يا شيخ العرب ... خذه أسيراً في الحديد والخشب
ويا عفيفي من أذى البرغوث ... خذ عني الكرب وكن مغيثي
قالت له زوجته ما نابك ... ومن أذى البرغوث ما أصابك
أمسكه بين الأصبعين باليد ... واظفر به لا تستغث بأحد
عجائب عجائب عجائب ... إنك والله العظيم خائب
مثلك في الناس كثير العدد ... في كل حلة وكل بلد
من طبعهم ودأبهم حب الكسل ... أنبيك عن أخلاقهم إذا تسل
في أي عارض صغير زائل ... يرجون في تصريفه كل ولي
إن العظيم يدفع العظيما ... كما الجسم يحمل الجسيما

الحكمة الثامنة

حكاية الثعبان والمبرد

حكاية الثعبان ذي حكايه ... قد بلغت من حسنها النهايه
أذكره إذ مر وهو آتي ... بمبرد لرجل ساعاتي
وكان جوعاناً فرام يقرضه ... فلا تعنفه فهذا غرضه
قال له المبرد يا ثعبان ... ما تبتغي قال أنا جوعان
قال له كل إن يطعك نابك ... والله قد شرفني جنابك
فإنّما تأخذ من سماطي ... ما يأخذ الريح من البلاط

الحكمة التاسعة

حكاية الديك والصقر

حكاية إن تستمعها ترقص ... عما جرى للصقر والديك الخصي
الديك يوماً فر فوق السطح ... خوفاً من الطباخ وقت الصبح
ووقفت تطلبه الصغار ... وهو بخوف ما له قرار
حتى لقد غروه بالصفير ... وأسمعوه صيحة الطيور
ومع هذا لم يسلم أبداً ... ولم يقرب بل نأى وأبعدا
فجاءه الصقر وقال هل صمم ... في أذنيك أيها الديك الأصم
كم ذا ينادون وأنت غافل ... إنك يا فحل الدجاج جاهل
وإننا يا معشر الصقور ... أعقل ما جد في الطيور
نصطاد في البر وبعد نرجع ... وإن تنادينا الرجال نسمع
قال له الديك كذاك أسمع ... ويدل الأذنين عندي أربع
لكن تأمل وانظر المنادي ... فإنه من أعظم الأعادي
هذا هو الطباخ يا ابن ودي ... يرغب في ذبحي وأكل كبدي
إنك لا تؤخذ مثلي للشوا ... دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى

الحكمة العاشرة
في حكاية الكلبين وجيفة الحمار

كلبان كانا عند شط النهر فاسمع حديثاً لهما بالشعر
قد نظرا رمة جحش عائمه بالماء والطير عليها جاثمه
وأخذت تبعدها الرياح فقال كلب منهما نباح
تعرف ماذا في المياه نصنع نشربها والجحش بعد يطلع
قال له أخوه يا حبيبي صدقت ليس ذاك بالعجيب
وإن شربناه بتلك الهمه ينشف هذا البحر تحت الرمه
ونزلا في البحر شربا شربا طوراً بلعق ثم طوراً عبا
حتى امتلا كلاهما وانكبسا وفارقا الدنيا وعافا النفسا
وقد رأيت في الرجال مثل ذا من مسه الطيش فأورق الأذى
يطلب نيل المجد والفخار ورأسه قدر من الفخار
لا عقل فيها بل بها مأمول يطمع فيه وهو مستحيل
فبئست العادة فاحذرها لشره وقس بما رأيته ما لم تره

فقال صاحبي: إن هذه الحكم عجيبة. فهل من مزيد؟ فقلت: كفى من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن لم ينتفع بالقليل لم يفده الكثير. فقال: ولكني أريد أن تبحث في حكم لقمان عن بعض الحكم التي مرت في سورة «الروم» وهي قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾[الروم: ٤١] الخ، فإنك هناك ذكرت أن أعمال الناس وحربهم وظلمهم أنتج هذه المصائب في الأرض كالطاعون والحصباء الخ، فهل في كلام لقمان ما يشير لذلك؟ فقلت: نعم وذلك في الحكاية الآتية وهي:

حكاية الصياد والطائرة

قد نشب الصياد بالنبال طائرة كانت بسطح عالي
فوقعت لوقتها وصاحت وسكبت دموعها وناحت
ونظرت للسهم وهو فيها وأخذت تعضه بفيها
وهي تقول كيف يا ابن آدم أكون عوناً لك في سفك دمي
سهمك قد أرشت من جناحي وكيف أثخنت به جراحي
ماذا فعلت يا غبي فيكا حتى أذوق الموت من يديكا
لكن ربي ذو انتقام أبدا لم ينج قط من يديه أحدا
أقامكم أعداء فوق الأرض وبعضكم يسعى لقتل بعض
وكل باغ شأنه التعدي فهو إذاً لواقع من بعدي
فالبغي داء ما له دواء ليس لملك معه بقاء
وليس من عقل الفتى وكرمه إفساد شخص كامل لقرمه

فلما سمع هذه الحكاية قال : إذن هذا تحريم للحلال ، هل يحرم الصيد؟ فقلت : هذا ضرب مثل والأمثال تراد غاياتها لا ما نطق به منها . فقال : لقد ازدادت دهشتي من هذه الأمثال . فقلت : اقرأ قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾[النمل : ٥٢] ، فهذا عين المثل ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت : ٤٩] ، ولقد رأيت كثيراً من هذه الحكم في كتب الأوروبيين . فقال : حسن وكفى هذا . فقلت : الحمد لله رب العالمين .

كتاب كليلة ودمنة

ومن هذا القبيل كتاب « كليلة ودمنة » الذي ألفه الحكيم « بيدبا » الفيلسوف لملك الهند المسمى « دبشليم » إنه ينحو منحى كتاب لقمان ، إنه يصوغ الحكمة على لسان الحيوان ، فإذا قال الله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾[لقمان : ١٢] فليس معناه أنه لم يعط الحكمة لسواه . كلا ، ثم كلا ، إنه قال : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾[البقرة : ٢٦٩] . إن الله لم يختص لقمان بالحكمة ، بل إنه جعلها في أناس اختارهم هو من أمم شتى ومنهم « بيدبا » المذكور ، إن الله لم يعط الحكمة للأمم السابقة وللصدر الأول من أمتنا الإسلامية ويحرم المسلمين اليوم منها . كلا . ثم . كلا .

إن الله خلقنا وهو الذي خلق الحيوان والنبات والعقول ، وألهمها الحكمة وعقولنا مستعدة لها ، فلنا أن نقرأ ما أجراه على قلوب الحكماء من الأمم والحكماء من الإسلام ليكون في الأمة حكماء في مستقبل الزمان ، وهذا الذي سيكون .

إنه لا فرق بين حيوان في القفر ونبات في المرج وعقل في الإنسان ، إن الله شوقنا إلى دراسة كل هذا . لماذا؟ ليكون فينا نابغون وهو لا يعطي الحكمة إلا لمن هو أهل لها ، ولا أهل لها إلا من قبلها واستعد لها ، والاستعداد من أهم المؤهلات له قراءة الكتب ونظر العالم ودراسة عقول السابقين واللاحقين .

فإذا قرأ المسلم « باب الأسد والثور » من ذلك الكتاب عرف سر السياسة وكيف يكون الغدر وكيف يختال المغتاب على الإفساد بين الصحاب والإيقاع بالشر بينهم وكيف أمكن دمنة أن يوغر قلب الأسد من الثور ويهلكه ، وكيف ظهر الأمر بعد ذلك وشهد الشهود على « دمنة » أنه غدار وأن الثور لم يذنب ، فحكم عليه القضاة بالقتل فقتله الأسد .

وإذا قرأت « الحمامة المطوقة » عرفت كيف يتحد المختلفون في الطباع والأخلاق والأحوال ، وكيف يكون الاتحاد سبب نجاتهم ، وكيف اتحدت الحمامات المتفقات النوع على التخلص من الهلاك فنجحن .

وإذا قرأت « باب البوم والغربان » عرفت كيف تكون حيلة المحتالين من أهل السياسة ، وأن تملق العدو لا ينبغي أن يغتر به وإن أظهر تضرعاً وملقاً ، وكيف مكر الغراب بجماعة البوم فهلكت .

وإذا قرأ الإنسان « باب القرد والغيلم » عرف مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها ، فإن الغيلم طلب من القرد قلبه بإشارة زوجته فاحتال القرد عليه وخدعه ثم فر وتمت حيلته وندم الغيلم .

وإذا قرأ « باب الناسك وابن عرس » عرف مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب ، وكيف قتل الناسك ابن عرس الذي نجى ولده من الحية وهو مخضب الفم بالدم فظن أنه قتل ابنه . فلما علم أن ابنه حي وأن ابن عرس هو الذي نجاه بقتل الثعبان ندم .

وإذا قرأ « باب ابن الملك والطائر فنزة » وأن ابن الملك قتل ابن الطائر المذكور لما زرق في حجره فجاء الطائر « فنزة » ففقأ عين ابن الملك ثم طلب الملك من الطائر المذكور أن يصاحبه ثانياً فأفهمه الطائر أن ذلك مستحيل لأن الأعداء الذين بينهم ترات يجب أن يتقي بعضهم بعضاً .

وهكذا أبواب أخرى كباب الأسد وابن آوى وباب اللبوة والأسوار والشهر وباب الناسك والضيف وباب السائح والصائغ وباب ابن الملك وأصحابه ، فهذه جملة أبواب الكتاب إذا قرأها المسلم فإنّما قرأ حكمة الحكماء ، وليست هي حكمتهم بل هي حكمة آتاهموها الله ، كما أن النبات لله والحيوان لله ، وقال تعالى : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، فكما أن المال من عند الله فالحكمة من عند الله ونحن عباده ، والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] فهل يبيح الله لنا الزينة والطيبات من الرزق ويحرم علينا العلم والحكمة ؟ أحل الله لنا الرزق والزينة ، بل أحل لنا غنائم الأمم إذا حاربناهم حرباً شرعياً أن نأخذ مالهم ، فهل يبيح لنا ذلك ويحرم علينا اجتناء علومهم وحكمتهم ؟ كلا كلا . بل الله سبحانه وتعالى عادة يزهدنا في متاع الدنيا ويرغبنا في زاد الآخرة ، وزاد الآخرة لا يكون إلا بالعلم والعمل تابع له .

ففز بعلم تعش حيًّا به أبـداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

حكمة قدماء المصريين

وهل أتاك نبأ حكمة قدماء المصريين . إن هؤلاء قد ظهرت حكمتهم في هذه الأيام وقد فتحت كنوز وظهرت رموز وأثيرت من القبور عجائب وصناعات ، وكذلك ظهرت كتابات على الأحجار وفي ورق البردي ، قد قصدها الناس من كل فج عميق كما استبان في سورة « البقرة » عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية : ١٦٤] ، والكلام على قوله : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فترى اليوم أهل أوروبا وأمريكا يقصدون بلادنا من كل فج عميق ليشهدوا حكماً يقرؤونها ، وهاك منها : فصلين : أحدهما : ما جاء في جرائدنا المصرية يوم الجمعة ٩ فبراير سنة ١٩٢٣م تحت العنوان التالي ما نصه :

أقدم كتاب في العالم

منذ ٥٥٠٠ سنة عثر أحد الفلاحين على أوراق بردية وهو يحفر مقبرة بناحية زراع أبي النجا بطيبة ، فباعها للعالم الأثري الفرنسي « بريش دافين » الذي أذاعها سنة ١٨٤٧ ثم قدمها هداية لدار الكتب الأهلية بباريس ، لذلك اشتهرت بورقة « بريس البردية » وهي أقدم كتاب في العالم لأنها كتبت منذ ٥٥٠٠ سنة ، وقد كانت كتب الأولين كلها من هذا النوع وهي تشتمل على ١٨ صحيفة مكتوبة بالخط الهراطيقي بالحبر الأحمر والأسود متضمنة نصائح ومواعظ وحكماً وضعها رجلان : الأول : يدعى « قاقمة » وهو وزير الملك حوني من الأسرة الثالثة . والثاني : يدعى فتاح حتب وهو وزير الملك

أسي من الأسرة الخامسة، كتبها وله من العمر ١١٠ سنوات، اقتبسها من السلف وجعلها موعظة للخلف، ولذا قال لابنه: إذا سمعت هذه الحكم السامية عمرت طويلاً وبلغت أوج الكمال وتدرجت إلى معالي العلا والمجد. ثم اعتنى بترجمتها من اللغة المصرية القديمة إلى الفرنسية العالمان شاباس دفيري، وباللاتينية العالم لوث، وبالألمانية العلامة بروكش باشا، وبالإنجليزية الأثري المستر جن، ومن هؤلاء نقلت إلى العربية.

ولأهمية هذه النصائح الدرية اعتنى بها الإنكليز اعتناء عظيماً حتى قرروها في برنامج الدراسة للأطفال فأكسبتها المبادئ الشريفة التي أشربتها قلوبهم في الصغر، فسادوا العالم وقادوا الأمم وذلك بفضل أتباعهم مناهج أجدادنا العظام التي دونوها لنا وكنزوها لأجلنا فكان نفعها لغيرنا. ويا حبذا لو اهتدينا إليها واقتدينا بها فنحن أحق بها وهذا بيانها:

نصائح قاقما الحكيم المصري القديم

(١) اسلك طريق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله.

(٢) احذر أن تكون عنيداً في الخصام فتستوجب عقاب الله.

(٣) الابن الذي ينكر الجميل يحزن والديه.

(٤) متى كان الإنسان خبيراً بأحوال الدنيا سهل عليه قيادة ذريته.

(٥) إن قليل الأدب لبليد ومذموم.

(٦) إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطايب الطعام الذي تشتهيه فلا تبادر إلى تناوله لئلا يعتبرك الناس شرهاً، واعلم أن جرعة ماء تروي الظمأ ولقمة خبز تغذي الجسم.

(٧) احفظ هذه النصائح واعمل بها تكن سعيداً ومحموداً بين الناس.

أمثال فتاح حتب الحكيم المصري القديم

(١) إن التعرف بأعاظم الناس نفحة من نفحات الله.

(٢) لا توقع الفزع في قلوب البشر لئلا يضربك الرب بعصا انتقامه.

(٣) إذا شئت أن تعيش من مال الظلم أو تغتني منه نزع الرب نعمته منك وجعلك فقيراً.

(٤) إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء لأن بيده مقاليد الأمور فمن العبث التعرض لإرادته تعالى.

(٥) إذا كنت عاقلاً فربِّ ابنك حسبما يرضى الله تعالى، وإذا شب على مثالك وجد في عمله فأحسن معاملته واعتن به، أما إذا طاش وساء سلوكه فهذب أخلاقه وأبعده عن الأشرار لئلا يستخف بأمرك.

(٦) إن تدبير الخلق بيد الله الذي يحب خلائقه.

(٧) إذا نلت الرفعة بعد الضعة وحزت الثروة بعد الفاقة فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها، فإنك أمين على نعم الله والأمين يؤدي أمانته، واعلم أن جميع ما وصل إليك سينتقل منك إلى غيرك ولا يبقى فيه لك إلا الذكر.

(٨) ما أعظم الإنسان الذي يهتدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

(٩) من خالف الشرائع والقوانين نال شر الجزاء.

(١٠) لا ينجو الأثيم من النار في الحياة الآخرة.

(١١) إن حدود العدالة لثابتة وغير قابلة التغيير.

(١٢) إذا دعاك كبير إلى الطعام فاقبل ما يقدمه لك، ولا تطل نظرك إليه، ولا تبادره بالحديث قبل أن يسألك لأنك تجهل ما يخالف مشربه بل تكلم عندما يسألك فحينئذ يعجبه كلامك.

(١٣) إذا كلفك كبير بحاجة فأنجزها له حسب رغبته.

(١٤) إذا تعرفت برجل رفيع في المقام فلا تتعاظم عليه، بل احترمه لمركزه.

(١٥) إذا جلست في مجلس رئيسك فاستحضر الكمال والصمت فلا تتوفق في الكلام لئلا يعارضك من هو أكبر منك نفوذاً وأكثر منك خبرة، واعلم أن من الجهل أن تتكلم في مواضيع شتى في آن واحد.

(١٦) لا تعق كبيراً عن عمله متى رأيته مشغولاً فإنه عدو لمن يعوق أعماله.

(١٧) لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفاً ويعمر بيتك.

(١٨) من الحمق أن يتشاجر المرؤوس مع رئيسه فإن الإنسان لا يعيش عيشة راضية إلا إذا كان مهذباً لطيفاً ظريفاً.

(١٩) إذا دخلت بيت غيرك فاحذر من الميل إلى نسائه، فكم أناس تهافتوا على هذه اللذة القصيرة التي تمر كالحلم فأودت بهم إلى المخاطر والمهالك، واعلم أن بيت الزاني آيل للخراب والزاني نفسه أيضاً فاقد الرشد وممقوت عند الله والناس ومخالف للشرائع والنواميس.

(٢٠) إذا كنت عاقلاً فدبر منزلك وأحب زوجتك التي هي شريكتك في حياتك وقم لها بالمؤنة لتحسن لك المعونة وأحضر لها الطبيب وأدخل عليها السرور، ولا تكن شديداً معها، إذ باللين تملك قلبها وقم بمطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك.

(٢١) لا تعجب بعلمك لأن العلم بحر لا يصل إلى آخره أي متبحر مهما خاض فيه وسبح، واعلم أن الحكمة أعلى من الزمرد لأن الزمرد تجده الفعلة في الصخور بخلاف الحكمة فإنها نادة الوجود.

(٢٢) لا تترك التحلي بحلية العلم ودماثة الأخلاق.

(٢٣) إذا كنت زعيم قوم فنفذ سلطتك المخولة لك وكن كاملاً في جميع أعمالك ليذكرك الخلف ولا تسرف في المواهب والنعم التي تقود إلى الكبرياء وتؤدي إلى الكسل.

(٢٤) إذا كنت قاضياً فكن لين الجانب مع المتقاضين ولا تجعل أحدهم يتردد في كلامه ولا تنهره ودعه يتكلم بحرية لكي يعبر عن مظلمته بصراحة، أما إذا لم تنصفه فيكون سبباً لسوء سمعتك، فحسن الإصغاء أفضل طريقة لكشف الحقيقة.

(٢٥) ليكن أمرك ونهيك لحسن الإدارة لا لإظهار الرياسة والإدارة.

(٢٦) لا تستبد لئلا تضل.

(٢٧) لا تكن يابساً فتكسر ولا ليناً فتعصر.

(٢٨) إذا شئت أن تطاع فسل ما يستطاع.

(٢٩) إذا حكمت بين الناس فاسلك طريق العدل ولا تتحيز لفريق دون آخر وإلا نسبوك للجور والتعسف .

(٣٠) إذا عفوت عمن أساء إليك فاجتنبه ولكن اجعله ينسى إساءته إليك حتى لا يذكرها مرة ثانية .

(٣١) بقدر الكد تكتسب الثروة فمن جد في طلبها أنجح الله مسعاه .

(٣٢) اجتهد دائماً في عملك ولا تترك فرصة اليوم للغد فمن جد وجد .

(٣٣) إذا كنت منتظماً في حياتك صرت غنياً وحسنت سمعتك وتحسنت صحتك وطار صيتك وملكت حاجتك ، أما الذي ينقاد لشهواته فإنه يصير ذميماً سمجاً وعدواً لنفسه .

(٣٤) إذا وقفت أمام الحاكم فاخفض جناحك واحن رأسك ولا تعارضه وجاوبه بوداعة لينجذب قلبه إليك .

(٣٥) إذا فاه أخوك بالشر فازجره لتكون خيراً منه .

(٣٦) اصغ لكلام غيرك فإن السكوت من ذهب .

(٣٧) لا تحتقر فقراً وإذا زارك فلا تتركه سدى لئلا تخذله ولا تغضبه . ولا تحتقر رأيه فإن هذا ليس من شيم الكرام .

(٣٨) احذر من تحريف الحقيقة بين الناس لئلا تزرع الشقاق بينهم .

(٣٩) لا تخبر أحداً بما صرح لك غيرك لئلا يبغضك الناس .

(٤٠) من ساءت سيرته ضل الصراط المستقيم .

(٤١) إذا كنت في مجتمع فاسلك دائماً حسب قوانينه .

(٤٢) إذا عاشرت قوماً فاجذب قلوبهم إليك .

(٤٣) ليكن كلامك دائماً سديداً مفيداً .

(٤٤) إذا شئت أن تسلك سبيل الرشاد فابتعد عن الشر واحذر الطمع فإنه داء دفين لا دواء له والمتصف به قليل الحظ لأن الطمع مجلبة الشحناء والشقاق بين الأهل والأقارب وهو سبب كل الشرور والرذائل ، أما القناعة فهي أساس النجاح والفلاح ومصدر الخير والبر .

(٤٥) لا تتطرف في الكلام ولا تصغ إلى الوقاحة لأنها صادرة عن التهيج والغيظ ، وإذا تطرف أحد أمامك في الكلام فأطرق رأسك إلى الأرض لترشده بذلك إلى طريق الحكمة .

(٤٦) من يزج بنفسه في متاعب الدنيا ويستغرق فيها كل أوقاته لا يجد لذة في حياته .

(٤٧) من يعكف طول نهاره على شهواته ضاعت مصالح بيته .

(٤٨) إذا شئت أن تعرف طباع صديقك فلا تسأل أحداً عنه ، بل استنتج ذلك بانفرادك معه في المحادثة المرة بعد المرة ولا تغضبه ، ومتى أخبرك عن أصل ماضيه عرفت جميع أخلاقه ، وإذا فاتحك الحديث فسايره ولا تجعله يتحفظ في حديثه وإياك أن تقاطعه في الحديث أو تزدريه ، وبهذا يمكن أن تستطلع جميع أحواله .

(٤٩) كن بشوشاً ما دمت حياً .

(٥٠) من زرع الشقاق بين الناس عاش حزيناً ولا يصحبه أحد.

(٥١) من طابت سريرته حمدت سيرته.

(٥٢) متى كبر الإنسان في السن عادت إليه حالة صغره، فيعمش بصره، وينقص سمعه، ويصمت فمه، ويستخف كلامه ويظلم عقله، وتضعف ذاكرته، وتخور قواه، وتقف حركة قلبه، وترق عظامه، ويهزل جسمه، ويفقد ذوقه وشمه، حقاً إن الشيخوخة آفة الإنسانية. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني

أقدم كتاب في العالم أيضاً

نصائح الحكيم المصري القديم «آني»

لتلميذه خونسو هتب في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم

« توت أنخ أمون » أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريباً

(١) أخلص الله تعالى في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته فإنه يهمل من توانى في خدمته.

(٢) لا تتقرب إلى ربك بما يكرهه ولا تبحث أسرار ملكوته فهي فوق مدارك العقول واحفظ وصاياه وإرشاداته فإنه يرفع من يمجده.

(٣) احترم الأعياد وأد شعائرها وإلا قد خالفت أوامر الله.

(٤) لا تستعمل الغوغاء والضجيج في بيت الله أيام أعيادك وادع ربك تضرعاً وخفية بقلب مخلص فذلك أقرب للإجابة.

(٥) إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة.

(٦) تتهذب النفوس بالحسنات والترنمات والسجود.

(٧) من اتهم زوراً فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل.

(٨) اجعل لك مبدأً صالحاً وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسعى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وتهيئ لك مكاناً في الآخرة فإن الأبرار لا تزعجهم سكرات الموت.

(٩) صن لسانك عن مساوئ الناس، فإن اللسان سبب كل الشرور، وتحر محاسن الكلام، واجتنب قبائحه فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة.

(١٠) تزوج حديث السن لترى لك ولداً في ريعان شبابك يكون سبباً في احترامك وإجلالك وبرهاناً على صلاحك وتقواك.

(١١) لا تهمل الترحم على والديك وتحر لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعاً وأرجاها قبولاً، ومتى قمت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك.

(١٢) إن الله سخر لك أماً كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات وربتك ولم تأنف من فضلاتك ولم تسأم معاناة تربيتك ولم تكل أمرك لغيرها يوماً ما وكانت تبر أساتذتك وتواسيهم كل يوم ليعتنوا بتعليمك، والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما اعتنت بك أمك ولا تغضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك.

(١٣) اترك لأخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ما ينغصك حرصاً على الرابطة العائلية واستبقاء لمودته حتى يكون معوناً لك في مصالحك الأخرى المشتركة معه.

(١٤) إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها ولا تتسرع معها في الغضب لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع في بيتك فتكون ثمرتها التنغيص فإن كثيراً من الناس يضعون أساس الخراب في بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة.

(١٥) إذا كنت قوي الإرادة فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك.

(١٦) إذا وقعت عينك على جارتك فإياك أن تتمادى أو تتعمد رؤيتها تابعاً واحذر أن تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك.

(١٧) إياك أن تميل إلى امرأة فتلعب بدينك وشرفك ولا تحدث ضميرك بشأنها فإنها كالماء العميق الذي لا يعرف له قرار. وإذا كاتبتك امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقعك في شباكها فإياك أن تصبو إليها لئلا توقع نفسك في حبائل الهلاك فإن الشهوات طريق للموبقات.

(١٨) لا تدخل بيت السكير ولو أفادك مجداً وشرفاً.

(١٩) لا تتردد على محال الخمور احتراساً من عواقبها الوخيمة، لأن لشارب الخمر فلتات يستفظع صدروها من نفسه متى أفاق. وهو دائماً مبتذل محتقر عن الناس حتى بين إخوانه الذين يشاركونه في غروره وشروره.

(٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية.

(٢١) اسلك سبيل الاستقامة دائماً تصل إلى الرتب العلية.

(٢٢) كن شهماً شجاعاً فإن الجبان لا يستفيد من الحياة غير ما وهب الله له.

(٢٣) لا تجلس في حال وقوف من هو أكبر منك سناً ولو كنت أرقى منه رتبة.

(٢٤) الزم بيتك ولا تغادر إلا لموجب. وإذا لقيت في طريقك من يتجاهلك فغض طرفك عنه. وزر أصدقاءك وأحباءك.

(٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها.

(٢٦) لا تعاشر الأسافل لئلا تذهب هيبتك.

(٢٧) لا تكثر الكلام ولا تتظاهر بالفصاحة في التحقيق وتكلم بحجتك بعد التروي والتفكر فذلك أدعى لخلاصك.

(٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك.

(٢٩) لا تنطق بالشر فتعود عاقبته عليك.

(٣٠) إذا قاومت نفسك في مسراتها استطعت ردعها عن شهواتها.

(٣١) إنك لا تجني من الشوك العنب.

(٣٢) ليكن حديث كل إنسان في شؤونه ولا يشتغل بشؤون غيره.

(٣٣) إذا تخلقت باللطف والسكينة صرت محبوباً عند الناس ووجدت منهم عضداً ونصيراً في جميع شؤونك.

(٣٤) ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال إنّما هي في استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف .

(٣٥) من تعود الجد والنشاط لا يحتاج إلى حث واستنهاض .

(٣٦) إذا رأيت ما لا ترضاه في مجتمع فاجتنبه ولا سيما إذا كنت لا تستطيع التغلب على عواطفك .

(٣٧) إذا خاطبك رئيسك بحدة وانفعال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه واستعمل اللين والرفق مع كل من يخاطبك بتهيج ، فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه . وعلى العموم إن الكلام اللين يجذب القلوب .

(٣٨) لا تستسلم إلى اليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .

(٣٩) الزم الصمت إذا لم يكن داع للكلام .

(٤٠) إذا اتخذت وكيلاً فانتخبه أميناً عاقلاً وثق به مع مراقبته . فإذا كان حازماً نسب لك هذا الحزم .

(٤١) لا تثق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم يجرونك إلى الخراب العاجل .

(٤٢) تنبه إلى أعمالك ولا تتهاون فيها فإن التهاون عاقبته الخيبة والفقر .

(٤٣) إذا كنت متبحراً في العلم فانقش علمك في صحيفة فؤادك .

(٤٤) إذا وليت منصباً فأظهر براعتك فيه فتؤهل نفسك لأرقى منه .

(٤٥) العالم ذو منزلة عند الكبراء وإن كان فقيراً ، فعز العلم ثروته ومجد العلم حمايته .

(٤٦) إذا جاء ضيف فأنزله منزلته من التحية والإكرام وتلطف معه لتعرف الغرض من زيارته ، ثم حادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .

(٤٧) إذا أكلت وحولك من ينظر إلى طعامك فأطعمه منه ولو شيئاً يسيراً ، فكم رجل كان في نعمة ورئاسة فأصبح في بؤس وتعاسة ، والنعمة لا تدوم إلا مع المحسنين .

(٤٨) لا تكن شرهاً فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقاً للحياة الأبدية .

(٤٩) كل شيء يأتي عليه الدهر لا بد أن يتغير وضعه حتى يفنى أثره ، ومن كان مطيته الليل والنهار فلا بد أن ينهار ، فكم تغيرت الأنهار بالجزر والمد من مبدأ خلقتها ، وإذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل ذو إرادة ثابتة .

(٥٠) الحب أعمى لأنه يصور قبيح المحبوب جميلاً لشدة ميل النفس إليه ، فهذه وما قبلها ١٢٠ حكمة .

وقد جاء في كتاب «الأدب والدين عند قدماء المصريين» غير ما تقدم ما نصه : ورقة لندن البردية : أمثال وحكم مروية عن الأديب المصري القديم « أمنبت بن كانخت » منذ ٣٠٠٠ سنة تقريباً ، وجدت على الورق البردي المحفوظ بالمتحف البريطاني وتاريخها يرجع إلى الأسرة الثانية والعشرين :

(١) احفظ هذه الوصايا واعمل بها تعش سعيداً ولا تهملها لئلا تحل بك النكبات والمصائب.

(٢) لا تسرق مال غيرك لئلا يقبض الله روحك في لمحة بصر ويبدد أموالك ويخرب بيتك وتصير عبرة لمواطنيك ومضغة في أفواههم في حياتك وبعد مماتك.

(٣) إذا أذل الغني فقيراً أذله الله تعالى في هذه الدنيا وأذاقه عذاب النار في الآخرة.

(٤) اجتنب سيئ الخلق فإنه أحمق ممقوت من الله والناس.

(٥) سبح الله تعالى واعص الشيطان.

(٦) لا تغالط شريكك أو زميلك في الحساب فيغضك الله وتشتهر بالغدر والخيانة.

(٧) لا تظهر أمام الناس غير ما تبطن فتخدعهم واجعل باطنك كظاهرك فإن الله يبغض الكذوب المخادع.

(٨) قيراط تحرزه من حلال خير من ألف تملكه من حرام.

(٩) لا تضيع أيامك في مجال الخمور لئلا تعجل حتفك.

(١٠) اعلم أن لقمة خبز تأكلها في بيتك في حرية واطمئنان خير من أفخر طعام تأكله في قصر غني بذل وهوان.

(١١) لا تشغل قلبك بحب المال ولا تهلك قواك في تحصيله فإن الرزق مقسوم وميسر لصاحبه بالحظ والنصيب.

(١٢) لا تفرح بمال الظلم فإنه سريع الزوال.

(١٣) لا تذكر أحداً بسوء واجعل كلامك دائماً في الخير وابتعد عن الشر.

(١٤) كن دائماً كريماً مهذباً تكن محبوباً ومحموداً عند الناس.

(١٥) لا تتعمد رؤية جارتك وإلا كنت كالذئب في خبثه.

(١٦) ولا تشته مال غيرك.

(١٧) لتكن جميع أعمالك صالحة في هذه الدنيا.

(١٨) احترس من الأشرار واحذر عداوتهم.

(١٩) لا تتعد على مزرعة جارك، وإذا أدت الحال إلى النزاع فخير أن تتخلص منه بحسن التفاهم.

(٢٠) كن ثابتاً في أعمالك ثبات الشجرة في مكانها لا يزعزعك شيء في هذه الحياة الدنيا.

(٢١) إذا أطعت رئيسك جذبت قلبه إليك، واكتسبت ثناءه واكتفيت شر عنفه وشدته.

(٢٢) لا تصادق على قول الكاذب لئلا يصدقه الناس بسببك فتكون شراً منه.

(٢٣) إذا كنت محبوباً ومحموداً عند الناس وأنت فقير خير لك من أن تكون ممقوتاً ومبذولاً مع غناك.

(٢٤) لا تستمر في مضجعك حتى مطلع الفجر.

وجاء في صحيفة ٢٩ من هذا الكتاب أيضاً ما نصه: ورقة ليد البردية منذ ٢٥٠٠ سنة

(١) لا تجعل كل همك في تحصيل المال فإن الله يعطيه لمن يشاء.

(٢) إن الله يعطي القوة للعاقل لتدبير شؤونه.

(٣) يرضي الغني الله إذا أشبع الفقير لأنه ائتمنه على نعمه .
(٤) من أعطى الفقير أرضى الله عليه .
(٥) لا تخدع أحداً فيخدعك الناس .
(٦) لا تكلم الشرير ولا تعامله .
(٧) تعرف الأمين إذا أودعته مالاً .
(٨) تعرف العادل إذا قلدته منصباً .
(٩) تعرف الصاحب عند الشدة .
(١٠) تعرف ابنك متى احتجت إليه .
(١١) الكثير الكلام تسهل معرفة باطنه .
(١٢) لا تعامل الكذوب فتسبب لنفسك إحناً .
(١٣) لا تقلد حقيراً أو صغيراً على المناصب فيستخف بك الناس .
(١٤) الرجل الصالح دائماً يتذكر آخرته .
(١٥) أيام الفاقة كنز للعاقل .
(١٦) أعدت الجنة لمن يضحي حياته للفقير .
(١٧) ليست سعادة الإنسان في تغذية جسمه بل في تغذية روحه .
(١٨) اللياقة تقضي ألا تفخر بغناك أمام الفقير وألا تظهر الفرح أمام الحزين .
(١٩) لا تحرم الفقير من مالك في حياتك حتى ترحم به بعد مماتك .
(٢٠) لا تغتب أحداً ولا ترفض نصيحة من حنكته التجارب .
(٢١) لا ترفض كلام العاقل ولا كلام الرجل المنزه عن الغرض .
(٢٢) لا تكن مكثاراً للكلام بل أصغ دائماً لمن يكلمك ولا تقاطعه .
(٢٣) لا تتشاحن مع من لا يعرف قدرك .
(٢٤) لا تنطق بهجر القول في بيتك لئلا يقتدي بك أهلك .
(٢٥) لا تعلق قلبك بامرأة تذهب بحياتك .
(٢٦) المرأة الجميلة توصف بالعقل إذا لم تمل إلى المنكر .
(٢٧) المرأة العاقلة تسعد زوجها ، والمرأة الشريرة تجعله دائماً تعيساً .
(٢٨) ابتعد عن كل طريق يقربك من الشيطان .
(٢٩) قليل في حوزك خير من كثير يبعد تناوله .
(٣٠) لا تطمع في ادخار المال لأنك تجهل هذه الحياة ، ستترك غداً مالك فيتمتع به غيرك .
(٣١) لا تقدم على أذى ولو أدى لتمليكك الدنيا وما فيها .
(٣٢) لا تهم في ارتكاب المحرمات فإنها تضيع نصيبك في العالم الثاني .
(٣٣) العاقل من ادخر المال لأيام البؤس .
(٣٤) لا تعنف سيئ الخلق أمام الناس لئلا يهينك . انتهى ما أردت ذكره من حكم قدماء المصريين .

بهجة الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾

مقدمة

هذه الآية أفهمتنا سر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، أوتي لقمان الحكمة ويقول الله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩]، إذن الحكمة ليست خاصة بلقمان، الحكمة نور من الله كنور الشمس والقمر والكواكب ولو حصرت في لقمان لكان ذلك مخالفاً لناموس الله في عوالمه فهو واسع الرحمة رؤوف بالناس، إذن الحكمة يعطيها الله لمن يشاء، يقول الله: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩] فهاهو ذا سبحانه مدح الحكمة بأنها تنتج الخير الكثير.

إذن أصبحت الحكمة من علوم الدين الإسلامي، ومعنى هذا أن كل حكمة ألهمها الله لأي امرئ في الأرض من عربي وعجمي قديماً وحديثاً هي من علوم الإسلام وكفى بهذا حكمة وعلماً، وإياك أن يصدك عن هذا أيها الذكي ما يقال لك إنه لم يرد في كتاب الله، أو يقال لك إذن إذا خالفت الحكمة كتاب الله فلا تتبعها، فهذا قول من لا محصل عنده، فأما ورودها في كتاب الله فهاهي ذه الآية التي نحن بصددها، وأما مخالفتها لكتاب الله فهو مستحيل لأنا قلنا إنها حكمة والحكمة لا تقبل النقض ولا الشك وما كان معقولاً موافق لكتاب الله تعالى، فأما ما لا يقبله العقل فليس حكمة والقرآن حض على التعقل والتفكر، مثال ذلك جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والنفسية فهي حكمة، والحكمة خير كثير ودين الإسلام يدعو إليه. إذن المسلمون يقبلون كل حكمة من أي أمة من أمم الأرض، وتكون تلك الحكمة علماً من علوم الدين. وهذا أصل بديع أورده الله في هذه السورة حتى إذا قرأنا حكم قدماء المصريين وآدابهم ورأيناها معقولة قلنا هذه الآراء ترديد لصدى صوت الإسلام، وهي من ديننا لأن ديننا جاء لتعليم العالم كله ورسولنا خاتم النبيين، والله يقول: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[النساء: ١٣١]، فالديانات والمعقولات كلها قد اتحدت في هذا الإسلام، فالإسلام كما جمع الديانات جمع العلوم، وليست معنى جمعه للعلوم أنه شرحها فهذا مستحيل، ولو شرح الديانات في آلاف المجلدات لم يكن ديناً بل هو شيء آخر غير الدين تسميه بحسب ما تراه، وإنما معنى جمعه للعلوم أنه يدخلها في ضمن معتقداته وأعماله. إذن المسلم في المستقبل بعد هذا التفسير يقرأ كل حكمة وكل علم في الشرق والغرب، ويقرأ علوم الألمان والإنجليز وأهل سويسرا والرومان ويدرس علوم حكمائهم، ثم يصبح هو له رأي خاص في ذلك كله، فيكون إذن ممن أوتي الحكمة وإذن له خير كثير. فإذن الله عز وجل لم يفتح على الناس كلها بالحكمة ويحرم المسلمين منها. كلا. إن الله يقول: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[فاطر: ٢] والرحمة ليست خاصة بغير المسلم ولا الحكمة، بل المسلم أولى بها من كل الأمم لأنه يدعو الناس إلى سعادتهم وإلى رقيهم.

يا أمة الإسلام أنت بعد اليوم راعية الأمم مهذبة الشعوب، إن آباءنا بعد العصور الثلاثة التي هي خير العصور قد تفرقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض فلم يتفرغوا لإسعاد الأمم تفرغاً تاماً، ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩]، وأنا أرجو أن يكون خلفنا خيراً من سلفنا الأقربين فيقرؤون حكم الأمم وعلومها وسياساتها وصناعاتها وهم

يعتقدون أن ذلك من الدين، ويقرؤون ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩] ويقرؤون ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩].

إذن لا حاجة إلى أنبياء بعد نبينا، لماذا؟ لأن الأنبياء يأتون لتذكير الناس بما نسوا، والله سبحانه أخبر أنه اختص أناساً بالحكمة يخلقهم حيث يشاء، والحكمة الملقاة على الناس في الأزمان المختلفة قد أصبحت جزءاً من علوم الإسلام. إذن كل حكمة صدرت من حكيم أياً كان هي إسلامية، إذن إرسال الرسول بعد هذه الآية عبث، فإذا قيل: إن الأمم تختلف أطوارها باختلاف أزمانها، قيل لنا: وما فائدة الحكمة التي يلقيها الله على قلوب عباده. ولا جرم أن هذا هو كمال الإنسانية، لأنها إذا كان تعليمها بواسطة حكمائها المتبعين لوصية نبي كان ذلك أرقى وأشرف من إرسال رسول، لأن الرسول إنّما يرسل لقوم ناقصين جهلوا الحكمة. أما هذه الأمم فإنها تعرف بالحكمة وتعمل بها وتقول هي من وصايا كتابنا وديننا، وهذا معنى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين. ألا ترى أننا إذا رأينا رجلاً منا نظر إلى الغابات والحقول والمعادن، فقال: هذه لكم فانتفعوا بها، وعلمنا كيف يكون ذلك، قلنا: هذا الرجل رحمة لنا، فإذا رأينا آخر حرم علينا ذلك الانتفاع أو منعنا منه فإننا نقول: ذلك الرجل نقمة لا رحمة. ولا جرم أن نتائج العقول كنتائج الأرض، فإذا سمعنا الله يقول: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩]، وسمعناه يقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾[لقمان: ١٢]، وسمى سورة باسم لقمان تشريفاً للحكمة، أيقنا أن هذا الدين يسوقنا إلى الحكمة جميعها برغبة وشوق وهذه الخلة الواحدة جعلت ديننا يبتلع كل علم في الأرض وكل حكمة. إذن نقول: هذا النبي رحمة لأنه أشبه أفضل الرجلين في مثالنا، إذ به اغتنمنا كل فرصة للانتفاع بالمنافع الأرضية، فهكذا هنا في الحكمة فإنها قد أصبحت جزءاً من ديننا وليس ينقصنا إلا المجالس التي سأذكرها حتى ترقيها وتنفعها.

هذا معنى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وأي رحمة أعظم من الحكمة العامة، وبناء عليه تصبح الأمم الإسلامية في المستقبل خيراً من تلك الأمم الخالية رافعة للإنسانية خافضة للهمجية.

ولعلك تقول: إذن كل مسلم له الحق أن يتبع أي حكمة وينسى القرآن. أقول لك: أنسيت قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[الشورى: ٣٨].

ليكن هناك مجلس عام في مكة وغيرها، وهذا المجلس لا يصح التئامه إلا بعد شيوع التعاليم العامة في بلاد الإسلام. وهذا المجلس ينظر في الأمور العامة لأمم الإسلام، ولا يصلح لهذا المجلس إلا من قرأ فوق علوم الإسلام علوم الأمم والرياضيات والطبيعيات لا غير، لأن الذين لا يقرؤون تلك العلوم يجهلون نظام الله ونظام الأمم، والجاهلون بذلك لا يصلحون للقيادة في هذه الشعوب، وهؤلاء الأعضاء ينتخبون من المجالس العلمية الخاصة في كل إقليم من أقاليم الإسلام، فهؤلاء هم الذين لهم الرأي الحق، وهم الحكماء الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩] وهذا لا خير الكثير يفيض منهم على الناس. إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك. فقل لي رعاك الله، أليس هؤلاء الذين سيكونون بعدنا خيراً من أولئك الذين ناموا على الوضوء والنجاسة والطهارة والحيض والنفاس والبيوع وتركوا بقية كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. اللهم إني أحمدك على العلم والحكمة. أنت اللهم المنعم المتفضل الرؤوف الرحيم.

بهجة الحكمة أيضاً في هذه الآيات

وبيان أنها تشمل سائر علوم الحكمة، وأنها مقسمة ستة أقسام
ثم أذكر نموذجاً مما أنتجته عقول الفلاسفة قديماً وحديثاً وأنه تفصيل لهذه الآيات
كما ذكرت سابقاً آداب قدماء المصريين التي ظهرت حديثاً
وأجمل ما جاء عند فلاسفة اليونان والرومان وهكذا
ثم نقفي ببيان الطرق التي استعملها آباؤنا في التشويق للفلسفة
بالحكايات اللطيفة والروايات الظريفة

يقول الله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾[لقمان: ١٢]، «آتى» فعل ماض و«نا» فاعل و«الحكمة» مفعول، فهذه الحكمة أتاها الله لقوم في الزمان الماضي، ولا جرم أن التكلم على الماضي ما هو إلا تاريخ. إذن هذه الآيات بها يقص علينا الله تاريخ الفلسفة، لأن الحكمة بالعربية هي الفلسفة باليونانية. وحينئذ ننظر هل هذه الآية فيها أقسام الحكمة التي عند الأمم، فنظرنا فوجدنا أن هذه الآيات فيها:

(١) توحيد الله: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾[لقمان: ١٣] الخ.
(٢) وأنه عالم قادر: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾[لقمان: ١٦] الخ.
(٣) وأنه سخر لنا ما في السماوات والأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وهذا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم ﴾[الحج: ٦٥] الخ.
(٤) وأن يكون عابداً: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[لقمان: ١٧].
(٥) ذا أخلاق حميدة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[لقمان: ١٧]،﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[لقمان: ١٨] الخ.
(٦) عاماً نفعه للناس: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[لقمان: ١٧] الخ.

إذن ملخص الآية أن يعتقد المرء أن ربه واحد. وأنه عام القدرة والعلم، وأن نعمه سابغة، وأن جميع السماوات والأرضين مسخرات لنا، وأن يكون المرء حسن الأخلاق كالصبر وعدم الكبر، وأن يفيض على الناس مما آتاه الله، فالله نعمه عامة فليكن العبد منعماً بقدر توفيقه.

فهذه الأقسام التي عددنا ستة، يجب أن نعرض عليها أجمل ما جاء في تاريخ الفلسفة الحديث فإن وافقتها كان ذلك فتوحاً جديداً في الإسلام، وكان هذا دليلاً جديداً على أن أمة الإسلام في القرون المتأخرة كانت عاجزة عن دراسة هذا القرآن، وأن الأجيال المقبلة ستعلم علم اليقين أن حكمة الأمم هي الحكمة القرآنية وإليك البيان.

فيا الله أنت خلقت أمماً قبلنا وأودعت في عقولهم حكماً فأخذنا نقرؤها اليوم، ونظرنا في كتابك فدهشنا يا ربنا وأي دهش، وكيف لا ندهش ونحن نسمع الناس قديماً وحديثاً يقولون: الدين يخالف العلم، فإذا كانت هذه الآيات منطبقة على آراء الأمم فما أكذب القائلين، وما أجهل أمما تقرأ القرآن وتجهل علوم الأمم، يقرؤون سورة لقمان ويسمعونك تمدح الحكمة وكأنهم في واد والقرآن في واد، فهاأنا ذا أجتزئ بنبذ من تاريخ الفلسفة ولكني لا أجهد آذان القراء بعويصات المسائل بل أصطفي اللب وأنبذ القشر وأبتدئ بالكلمة التي اعتاد الناس أن يجعلوها مرادفة للحكمة وهي الفلسفة.

إن كلمة الفلسفة أصبحت اليوم تطلق عند الناس فيما كان من قبيل المناقشات التي لا نفع فيها أو من قبل ما خرج عن متناول العقول وهذا خطأ، وإنّما هي والحياة أمران متلازمان، فإن الإنسان منذ خلق ورأى شمساً وقمراً ونجماً وسحاباً تنبهت قواه وفكر في الكون ومبدئه ونهايته، وظن للمخلوقات الكثيرة آلهة كثيرة، ثم اهتدى ووجد أن الإله واحد. يقول الأستاذ «كنجمهام» في كتابه «مسائل الفلسفة» ما نصه:

لكل إنسان ـ ولو لم يكن له نصيب وافر من التعليم ـ نوع من الفلسفة، فله رأيه في معنى الحياة وطبيعتها وغايتها، وفي الوجود والعدم. وفي العقل والجسم، وعلاقة كل واحد منهما بالآخر. وفيما قد يصيب الإنسان في هذا العالم من سعادة أو شقاء وفقر أو غنى وصحة أو ضعف، وفي الحياة بعد الموت وفي الخير والشر والطيب والخبيث من الأفعال، وفي الإله وصفاته وعلاقته بالطبيعة عامة من جماد ونبات وحيوان، ولا شك أن هذه فلسفة غير أن عقله لم يتناولها بالتحليل والتمحيص ولم يقم الدليل على صحتها.

لقد جعل «فرانسيس بيكون» العلم ثلاثة أقسام: قسم يتعلق بالذاكرة، وآخر بالمفكرة، وثالث بالقوة المخيلة، والذي يتعلق بالقوة المخيلة هو الشعر والموسيقى والنقش والتصوير، لأن هذه ترجع إلى الخيال.

والقسم المتعلق بالذاكرة هو التاريخ، والتاريخ أثري وبشري، فالبشري هو التاريخ المعروف، والأثري هو المذكور في الكتب السماوية، ومن التاريخ البشري تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية وهكذا، فجميع ما يدرس في مدارس العالم من الطبيعة والفلك والحساب وأمثالها كلها داخلات في قسم التاريخ مندرجة في ضمن أعمال الذاكرة.

فأما العلم المتعلق بالمفكرة فهو نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس، وهذا القسم هو المسمى فلسفة، فإدراك ارتباط العوالم بعضها ببعض وتحقيق ذلك الارتباط ونسبة ذلك إلى الحقائق العقلية التي غابت عن الحس ومعرفة النفس وقواها والمنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق والسياسة، كل ذلك داخل في علم الفلسفة.

هذا رأي «فرانسيس بيكون»، فيا سبحان الله، إذا كانت هذه هي أقسام الفلسفة عند «بيكون» وهذا هو الرأي الحديث فلننظر في القرآن وفي الأقسام الست المتقدمة في هذه الآيات. أليست هذه الأقسام هي عين القسم الثالث من المذكور في الآيات المتقدمة، يقول الله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠]، ولا جرم أن ما في السماوات وما في الأرض المسخر لنا لم يخرج عن الأقسام التي قالها «بيكون»، أليست العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية التي جعلت علوماً هي مقدمة للفلسفة مما في السماوات والأرض، ومن النعم التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة، فهي نعم ظاهرة لأجسامنا ونعم باطنة لعقولنا بالحكمة، ألم تذكر هذه في حيز الكلام على الحكمة؟ أليس نظام الطبيعة ونفس الإنسان مما في السماوات والأرض الخ. هذا ما نقوله من حيث الرأي الحديث للتقسيم العام، فإذا أردنا أن ننظر آثار العقول فهاكها:

(١) شذرة من فلسفة الصين ـ رأي « كنفيوشس » هو فيلسوف صيني

وجد القوم معرضين عن إصلاح أنفسهم فقال لهم: إن في هذه الموجودات عالماً روحياً لا يحيط به عقل الإنسان ولا يدركه فهمه، ألا أدلكم على عالم آخر أمام أعينكم وفي استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قليل الذكاء أن يلج بابه؟ ذلك هو عالم الواجب الذي يسلك بصاحبه سبيل السعادة، والواجب هو ما يتطلبه منك يومك وساعتك.

(٢) شذرة من فلسفة الهند

لقد تقدم في سورة « آل عمران » وغيرها ذلك كثيراً.

(٣) شذرة من فلسفة اليونان

لقد تقدم كثير منها وسنشرحها شرحاً وافياً عند قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، ولأكتف الآن منها بما قاله « اكسنافنس » ٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق.م. تقريباً.

ولد هذا الفيلسوف في « ايونيا » ولما احتلها الفرس هاجر منها مع من هاجر، وما زال يضرب في الأرض ويرحل من مكان إلى مكان حتى ألقى عصا التسيار في « أليا » بعد أن زار « صقلية » وبلاد اليونان ورأى فيها انحطاطاً في الأخلاق وضلالاً في العقائد الدينية، وانبرى لهومر وهزيود وأنحى عليهما باللائمة وسخر من شعرهما واستخف بآرائهما، لأنهما يصفان الآلهة بأوصاف شائنة كالسرقة والزنا والخداع ونحوها. وأعلن أن الله لا أول لوجوده ولا مثيل له وجميع العوالم في قبضة يده، لا شريك له في ملكه فهو الواحد الذي يتصف بجميع صفات الكمال، لا إله إلا هو تعالى عن شبه الحوادث. فليس له يد ولا عين ولا أذن ولكنه يسمع ويرى ويبطش ويدبر شؤون العالم بحكمته وعلمه، وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أن هذا الفيلسوف وصل إلى الإيمان الحقيقي بوحدة الله، ولكن كلامه مضطرب يدل بعضه على أن الإله والعالم شيء واحد وعلى أنه أعظم الآلهة، وقد يشعر بعض عباراته بالتعداد. اهـ.

أليس هذا القول الذي عرفه هذا الفيلسوف بعقله بلا وحي ولا نبي هو الذي جاء في هذه الآيات في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾[لقمان: ١٢]، إلى قوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣].

يا سبحان الله هذا نبي عربي في جزيرة قفراء أنزل الله عليه الوحي بما كدح فيه وجد ونصب، فيلسوف نزه الله بعقله. سبحانك اللهم أنزلت القرآن وتلطفت وقصصت لنا قصة التوحيد عن لسان فيلسوف حكيم. ترشدنا أن نكون فلاسفة حكماء، وتقول لنا: أنا قلت لنبيكم ولكم: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، وقد عرف هذه الحقيقة قبلكم حكماء رمزت لكل منهم بلقمان، فهم وحدوني ولم أوح إليهم، ففكروا يا عبادي واعرفوني بعقولكم كما عرفني هؤلاء، لأن هذه حكمة وهي خير كثير، فهذه الفلسفة التوحيدية التي نفت التعدد ونفت الأصنام هي نفس القسم الأول من الأقسام الستة في الآيات المتقدمة.

ومن عجب أن الفلاسفة الطبيعيين من الأمم السابقة الذين يقولون: إن العوالم كلها ترجع إلى ذرات دقيقة جداً تتصادم وتتكون منها جميع هذه العوالم، فهؤلاء اضطروا أخيراً أن يبحثوا عن الخير

والشر وماهية السعادة وسبيل إدراكها، فعرفوا الشر بأنه كل ما يصدم النفس ويسبب اضطراباً في ذراتها ذات الحركات الهادئة المؤتلفة، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتنب كل التجارب التي تثير فيه أنواع الشهوات المختلفة وضروب الانفعالات القوية، وعندهم أن السعادة غاية الحياة، وقد قالوا: إنها ليست في امتلاك الماشية والضياع الواسعة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وإنّما مقامها المقدس ومقرها الأمين نفسك التي بين جنبيك، ووسيلتها الذكاء والحكمة، وأجدر شيء بالإنسان أن يرغب في الجميل اللائق ويستمتع به ويتغالب على شهوات نفسه، ويكتفي بالقليل من العيش، ويكف عن فعل الشر وإرادة الشر.

ألست ترى هذا المذهب داخلاً في قوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٨-١٩] الخ، فإن هذه ترجع إلى الأخلاق وهذه الفلسفة شرحتها. إذن هذه في القسم الخامس المتقدم من الأقسام الست.

وإذا تتبعنا الفلاسفة وجدنا سيدهم «سقراط» الذي وقف حياته على الفلسفة، وهاك شذرة من تاريخه:

سقراط ـ ٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م

هو زعيم الفلسفة اليونانية وشيخ المفكرين والمثل الأعلى للبطولة والنبوغ، ولد في عصر كانت «أثينا» تموج فيه برجال الأدب وأساطين العلم وأبطال السياسة ومصاقع الخطباء. وتلقى التربية الأثينية حين كان غلاماً ولم يمنعه نسبه أن يصل إلى منصب من أكبر المناصب في «أثينا».

وقف يوماً أمام القضاة وقد اتهمه أعداؤه بأنه مخالف لدينهم، مفسد لشبانهم، فقال: لو أنكم قلتم يا سقراط إننا لن نسمع دعوى «أنيتس» هذه المرة وسندعك تغدو وتروح في ربوع «أثينا» ولكن على شرط أن تترك تعاليمك وأبحاثك وفلسفتك. فإن وجدناك بعد اليوم مشتغلاً بمناقشة الشبان والبحث معهم في مسائل فلسفية ما كان لك من الموت منجى، لو أنكم قلتم هذا لقلت لكم أيها الأثينيون أنني أحترمكم وأحبكم وأعرف لكم منزلتكم، ولكنني أوثر طاعة الله على طاعتكم، ولن أكف عن الفلسفة والاستماتة في الحق وإسداء النصح إليكم ما دام في عرق ينبض ونفس يتردد بين أحشائي، حتى إذا لقي الرجل أخاه قال له في صراحة: أليس من العار أن تكون «أثينا» عظيمة عامرة ولا يعنى أهلها إلا بالمال وحب الشهوة، ويتركون الحكمة وسبيل الحق ولا يهتمون بتهذيب أنفسهم.

وقد حكى لنا التاريخ أن واحداً من أصحاب «سقراط» المخلصين له وجه إلى كاهنة «دلفي» السؤال التالي: هل بين بني الإنسان أحد أعقل من سقراط؟ وكان الجواب: حقاً إن سقراط أكثر الناس علماً وحكمة. فلما بلغ «سقراط» الجواب دهش له وكان بين أمرين لا ثالث لهما، فأما أن يكذب قول الإله وهذا ما لا يستطيع فعله، وإما أن يعتقد في نفسه العلم والحكمة وهو لا يرضى ذلك لأنه يجهل كثيراً من الحقائق، ولهذا أخذ ينتقل من مكان إلى آخر ويقصد الذين اشتهروا بالعلم والحكمة ويناقشهم في المسائل المختلفة حتى يعرف مبلغ ما وصل من العلم، وتبين له في النهاية أن الجهل المطبق غلب على قلوب الناس وأعماهم عن إدراك الحقائق وخدعهم حتى اعتقدوا في أنفسهم العلم وهم عنه بعيدون.

وعندئذ أدرك « سقراط » أن الناس مغرورون كاذبون في دعوى العلم . أما هو فجاهل معترف بجهله . ولعل هذا هو السبب الذي جعله عند الله الحكيم المفرد ، لذلك لم يترك مسألة إلا حاور فيها ، فقد تناول السياسة العامة ، والآراء الشائعة في زمنه ، والمبادئ الخلقية ، ونظام الحكومة ، وأساليب التربية والغرض منها ، والموت وما بعده ، والنفس وما أعد لها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، ولذ له الحوار فيها كلها وتشعبت به الطرق حتى إن الإنسان ليجد صعوبة في تحديد موضوع فلسفته .

وانظر إلى نوع محاوراته ، فإليك ما دار بينه وبين أحد تلاميذه .

محاورة بين سقراط وتلميذه سمياس

سقراط : وما رأيك يا سمياس فيما يأتي : هل تعتقد أن هناك شيئاً اسمه العدل المطلق والجمال المطلق والخير المطلق؟ .

سمياس : نعم إن لهذه الأشياء وجوداً .

سقراط : هل رأيت واحداً منها بعينك؟ .

سمياس : كلا .

سقراط : هل نفهمها بإحدى الحواس؟ وهل ندرك المعاني الذهنية ونتأملها بجسومنا؟ أليس من الضروري أن نغض الطرف عن حاجات البدن وقت التفكير؟ ألست تعتقد أن المعاني الذهنية وحقائق الأشياء إنّما تتجلى للإنسان إذا تجرد عن عالم الحس والمشاهدة واعتمد على العقل الخالص .

سمياس : لقد وفقت إلى الصواب فيما تقول .

سقراط : إن هذا يحتم على الفلاسفة الذين ينشدون الحكمة أن يفكروا في السبيل التي تصل بهم إلى غايتهم مسترشدين بهدى العقل المحض . وليس في استطاعتنا أن نصل إلى الغاية ما دامت الأجسام مقترنة بالنفوس ، فإن تحصيل حاجات الجسم يستغرق في الوقت كله ويعوقنا عن التفكير ومتابعة البحث وراء الحقيقة ، والآفات والعلل تعترينا بسببه هذا إلى أنواع من البلاء ، والمحن تدفعنا إليها الشهوات والمطالب المادية ، وإذا كان لنا أن نحصل العلم وندرك الحقائق فإن ذلك لا يكون إلا إذا تجردت النفس عن جميع المشاغل الدنيوية وتحصيل حاجات البدن . اهـ .

هذه شذرات من فلسفة « سقراط » ، فإذا نظرنا إلى صبره وأناته وأمره ونهيه فهذا كله جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : ١٧] .

أليست هذه فلسفة « سقراط » رجل يأمر بالمعروف وينهى ويصبر على الأذى حتى ذاق الموت في سبيل هداية الناس . إذن الآية أدخلت فلسفة « سقراط » فيها . وإذا فكرنا في أنه هو أول من حقق مسألة وحدانية الله وأنه محيط بالعوالم الكلية والجزئية ، فهذا أيضاً من القسم الأول والثاني من أقسام الآيات المتقدمة .

وإذا فرغنا من الكلام على فلسفة « سقراط » فلنتبعها بفلسفة تلميذه أفلاطون فنقول :

أفلاطون ٤٢٧ ــ ٣٤٧ ق.م

ولد في « أثينا » وهو من نسل « سولون » الحكيم المشترع المشهور ، وفي أيامه نشأت الحرب « البلوبونيسية » قبل أن يولد هذا الفيلسوف بنحو أربعة أعوام ، دارت رحاها بين « أثينا » و« أسبرطة »

ثم امتد لهيبها حتى شملت بلاد اليونان جميعها، واستمرت زمناً طويلاً يقرب من ربع قرن وصحبها ما يصحب الحروب العامة من سفك الدماء وإزهاق الأرواح وتخريب الأبنية وتبديد الثروة وتغيير أنظمة الحكم، وكان من جرائها أن فقدت «أثينا» تلك المنزلة السامية التي كانت لها بين الولايات اليونانية.

شب أفلاطون في هذا العصر وجرب ويلات الحرب، وشاهد كثيراً من النزعات السياسية وعرف ما يقاسي الناس من أنواع الحكومة، ولم يفته أن ينتفع بهذه التجارب ويسوقها للإيضاح في كتبه، ولو أنك تأملت كتابه «الجمهورية» لتبين لك أن الأمثلة الكثيرة التي يؤيد بها دعواه مستمدة من تجاربه المتعددة النواحي، وانقطع للتعليم مدة ٤٠ عاماً كان في أثنائها بعيداً عن الأمور العملية ومشاغل السياسة ومستغرقاً في تأملاته ونظرياته الفلسفية. ولعل هذا هو الذي جعل فلسفته منقطعة الصلة بالحياة وضاربة إلى الجانب الخيالي، على العكس من فلسفة سقراط ابن الشعب وربيبه. ولما استكمل إحدى وثمانين سنة من عمره مات ودفن بالبساتين في «أفاديميا» وتبع جنازته كل من كان بأثينا.

وقد كان يرى أفلاطون أن المجتمع الكامل يتكون من ثلاث طبقات: الأولى: طبقة المنتجين وتشمل الزراع والصناع ووظيفتها تحصيل الغذاء ومؤن الجماعة. الثانية: طبقة الجند وعملها توسيع رقعة المملكة وحفظ كيانها ودفع الغارات عنها. الثالثة: طبقة الفلاسفة، ولها الزعامة الفكرية وولاية الحكم، وعليها أن توفق بين العناصر المختلفة حتى ينقطع كل واحد لتأدية الواجب عليه. وإذ ذاك يسود العدل وتتحقق السعادة. هذا هو العدل في المجتمع. أما في الفرد فهو ائتلاف قوى النفس وتعاونها وقيام كل قوة بعملها.

وللناس قوى ثلاث قياساً على المجتمع: أولاها: القوة الشهوانية وعملها تحصيل حاجات الجسم من طعام وشراب وفيها جماح وميل إلى الشر، ومركزها البطن وفضيلتها العفة. وثانيتها: القوة الغضبية ووظيفتها الدفاع عن الجسم وحفظه من الأذى، ومقرها القلب وعدتها الشجاعة والصبر. وثالثتها: القوة الفكرية وموطنها الرأس، وهي التي تستجلي الحقائق وتدبر شؤون الإنسان العامة والخاصة، وفضيلتها الحزم والحكمة. وإذا تأملنا الناس وجدناهم ثلاثة أصناف: فصنف تغطي عليه القوة الشهوانية ويقضي حياته في تحصيل المال وما يتبعه من اللذات. وصنف تسوقه القوة الغضبية إلى محبة الخصومة واستكمال أسباب الشهرة وبعد الصيت. وصنف تدفعه القوة الفكرية إلى استجلاء الحقائق. ولكل صنف من هؤلاء نوع من السرور يستمتع به. ولو أنك سألت واحداً من كل صنف عن مبلغ ما يلقى في حياته من سرور لوجدته يفضل حياته على غيرها، فجامع المال يرى في انقطاعه إلى عمله سروراً لا حد له. ومحب الشهرة يرى أن المال عرض زائل وأن العلم تعب باطل إلا إذا كان من ورائه شهرة واسعة وذكر بعيد. وطالب العلم يحتقر المال والشهرة معاً ويجد السعادة في استجلاء الحقائق والوقوف على أسرار الله في خلقه، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين لنا أن نتبين الرشد من الغي ونهتدي إلى مكامن السعادة؟ إن صحة الحكم تتوقف على سعة التجارب ورقي المدارك والحكمة، فطالب العلم هو الذي يستطيع أن يقضي في هذا الموضوع بالعدل، فقد تملك الأشياء وجمع المال وهو صغير، وجرب احترام الناس له وأفاده علمه الحكمة، وعلى ذلك أحسن أنواع السرور ما ينبعث في النفس ويملأ جوانبها إذا وجدت لذة العلم، وحياة العالم مليئة بالسرور الذي لا يعقبه ألم.

أما الذين لا يعرفون للحكمة طعماً، ولا يذوقون للفضيلة حلاوة، ويقضون حياتهم في الاستكثار من ألوان الطعام والشراب وصنوف اللذائذ، فإنهم كالأنعام يملؤون بطونهم ويتناسلون ويشعرون بقوة في جسومهم، فيعتدي بعضهم على بعض ويقتتلون حتى لا تبقى منهم باقية.

هذا ما أردت ذكره في فلسفة أفلاطون فلأتبعه بذكر المذهب «الأبيقوري» وينسب إلى «أبيقور» من ٣٤١ ـ ٣٧٠ ق.م، ويتلخص في أن الخير الأسمى نوع من السرور يملأ النفوس، وفي أن السرور قسمان: جسمي مملوء بالاضطراب سريع الزوال، وعقلي هادئ دائم، ولا يستطيع الثاني إلا من قللوا رغائبهم وجعلوا مطالبهم محصورة في الضروري دون سواه، وقد أساء فريق من الناس فهم هذا المذهب وظنوا أنه يدعوهم إلى الأخذ بأنواع السرور والتمتع باللذة العاجلة، فاستباحوا لأنفسهم كل شيء وجروا وراء شهواتهم البهيمية.

وأختم القول بما جاء في حكمة الرومانيين على لسان حكيمهم «سنيكا» وهذا نصه: سأقابل الموت بوجه باسم، وأرى مشاهد الحياة، وما يجلبه القدر خيره وشره، مطمئن النفس، هادئ البال، وسأقوم بنصيبي من أعباء الحياة مهما كان ثقيلاً مستعيناً بما لي من قوة عقلية إذا وهن الجسم وعز النصير، وسأحتقر الغنى واليسار سواء أكان لي منه نصيب أم لم يكن، ولن يملأ قلبي السرور إذا أقبلت الدنيا علي بخيرها، ولن تفيض النفس أسى إذا أدبرت عني وتولت بزينتها، وسأعتبر جميع بقاع العالم وطناً لي، ووطني ملكاً لبني الإنسان جميعاً. وسأذكر دائماً أني خلقت لغيري وأشكر الله على ذلك، إذ ليست هناك غاية أشرف من هذه، فقد وهبني للجماعة ووهب الجماعة لي، وسيدفعني إلى خير العمل ضميري وذمتي، وسأصفح عن المذنب قبل أن يسألني الصفح. ولن يغيب عني أن الدنيا بأسرها مدينتي التي ولدت فيها. وسأجيب داعي الموت طائعاً وأشهد الناس جميعاً أنني أحب طهارة الضمير ونبل الغاية. اهـ.

هذا ما اصطفيته من فلسفة الأجيال الفائتة، وهي كلها في تهذيب الأخلاق ومعرفة العالم ونفع الأمم، وتأمل كلام «سنيكا» فهو ينطق بقوله تعالى في هذه الآيات: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧]، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] الخ.

وهاهنا أقول لأمم الإسلام: هذه عيون حكمة الأمم التي عرفوها بعقولهم، فلما جاء الإسلام وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أدرك هذه المعاني أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم فنفعوا الأمم شرقاً وغرباً، ثم نام المسلمون نوماً عميقاً. نبي جاءه وحي لخص فلسفة الأمم التي لم يقرأ عنها حرفاً ولم يدرس كتاباً، فهز الأرض هزاً بعلمه وأصحابه بعده، أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، فهؤلاء الفلاسفة عرفوا الصبر والثبات ومحاسن الأخلاق وحب الله ونفع الناس والخوف من ربهم بمجرد بحثهم بالعقل، فلما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم أوحى الله إليه هذا كله، إذن هذه أكبر معجزة.

ولقد تبين حقاً وصدقاً أن الأجيال المقبلة بعد هذا التفسير هي التي تفهم معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وهم هم الذين يعقلون آية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، وهم المؤمنون الأعلون شرفاً، فيا ليت شعري ماذا حل بآبائنا

الأولين بعد العصور الأولى، كرهوا العلم وكرهوا الحكمة فانقطعت صلتها بينهم وفرت هاربة إلى أوروبا وبقي الصوفية وعلماء ظواهر الدين و﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[الطلاق: ٧].

وللنجم من بعد الرجوع استقامة   وللشمس من بعد الغروب طلوع

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع على هذا أخي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير فقال: لقد أحسنت صنعاً وأجدت وضعاً وأبنت كيف كانت نتائج العقل الإنساني في القرون الأولى هي هي نتائج الوحي المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم، وكيف يفهم الناس ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢]، وكيف يدركون مغزى ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩]، وإني ليدهشني أن أرى أبا بكر وعمر وأمثالهما ساروا في حياتهم وطرق أعمالهم على المنهج الذي رسمه القرآن، وكانت النتائج أشبه بما يقوله هؤلاء الحكماء، فهاهو ذا عمر رضي الله عنه قد جاهد في الله والحق حتى قتله أبو لؤلؤة غيلة، ومثله سيدنا علي لقيامه في أعماله بالقسط والعدل قتل غيلة، وهانحن أولا نرى «سقراط» قام بالحق حتى حكم عليه بالقتل، لا لشيء سوى أنه يعلم الناس الحكمة، وهكذا نجد «سنيكا» الروماني عاهد الله ألا يقول إلا الحق، وألا يبالي بالمرض ولا الموت ولا الفقر، ولا يفرح بالغنى وهكذا.

إن هذا والله هو العلم وهو الصدق، إذا لم يكن في دين الإسلام سوى سورة «لقمان» لكفت في صدق النبوة أولاً، وفي نظام الأمة ثانياً، فيا غفلة الأمم الإسلامية المتأخرة ويا حسرة على المسلمين ما يأتيهم من عالم إلا كانوا به يستهزئون.

ثم قال: والآن خطر لي سؤال أحب أن أسألكه، فقلت: حباً وكرامة، فقال: هذه هي الحكمة التي أنتجتها عقول الأولين، وهذا هو دين خاتم المرسلين، هما اتفقا أصولاً، فلماذا رأينا أمثال أبي بكر وعمر قد شادا دولة ونظما أمماً وأدارا دولاب نحو نصف الكرة الأرضية، ولم نر لسقراط ولا لأفلاطون ولا لأرسطاطاليس مثل هذا العمل العظيم؟.

ولقد اطلعت على جمهورية أفلاطون، وقد سبق في هذا التفسير جمل منها كالتي جاءت في سورة «النحل» عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[الآية: ٩٠] الخ، ففيها علم غزير وبحث وتنقيب، ولكن لم نجد لذلك ثمرات كالتي رأيناها في أمم الإسلام، فقلت: إن هذا السؤال حسن وكثيراً ما يخطر لي، وأجيبك عليه بعون الله.

إن دين الإسلام قسمان: إسلام وإيمان، فالإيمان يرجع للبواطن كالصدق والإخلاص واليقين وما أشبه ذلك، فإن الإنسان متى أيقن بأن له خالقاً وله أوامر جد في التشمير عسى أن يلقاه، فأما الإسلام فهو العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين، فهذه الظواهر تجمع الناس في عمل واحد، فهم يصلون معاً وتكون الزكاة رابطة بين الغني والفقير، والحج يجمعهم، فهذه الشرائع الظاهرة التي يكلف الناس بها نتائجها نظام الدولة والملك، فأما إصلاح البواطن وحده الذي شاركت الفلسفة فيه الدين فهو لا يعدو إزالة الجهل، فأما إصلاح الظواهر ونظام الأمم فهذا دواؤه، فإذا أرادت أمة إسلامية أن تلم شعثها وتقوم من رقدتها، فهاهو ذا الباب مفتوح على مصراعيه، وهاهو ذا عبد العزيز بن السعود النجدي يقوم بنشر شعائر الإسلام كأيام الصحابة، فهاهو ذا عزيز

الجانب مرهوب مع أن الأمم كلها مدججة بالسلاح والكراع، والحمد لله رب العالمين، كتب يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٩.

زهرة من بساتين الحكمة

وهي فيما كان يلقيه آباؤنا الأولون على مسامع الشبان ليعشقوهم في الحكمة ويحببوهم في جمال هذه الدنيا وبهائها وعجائب الله عز وجل أيام صولتهم في إبان دولتهم وقيام عزهم وظهور مجدهم في العالمين.

فهاك ما جاء في «إخوان الصفاء» المؤلف في القرون الأولى صفحة ١٩٦ في المجلد الرابع في الطبعة الهندية، فلألخصه لك حتى تأخذ زبدته ولبه وترمي بقشره، والله هو الولي الحميد.

قال: ذكروا أن ملكاً من ملوك الهند كان واسع المملكة عظيم السلطان وكان يعبد الأصنام ولا يعرف الأنبياء ولا اليوم الآخر ولا رب الأرباب، ولم يرزق بولد إلا في كبره، وأخبره المنجمون بأنه يطول عمره وينال ملكاً وسلطاناً لا يشبه ملك الأرضين ولا سلطان الجسمانيين، بل ملك السماويين وسلطان الروحانيين، فلما تربى ذلك الغلام وترعرع أفرد له أبوه منزلاً وبنى له قصراً أسكنه فيه ووكل به الحفظة وشحنه بالخدم، ومنع أن يصل إليه أحد من العامة، فلما نشأ الغلام وترعرع رزق من الفهم والذكاء ما لم يرزق أحد غيره من أهل بلده، ثم علم آداب أبناء الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللغة والحساب والنجوم والهندسة وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب، وكان صافي النفس حي القلب، كثير التفكر في ملكوت السماء وأمر الصانع وكيفية المبدأ وأمر المعاد وأحوال القرون الذين مضوا وانقرضوا، أترى إلى ماذا صاروا وإلى أين ذهبوا، حتى منعته الفكرة عن الأكل والنوم والتمتع بلذات النعيم في الدنيا وشهواتها، فأسهر ليله وأطال نهاره وتمنى أن يجد أحداً يسأله عما في نفسه ويذاكره بما في قلبه، فلم يجد أحداً حتى فشا حديثه في الناس وكثر الثناء الجميل عليه، وانتشر ذكره في الآفاق، فسمع خبره حكيم من حكماء بلاد «سرنديب» فطمع في رشده ورجا أن يكون هادياً رشيداً وفيلسوفاً حكيماً، فقصد نحو بلاده واحتال حتى دخل إليه ففرح به الفتى، وكان مما جرى بينهما أن قال له: أخبرني لم يذم الحكماء أمور الدنيا ويزهدون في نعيمها وهي دارهم التي نشؤوا فيها ومسكن آبائهم الذين ربوهم؟. فأجاب: لأنها تصغر في أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء ويستقلون نعيمها في جنب ما يعرفون من نعيم أهل الآخرة كما صغر حال ذلك المسكين في أعين الملك ووزيره، قال الفتى: كيف كان ذلك؟ قال الحكيم: ذكروا أنه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن عزيز السلطان واسع المملكة حسن التدبير والسياسة عادل السيرة في الرعية، وكان مع ذلك يعبد الأصنام تقليداً، يقرب لها القربان ويعظم شأنها ويحسن إلى أهلها على عادة جارية قد اعتادها من الحداثة والصبا من غير فكر وروية في شأنها، وكان له وزير خير عارف بصير قد عرف ملكوت السماء وبناء الملأ الأعلى وأمر المعاد والمبدأ وكيفية الوحي للأنبياء عليهم السلام وعلل سنن الديانات ومرامي مرموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع وما الغرض الأقصى منها، وما حقيقة معانيها وخفيات أسرارها ودقائق إشاراتها وما قصد واضعوها وما النفع العاجل منها، وما المطلب والمغزى في الأجل منها.

ثم إن ذلك الوزير مكث دهراً طويلاً يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتفق أن قال له الملك ذات ليلة بعدما فرغا من النظر في أمر الرعية وتدبير السياسة: هل لك أن نخرج الليلة متنكرين لنعرف حال المدينة ونتجسس أحوال الرعية، وننظر إلى آثار المطر وكيفية حال البلاد ومصالح العباد؟ فخرجا يطوفان حول المدينة متنكرين فبينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتدا نحوه حتى دنيا منه فإذا هما بمزبلة شبه رابية عظيمة عليها جيف مرمية وسماد طرية منتنة الرائحة، وإذا في أسفله ثقبة شبه المغارة، وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلقة على دكة قد أصلحها من بين سماء ورماد تلك المزبلة، وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة، وفي رجليه تبان وعلى رأسه شملة مثل ذلك، وإذا بحذائه امرأة تشبهه في الخلقة والتشوه وعليها كسوات شبه درع وحمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة، وإذا بين يديها سراج من خرق فوق آجرة شبه صنارة وبجنبه جرة مكسورة فيها دردي كالخل وقد مزجه بيسير من ماء، وإلى جنبه سلة خوص فيها تاقات كرفس وكراث، وبيد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة ويشربانها، وإذا على فخذه قصبة قد مد عليها خيطاً شبه قوس النداف وهو ينقر عليها بقضيب في يده ويغني بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع، وإذا به يذكر في تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وإفراط محبته إياها، وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة من جلد غير مدبوغ جائفة منتنة الرائحة شبه الدف، وهي تنقر إذا غنى هو، وترقص وتنثني بين يديه، وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياه بتاقة من ذلك الكرفس والكراث وهي تثني عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق، وتسميه «شاهنشاه» ملك الملوك، وهو يسميها «كديانوية» سيدة النساء، ويشرب ويسر بها ويثني عليها ويصفها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في جنب ذلك، وإذا شربا سألا الله ألا يعدمهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يبقيهما على تلك الحال أبداً ما بقي الدهر.

فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذينك المسكينين، ثم قال عند ذلك الملك للوزير: ما أظن أني في طول حياتي وعز سلطاني ونعيم ملكي وأيام شبابي ومجالس الهوى مع تمكني من شهوتي بلغ مني الفرح واللذة والسرور ما يصف هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالهما، ومع هذا كله أظن أنه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة إن أرادا لأنه لا يعرض لهما شيء من العوائق التي تعرض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج في أطراف المملكة واضطراب النواحي وشغب الجند وطلبهم الأرزاق وما شاكل ذلك.

ولكني أظن أنه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعاينا أحوال ملكنا وشاهدا هز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا إلى حالهما لما تهنيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة التي عما فيها لذة أبداً، وصغر في أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور، فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك قال الوزير للملك: أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا

وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه ونحن محقرون وجميع أحوالنا في أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين بالنسبة لأحوالنا، فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه، فقال له: وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطاناً أعز من سلطاننا أو بلداً أكثر نعماً من بلدنا أو مروءة أحسن من مروءتنا؟ قال له الوزير: لا، قال الملك: فمن هؤلاء القوم الذين زعمت أنه يصغر حالنا في أعينهم ويستحقرون أمرنا؟ قال: قوم يقال لهم النساك. فقال: أين بلدهم ومن أي ناس هم؟ قال: من قبائل شتى متفرقين في المدن وفي الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأي واحد. قال: صف لي مذهبهم وحالهم. قال: هم أمناء الله في خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده، وليس في الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم في الأنام كالملح في الطعام، بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات في الأرض، وبدعائهم يرفع الله عن العباد القحط والغلاء والوباء، ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها. فقال الملك: ومن أنبياء الله؟ فقال الوزير: هم طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقربهم وناجاهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحية وسفراء بينه وبين خلقه، أرسلهم من عالم الأرواح الذي في ملكوت السماء إلى عالم الكون والفساد في الأرض، وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره في الجنة التي كان أبوهم آدم فيها. فقال الملك: وما آراء هؤلاء الأنبياء؟ قال: آراؤهم يعرفها أتباعهم، وأفضل أتباعهم فتيان أذكياء لهم نفوس صافية وقلوب واعية، بريئون عن الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الردية أو مشايخ مهذبون في العلوم الرياضية، مجربون الأمور السياسية، محبون للعلوم الإلهية، غير متعصبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة، أو نفوس ملكية لها همم عالية في طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمد. قال له: أخبرني ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك؟ قال: يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع، وأصناف بني آدم من أجناس الأمم من الترك والحبش والزنج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزط والأكراد ويأجوج ومأجوج والسيسان وأمم أخرى غير معروفة عند كثير من الناس، وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبراري نحو من سبعة عشر ألف مدينة تملكها نحو من ألف ملك. هذا في الربع المسكون من الأرض. على أن الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب ما هي في فسحة سعة الهواء إلا كحلقة ملقاة في برية صحراء، وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحلقة، أفترى أيها الملك أن الخالق تعالى ترك تلك الآفاق الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الأجرام وطيب نسيم تلك الأمكنة فارغة خالية لم يجعل فيها أهلاً وسكاناً وخلائق تليق بها وهكذا أنه لم يترك البحار الأجاج الأمواه حتى خلق في قرارها الزاخرة أجناساً من الحيوانات وأنواعاً من السمك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغاً حتى خلق فيه أجناساً من الطيور كما يسبح

السمك في الماء، وكذلك هذه البراري اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام، وكذلك الآجام والآكام ورؤوس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لب النبات وفي ثمر الشجر وفي جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال. انتهى ملخصاً من كتاب «إخوان الصفاء»، والحمد لله رب العالمين.

آثار الحكمة في الأمم الحاضرة

لقد تبدت لك أيها الذكي آثار الحكمة في الأمم القديمة، ورأيت روضاً نضيراً وعلماً غزيراً نبع من قلوب اصطفاها الله وقال لنا: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ٢٦٩]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩].

حيا الله الحكمة والعلم، أسبغ الله النعم على الناس ظاهرة وباطنة، وملأ الأصقاع في زماننا بالحكمة فهل في شرعة الإنصاف أن يكون المسلمون أول أمة نبغت في أن تحصن من مهاجمة جنود الحكمة بلادها لتعمر أحياءها ونصرتها شياطين الإنس والجن على انهزام تلك الجيوش الجرارة التي أرسلها الله في كل مكان.

المسلمون وحدهم هم الذين قهروا الحكمة وصدوها عنهم. نعم قبلوا أن يقرؤوا ألفاظ حكمة لقمان ولكنهم امتنعوا امتناعاً عن تناول معناها. أفلا ترى أيها الذكي والأسى يملأ الأفئدة أن هذه الأمم الإسلامية فعلت ما تفعله حشرة «الأرضة» التي سيأتي شرحها في سورة «سبأ» إذ تذهب جنودها إلى الأشجار العظيمة الباسقة وسقوف المنازل وشبابيكها فتأكل ما في داخلها ولا يبقى إلا ظواهرها تدليساً على أهل المنازل والحقول، حتى إذا جلس الإنسان إلى جانب تلك الأشجار مثلاً رآها بمجرد الملامسة تنهار انهياراً لأنها من داخلها خاوية.

هذا والله مثل أضربه لأمم الإسلام من حيث الحكمة. البلاد جاهلة خالية من الحكمة ولكن الناس يقرؤون القرآن ويقرؤون سورة «لقمان» أي يقرؤون ألفاظها ولكنهم لا يعيرون معانيها التفاتاً وبالمعاني والعمل تكون الحياة ولا آخرة إلا بدنيا وأين دنيانا؟ ترك المسلمون علوم الحكمة كلها واكتفوا بالتغني بألفاظها في القرآن فأحكموا الظواهر وخلت البواطن.

اللهم إليك المشتكى. أنا من الأمة المصرية التي تبلغ الآن ما ينوف عن ١٤ مليوناً كلهم لم يتعلموا، ولم يتعلم في بلادي إلا أمة القبط الذين لم يبلغوا مليوناً ويكادون يكونون جميعاً متعلمين رجالاً ونساء، فأما المسلمون فقد يمر الإنسان في بلاد كثيرة فلا يجد فيها من يحسن الكتابة والقراءة اللهم إلا قارئ القرآن بلا عقل ولا فهم. لم يتعلم من المسلمين اليوم أكثر من بضعة أفراد في المائة والبقية جهلاء مع اشتهار مصر الآن بأن التعليم فيها راق. وهذه هي الحقيقة المؤلمة. فإذا كانت نسبة المتعلمين فيها اليوم عد الأصابع في المائة فهذه أكثرها أبناء الأقباط الذين هم الأقلون. أما الأكثرون فإنهم جاهلون.

كل ذلك بسبب ما رسخ في العقول من آراء صغار الشيوخ الجهلاء وبعض رجال الصوفية الذين اتخذوا التصوف حرفة يعيشون بها. هذه هي الأمة الإسلامية الآن.

أيها الذكي . لا تعجب إذا أسمعتك ما جاء في جرائدنا المصرية عند كتابة هذا الموضوع في حوادث فلسطين ، فهل تصدق أن أمة من أمم أوروبا تأتي باليهود المشتتين في الأرض وتجعل لهم وطناً قومياً في فلسطين مسكن العرب إلا إذا كان أبناء العرب جهالاً ، فهم في نجد والحجاز واليمن ومصر وشمال أفريقيا والسودان لا رابطة تربطهم ببعضهم ولا بأمم الإسلام الأخرى ، ذلك كله من عدم الحكمة التي قال الله إنها خير كثير ، ومن عدم العلم الذي لم يسو الله بين المتصف به وغير المتصف به بل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا ذلك لنكون على بينة . حقاً أسكن الإنجليز اليهود في بلاد فلسطين ، لماذا؟ لأن أمة العرب لا سلاح عندهم كسلاح أوروبا ، وأوروبا متحدة علينا . لماذا؟ لأننا جهلاء . فاقرأ ما سأكتبه هنا الآن ولا تعجب لأن الله يقول : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[الإسراء : ١٦] ، وإياك أن تظن أني أكتب هذا وأنا يائس كلا . والله لو تطرف اليأس لقلبي ما كتبت حرفاً ، ولكني أقول : إن هذا التفسير وأمثال هذا التفسير وأحوالاً أخرى سترفع إلى هذه الأمة إلى العلا مرة أخرى ، ولكنها ستكون في المستقبل أعلى وأغلى وأدوم . فهاك ما جاء في جريدة الأهرام في يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه :

حوادث فلسطين

التحقيق في حوادث فلسطين والحقائق التي ظهرت للآن

أثبت التحقيق الذي تقوم به الحكومة في فلسطين إلى الآن ما يأتي ملخصاً عن تقرير رفع إلى حكومة فلسطين :

(١) إن الذين قتلوا وجرحوا من العرب في القدس أصيبوا برصاص بندقيات ومسدسات وشظايا قنابل يدوية .

(٢) إن اليهود وحدهم كانوا يستعملون القذائف اليدوية .

(٣) إن أول امرأة قتلت هي امرأة علي مطاوي ، وأول طفل قتل هو طفلها ، وأول عائلة هوجمت منفردة هي هذه العائلة .

(٤) إن حوادث الخليل لم تبدأ إلا بعد قتل العائلة العربية المنفردة في القدس وذيوع خبر الفظائع التي اقترفت معها ، وأن تقرير الأطباء البريطانيين الرسمي أثبت أن قتلى اليهود في الخليل لم يمثل بهم .

حول رجال التحقيق

راجع الجمعية الإسلامية بحيفا جماعة من عربان الحمدون وأبلغوها أن البوليس في « زمارين » قد داهم بيتي محمد المحمود وحسن السليم من عرب الحمدون أيضاً للتفتيش عن الأسلحة ، ولما لم يجد شيئاً ألقى القبض على الرجلين وزجهما في غياهب السجون وأخذ يسيمهما كثيراً من أنواع العذاب ليدفعهما إلى الإقرار بأن لديهما الأسلحة التي يزعم وجودها . وللحال أوفدت الجمعية الإسلامية من قبلها الدكتور رشدي أفندي التميمي لمعاينة الرجلين ، فأبى بوليس « زمارين » السماح له بذلك لولا أن تصادف وجود قومندان البوليس « تيودور عبود » هناك ، فأذن له فأجرى معاينة الرجلين بحضوره ، فإذا به يكتشف آثار فظيعة من الضرب والتعذيب تقشعر منها الأبدان فوضع بذلك تقريرين مفصلين

ختمهما بقوله : إن الرجلين سيبقيان معطلين مدة عشرة أيام يلزم بعدهـا معاينتهما ثانية لينظر في حالة العوارض المرضية المحتمل حدوثها .

وكتب أحد سجناء الخليل الوطنيين يصف الآلام المبرحة التي يقاسيها ومن معه والمعاملة السيئة التي يلاقونها من سجانيهم ، قـال : مضى لي ١٦ يوماً وأنا موقوف لسبب لا أدريه ، وإنّما بلغني أن أحدهم قد وشى بي بأنني كنت أحض الأهلين على قتل « المستر كفرانا » ضابط البوليس في أثناء الاضطرابات ؛ وقد بقيت الثلاثة أيام الأولى بدون طعام وشراب حتى كدت أهلك جوعاً وعطشاً لولا أن قدم لي مأمور السجن في اليوم الثالث قطعة من الخبز الجاف ، وبعد إلحاح شديد جاء إلي طبيب مع ضابط وطني لمعاينتي ، فبعد أن نظر آثار الضرب المبرح والتعذيب القاسي ظاهرة على جسدي لم يسعه إلا أن يحول وجهه عني متمتماً قائلاً : لا حول ولا قوة إلا بالله . وكذلك اقشعر وجه الضابط من هول ما رأى .

أما باقي السجناء ويبلغ عددهم المائتين فلا تسألوا عن حالتهم المؤلمة ، فقد حشروا في غرف ضيقة وهم ينامون أكداساً وكلهم جائع ويلاقون صنوفاً من العذاب . اهـ .

ويقال : إن حالة الموقوفين العرب في السجون الأخرى لا تقل عن حالة مسجوني الخليل وزمارين .

عطف السلطة على اليهود

طلب فخامة المندوب السامي من وزارة المستعمرات أن تصادق على صرف عشرة آلاف جنيه لمنكوبي اليهود ، وقد وافقت الوزارة على هذا الطلب وصرف منه بصورة مستعجلة مبلغ ألفي جنيه كما أن فخامة المندوب السامي قد صادق على قرار إعفاء بلدية تل أبيب اليهودية من مبلغ ٧٥ ألف جنيه كان ديناً عليها لخزينة البلاد ، كما أنه عمم على كافة دوائر الحكومة نشره جاء فيها أنه يرغب في أن تساعد هذه الدوائر المؤسسات والسلطات اليهودية على عمل الإسعاف والبناء الجديد الذي أصبح ضرورياً بعد الاضطرابات الأخيرة .

هذا عدا أن هناك نحو ٩ آلاف يهودي في القدس وأكثر من ألف يهودي في حيفا من سكان المستعمرات الذين تعتبرهم الحكومة لاجئين ، وهم في الحقيقة نجدات جاءت لمقاتلة الوطنيين . وهناك أيضاً مطالب بالتعويضات عن الخسائر قدمها اليهود وينظر فيها « المستر ابراسون » الصهيوني القح . وهناك دعاوى واتهامات من اليهود على العرب ينظر فيها المستر « بيتويش » رئيس النيابات العامة والمشرع الفلسطيني الصهيوني .

هذا ومن حوادث عطف الحكومة على اليهود أن مفاوضات جرت بين الجمعية الصهيونية والحكومة ، قرر فخامة المندوب السامي بعدها أن ترسل قوة إلى غزة مع منكوبي غزة اليهود الذين لجؤوا إلى تل أبيب في الاضطرابات الأخيرة ليتفقدوا بيوتهم ومحلاتهم ، ويحضروا ما فيها إلى تل أبيب ، حيث قرروا أن تكون سكناهم نهائياً . ولذلك روع الغزيون عندما رأوا رجال البوليس يرابطون في بعض شوارع البلد يحملون العصي الطويلة ، ثم فهموا السر عندما رأوا القطار يصل مقلاً عدداً من اليهود يحرسهم الجند الإنجليز فيذهبون إلى بيوتهم ويأخذون ما فيها ويعودون من حيث أتوا .

معاملة العرب في فلسطين واحتجاج اللجنة التنفيذية في القاهرة

تلقت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني تقارير مطولة من جميع أنحاء فلسطين تثبت بالوثائق والأرقام أن السلطة تقبض على العرب زرافات زرافات مستندة على أقوال الصهيونيين حتى غصت السجون بالأبرياء، وأنها تعامل المعتقلين بقسوة لا مثيل لها وتهاجم القرى الآمنة وتسوق سكانها إلى السجون بلا مبرر، حتى استولى الرعب على أهالي البلاد وسادها حكم الإرهاب من أدناها إلى أقصاها، مما اضطر كثيرين من سكان البلاد إلى الالتجاء إلى الجبال. وعلى أثر ورود هذه التقارير أبرقت اللجنة التنفيذية إلى المندوب السامي في فلسطين الاحتجاج التالي:

فخامة المندوب السامي بالقدس. كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني تأمل في فخامتكم أن تظهروا من العدل في معاملة العرب ما يمحو التأثير السيئ الذي أحدثه منشوركم الصادر على عجل في أول سبتمبر، ولكن الأنباء التي ترد إلينا بلا انقطاع من جميع أنحاء فلسطين تدل على أن هذا الأمل لم يحقق لسوء الحظ. فاعتقال العرب زرافات لمجرد افتراءات خصومهم وقبل كل تحقيق، والقسوة التي يعامل بها المعتقلون في معتقلاتهم، والظلم الواقع على قراهم الآمنة والرعب الذي استولى على نفوس الأبرياء من جراء سلوك البوليس وتوالي اعتداءات الصهيونيين، كل ذلك كنا نرجو من فخامتكم تلافيه مراعاة للعدل وحفظاً لسمعة بريطانيا في الشرق، فاللجنة التنفيذية تحتج بشدة على هذه الأعمال المخالفة للعدل والقانون وتلفت نظركم بإلحاح إليها آملة من عدالتكم الإسراع في وضع حد لها. اهـ.

السكرتير العام

ولما كتبت هذا حضر صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير فقال: هذا حادث يبكي ويحزن ويجعل في القلب يأساً. فقلت: أين أنت من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، هذه أمراض تنتاب الأمم، ولولا هذه الأمراض لم تستيقظ الأمم، نحن نجوع وجوعنا ضربة لازب لصحتنا، الجوع ألم ولكن هذا الألم نعمة وعدم هذا الألم نقمة، الأمة كلها جسم واحد وإصابة فرد أو أفراد منها إصابة لأعضائها، وبهذه الإصابة يكون الألم وهو كألم الجوع، فلا سبيل لرقي الأمة واستيقاظها إلا بألم تحس به الأمة في أفرادها كما يحس الإنسان بألم في أعضائه. إذن هذا الألم بالتعدي على فلسطين نعمة لا نقمة، ولن يكون نعمة إلا إذا أدرك المسلمون الخطر وأخذوا يتعلمون الحكمة والعلوم وإلا كان نقمة، وهذا إن شاء الله لا يكون كما قدمناه.

ولقد جعل الله الجوع لسان صدق يخبرنا بالحاجة إلى الطعام، فنحن نأكل اتقاء ألم الجوع واستلذاذاً بالطعام، ومتى أخذنا حاجتنا سمعنا منادياً ينادينا من الداخل أن اتركوا الطعام وهو المسمى بالشبع، هذا هو الجوع الملازم للإنسان ولكل حيوان عند افتقار الجسم لما يقويه، وهناك ألم أعظم للمحافظة على الجسم كله وهو المرض الكثير الأنواع، يظنه الناس نقمة ولكنه نعمة، إنه كالجوع فنسبة آلام المرض إلى تعاطي الدواء كنسبة آلام الجوع إلى تعاطي الغذاء، ولو أن الناس لم يجوعوا لم يأكلوا، أو لم يتألموا من المرض لم يتداووا، فالألمان نذيران وما عليهما إلا البلاغ، ومن اطلع على طبقات اليد وهي ١٢ في سورة «المؤمنون» مرسومة وقرأ أن تحت طبقة الجلد طبقة الأعصاب، وما

الأعصاب إلا جنود الجسم، أدرك السر المصون وعرف أنه لولا هؤلاء الجنود لمات أكثر الحيوان بالعوارض، فهذا النذير هو العاصم من تمام الإتلاف، ثم إن الجوع كالشرطة لحفظ الجسم من داخله، وألم الأمراض الذي تحمله الأعصاب وتوصله إلى محل الإدراك من الجسم أشبه بالجند المحاربين ليدافعوا عن الدولة، ثم إن الأمة كالجسم والأفراد كالأعضاء والأخبار المنشورة في الجرائد مثلاً كالإحساس الساري في الأعصاب إلى مركز الإحساس في المخ، فأمم العرب وبقية المسلمين اليوم يألمون لما أصاب طائفة منهم بجهة فلسطين، فإذا فعلوا ما فعل الجائع من الأكل والمريض من التداوي فقد أفلحوا وهم فائزون. ومثل الجوع والمرض الغيرة والحسد والغبطة وأمثالها كالعداوة فهذه كلها خلقت للمسابقة في الحياة.

فقال صاحبي: أراك اليوم تلهج بالحكمة كثيراً فهل للحكمة دخل في مثل هذه الحوادث؟ وأي مناسبة بين استيطان اليهود ربوع فلسطين وبين الحكمة؟ فقلت: الحكمة تقدم إيضاحها وبيان أنها نظام العلوم كما أن الشمس نظام المجموعة الشمسية، فمن الشمس تستمد السيارات ومنها الأرض ومنها يكون الليل والنهار، فهكذا الفلسفة أو الحكمة كما تقدم عن «بيكون» الفيلسوف إذ جعل العلوم الرياضية والطبيعية مسماة باسم التواريخ، وجعل نظام الطبيعة وعلم النفس والأخلاق ونظام المنزل والسياسة وعلم الجمال كلها علم الحكمة، وهكذا معرفة صانع العالم الخ، فالحكمة تشرف على العلوم وتنظمها. إذن لا بد لها من العلوم، والعلوم بها حفظ كيان الأمم. فلو عرف المسلمون العلوم كما عرفها اليهود المشتتون النابغون في حوز المال والاقتصاد والعلم والحكمة ما حقرهم الإنجليز وأنزلوا اليهود بساحاتهم، ولكن هو الجهل المخيم في ربوع الإسلام قد فتك بهذه الأمم وأطمع فيها الأمم الحكيمة التي سلطها الله علينا لإيقاظنا.

فقال صاحبي: إن اتصال الحكمة التي شرحتها هنا تفسيراً للآية بأحوال الأمم الإسلامية وغيرها ما هو إلا قول مجمل. فلو أنك ذكرت طرفاً مما أبدعت الحكمة في الأمم الآن لكان لها أثر وكان ذلك نوراً وبهجة وجمالاً. فقلت: انظر ما يلي:

عجائب الضباب في العصر الحاضر
وقدرة الإنسان على الطواف حول الأرض في أقل من شهر
وعجائب «جراف زبلن» وغيرها

هاأنا ذا أحدثك عن بعض نتائج العلوم الطبيعية في رقي الأمم وغلبها، وقد حرمها المسلمون، انظر ما جاء في تلغراف من برلين في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩ حين كتابة هذه الأسطر وهذا نصه:

نتائج تجربة الضباب الصناعي

أجريت التجربة الثانية بنشر الضباب الاصطناعي في «ترافيموند»، وقد حلقت في الجو سبع طيارات لمراقبة فعل الضباب، ولما بدأت التجربة أطلق ضباب كثيف، فبعد اثنتي عشرة دقيقة غطى جو الأماكن التي أطلق فيها حتى اضطرت السيارات إلى الوقوف عن السير لعدم تمكنها من رؤية الطريق. وظهر للطيارات المراقبة أن هذا الضباب يستر وجه الأرض حتى لو كانت هناك طيارات مهاجمة لما استطاعت أن تصيب هدفاً. اهـ.

ولئن عجبت مما تقدم ليزيدنك عجباً ما يأتي، فقد جاء في مجلة كل شيء ما نصه:

تاريخ التطواف حول العالم

من ماجلان إلى إكنر أول رحلة حول العالم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات
وآخر رحلة تتم في بضعة أيام
بمناسبة رحلة «جراف تسبلن» الأخيرة حول العالم

دار البلون الألماني «جراف تسبلن» حول العالم في بضعة أيام، وكان يحمل المسافرين من قطر إلى قطر أو من قارة إلى قارة، وما زال في مطافه حتى رجع إلى «فردريكسهافن» البلدة التي خرج منها واتجه نحو الشرق، وما زال في هذا الاتجاه حتى بلغها ثانياً، ومثل هذه الرحلة تذكر الإنسان بتلك المحاولات النظرية والعملية التي حاولها كثيرون لإثبات كروية الأرض والدوران حولها بالاتجاه في ناحية واحدة، ثم الارتقاء العظيم في السرعة.

وأول المحاولات العملية في الدوران حول الأرض كانت محاولة «ماجلان» الأسباني الذي خرج من إشبيلية «الميناء الإسبانية»، فقد غادر «ماجلان» هذه الميناء في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩ ومعه خمس سفن بها ٢٣٧ رجلاً، وما زالت السفن تتجه نحو الغرب حتى بلغت جنوب أمريكا، وهناك دارت حول الجزء الجنوبي من أمريكا حيث مضيق «ماجلان» الآن، ثم اتجهت نحو الغرب حتى بلغت جزر «فيلبين»، وهناك قتل «ماجلان» في شجار مع الأهلين، وكانت الأمراض تفتك بالبحارة ولذلك لم يعد إلى «إشبيلية» سوى سفينة واحدة، ولم يبق من البحارة سوى ١٨ رجلاً من ٢٣٧، ولما بلغوا الميناء الإسبانية نزلوا من السفينة يحملون الشموع وساروا إلى الكنيسة حيث صلوا لله شكراً على نجاتهم.

وقد احتاجوا لقضاء ثلاث سنوات وتسعة وعشرين يوماً في الدوران حول العالم، وبعد نصف قرن تقريباً خرج «السير فرانسس دريك» الإنجليزي في خمس سفن أيضاً، وكان رجاله ١٦٨ فاتخذ طريق «ماجلان» الأسباني ودار حول جنوب أمريكا، ثم سار في المحيط الهادي إلى أن بلغ «جاوة» ودار حول جنوب إفريقية حتى بلغ سيراً «ليون»، ثم اتجه نحو الشمال حتى بلغ إنجلترا التي خرج منها، وعاد ومعه ومن البحارة خمسة أشخاص فقط، واحتاجت رحلته إلى أقل قليلاً من ثلاث سنوات. وألف «جول فرن» قصته المسماة «حول العالم في ثمانين يوماً»، وفرض أن المسافر يستعمل كل أنواع المراكب من سفن إلى عربات إلى فيلة إلى زلاقات.

وجاء عصر الطيارات والبلونات فجعل الناس يتسون البواخر والقطرات، وصاروا يعدون الأيام للتطواف حول العالم بدلاً من السنين أو الأشهر، وآخر من استعمل الطيارات والبواخر والقطرات هو «أدوارد ايفانز» ورفيق آخر له طافا حول العالم في ٢٨ يوماً و١٤ ساعة و٣٦ دقيقة و٥ ثوان، وكان متوسط سرعتهما ٣٠ ميلاً في الساعة وكان ذلك في سنة ١٩٢٦.

وفي سنة ١٩٢٨ طاف «هنري ميرز» وهو أمريكي حول العالم في ٢٣ يوماً و١٥ ساعة و٢١ دقيقة و٣ ثوان، ولم يحسب للآن عدد الأيام والساعات التي قطعها البلون «تسبلن» في تطوافه حول العالم، وإنّما المفروض الآن أن السبق في المستقبل سيكون للطيار الذي يستعمل البلون فوق المحيطات

ويستعمل الطيارات فوق اليابسة، فالطيارة أسرع من البلون ولكنها غير مأمونة مثله في الأسفار الطويلة فوق المحيط الهادي أو المحيط الأطلنطي.

وقد عاد المنطاد الألماني «جراف زيلن» إلى «فرديركسهافن» بعد أن طاف حول العالم وفتح فتحاً مبيناً في عالم الطيران، وتراه في الصورة عند وصوله إلى المطار وقد وقفت الجنود صفوفاً لتمنع تدفق الجماهير المتحمسة على المنطاد عند هبوطه. (انظر شكل ٢١).



(شكل ٢١ ـ جراف زيلن)

ثم انظر ما نشر يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٨م وهذا نصه:

أعجوبة البحار

تحت هذا العنوان نشرت جريدة «الإيفنن بوست» النيويركية برقية تلقتها من «برلين» نلخصها فيما يلي:

ليتصور القارئ عمارات من البوارج الحديثة تتقدم مسرعة إلى الأمام نحو ثغر للعدو ثم تنتشر على سطح الماء في صفوف منظمة تأهباً للقتال، ولا تلبث أن تصوب نيران مدافعها إلى المدينة فتدمر العمارات بقنابلها تدميراً، ثم تنقلب إلى الوراء متراجعة أمام حركة مضادة من بطاريات ساحلية، وليتصور فوق هذا تحطم البعض وغرق البعض الآخر من تلكم البوارج ولكن دون أن يقتل أو يغرق إنسان، ومع هذا فإن بارجة قائد الأسطول تقف على بعد مئات الأميال من البوارج المحاربة وتتلقى أخبار المعركة بواسطة الراديو من طيارات محلقة فوق البوارج، ثم تبعث إليها بتعليمات لإدارة حركتها بواسطة الراديو كذلك وبدون أن تغامر بحيات نوتي أو ضابط من القوى المهاجمة.

إن ما تقدم بسطه هو الحقيقة لما يمكن أن يحدث في الحروب البحرية المقبلة، وهذا بناء على الاختراع المدهش الذي أسفرت التجربة عن نجاحه، فإن الطرادة «زيهرنجن» الألمانية القديمة وحمولتها أحد عشر ألف طن قد ركبت فيها أجهزة كهربائية سيرتها بسرعة كبيرة في طول البحر الشمالي وعرضه دون أن يكون فيها أي إنسان. وقد عادت هذه الطرادة إلى المرفأ الذي غادرته في الموعد المحدد لعودتها

دون أن تضل الطريق، ولم يطرأ عليها أي خلل أثناء رحلتها. ويؤكد الخبراء الفنيون أن الاختراع الألماني الجديد سيؤدي إلى إحداث انقلاب عظيم في نظام الحروب البحرية المقبلة. وقد أجمعوا على أن الطرادة «زيهرنجن» هي اليوم أعجوبة البحار لما تشتمل عليه من الآلات الكهربائية الحديثة التي تسيرها حيث تشاء، وهذه الآلات والأجهزة مركبة في غرف المواقد وهي بمثابة اليد التي تحركها والسواعد التي تديرها نحو الاتجاهات المطلوبة، بواسطة التعليمات التي تتلقاها من سفينة أخرى أو من طيارة محلقة فوقها على مسافات في الجو بعيدة، وهكذا تكون الأساطين البحرية القديمة التي تشير إلى وجود سفن بدون نوتية وسيرها بدون قيادة قد تمثلت فعلاً للعيان عندما قامت الطرادة «زيهرنجن» برحلتها الأولى في البحر الشمالي وبمناورة حربية قبالة ساحل «هيلوجلندا»، أما النفقات لتجهيز هذه الطرادة بالآلات الحديثة فبلغت ٥٠٠ ألف دولار. وأذاعت حكومة ألمانيا أن الغرض من عملها هذا هو أن تكون «زيهرنجن» هدفاً لتمرينات الأسطول الألماني.

وفي بيان لوزارة البحرية الألمانية أن النتائج التي ظهرت من التجربة الآنفة الذكر تفوق كثيراً ما كانت تنتظره لأنها لم تدل على تسيير البوارج الحربية والبواخر التجارية بدون نوتية وقائد فقط. بل دلت على إمكان إطلاق المدافع من البوارج بمنتهى الدقة في إصابة المرمى بواسطة الأجهزة الكهربائية. ويؤخذ من النشرة التي أذاعتها وزارة البحرية الألمانية بشأن التجربة للطرادة «زيهرنجن» أنه بعد أن ركبت فيها الأجهزة الكهربائية الحديثة ركب ظهرها جميع ضباطها ونوتيتها وعدد كبير من الضباط البحريين الذين حضروا لمشاهدة التجربة، ثم أبحرت الطرادة وبجانبها السفينة «بليتز» التي رافقتها على مسافة ٥٠ ميلاً، وعندما وصلت إلى عرض البحر انتقل من كان على ظهر الطرادة «زيهرنجن» إلى السفينة «بليتز»، وإذ ذاك بدت «زيهرنجن» للعيان كأنها سفينة مهجورة لا حياة فيها، ثم بدأت التجربة بأن ضغط قائد السفينة «بليتز» على زر في جهاز خاص داخل سفينته وسرعان ما تصاعد الدخان من مداخن «زيهرنجن» وأخذت تتحرك، ثم زادت سرعتها في بضع دقائق إلى مسافة ١٠ أميال في الساعة، ثم ضغط القائد على زر آخر فتحولت «زيهرنجن» عن وجهتها وأخذت تدور على محورها ثم وقفت وتراجعت إلى الوراء ثم تقدمت إلى الأمام فاليمين فالشمال حسب الإشارات التي كانت تتلقاها من قائد السفينة «بليتز»، وحدث أثناء هذه الحركات المختلفة أن تصاعد من جوانبها فجأة دخان كثيف أخفاها عن الأبصار، ثم تصاعد من ظهرها سهم ناري رمزاً إلى إطلاق مدافعها. وبالإجمال أن التجربة استغرقت مدة ساعتين والطرادة «زيهرنجن» قائمة بمناورات تشتمل على جميع الحركات الحربية البحرية بمنتهى الدقة والنظام.

أما التفاصيل الفنية الخاصة بالأجهزة الكهربائية الحديثة فلم تزل سراً من الأسرار التي تحرص ألمانيا على كتمانها كل الحرص. اهـ.

وقد جاء في جريدة الأهرام يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٩م ما نصه:

رحلة المنطاد تسبلن إلى القطب الشمالي

لم يصل المنطاد «تسبلن» من رحلته حول الكرة الأرضية حتى اتجهت الأنظار إلى الرحلة التي عزم على القيام بها إلى القطب الشمالي في شهر إبريل القادم، وسيبدأ الدكتور «أكنر» بعد عودته إلى

برلين في التأهب لهذه الرحلة وإعداد معداتها ، ولا ينتظر أن يصحبه فيها إلا عدد قليل من الذين يكون وجودهم في المنطاد مفيداً.

أما شركة « هرست » التي تكفلت بالقسم الأكبر من نفقات المنطاد فقد قررت انتداب اثنين من مراسليها ، ولا يكون للصحف الأخرى كلها غير مندوب واحد . وسيسافر المنطاد من ترونسو « تروج » متجهاً نحو الجانب الأمريكي من القطب إلى أن يصل إلى ألاسكا حيث يعد له مكاناً للنزول ، وستكون بلدة فيريانكس في « ألاسكا » القاعدة الحقيقية لرحلة المنطاد ، فيقيم فيها بضعة أيام ثم يحلق فوق القطب ، فإذا وجد مكاناً يصلح لأن ينزل فيه على الجليد فعل ذلك لتمكين العلماء من القيام بأبحاث مفيدة . ويعود المنطاد بعد طوافه حول القطب الشمالي إلى « فيريانكس » ثم يتجه نحو الجانب الأسيوي . وسيقوم بحركة التفاف تنتهي في « برديسو » وتبلغ مسافة هذه الرحلة ١٨ ألف كيلو متراً وتستغرق من ٢٠ إلى ٢٥ يوماً.

وسينقل المنطاد معه علاوة على المؤن اللازمة وأدوات الراديو والملاحة أجهزة كاملة تمكن كلًّا من ركابه من الحياة في القطب كالعربات الصغيرة والكلاب والأسلحة وأدوات نقالة للتلغراف اللاسلكي وما شاكل ذلك مما يحتاج إليه الركاب إذا طرأ عطل على المنطاد . وستكون الغاية من هذه الرحلة درس الحالة الجوية في الجهات القطبية توطئة لإنشاء خط جوي يصل أمريكا بأوروبا وآسيا بطريق القطب الشمالي . وسيرأس البعثة التي تعنى بهذه الأبحاث الأستاذ « نالش » يساعده الأستاذ « برسون » والكبتن « برونس » . ويعتقد الدكتور « أكنر » أن النزول على الأرض بجوار القطب ممكن بشرط ألا تكون الرياح شديدة . اهـ.

هذا ما وصل إليه العلم من استخدام الضباب وجعله حصوناً بدل الحصون الحجرية ومن الطواف حول الأرض والسير فوق القطب بالطيارات . أفليس لهؤلاء القوم الحق أن ينظروا للأمم الجاهلة نظرهم إلى أمر ضئيل لا يؤبه له . للنحل حمة وللزنبور حمة أشد وللعنز والغزال قرنان وللأسد صولة وأنيابه المحددة وأظفار لم تقلم ، والإنسان سلاحه يستنتجه من الحكمة التي حض الله عليها . طمع العلماء في أوروبا بعد ما تبينت لهم هذه العجائب ورأوا أن المستقبل غير الحاضر وأن العلم إذا سار على هذا المنوال أخرج أمماً لم تحلم بها الدهور . فانظر ما جاء في بعض المجلات العلمية التي تخرجها دائرة « مجلة الهلال » وهذا نصها :

قوى الطبيعة لا تنفد

القوى التي في أشعة الشمس، وفي باطن الأرض، وفي المياه المنحدرة

كلما انقضى عام شعر العالم بحاجته إلى قوى جديدة يستخدمها في إدارة آلاته وفي إيجاد الحرارة والنور ، ولقد ثبت أن الفحم والزيت لا يكفيان كثيراً ولا طاقة لهما على احتمال طلباتنا المتعددة . وقوى الطبيعة لا تقتصر على الفحم والزيت فقط إذ هناك أيضاً المياه المنحدرة والرياح المتناوحة ، وقد عرف أجدادنا قيمتها فاستخدموها في إدارة الطواحين وتسيير السفن .

ولكن هناك قوى أخرى في بعض عناصر لم تستثمر كما يجب فرض الراديوم قوة إلا أن الناس يجهلونها وقد يحلون لغزها بعد مضي عدة قرون ، وأشعة الشمس قوة لا يستهان بها ، ونحن إذا وافقنا

إلى تسخيرها ربحنا كثيراً واستغنينا بها عن قوى أخرى مهددة بالزوال ، وباطن الأرض يضطرب بالقوى الهائلة ، فهل من سبيل إلى إخراجها والتمتع بخيراتها وبركاتها ، ولقد وقف بعض العلماء جهودهم على درس مسألة الحرارة الأرضية الكامنة فتوصلوا إلى نتائج قد يظهر أثرها في المستقبل القريب ، ولا ريب أن مجال العمل في ذاك المضمار واسع أمام دولة إيطاليا ، فأرضها نارية وبراكينها أصدق برهان على ذلك . وفي الوقع أن إيطاليا استخدمت بعض القوى الطبيعية فظفرت بما لم تظفر به دولة سواها .

وفي مقاطعة « كوسكانيا » بين مدينتي « تيزا » و« سينا » في الإقليم الواقع حول « فولتيرا » تنبعث العيون بالماء الحار الملتهب . ولماء تلك العيون خصائص عظيمة ، فاستعان الطليان بالبخار البركاني الذي استخرجوه من بعض ثقوب عميقة مجاورة على تبخير الماء ، وبذلك أخرجوا منه حمض البورسيك ، وكانوا فيما مضى يستخدمون البخار البركاني في إيجاد الحرارة فقط ، أما الآن فحركوا به الدينامو واستخرجوا الكهرباء ، فكأن البراكين وما يتصل بها تقوم الآن بمهمة الفحم أو الزيت وذلك تقدم عظيم في عالم الصناعة . ولعل الناس في الأزمان القادمة لا يفرقون كثيراً إذا نضب معين الفحم أو الزيت من بين أيديهم ، إذ سيجدون في الحرارة الأرضية أو في أشعة الشمس نعم العوض . اهـ .

ماذا سيحدث في عام ٢٤٢٨ ؟

الكيمياء تخلق رجالاً ونساء

قال المستر « هـ . ت . ف . رودز » السكرتير العمومي لجمعية الكيميائيين البريطانيين ما يأتي :

إن كيميائي عام ٢٤٢٨ سوف يصنعون رجالاً في معاملهم لا تختلف عنا في شيء ، لأن علم الكيمياء كشف الآن عن خواص التحليل والتركيب ، واستطاع أن يبني ويخلق أشياء ثمينة من مواد ضئيلة حقيرة ، وترى أثر ذلك في صناعة الصبغة والحرير .

وعلماء الكيمياء يعلمون الآن كيف تتكون « البروتوبلاسم » المادة التي هي أساس الحياة وملاكها ، وهي كربون وهيدروجين ونتروجين ، ولا يستبعد أن كيميائي الأجيال المقبلة يخلقونها ويصنعون منها حياة ، وعلى مر الأيام سوف يكتشفون طريقة يعالجون بها « البروتوبلاسم » لتخرج أناساً مثلنا . فإذا تحقق ذلك الأمر واستطاع الإنسان أن يخلق أناساً دفعنا الأخير إلى عالم الصناعة والزراعة وما إلى ذلك ، واقتصرنا نحن على البحوث العلمية علنا نعثر على فتح جديد . اهـ .

هذا ما يتخيله القوم ، وأشد الخيالات إغراقاً في الوهم أن يكون هناك إنسان على يد إنسان وهذا من الخيالات التي لا يمكن تعقلها ، ولو أمكن حصولها لم تزد على ما يفعله الزراع فإنهم يصنعون البذرة في الأرض فينزل المطر عليها فتحيا وتنمو بعمل خارج عن طاقتنا ، وليس هذا خلقاً منا ، كلا ثم كلا ، فهذا مع أنه خيال أو وهم أو فكرة خطرت ليس من عملنا ، بل هو من عمل الإله عزّ وجلّ كظهور النبات والحيوان ، فما نحن بخالقي هذا الحيوان ولا هذا النبات مع أننا نحن الذين نتعهدها ، بل نحن نعلم التلاميذ وما نحن لهم بخالقين ، بل نحن نلد الأولاد وما نحن لهم بخالقين .

فقال صاحبي: هذا البيان حسن ولو أنك تركته بلا بيان لظن الجهال أن ما كتبه القوم ونقلته قد أرضاك، وأنك تؤمن بأن الإنسان الجهول الكفار المسكين الضعيف يخلق ويرزق، فأنت بهذا ألجمت الأفواه التي يستخدمها الحقد والحسد فتعترض بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

هذا وإن هذه النبذ التي ذكرتها الآن حسنة جميلة تشوق المسلمين وتزيدهم حباً في العلم والحكمة فالإجمال لا تشويق فيه، فهاأنا ذا أطلب منك نبذة أخرى من هذا القبيل وكفى، فقلت: انظر ما نشر في إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه:

المكتب الدولي للصحة العامة بباريس

وجه رئيس اللجنة الدائمة للمكتب الدولي للصحة العامة بباريس الدعوة إلى وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية لحضور جلسات هذه اللجنة التي ستعقد في باريس في المدة ٢١ إلى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩ مندوباً عن الحكومة المصرية في اللجنة المشار إليها، وستناول الموضوعات الآتية:

[١]: تطبيق معاهدة سنة ١٩٢٦ الصحية الدولية والمسائل المتعلقة بها وهي:

(أ) ـ تقرير مجلس الصحة البحرية والكورنتينات بمصر عن الحج إلى مكة المكرمة سنة ١٩٢٩ ومتابعة درس المسائل المختلفة المتعلقة بالحج كجواز سفر الحاج ومراقبة الحجاج المارين من بعض البلاد مراقبة صحية وغير ذلك.

(ب) ـ الشروط التي يسير بموجبها العمل فيما يختص بشهادة إبادة الجرذان أو الإعفاء من إبادتها «المادة ٢٨ من المعاهدة» وإبادة الجرذان في السفن الجديدة.

(جـ) ـ إرسال البلاغات الصحية بواسطة التلغراف اللاسلكي، ووضع أورنيك موحد لهذا الغرض.

(د) ـ الشروط الواجب توفرها في حواجز الجرذان لاعتبارها وافية بالغرض الذي أنشئت لأجله.

(هـ) ـ الاحتياطات التي يمكن اتخاذها لمنع ما قد يحدث من انتشار الأمراض الوبائية بواسطة الطيارات.

[٢]: تقرير لجنة الأفيون عن المسائل المقدمة للمكتب الدولي للصحة العامة تنفيذاً لأحكام معاهدة سنة ١٩٢٥ بشأن الأفيون.

[٣]: الحمى الصفراء معلومات جديدة عن السم النوعي وطريقة انتقاله وعن تأثير المرض من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية منه.

[٤]: معلومات حديثة عن تأثير الكوليرا والطاعون من الوجهة الوبائية ومنشأ الإصابة بهما وعن مفعول اللقاح ضد الطاعون.

[٥]: الجدري واللقاح المستعمل ضده والإصابات التي تعقب التطعيم به.

[٦]: التدرن: نسبة الوفيات بالتدرن بين الأطفال المقيمين في وسط ملوث بهذا المرض وإكساب المناعة ضد التدرن، معلومات خاصة في الأوساط الصناعية.

[٧]: الحمى المتموجة وقوة باشيلس بايج فيما يتعلق بإحداث المرض في الإنسان والوقاية منه.

[٨]: التهاب مقدم مادة النخاع الشوكي السنجابية الحاد، تأثير المرض من الوجهة الوبائية وسبب الإصابة به.

[٩] : الالتهاب السحائي الناشئ عن الميكروب النوعي لهذا المرض وتأثيره الحالي من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية به.
[١٠] : المستشفى العصري : عدد المستشفيات وتوزيعها الجغرافي بالنسبة لعدد معين من السكان.
[١١] : استعمال الملونات والمواد الحافظة للأغذية.
[١٢] : بحث مقارنة بين نسبة الوفيات في لندن والريف بشأن الاحتياطات الواجب اتخاذها لتحسين الحالة في الريف.
[١٣] : الصحة الاجتماعية : التشريع الخاص بالتدرن وبالأمراض الزهرية والإسعاف الطبي للشعوب المتوطنة.
[١٤] : تعدد حدوث إصابات الزهري الأولى في الوقت الحاضر ونتائج الاحتياطات الوقائية التي اتخذت ضد الأمراض الزهرية.
[١٥] : الاحتياطات الواجب اتخاذها ضد التسمم بالكثول. اهـ.

أفلا ترى أيها الذكي أن هؤلاء القوم كما نبغوا في إحداث الآلات المهلكة هكذا هم نبغوا في علم الطب، وعلم الطب فرع من فروع العلوم الخاصة بالجسم الإنساني، والجسم الإنساني والنفس الإنسانية يذكران في العلوم الطبيعية عند القدماء، فأما عند المحدثين فلقد أريتك ما ذكره العلامة «بيكون» أن علم النفس من العلوم الفلسفية، أما علم التشريح فمن العلوم المسميات بالتاريخ الطبيعي، فأهل أوروبا بهذا المكتب يبحثون عن الصحة العامة في الأرض كلها وحكومتنا المصرية تشاركهم، أفليس من العار على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذي نشر العلم في الأرض كلها أن تكون ذيلاً للأمم وعالة على دول أوروبا؟ أفلا يحق لهم إذا رأونا عالة عليهم أن يفعلوا معنا ما يشاؤون؟ هاهم أولاء يخافون أن تكون الطيارات من الناقلات للوباء كما تقدم ذكره في هذا التفسير. إن البراغيث تركب متون الفيران وهذه تنقلها من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، لتوزع الأمراض عياناً على الناس بلا تمييز بين صالح وطالح، فهكذا هنا الطيارات يخافون أن تفعل هذا الفعل، فهاهم أولاء منه يحترسون.

ومن عجب أن هؤلاء يطلبون مشاركة الأمم، عمل والله عظيم، ولو أن دين الإسلام وجد أمماً بعد القرون الثلاثة الأولى تحمل هذا الدين وتفعل فعله صلى الله عليه وسلم إذ كان يود أن يجعل الناس أمة واحدة كما تقدم في أول سورة «العنكبوت» عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ ﴾[العنكبوت : ٦]، وأنه أرسل إلى الملوك والأمراء شرقا وغرباً يطلب أن يكونوا معه يداً واحدة. أقول : لو أن الإسلام وجد أمة على هذا النمط لكانت هي القائمة بالنفع العام. وبعبارة أخرى : لخففت العبء عن أهل أوروبا في حفظ الإنسانية، ولكان لها مركز سام شريف يمنع الأمم من التدخل في شؤونها، ولكن ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾[الروم : ٤].

فقال صاحبي العالم المتقدم ذكره : إن اتصال هذه الأعمال الصناعية من حربية وطبية بالعلوم والحكمة لا يزال يحتاج إلى بيان. قلت : حقاً وهذا البيان سيأتي إن شاء الله في سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد : ١٩] الخ، إذ سأذكر هناك إن شاء

الله « رسالة مرآة الفلسفة » التي أشرت إليها سابقاً في هذا التفسير، وقد كنت أريد كتابتها في آخر سورة « النمل » أو في آخر سورة « القصص »، ولكني وجدت أن ذلك يورث السآمة هناك فأخرتها إلى تلك الصورة الآتية :

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن هي أليق بهذا المقام. فقلت : نعم ولكن هذا الوعد قد تقدم في سورة « النمل » وغيرها فلا أخله. فقال : إني علمت أن تلك الرسالة تشتمل على مقدمة وبابين والمقدمة مشتملة على قواعد تنفع في فهم هذا الوجود. الباب الأول : في ذكر مذاهب الفلاسفة إجمالاً. الباب الثاني : في تقسيم العلوم، وإني أرى أن تذكر الباب الثاني هنا لأنه أمسّ بهذا الموضوع لأنه جمع أقسام علوم الحكمة قديماً وحديثا إجمالاً، غاية أن الأمر أن القدماء جعلوها كلها حكمة، والمحدثين سموا العلوم الجزئية « تواريخ »، والعلوم الكلية سموها فلسفة، ومتى ذكرت هذا التقسيم اتضح لنا كيف يكون الضباب الذي حجب السفن مفرعاً على العلوم، وكيف تكون الصناعات كالطب والزراعة وكالحياكة والنجارة والحدادة مفرعة على العلوم، فالأول تبع علم الإنسان، والثاني تبع علم النبات، والثالث تبع قسم من النبات، والرابع تبع قسم آخر من علم النبات. والخامس تبع قسم من علم المعادن، وهذه العلوم كلها طبيعية، والعلوم الطبيعية من الحكمة على رأي القدماء، أو من مقدماتها الجزئية على رأي « بيكون » الإنكليزي كما تقدم الذي اتبعه جميع أهل العصر الحاضر، ومن هذه الصناعات الضباب المتقدم، وعلم الطيران بقسميه وهي البالونات التي ترتفع بالغازات الخفيفة كالهيدروجين والطيارات والمرتفعات بالمحركات. فالأولى ارتفاعها إلى أعلى بالخفة كسقوط الحجر إلى أسفل الثقل، والثانية بآلات محركة كما يطير الطير، وهذا كله من علم الطبيعة والكيمياء، لأن الغازات من الثاني والمحركات من الأول، وبهذا يكون السير إما على اليابسة أو في سائل أو في غاز.

ثم قال : إذا كتبت هذا هنا كان ذلك نعم الذخيرة لقراء هذا التفسير وتحضر لهم صورة واضحة للحكمة المذكورة في الآية، وبها يفرح المسلمون بل هم بذلك سريعاً يرتقون. فقلت أنا : الآن انشرح صدري لأن أكتب تقسيم العلوم هنا وأدع آراء الفلاسفة ليذكر هناك في تفسير سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم، وهناك يقال : إن القسم الثاني قد ذكر في سورة « لقمان »، وهذا القسم الذي أنقله الآن من « رسالة مرآة الفلسفة » نقلتها فيها من كتابي بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموزانتها بالعلوم الحديثة، وهذا نص ما جاء فيها ملخصاً :

الفلسفة العربية

مقدمة

في قبول الفطرة الإنسانية للفلسفة وفي تاريخ علومها

بسم الله الرحمن الرحيم

جبلت النفوس على حب الاستطلاع وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة، وشاقها ذلك السقف المرفوع المزين بالنجوم المتلألئة المختلفة الأشكال الجميلة الألوان السارة للناظرين، ثم راعها ما على الأرض من زينة وجمال وحسن وبهاء واعتدال وكمال من سحاب ماطر وبرق لامع ورعد قاصف وهواء لطيف ونور شريف وجبال شاهقات وأنهار جاريات وبحار واسعات

ومعادن نافعات ونبات منسق الأوراق بديع الأزهار يانع الأثمار زين الأرض بمحاسنه وزقها بأنيق بدائعه، عاش به الإنسان والحيوان فكان منه غذاؤهما ودواؤهما وبهجتهما. وأودع فيه من الغرام به والشهوة له ما ساقها إلى السعي والبحث عنه كل حين.

الحيوان مكتف بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوي ووبر وشعر وصوف وأنياب محددة ومخالب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع وإلهام يهدي إلى سبل المعاش.

أما الإنسان فإنه خلق عارياً، كثير الحاجات، يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره فضعفه ظاهر ووهنه حاضر. لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل فيسعى به لمآربه من الغذاء والدواء واللباس والمسكن والتعليم والتهذيب والمعاشرة ونظام الجمعية الإنسانية. فما أكثر حاجة الإنسان وما أحوجه إلى العلم والمعرفة، وما أقل حاجة الحيوان وما أحراه بالحرمان من معارف الإنسان، إن النتائج تتبع المقدمات والثمار على حسب النبات، فمن كفاه غير السعي والطلب عاش خاملاً ومات جاهلاً ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها أكسبها قوة وأنالها حرية وكانت حرية بالإجلال والإعظام.

هذه هي الميزة التي اختص بها الإنسان وبها سعادته، ألا ترى أن كمال كل شيء فيما اختص به، فالفرس كماله في العدو السريع وأن يكون مكراً مفراً مقبلاً مدبراً معاً. وإذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الحمير وعومل معاملتها في الحمل والأعمال الخاصة بها. هكذا السيف كماله أن يكون صارماً سريع القطع فإن تنزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبذة الشجعان وخرج من الميدان. هكذا الإنسان لم يميز إلا بالعقل والعلم، فإذا كان غافلاً نزل إلى رتبة أدنى من الحيوان، أولئك كالأنعام بل هم أضل منها، لأنها كاملة في ذاتها لقيامها بما يناسبها، فإذا انحط الإنسان وشاركها في منازلها فهو في خسران مبين.

إن الفطرة الإنسانية شاهدة بما قلنا، فإن وإن نال الإنسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجاه لا يفتأ بفرح بحلو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء، ويشتاق لذلك ويحرص عليه. ولقد نرى أكثر الناس جهلاً وأبعدهم عن العلم مجلساً إذا عيروا بالجهل عدّوه إثماً عظيماً وناوؤوا من غيرهم وشاكسوه، وذلك لأن فطرهم شاهدة أن كمالهم بالمعرفة ونقصهم بالجهل.

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليعرف أسباب الأشياء ومسبباتها، كل ذلك شواهد ناطقة على ما قررناه، وترى جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها من أي دين أو نحلة يجلون العظماء الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين، لما ركز في طبائعهم ووقر في نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالإنسان.

تطابقت فطرة الإنسان وحاجته، فكماله النفسي بالعلم وسعادته في الحياة بالعلم، نظر الإنسان فرأى في نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة، فاحتال في تهذيبها وجد في تكميلها فكان علم الأخلاق، ثم رأى زوجة وولداً وخدماً فكانت سياسة المنزل، ثم كان اجتماع أهل المدينة وكان لا بد لهم من نظام وقوانين وحكام فكان سياسة المدينة.

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والمعاملات، ثم الطبيعية لتستخرج بها ما في الأرض من منافع، ونظرت في العوالم فأقرت بإله نظمها وحكيم أبدعها.

أهل المدينة كلما كانوا بالعلم مغرمين وعلى الفضيلة عاكفين، كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم، وكلما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير.

وأقدم أمة عرفها التاريخ في الحكمة قدماء المصريين وهكذا السريانيون، وقفى على آثارهم الكلدانيون ثم الفرس واليونان، وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل « سقراط » وتلميذه « أفلاطون » وتلميذه « أرسطو »، ولقد كان هذا أرسخهم في العلوم ولذلك يسمى المعلم الأول.

ولما نقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظا عظيماً، ونبغ فيهم نابغون مثل « سنيكا » و« شيشرون »، ولما انتصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبهم في خزائنهم، ثم جاء الإسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقاً وغرباً فأشرأبوا إلى ما نالته الأمم السالفة من روائع الحكمة وبدائع العلم والإحاطة بما في هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه الملك وتعظم به الدولة، وكان خالد بن يزيد بن معاوية ويسمى حكيم آل مروان رجلاً فاضلاً محباً للعلوم، فأحضر جماعة من الفلاسفة وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة وغيرها من اليوناني إلى العربي، وهذا أول نقل في الإسلام.

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الأموية ودانت لها البلاد واستتب الملك أرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب « أقليدس » وبعض كتب الطبيعيات، وقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصاً وشوقاً إلى علوم الحكمة، كما روي: « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال ».

فلما كان أيام المأمون وقد كان قد أشرب قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة؛ أرسل إلى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك، فأخذ منها واستوعب، فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الإسلام بالقبول وعكفوا عليها ونبغوا في فنونها. ولقد خالفوا المعلم الأول في كثير من المسائل وردوا عليه ودونوا في ذلك الدواوين وكثرت التآليف. ثم إن العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون كحنين بن اسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم مخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر، فبقيت تلك التراجم غير معمول بها ولا نافعة إلى زمن منصور بن نوح الساماني، فالتمس من أبي نصر محمد بن محمد ابن طرخان الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة، فأجاب الفارابي وفعل كما تقتضيه وسمى كتابه بالتعليم الثاني، فلذلك لقب بالمعلم الثاني، وبقي هذا في خزانة المنصور إلى زمن السلطان مسعود من أحفاد منصور بن نوح كما هو مسوداً بخط الحكيم الفارابي، إذ لم تكن له عناية بجمع مصنفاته وإنما يغلب عليه السياحة على هيئة الصوفية مع الزهد والقناعة. وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى « بصوان الحكمة »، وكان الشيخ أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف المولود سنة ٣٧٥ هـ المتوفى سنة ٤٢٨ هـ « سنة ١٠٣٦ م » وزير المسعود، وتقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة الكتب، فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيما بينها التعليم الثاني، ولخص « كتاب الشفا »، ثم إن الخزانة أصابها آفة فاحترقت، وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب

لئلا يطلع الناس على الحكمة التي نقل عنها، وهذا باطل لما يرى في «كتاب الشفا» من تصريحه بأنه تلخيص التعليم الثاني.

ومن الحكماء في هذه الأمة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف من أمراء بني كندة، وكان من المكرمين لدى الخلفاء من المأمون إلى المتوكل، ولد سنة ٢٤٠ في البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وبتأليف كتب في الفلسفة والرياضيات والطب والهيئة والموسيقى. وعدد مؤلفاته ٢٦٥ وأكثرها ضائع الآن.

ومن المترجمين ابن البطريق في أيام المتصور بن يحيى الذي نقل المجسطي وإقليدس للمأمون وحسين بن بهريق فسر للمأمون عدة كتب وكثير غيرهم.

هؤلاء في المشرق أما في المغرب فكان القاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس، فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران، حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن وذهبت الدولة نادى ابن خلدون في مقدمته بالويل والثبور، وقال: أيها الناس لا تغفلوا عن الصنائع والعلوم فقد ركدت ريح مدنيتكم وخر عليكم السقف من فوقكم فأصبحتم من الخامدين.

ولما فتح الترك «القسطنطينية» وقد نالوا حظاً وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين، فمالت شمس الحضارة هناك إلى الغروب، ونادى عالمهم «ملا كاتب جلبي» المتوفى في القرن الحادي الهجري بالويل والثبور، وقال ملخصه: كان شرف الرجل في الأعصار السالفة بمقدار تحصيله وإحاطته بالعلوم العقلية والنقلية. وكان في الدولة فحول ممن جمع بين الحكمة والشريعة كالعلامة شمس الدين الفناري والفاضل قاضي زاده الرومي والعلامة خواجة زاده والعلامة علي قوشجي والفاضل بن المؤيد ومير جلبي والعلامة ابن الكمال والفاضل ابن الحنائي وهو آخرهم. ولما حل أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكمل، فاندرست العلوم بأسرها إلا قليلاً من رسومه، فكان المولى المذكور سبباً لانقراض العلوم من الروم كما قال العلامة شهاب الدين الخفاجي في خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة. اهـ.

فانظر كيف شكا علماء العرب والترك قديماً من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحالة بالأمم الإسلامية من ترك العلوم الفلسفية.

ولما كانت الأمم الإسلامية اليوم مستعدة للنهوض الساري في أمم الشرق، وأخذت تجد في أسباب الرقي، وأولها أمتنا المصرية فإنها قد استيقظت من رقدتها وقامت من نومتها من أيام المصلح الكبير المغفور له الحاج محمد علي باشا، رأيت أن أؤلف كتاباً يجمع شتات العلوم الحكمية الباقية في الكتب الموروثة عن القدماء خالصاً من الشوائب، سهل العبارة حاوياً خلاصة الفن، لا هو بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، واصلاً القديم بالحديث، بحيث يعرف القارئ إلى أين انتهى القدماء، ومن أين ابتدأ المحدثون، ليستغني به عن سواه، فإن بعض الكتب القديمة معتاصة الفهم بعيدة الغور على المتوسطين، فأقول ومن الله التوفيق:

تعريف الفلسفة

قد استبان في المقدمة أن الإنسان محب للبحث والمعرفة ، مغرم بالاطلاع ، وكل له غرض يسعى ليدركه على مقتضى همته ومقصوده ودرجته في الفهم ، وليس يعرو من هذه الصفة الشريفة إلا من غمرته اللذات وانغمس في العداوات فاستعبدته الشهوتان البهيمية والسبعية ، فينحطون إلى أسفل الدركات في البحث ، ويعكفون على معرفة عيوب الناس والحكايات المبتذلة ، ويتسلون بذلك عما تطالبهم به نفوسهم من المعرفة والعلم ، ويسرون بثلب أعراض الباحثين ليكون ذلك تعزية لهم وليسدلوا أستاراً وحجباً على مطالب أنفسهم وهم لها ظالمون .

لا يفتأ الإنسان يسأل ؟ من أين وإلى أين؟ ولم ذلك؟ طلب دائم . قال أرسطاطاليس : إن الدهشة أول باعث على الفلسفة . والكلمة المستعملة عند الأمم وهي « فيلسوف » تدل على ما تقدم ، فإن كلمة « فيلو » معناها محب ، و« سوفيا » معناها الحكمة ، فالفيلسوف محب الحكمة ، وقد أطلق لفظ فيلسوف في هذا العصر عند العامة ببلادنا على من برع في علم أو نبغ في قوة الحجة والجدل أو أنكر الديانات أو أخذ يذم علماء زمانه ويقدح في كفاءتهم في المجالس ، فيقول الناس : لولا أنه أعلم منهم ما سفه أحلامهم ولا رماهم بكل كريهة شنعاء . ويقابل لفظ الفلسفة عندنا الحكمة ، ويقال « الفيلسوف الحكيم » .

الحكمة لا يتصف بها إلا من استكمل قوتي العلم بالرياضيات والطبيعيات والإلهيات والعمل بالأخلاق وتدبير المنزل وتدبير المدينة أو السياسة العامة ، وباطل ما دار على ألسنة الناس في زماننا من المعاني السابقة ، ولم ينل هذه المزية إلا قليل ، والتعريف المشهور لعلم الحكمة أنه علم يبحث عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية ، والمعتبر في تلك الطاقة أواسط الناس الذين لا هم في غاية العلو ولا في نهاية السفل .

وأنت ترى أن هذا التعريف لا يشمل إلا القوة العلمية ، فمن كان عالماً بتلك العلوم فهو حكيم . وقد خرج منها العمل بالأخلاق وتدبير المنزل والسياسة . وقد جعل الرئيس « ابن سينا » ذلك العمل غاية للحكمة العملية .

واعلم أن الحكمة لها ثلاث درجات : الأولى : حب البحث . الثانية : استكمال العلم . الثالثة : العمل به وهو الثمرة .

والتعريف المتقدم شمل أهم هذه الدرجات وهو العلم . وقد جاء في « إخوان الصفاء » ما شمل الدرجات الثلاث ، وهو أن الفلسفة أولها محبة للعلوم ، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم . وليس المعنى أن يعرف الإنسان كل شيء ، وإنّما يزاول المعارف ويحيط بالكليات في العلوم التي سنذكرها ، ثم يختص بفن كالطب أو الهندسة مثلاً ، فأما أولئك الذين يقرؤون بلا نظام مسائل شتى في المجلات والكتب فقط فهم عن الحكمة معرضون ، لأن العلوم الجزئية والمسائل الداخلة فيها لا نهاية لها .

ولو أن امرأ قرأ علم الحيوان أو النبات وأضاع فيه عمره لم يحط به ولم يأت على آخره ، وإنّما بقراءة العلوم الجامعة الآتية يصبح هذا العالم عنده حاضراً في عقله بصفة عامة ، حتى إذا صادفه شيء

من مسائل العلوم الجزئية زادته علماً وعرف مكانتها من نفسه وضمها إلى أخواتها، وليس يكون ذلك النظام إلا بالاطلاع على علم الفلسفة ودرس علومها، وما مثل الحكماء مع العلماء والأمم إلا كمثل الملوك مع الوزراء والأمراء وبقية الدولة، أو كمثل رئيس الجيش بالنسبة للقواد.

أقسام العلوم الحكمية

العلوم الحكمية أربعة أنواع: الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات.

فالرياضيات أربعة أنواع: الأرتماطيقي وهو علم العدد، والجومطريا وهو الهندسة، والأسطرونوميا، والموسيقى.

فالأرتماطيقي

هو علم العدد وماهيته وكيفيته وخواصه، وهذا العلم أصل الحكمة ومبدأ المعرفة وبين فيه النسب العددية والهندسية والتأليفية، وثمرتها التوصل إلى حقائق المعارف، وتبيان أن هذه العوالم المختلفة الأشكال والصور والصفات إذا جمعت على النسبة المتعادلة انتظمت واتحدت، وكان منها ثمرتها ونتائجها المرضية، أما إذا جمعت على النسبة التي لم تعتدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تتفق، فاعتدال الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلالها بالنسبة المنحرفة. وفيه ذكر الحساب الذي لا يهتم به إلا الفلاسفة، وليس لكتاب الدواوين فيه من خلاف. اهـ.

ومنفعة هذا العلم أنه يعود الذهن على النظر في المجردات عن المادة ولواحقها، ولذلك كانت القدماء تقدمه في التعليم على سائر العلوم، وأن الأعداد كما نشأت من الواحد وهو ليس بعدد هكذا نشأ العالم عن الله.

ومن الكتب المختصرة فيه سقط الزند في علم العدد، ومن المتوسطة الارتماطيقي الذي من كتاب الشفاء، ومن المبسوطة كتاب نيفوماخس الجهراسيني. وهذا الفن يدخل فيه براهين الحساب، وقد ألف فيه المتقدمون وأدخلوه في التعاليم ولم يفردوه بالتأليف، كما فعل «ابن سينا» في الشفاء والنجاة وغيره.

أما المتأخرون فهو عندهم مهجور وليس بمتداول، لأنهم أخذوا ما يحتاجون إليه منه في الحساب للبرهنة، فحسب كما فعله «ابن البنا» في رفع الحجاب مثل المتوالية العددية والمتوالية الهندسية. وأما المهجور فمثل ما يأتي هنا. إن عدد (٥) دائر، أي: يحفظ الآحاد والعشرات وهي (٢٥)، إذا ضرب في نفسه مرات بالغاً ما بلغ، وإن هذه الخاصة لا يشاركه فيها سواه.

الهندسة

وأما الجومطريا فهو فن الهندسة وبيان ماهيتها وكمية أنواعها وأحوال المقادير ولواحقها وأوضاع بعضها عند بعض، وموضوعه الجسم التعليمي والسطح والخط ولواحقها من الزاوية والنقطة والشكل. وأول ما ترجم من اليوناني للعربي في هذا العلم كتاب «الأركان» لإقليدس أيام أبي جعفر المنصور. واختلفت نسخه باختلاف المترجمين كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة ويوسف بن الحجاج ويحتوي على خمسة عشر مقالة، وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء، ومثله «ابن الصلت» في كتاب الاقتصاد.

وكما أن فن خواص الأعداد المتقدم يرقي الذهن في فهم الأمور العالية والمجردات من المادة ويوقظ الذكر، هكذا الهندسة يشرق عقل المشتغل بها ويستقيم رأيه لما يرد عليه من البراهين البينة والأحوال المنظمة والأشكال المتقنة، والعقل يعتاد ما عود ويكون مزاجه بحسب ما ارتسم فيه، وهو هنا الدقة والنظام والصدق والحق، كما أن الجسم يصح ويستقيم إذا جاد غذاؤه وتباعدت عنه أسباب الفساد.

علم الفلك

وأما «الأسطرونوميا» فهو علم النجوم وصفة البروج وسير الكواكب، ويتبين فيه تاريخ آراء الفلاسفة في العصور المختلفة في سير الشمس، ويبين ما ذكره القدماء من الرأيين: الرأي القائل بدوران الأرض حول الشمس، والرأي القائل بدوران الشمس حول الأرض، وأدلة الفريقين المبسوطة في المواقف، وبيان ترجيح الرأي الأول، وأن ذلك كان قبل ظهوره للإفرنج بنحو مائة وخمسين سنة، ويبين فيه حساب الشمس والقمر والسنين الشمسية والقمرية وسير الكواكب والفصول الأربعة، ويذكر المذاهب الحديثة بطريق الإجمال من أن في العالم شموساً كل شمس لها سيارات ونحن في مجموعة من تلك المجموعات، وبعضهم كان يلحق بهذا الفن علم تخطيط البلدان.

الجغرافيا

وهو صورة الأرض والأقاليم السبعة والدرجة الأرضية التي تنتهي إليها، ومعرفة الجبال والبراري والأنهار والمدن والقرى ومسالكها، وعلم الهيئة عند القدماء والمحدثين إنّما يتم بالرصد وكلما أتقن ازداد العلم وكلما قل كان العلم على حسبه، وكتاب المجسطي الذي ألفه بطليموس جامع لمقصود هذا العلم، وقد اختصره «ابن سينا» في الشفاء، وابن رشد وابن السمح وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار.

الموسيقى

وأما الموسيقى فهو علم يتبين فيه قوانين النغمات والألحان وتأثيرهما في نفوس السامعين تأثيراً بيناً يضارع ما تفعله العقاقير الطبية في الأجسام الحيوانية، ويبين فيه النسب العددية والتأليفية، وثمرتها التوصل إلى حقائق المعارف، وتبيان أن هذه العوالم المختلفة الأشكال والصور والصفات إذا جمعت على النسبة المتعادلة اتحدت وكان منها ثمرتها ونتائجها المرضية. أما إذا جمعت على النسبة التي لم تعتدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تتفق. فاعتدال الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلافها بالنسبة المنحرفة. وفيه ذكر الحساب الذي لا يهتم به إلا الفلاسفة، وليس لكتاب الدواوين فيه من خلاق.

وهذا الفن كفن الشعر تتركب أصولهما من ثلاثة: السبب والوتد والفاصلة. الأول: مثل «هل. بل». والثاني: مثل «نعم. بلى» ومثل «نحن وكنت وشئت». والفاصلة: مثل «فهمت ورضيت». والذي تركب من الغناء في اللغة العربية ثمانية أنواع: الثقيل الأول وخفيفه. والثقيل الثاني وخفيفه. والرمل وخفيفه. والهزج وخفيفه، وسنفصله.

وهذا الفن يحتاج إلى ثلاثة علوم: النحو والحساب والشعر. وألف فيه أبو نصر الفارابي وابن سينا في جملة كتاب الشفاء وصفي الدين بن عبد المؤمن وثابت بن قرة الصابي وأبو الوفا البورجاني.

ومنفعة هذا العلم بسط الأرواح وتعديلها وتقويتها تارة وقبضها تارة أخرى . أما الأول فيكون في الأفراد والحروب وعلاج المرضى ، وبه يظهر الكرم والشجاعة ونحوها . وأما الثاني فيكون في المآتم وبيوت العبادات فيقبض النفوس عن هذا العالم ويحركها إلى مبدئها فتفكر في العواقب ، وهذا آخر ما يحدث من الصناعات في الدولة لأنه كمالي ، وأول ما ينقطع من العمران عند اختلالها .

ملحقات الرياضيات

قد تفرع عن الأرثماطيقي من العلوم : علم الحساب المفتوح . والتخت . والميل . وعلم الجبر . والمقابلة . وعلم الدرهم والدينار وما شابه ذلك . وتفرع عن الهندسة علم : البنكامات « آلات قياس الزمن » . وعلم جر الأثقال . وعلم استنباط المياه . وعلم الآلات الحربية . وعلم المساحة . وعلم مراكز الأثقال . وعلم المرايا المحرقة . وعلم عقود الأبنية لمعرفة أوضاع الأبنية وشق الأنهار . وتقنية القنا لعمارة المدن والقلاع . ويتفرع على علم الفلك : علم الزيجات والتقاويم .

تنبيه : الفيلسوف إنّما يدرس العلوم الأصلية . أما الفروع كعلم المساحة وعلم الآلات الحربية فإنّما تدرس في مدارس خاصة للأعمال النافعة . انتهى فن الرياضيات .

المنطق
وهو القسم الثاني من علوم الفلسفة الأربعة

المنطق قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات والطرق الموصلة للتصور والتصديق ، إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون فاسدة ، وتمييز أحدهما من الآخر إنّما يكون بتلك القوانين ، وقد كان المتقدمون يتكلمون به جملاً جملاً لم تهذب طرقه ولم ترتب أصوله ، حتى ظهر « أرسطو » فهذب مباحثه ورتب مسائله وجعله أول العلوم الحكمية ، والنظر في هذا العلم على قسمين : نظر في صورة القياس ، ونظر في مادته .

فالنظر في صورة القياس يكون أربعة أقسام :

القسم الأول : الكليات ويسمى « إيساغوجي » ، وهي الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض العام .

القسم الثاني : الأجناس العالية وتسمى « قاطيغورياس » ، وهي المقولات العشرة مثل : الجوهر والكم والكيف ، وكل واحد منها اسم لجنس من الأجناس ، وجميع ما في العوالم من أجسام وعناصر وصفات وأحوال داخلة تحت هذه الألفاظ ، وبمعرفتها يتصرف عقلاء المنطق بالدليل في كل ما شاهدوه أو عقلوه ، وإليها ترجع جميع الأجناس وفصولها وأعراضها وخواصها .

القسم الثالث : القضايا التصديقية وتسمى « باريمانياس » وأنواعها ، وبيان النقيض والممكن والممتنع والعكس والإيجاب والسلب .

القسم الرابع : القياس ويسمى « أنولوطيقيا الأولى » والنظر فيه على قسمين :

الأول : في صورته من أنه حملي وشرطي وصورة إنتاجه سواء أكان ظنياً أم يقينياً أم غيرهما ، وأنه ميزان الحكمة يزن به الحكماء حججهم في المناظرات والآراء والمذاهب ، وضعه الفلاسفة إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ، وهذا آخر النظر المنطقي في صورة القياس ، وهو ينتج إنتاجاً صحيحاً إذا

استوفيت الشرائط، ويكون على حسب المادة الذي صيغ منها، فقد يفيد اليقين وقد يفيد الظن وقد يكون كاذب النتيجة وإن وقع في الوهم أنها صادقة.

القسم الثاني: النظر في مادة القياس وهو خمسة أنواع:

النوع الأول: البرهان ويسمى «أنولوطيقيا الثانية»، وسنذكر له شروطاً ككونه ذا مقدمات يقينية كالبديهيات والمشاهدات والمجربات، ويذكر في هذا المقام المعرفات والحدود، لأن المطلوب بالبرهان اليقين في التصديقيات، وبالحدود اليقين في التصورات، فجعلها القدماء في كتاب واحد.

النوع الثاني: الجدل وهو لا يقصد منه اليقين وإنّما يراد منه قطع المشاغب وإفحام الخصم ويستعمل فيه المسلمات والمشهورات كالمناظرات الفقهية المذهبية. كل يرد على صاحبه باعتبار ما هو مسلم عنده.

النوع الثالث: الخطابة وهي القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم كجميع مقالات الوعاظ الحاثة على الصدق ونحوه الخ.

النوع الرابع: السفسطة وهي القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه، وإنّما يتعلم لأنه يعرف به قياس المغالطة فيحذر منه، كقولك في صورة فرس: هذا فرس وكل فرس صاهل.

النوع الخامس: الشعر. وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء والنفرة منه، كأن تقول في العسل: هذا قيء الزنابير فينفر منه السامع.

ضرب مثل لمادة القياس وصورته

ولنضرب مثلاً لمادة القياس وصورته بالدينار ونقشه. إن الدينار المصنوع من ذهب له مادة وصورة، فالصورة هي الاستدارة والنقش وجمال الصنعة، والمادة هي الذهب والفضة. والذهب إما أن يكون إبريزاً لا غش فيه، وإما أن يكون قليل الغش، وإما أن يكون ذهباً كثير الغش، وإما ألا يكون ذهباً أصلاً، هكذا الاعتقاد وهو مادة القياس إن كان لا يخطر نقيضه بالبال فهو البرهان، كقولك: عدد ١٦ عدد مربع مجذور، وكل عدد مربع مجذور إذا زيد عليه جذراه وواحد فهو مجذور، وإذا نقص منه جذراه إلا واحداً فالباقي عدد مجذور ينتج عدد ١٦، وإذا زيد عليه جذراه وواحد فالعدد المجتمع مجذور، وإن نقص منه جذراه إلا واحد فالباقي مربع مجذور. فهذا قياس حملي مقدمتاه يقينيتان ونتيجته كذلك. وإن كان الاعتقاد مقارباً لليقين مقبولاً في الظاهر ولا يشعر بإمكان نقيضه إلا دقيق الفكر فهو الجدل. وإن كان ظنياً إقناعياً مع خطور نقيضه بالبال بسهولة فهو الخطابة. وإن كان مشبهاً لليقين أو المشهور في الظاهر وليس كذلك بالحقيقة فهو السفسطة.

ثم إن الخامس وهو القياس الشعري ليس يدخل فيه إفادة يقين ولا ظن ولا مغالطة، فالمخاطب قد يعلم حقيقته، وإنّما يذكر لترغيب الجمهور أو لتنفيره أو تشجيعه، كما ينفر من الحلو الأصفر بتشبيهه بالعذرة، وكما ينفر من شرب العسل في المحجم النظيف. ومن هذا القبيل الحض على الفتك بقول القائل:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة	إنّما العاجز من لا يستبد

فهذا القول حمل سامعه على الإسراع بالفتك بأعدائه، وكالحض على التهور وعدم الحزم في الحرب كقول المتنبي رحمه الله تعالى:

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

فإنه جعل الحزم جبناً كما ذكره الإمام الغزالي، ولذلك فتكت بقائله يد المنون واغتالته غوائل الموت وهو يناوئ من هم أقوى منه بطشاً وأكثر جمعاً وأوفر عدداً، فطاح بتهوره ووورى في الرمس وذلك جزاء المتهورين. انتهى القياس الشعري.

هذا، ولقد ترجمت هذه كلها في الملة الإسلامية، فترجم المقولات «حنين» وفسرها «فرفوريوس» والفارابي، وترجم حنين القضايا من اليوناني إلى السرياني. ونقل «متى» نقل إسحاق إلى العربي وشرحه الفارابي، وتداول المسلمون هذه الكتب بالشرح والتلخيص. وألف فيها الفارابي وابن سينا في كتاب الشفا وابن رشد.

ولقد تصرف المتأخرون في المنطق فنقلوا الحدود من البرهان إلى الكليات الخمس، وحذفوا المقولات العشرة، ولم يعبؤوا بعلوم المادة الخمس كما هو متداول الآن في الأقطار الإسلامية، مع أن المنطق بغير ذلك شجر بلا ثمر وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الجهل عنده فأوقعه في الخبال.

ثم إن هذه الصورة المنقوصة من المنطق أطال المتأخرون فيها الكلام كأنه علم مستقل بنفسه مع أنه آلة لغيره. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده «أفضل الدين الخونجي» ويدرس في زماننا كتاب «إيساغوجي» لأثير الدين الأبهري المتوفى في حدود المائة السابعة الهجرية وكتاب الشمسية في الفوائد المنطقية لعمر بن علي الكاتبي القزويني من أهل القرن السابع للهجرة تلميذ «نصير الدين الطوسي» المطبوعة ولها شراح كثيرة، وكتاب الخبيصي وغيرها من الكتب، فيجب العدول عن هذا المنهج إلى ما هو أتم وأكمل. انتهى الكلام على العلوم المنطقية.

القسم الثالث: العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العلمية

العلم الطبيعي ما يبحث فيه عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون في العوالم العلوية والسفلية من السماوات، والعناصر وما يتولد عنها من نبات وحيوان وإنسان ومعدن، وما في الأرض من زلازل وعيون، وما في الجو من سحاب وبخار ورعد وبرق. وقد ألف فيه «أرسطو» وقد ترجمت كتبه مع غيرها من العلوم أيام المأمون، وحذا الناس حذوها كابن سينا في كتاب الشفا وفي النجاة والإشارة. ويخالف «أرسطو» في كثير من المسائل بخلاف «ابن رشد» فإنه لخص كتبه تابعاً له غير مخالف، وقد شرح كتاب الإشارات الإمام ابن الخطيب والآمدي ونصير الدين الطوسي.

أقسام العلوم الطبيعية

العلوم الطبيعية ثمانية: سماع الكيان، السماء والعالم، الكون والفساد، الآثار العلوية، المعادن النبات، الحيوان، الإنسان:

(١) سماع الكيان: يبين فيه الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة.

(٢) السماء والعالم: يبين فيه شكل العالم ونظامه العام في أفلاكه وكواكبه وطبقاته.

(٣) الكون والفساد: يبين فيه كيف يتكون المعدن والنبات والحيوان من العناصر، ثم يبين الرأي الحديث القائل: إن المعادن السبعة غير مركبة من العناصر. ثم ينظر أي الرأيين أقرب للصدق.

(٤) الآثار العلوية: يبين فيه ما في الجو من حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والثلج والبرد والرعد والبرق وقوس قزح والهالات، وكيف كان منشأ السحب من البخار ثم يدفعها الهواء إلى الأودية فتصدها الجبال فتمطر على اليابسة. وغير ذلك من النور والظلمة وتصاريف الرياح من الأنهار والبحار وما يكون منها من الغيوم والضباب والطل والندى والشهب وذوات الأذناب وما شاكل ذلك.

(٥) تكوين المعادن: مما في التراب والطين والأرض السبخة كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات، أو في قعر البحار كالدر والمرجان، أو في كهوف الجبال وجوف الأحجار وخلل الرمل كالذهب والفضة والنحاس.

(٦) علم النبات: يذكر فيه أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره، وأن مرتبة النبات متصلة بالمعادن من أدناها مرتبطة بالحيوان من أعلاها، وبيان أن منه ما ينبت في البراري والقفار، ومنه ما ينبت على رؤوس الجبال، ومنه ما ينبت على شطوط الأنهار، ومنه ما يكون في الآجام. ومنه ما يغرسه الناس في القرى والبساتين، ومنه ما يكون تحت الماء، ومنه ما ينبت على وجه الماء، ومنه ما ينسج على الشجر، ومنه ما ينبت على وجه الصخور، وهكذا من الأحوال والأوصاف والأشكال والأزهار والأوراق والقضبان وما أشبه ذلك، ويبين فيه القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمولدة وما أشبه ذلك من الأوصاف الظاهرة والباطنة.

(٧) علم الحيوان وعجائبه وطبائعه: إنه متصل بالنبات من أدناه مرتبط بالإنسان من أعلاه وبيان أن الحيوانات الناقصة الخلقة مقدمة بالوجود على الحيوانات التامة الخلقة، وأن حيوان الماء متقدم بالوجود على حيوان البر، وأن الحيوان متقدم الوجود على الإنسان. ثم بيان أن التي تلد أعلى من التي تبيض، والتي تبيض أعلى من التي تتكون في العفونات ولا تعيش سنة كاملة لأنها يهلكها الحر والبرد. وكيف كان بعضها آكلاً كالآساد، وبعضها مأكولاً كالأرانب والغزلان. وما حكمة ذلك. وما فوائده. ثم بيان تناسلها وتوالدها واختلافها في ذلك وتربيتها أولادها واتخاذها أعشاشها، وبيان سكان الماء والهواء والبر والتراب كالسمك والطير والأنعام والهوام، وبيان قوة الحس والحركة في سائر الحيوان.

(٨) الإنسان: وتركيب جسده، وبيان حواسه الخمس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وأن صور محساتها تصل إلى الحس المشترك في الدماغ، وبيان أن تلك الحواس جسمانية من جهة الظاهر، معنوية روحية من جهة الباطن، لاتصالها بالأجسام أولاً وبالحس المشترك آخراً. فأما الحس المشترك الذي هو كالمركز للحواس المؤدية إليه فهو معنوي روحاني. ثم بيان أن معارف الإنسان من ثلاث طرق: الحواس والعقل والبرهان الذي يختص به العلماء والحكماء. وأن المدركات بطريق اللمس عشرة أنواع، وبطريق الذوق تسعة أنواع، وبطريق الشم اثنان، وبطريق السمع خمس، وبطريق البصر عشرة أنواع. فجميع ما تدركه الحواس ست وثلاثون نوعاً من المدركات، وبيان أسباب خطأ

الحواس وكيف احتاجت إلى العقل ليذلل سبلها وتستبين السبل وتظهر الحقائق وغير ذلك من عجائب العلم وبدائع الحكمة . تم الكلام على إجمال العلوم الطبيعية .

القسم الرابع:العلم الإلهي أو الكلي

وهو علم يبحث في كل الموجودات من حيث تعيينها وتكوينها وتحقق حقائقها وما يعرض لها ونسب ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات ، وهو أنواع :

النوع الأول : في الأمور العامة مثل الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان والامتناع والقدم والحدوث والأسباب والمسببات .

النوع الثاني : النظر في مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها .

النوع الثالث : النظر في إثبات وجود الإله الحق ، والدلالة على وحدته وتفرده بالربوبية ، وإثبات صفاته وبيان أنها لا توجب كثرة في ذاته .

النوع الرابع : النظر في إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس والملائكة وما أشبه ذلك .

النوع الخامس : أحوال النفس البشرية بعد الموت ومفارقتها الهياكل الإنسانية وحال المعاد وكيفية ارتباط الخلق بالأمر .

هذا آخر القسم العلمي ، وهذا العلم يسمى أيضاً « علم ما رواء الطبيعة » ، ولخصه « ابن سينا » في كتاب الشفا والنجاة والإشارات ، وكذلك لخصه ابن رشد من علماء الأندلس . ولقد حدث في الأمة الإسلامية بدع ومقالات خالطت العقائد فأورثت شبهاً أدت إلى انقسام الأمة شيعاً وأحزاباً كل يؤيد رأيه ويقوي مذهبه ، ومن أسباب ذلك انتشار الفلسفة اليونانية ، ألا ترى أن الإمام الغزالي ألف كتاباً أسماه « تهافت الفلاسفة » يدحض به بعض المسائل الفلسفية وهي قليلة جداً ، ثم هو أيد أن باقيها موافق للدين غير مخالف له ، ورد عليه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، ثم جاء آخر ووضع كتاباً ليحكم بينهما .

فهذا وأمثاله أدى إلى تدخل مسائل العلم الإلهي في علم الكلام المسمى بعلم التوحيد أيضاً ، الذي وضعه علماء الإسلام لرد الشبه والبدع التي استهوت الكثير من الأمة الإسلامية ، ولقد تجاوز الحد قوم من الذين لا تحقيق عندهم ، فظنوا كل ما نسب للفلسفة زوراً ، وذلك منهم جهل وغرور ، ولقد صار علم الكلام فناً يحوي كثيراً من علوم الفلسفة كما ترى في كتاب المواقف وأمثاله ، وتراهم مزجوا العلم الطبيعي بالإلهي ، وأصبح من لا علم عنده يظن أن علم الكلام والعلم الإلهي واحد وليس كذلك .

إن علم الكلام أدلته شرعية جاءت عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، أما أدلة الإلهيات فإنها صادرة عن العقل البشري بعد قراءة الرياضي والطبيعي . فأما تخلل مسائل الفلسفة من الطبيعي والإلهي في علم الكلام والاستدلال بأدلتها فذلك ليس مقصوداً لذاته ، وإنما ذكر ليقوي ما ورد بالدليل السمعي ، فتكون تلك الأدلة العقلية لتقوية النقلية ولإفحام الخصم وإثبات العقائد عند من لا يصدق بالسمع ، وإنما دعا المتكلمين إلى ذلك مقالات الذين ادعوا الفلسفة وهم لم يستوعبوها فعارضوهم بأدلة من القبيل الذي استهواهم ، وعلى ذلك كان إدخال الطبيعيات والإلهيات في هذا

العلم وتصحيح مسائلهما وإبطالها ليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين، وإنّما الموضوع هو الرد على المعارضين والملحدين، ثم إن الصحابة والتابعين كانوا على سنن الحق وطريق الهدى والإعراض عن زخرف الدنيا.

ولما كثر الإقبال على الدنيا اختص أولئك المتبتلون باسم الصوفية نسبة للبس الصوف كما قيل فكان لهم كلام في المجاهدات والأذواق والمقامات والكشف وعلم الغيب والتصرف والشطحات والقول بوحدة الوجود، كما في كلام ابن دهقان، والوحدة كما في كلام الهروي في كتاب «المقامات» وغيره، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين، ومن تبعهم كابن العفيفي وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم وكلامهم، ككلام الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة القائلين بالحلول، وبأن الأئمة آلهة لأن سلف الطائفتين كانوا قد اختلطوا من قبل هؤلاء فتدخل المذهبان وتشابه الرأيان، فهؤلاء الصوفية خلطوا كلام علماء الكلام الإسلاميّ بالعلم الإلهي الفلسفي من الوجدانيات الذوقية الخاصة بهم وليس عليها دليل سمعي ولا عقلي، فثبت إذن أن العلم الإلهي مستمد من العقل، وعلم الكلام مستمد من الشريعة، وعلم التصوف مستمد من ذوق أربابه، وليس للدليل العقلي ولا النقلي فيه من سبيل، فهذا تحقيق المقام، فإذن هذه العلوم الثلاثة متباينة.

العلوم العملية

أما العلم العملي فهو ثلاثة أقسام:

الأول: علم الأخلاق: في البحث عن القوى الثلاث الشهوية والغضبية والعاقلة، ثم العفة للشهوة، والشجاعة للغضب، والحكمة للعقل، ثم العدل وما يتفرع على ذلك كله من الرذائل والفضائل من البخل والتبذير والكرم والحلم وما أشبه ذلك.

الثاني: علم تدبير المنزل في معرفة معاشرة الأهل والخدم وسياستهم ونظامهم، مثل أنه يجب على رب الأسرة أن يسير معهم على نمط واحد ووتيرة لا يغيرها حتى لا يندم إذا تغيرت أخلاقهم إلى غير ذلك.

الثالث: السياسة المدنية، هو علم يبحث فيه عن أنواع الجامعة الإنسانية كالجنس والدين والوطن واللغة والملك الجامع للأمة، وكيف كانت هذه تنافي حال المدينة الفاضلة، ثم النظر في أن سياسات الأمم مبنية على عقائدها، ثم بيان المدينة الفاضلة والمنحرفة والجاهلة مما أوضحه الفارابي في كتابه كتبيان أن نظام المدينة الفاضلة يرجع إلى نظام الجسم الإنساني مقيساً عليه في الأعضاء الخادمة والمخدومة المفصلة في علم التشريح، وبيان أن نظام الأمة يرجع إلى الزراعة والتجارة والصناعة والإمارة، وأن الإمارة على العامة للوعاظ، وعلى الخاصة للحكماء، وعليهما معاً للأنبياء، وعلى الأجسام فقط للملوك والأمراء. انتهى الكلام على العلوم العملية.

فهذه سبعة عشر علماً: أربعة في الرياضيات. فالمنطق، فثمانية في الطبيعيات، والعلم الإلهي فالعلوم العملية الثلاثة.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «لقمان»

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة السجدة

هي مكية

إلا من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

فمدنية

آياتها ثلاثون، نزلت بعد «المؤمنون»

هذه السورة قسمان

القسم الأول في تفسير البسملة

قد تقدم في سورة «الفاتحة» الكلام على الرحمة العامة وفي سورة «هود» الكلام على رحمة الحيوان وتقصير بعض الأمم الإسلامية في رحمته بسبب الصيد بلا قيد وبلا شرط، وهناك الأحاديث الواردة في تلك الرحمة، وفي سورة «الروم» بيان أن ما يعتري الحيوان من الألم والمرض والجوع والعطش، كل ذلك يقصد به نفعه، فالجوع هو اللغة التي يخاطب بها الحيوان ليأكل والمرض إنذار ليطلب الدواء وهكذا، وفي سورة «لقمان» استبان الكلام على معاني «الله، الرحمن، الرحيم»، وأن «الله» و«الرحمن» اسمان خاصان بالله تعالى، وبيان أن من عرف أسماء الله ولم يفهم معناها أو فهمه بلا بحث فهو جاهل، بل هو لم يفق في ذلك البدوي القح في البادية، وإنّما معرفة أسماء الله تعالى يجب أن نلحظ فيها معرفة الآثار التي تقتضيها تلك الأسماء.

ومن اطلع على ما جاء في هذا التفسير أو أكثره حصل عنده علم لا شك فيه ووثق وثوقاً بالمشاهدة أن الرحمة عامة شاملة، وأن هذا الوجود منظم نظاماً مدهشاً، وأن هناك عناية تفوق كل وصف وتقدير، فبهذه وحدها تكون السعادة النفسية والحكمة العقلية العملية، ويكون هذا الاعتقاد كالمحسوس المشاهد، بل كالقضايا البديهية التي لا تقبل الشك، وهناك ترى كيف تؤثر تلك المشاهدة في الآثار رحمة في قلب المؤمن، فإن من أعجب بصفة لا محالة يود الاتصاف بها، وعلى ذلك تراه يعطف على الفقير والمسكين كأن ذلك غريزة فيه لأن الصفة التي شاهد آثارها قد أثرت فيه، فهو لذلك رحيم، وهذا هو التخلق المطلوب إذ يتخلق بأخلاق الملائكة فيقرب من ربه، وهناك ترى المبحث الهام «كيف يتخلق العبد بأخلاق ربه والله ليس كمثله شيء»؟، وبيان أن هذه الشبهة إنّما تحضر عند العامة وصغار العلماء، وهي شبهة واهية داحضة لأن الله موجود والناس موجودون، حي ونحن أحياء.

وهكذا نقول في الصبر والشكر والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام. كل ذلك لا ينكره مسلم في الأرض، فهذه الصفات مشتركات بين العبد والرب، فلو كان هذا الاشتراك يوجب المماثلة

الممنوعة لكان جميع المسلمين مشبهة وهو باطل، إذن المشاركة الممنوعة هي التي تكون في نفس مقومات الذات، وذات الله وصفاته لا يعرفها إلا هو. وإذا كان الساحر لا يعرف الساحر سحره على وجه الحقيقة إلا ساحر مثله؛ فما بالك بالنبي صلى الله عليه وسلم وما بالك بالله تعالى، فإذا كان الناس جميعاً قد يئسوا من النبوة بعد الأنبياء فلا يمكن أن يدركوا معنى النبوة على وجه التحقيق، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وجميع الناس في الأرض لا يمكن أن يتصفوا بصفة الله ولا يكونون آلهة فمحال عليهم أن يعرفوا الذات الإلهية ولا حقيقة الصفات، وإنّما تتجلى لهم المعاني التي دلت عليها الأسماء الدالة على الصفات السبع وعلى الذات الواجب الوجود الخ.

وعلى مقدار علمهم بتلك المصنوعات يكون إشراق بنفوسهم كل بقدره. راجعه هناك فإنه واضح، ولكن لا بد أن أوضح ما لم أكن لأوضحه هناك، فإن صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير قال لي: إنه ليحسن بك أن تبين معنى كون النبي صلى الله عليه وسلم رؤوفاً رحيماً في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨]، وهاهنا في البسملة ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فالله رحيم والنبي رحيم والله سميع وبصير ونحن كذلك. فقلت: إن الشمس سراج كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[النبأ: ١٣]، والسراج أيضاً ما نوقده في منازلنا. قال: نعم. قلت: فالذي في منازلنا سراج يوقد إما من البترول وهو السائل المستخرج من الأرض، وإما من الغاز المستخرج من الفحم، وإما من شمع العسل، وإما من زيت الزيتون وغيره، وإما من شحم الحيوان، وإما من الكهرباء. فكل سراج في الأرض إما من معدن أو نبات أو حيوان، وأنت تعلم أن الأرض قطعة من الشمس، وأن كل نبات وحيوان مستمدات أنوارها وحرارتها المخزونة فيها من نور الشمس، مع أنا نسمي ذلك سراجاً والشمس سراج.

فإذا كانت الشمس الحادثة تسمى سراجاً باسم القنديل الذي نضعه في منازلنا؛ وما القنديل إلا أثر من آثار الشمس وضوؤه بالنسبة لها كالعدم بالنسبة للوجود، أو كالخيال بالنسبة للحقائق، أفلا يسهل هذا المثال علينا كيف يكون الله رحيماً والنبي صلى الله عليه وسلم رحيم. وكيف يكون الله سميعاً بصيراً ونحن كذلك؟ وهنا ظهر المقام ظهور الشمس لأولئك الذين لا يفقهون العلم إلا بضرب الأمثال؛ وبهذا زالت الشبهة التي تغشي على عقول أكثر الناس، وهذا قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١]، فعدم المماثلة في الحقائق الذاتية، وليس إثبات السمع والبصر لله مقتضياً المماثلة، بل ذلك مجرد مشاركة في أوصاف نسبة صفات العبد فيها إلى صفات الله تعالى كصفات سراجنا إلى الشمس. فسراجنا ثمرة من ثمرات الشمس وهو بالنسبة لها كالخيال بالنسبة للحقيقة، هكذا قدرتنا وعلمنا وكلامنا وحياتنا فكلها على هذا النمط مشاركة في الاسم وضرب مثل لا غير.

وإنّما ذكرت هذا الملخص هنا لتعلم أن ما أكتبه الآن غير ما تقدم كله. ولأقدم لك مقدمة فأقول: أنا أكتب هذا المقال ليلة الاثنين ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٩م أذكر فيه ما زاولته من العمل يوم الجمعة ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٩م، وإنّما أذكر ذلك أني كنت في نفس العمل أفكر في هذا المعاني، يا

سبحان الله اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم والحكمة. خرجت من القاهرة صباح ذلك اليوم ولست أقول إلا ما قلته من قبل، وهو أني إذا تركت قطار سكة الحديد الواصلة من القاهرة إلى محطة المرج أنتهز فرصة الذهاب إلى مزرعتنا وأمشي على قدمي علماً مني بأن الله عز وجل هيأ لي هذه الفرصة لأنتهزها طلباً للصحة واستنشاقاً للهواء ونظراً للحقول ودرساً يقرؤه المسلمون. فبهذا المشي تكون صحة البدن ودرس العلم. وبيانه أني في ذلك اليوم لم أرد أن أسير في الطريق المسلوك، ولا أدري لم هذا الميل فإني كثيراً ما أميل إلى السير في وسط تلك الأرض تحت النخيل تارة وفوق الأعشاب تارة أخرى. وإن هذه الأرض سبخة وكنت أشاهد فوقها مواد ملحية طافية فوقها تارة وتارة أجد ماء آسناً أشبه بالزيت في لونه، وأكثر الأرض مغطاة بحشائش ترعاها الغنم والبقر والجاموس.

وهنا أخذت أتأمل في هذا الوجود، وأقول: هذه الأرض لا تصلح للزرع، لا يمكن زرع القطن ولا القمح ولا الأرز ولا برسيم البهائم. فهي أرض قال الله فيها: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، ولكن ما أشد دهش العاقل إذ يرى أن الحشائش التي تنبت فيها تخرج قوية خضراء لا تبرح الأنعام تتردد عليها صباحاً ومساء لا تضرها، وكلما أكلت منها حشائش نبت غيرها على الأثر، ولم يقم ببذرها ولا حرثها ولا سقيها أحد، ولا تضرها الحشرات ولا الحر ولا البرد ولا الآفات السماوية والأرضية، ونظرت في تلك المجاري - التي تتخلل تلك الأرض المملوءة بالماء الآسن الذي جاء من سقي الأرض بالماء ويسمونه الرشاح، أي الذي جعل لاجتماع الماء الذي تغسل به هذه الأرض السبخة عسى أن تصلح للزراعة فيما بعد - نباتاً مرتفعاً قوياً متيناً أجمل وأبهى من مزارع الفلاحين في الأرض الطيبة وقد سمدوها بالسماد وحافظوا على مواقيت سقيها. فهذا النبات الذي يسمون بعضه «الديس» وبعضه يسمونه «البردة» النابت في ذلك الماء الآسن في تلك المجاري لا يعتريه اصفرار ولا ضعف مثل ما يعتري المزارع التي قام الناس بحفظه، هاهنا تذكرت الرحمة التي وسعت كل شيء، وأن الله لا يذر شيئاً في الوجود بلا منفعة. فإذا رأينا الزرع لا يجود ولا يثمر أحسن ثمر إلا إذا سمد، وخير السماد ما كان من جوف حيوان. فهذه القاذورات التي يأنف الناس منها هي التي عليها مدار ثروتنا وحياتنا، فإذا كان الأمر كذلك فيما ازدريناه مما خرج من الإنسان والحيوان، فهكذا فعل في الأرض السبخة، فقال لنا: الأرض الطيبة لكم فاعملوا فيها، أما الأرض السبخة وهي الخبيثة فهي للحيوان والحيوان لا قدرة له على التسميد والسقي فأنا الذي زرعت الأرض له وجعلت هذه الحشائش ذات قوة لتحتمل ما تحمل من ظمأ ومن ماء ومن حر ومن برد، ولا يعوزها سماد ولا يؤذيها دوس الحيوان صباحاً ومساء عليها، فأنا المتكفل برزقها، فهكذا كانت حكمتي أن أجعل البرد على قدر الغطاء، وهاهنا تذكرون أيها الناس أن من النبات ما لا يعيش إلا في الماء وهو الأرز، ومنه ما يعيش في الماء وغيره كنبات على شاطئ النيل، ومنه ما لا يعيش إلا في البر ويسقى وقتاً بعد وقت، فأنا لطيف أعطي لكل مقام مقالاً.

أقول: خطرت في نفسي هذه المعاني فحمدت الله عز وجل إذ جعل نظري عبرة وصمتي فكرة، فبينما أنا كذلك أفكر في هذه الرحمة الواسعة التي شملت الإنسان والحيوان إذ خطر لي أن في كتاب «علوم للجميع» الذي ترجمت منه كثيراً في هذا التفسير نباتات مرسومة نابتة تحت الماء على أعماق

مختلفة، فهأنا ذا الآن أراجعه والرسوم أمامي، فأنا الساعة أشاهد العجب، أشاهد في المجلد الثالث مقالاً عاماً في نبات البحر وحيوانه، وإنه لا حد لوجود الحيوان في البحر، وقد وجدوا الإسفنج على بعد (١٠٠٠) قامة عند شواطئ البرتغال والبرازيل، أما في شمال المحيط الباسفيكي فإنه يكون على عمق (١٨٧٥) قامة وعلى بعد (٢٩٠٠) قامة بساق طوله ستة أقدام، وترى عمق المحيط الأطلانطيقي قد يبلغ (٣٨٧٥) قامة فأكثر، وفي البحر الأبيض المتوسط يصل العمق إلى أربعة آلاف قامة فأكثر، وترى في صفيحة ١٦٥ من ذلك الكتاب في الجزء الثالث صورة شجرة نوع من «الزنبق » نابتة في قاع البحر، وبعد ذلك ترى شجرة عجيبة يسمونها «بنت البحر» بهيئة غريبة بحيث تميل أغصانها إلى الجوانب وتظهر للناظر كأنها طبق بيضوي الشكل، وهكذا من النباتات العجيبة النابتة في قاع البحر وفوقها ألف قامة أو ثلاث آلاف وهكذا. كل تلك ماء فوقها وهي خضراء بديعة قوية متينة. كل ذلك أذكره لمناسبة هذه المناظر التي شاهدتها في العراء وأنا ذاهب إلى مزرعتنا، أشاهد رحمة الله في تلك الأرض السبخة وأشاهدها في حقولنا، ونحن ننصب ونتعب وكأن الله يقول لنا: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، الله خبير وبصير وبهذه الخبرة والبصر أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فقال: أيها الفلاحون انصبوا واتعبوا فإن أجسامكم وعقولكم إذا لم أشغلها بذلك انحطت وسفلت وجعلت الحياة لا تطاق، لذلك جعلت مآكلكم وملابسكم كلها بنصب وتعب وهذه هي الرحمة، أما أنت أيتها البهائم، وأنت أيتها الطيور، وأنت أيتها الأسماك في البحار فاعلمن جميعاً أني أنا الراحم لكن بنفسي، فأنبت الحشائش في الأرض السبخة وأنبت حشائش وأشجاراً في أعماق البحار التي تبلغ آلاف القامات ليكون ذلك منفعة لمخلوقاتي الحيوانية في الماء، فهذه رحمتي، وهناك أخذت ألحظ أن كثيراً من أسماء الله الحسنى تطبق على تلك المناظر، فالله «رحمن رحيم»، وهو «ملك» لأنه يحتاج إليه كل أحد وليس محتاجاً هو إلى أحد، فنجد حاجات الفلاح والبهائم والسمك كلها متجهة إليه، وهو بها قائم وهي كلها آمنة في سربها فرحة بحياتها وهو مؤمنها، فالله هو «المؤمن» الذي يعزى إليه الأمن والأمان، فإني أمر في تلك الأرض السبخة الواسعة فأرى أسراباً من الخطاطيف تطير بفرح وسرور. وهكذا أنواع العصافير والغربان والدواب ترعى آمنة مطمئنة، وهو «السلام» لأنه سلمت أفعاله من الشر وكل شر في الوجود لم يخلق إلا لخير كامن فيه، ولا يعقل هذا إلا من درس أكثر هذا التفسير أو قرأ كتباً نظيره، وهو «العزيز» الذي يقل مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، ولا جرم أن جميع الخلق محتاجون إليه في كل لحظة، وهو «الجبار» الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد ومن ذلك مخلوقات البر والبحر التي ذكرتها لك، وهو «الخالق البارئ المصور» فهو الذي قدر هذه النباتات، وعلى مقتضى التقدير ـ بحيث يكون هذا في الأرض السبخة وهذا في الماء وهذا في الأرض الطيبة وهذا في البحر ـ يوجد ذلك النبات، وليس للإيجاد تمام إلا بالتصوير، فهذه المعاني واضحة في هذا المشاهدات «الخالق البارئ المصور» وهكذا إلى آخر أسماء الله الحسنى، وعلى ذلك أبداً فقس.

ولما كان وقت المغرب نظرت وأنا في القطار إذا الشفق في الأفق بعد الغروب. فماذا رأيت؟ رأيت منظراً بديعاً بهجاً، شفق لونه الصفرة البهجة التي بنظرها ابتهجت نفسي، ولكم من ناظر الشفق

ويعوزه هو الإشفاق عليه، ذلك لأن ما اعتاده الناس غالباً لا يحسون بجماله. وأكثر الناس مغمورون في الجمال ولا يشعرون به. هنالك أخذت أفكر في نفسي كيف أحسست بالجمال في الشفق بعد الغروب، ما هو الشفق؟ إن هو شعاع جرى من الشمس تحت الأفق وانتشر فوقه مختلطاً بالهواء الجوي، ثم ما هو الهواء وما هو الضياء؟ الهواء مادة مركبة من عناصر قليلة مثل الأكسوجين والآزوت وهناك مادة الفحم وبخار الماء. ولا جرم أن ذلك كله إما عنصر أو راجع للعناصر، والعناصر جميعها ضوء والضوء حركة. إذن كل هذا حركات، ونفس ضوء الشمس المذكور هنا ما هو إلا حركات فيما سماه الناس «الأثير»، وهكذا الزرع والشجر والحيوان وأجسام الناس. كل هذه ما هي إلا عناصر. اقرأ ما تقدم في سورة «النور» عند آية النور واقرأ الكشف الحديث هناك موضحاً في قطرة ماء. إذن هذا الكون كله ضوء والضوء حركات والحركات في الأثير، والأثير ـ كما اتضح وضوحاً تاماً عند علماء الأمم عموماً ـ أمر فرضي فرضوه ولم يعرفوه، ولكن لنا الحق نحن ـ إذا عجز جميع العقلاء فعلاً ـ أن نقول فلنسم هذا الذي به كان الخلق «رحمة الله»، لأننا لا نعرف الأثير بل هو فرض فرضوه فقط، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾[القصص: ٧٣] الخ، وهذه خير ما يقال في هذا الزمان.

فإذا كانت المادة لا وجود لها وما تحلوه فسموه «الأثير» أمر موهوم، إذن يكون أصل هذا العالم أمر يرجع إلى آثار الرحمة وإلا فنحن ننظر لهذه الصور الأرضية والسماوية بعيوننا فنراها ظاهرة ونلمسها ونشمها، والحقيقة أنه لا شيء هناك، كما هي نظرية اينشتين الذي تقدم في هذا التفسير وأن الكون سكون في سكون، وما هي إلا حركات والحركات باختلاطها وبتنوعها صارت أشكالاً. إذن الفضل كل الفضل لأرواحنا وحواسنا وعقولنا فهي التي ظهرت لها هذه المشاهدات وصارت فيها على هذا النمط.

الله أكبر. إذن درس النهار في الحشائش وتذكر الحقول وأشجار البحار العميقة ظهرت ثمرته بعد الغروب إذ كان الشفق هو الذي ذكرني أن كل ما رأيته في النهار ما هو إلا حركات لا ترى وبالذي شع منها حصل تنوع صار نباتاً وحيواناً وأرضاً وسماء.

إذن المدار على إحساس حواسنا ولا عبرة بالخارج، فلو أحست نفوسنا وحواسنا بأمر سارّ أو ضار تم الأمر، وعليه أصبح أمر الموت أمراً صورياً لا غير، لأن الناس الآن ليسوا في مادة بإجماع علماء الطبيعة في عصرنا، وبالموت قد تجردوا مما توهموه مادة. إذن نحن بالموت نخرج من الوهم الذي غشى على عقولنا. إذن العلم الحديث أظهر لنا سر ما يروى: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وبهذا نفهم ما تقدم في هذا التفسير عن أفلاطون إنه يرى أنه إذا كانت المادة لا ثبات لها فهي لا يصح أن تكون مناط العلم، لأن العلم ثابت في نفوسنا، وهي غير قارة وغير القار لا يكون مناط القار الثابت، فلا مخلص عنده إلاّ بأن يقال إن المادة صورها صور مطابقة لمثل معنوية جوهرية لطيفة سماها الناس «المثل الأفلاطونية».

ولقد طال الجدال فيها بين علماء الأمم. ولكن الذي يهمنا الآن أن نقول: إذا كانت المادة يقول فيها أفلاطون إنها لا يصح أن تسمى موجودة فضلاً عن أن تكون مناطاً للعلم حتى اضطر إلى تلك

المثل. أفليس من العجب أن علماء العصر الحاضر قد نفوها بتاتاً. كأن الرجل كان ذا نظر ثاقب حتى ظهر الآن ظهوراً علمياً كلامه.

فهذا بلا ريب يفسر قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص: ٨٨]، وإذن نقول: إذا كانت السماوات والأرض وما فيهما لا تصلح مناطاً للعلم وليست موجودة موادها وإنّما الموجود ما هو إلا ظواهر اخترعتها حواسنا، أي أن هذا وجود بالنسبة لحواسنا لا غير فهو وجود نسبي. إذن الموجود الحقيقي هو الذي ينبغي التعويل عليه، والموجود الحقيقي هو الله والله لم نعرفه إلا بآثار صفاته وصفاته ظهرت بأسمائه التسعة والتسعين ومنها «الله الرحمن الرحيم» في أول هذه السورة، وهذا بعض السر في تكرير البسملة في أول كل سورة. فهذا التكرار عند الجاهل أشبه بما ينظره كل يوم في الحقول والحدائق والفلوات من العجائب فلا يعقلها، أما العالم فإنه يقول: كلا، ألم يظهر عند العلماء قاطبة في عصرنا أن المادة لا وجود لها، وهذه الظواهر موجودة عند حواسنا، وحواسنا هذه الظواهر معها منسوبة إلى من نظمها، وهو الثابت الدائم وصفاته التي رأينا آثارها. إذن بها نستغني عن «المثل الأفلاطونية» وهذا هو سبب تكرار هذه الأسماء الثلاثة في أول كل سورة. يقول: أيها الناس الخلق كلهم من رحمتي أما الأثير فكلمة جوفاء. ألم تقرؤوا: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦] ألم تقرؤوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧]، فالرحمة لا بد معها من العلم حتى تتم نتائجها على الوجه الأكمل، فقولي: ﴿ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧] يغنيكم عن المثل الأفلاطونية وعن العالم الأثيري، فكل هذه فروض لا دليل عليها، ويغني عن هذا كله أن تقولوا: «رحمتي وعلمي».

أقول: يعجبني قول من قال في عصرنا: إن العوالم ما هي إلا فكر مجسم، أي أشبه بخيالنا إذا تجسم ما فيه أمام أعيننا لا غير، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]، وهو أرحم الراحمين.

اللهم إني أحمدك على العلم وعلى الحكمة، أحمدك على أن ما نراه في المزارع مفسر لمعنى الرحمة، ويقول علماء التربية في عصرنا: إن العلم والدراسة كلما كانا أقرب إلى الأحوال المشاهدة والأمور المحسوسة المحيطة بالناس كانت أقرب إلى رقي الأمم، وكلما كانت العلوم متباعدة عما يزاوله الإنسان كانت أقل فائدة وأبعد عن رقي المتعلمين. وهذه الفكرة هي التي أوضحها العالم في علم فن التعليم «البيداجوجيا» الذي أوفدته حكومتنا المصرية في هذا العام سنة ١٩٢٩ لدراسة أحوال الأمة المصرية من حيث التعليم، فذكر أن التلاميذ إذا دخلوا المدرسة فقد انقطعت صلتهم بأحوالهم المعتادة الخ.

فهل تحب أيها الذكي أن أقص عليك ما خطر لي يوم الأربعاء ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩م؟ وإنّما أقصه عليك تبياناً لمعنى الرحمة، وبعبارة أخرى: تفسيراً للبسملة. هذا الخاطر خطر لي في القاهرة لا في الحقل كالخاطر المتقدم. ذلك أني كنت متوجهاً إلى محطة القاهرة ماشياً على قدمي كما كنت أمشي في الحقل قبل ذلك، فأخذت أفكر في معنى الرحمة وأقول: سبحانك يا ربنا أنت القدوس السلام. أنت الرحيم. أنا الآن أمشي في شوارع القاهرة الجميلة ولكني أعتقد أن هواء هذه الشوارع مملوء من المواد الفحمية فهو ضار لصحتي. أنت خلقت ذلك الضرر في أنفاسنا وجعلته سبباً للأمراض والموت بحيث لو نام جماعة كثيرون في حجرة ضيقة وأقفلوها ليالي فإن وجوههم تصفر ويضعفون كما هو معلوم في

كل أمة . إذن سيري على القدمين في الحقول صحي وفي المدن قليل الفائدة ، لأن الفائدة من المشي هو كثرة التنفس ولا فائدة في التنفس إلا في الأكسوجين ، وهو المادة الحيوية التي تدخل في أجسامنا وتسري في دمائنا . أنت يا ربنا لم ترد بهذا الضرر إلا الخير . ذلك أنك خلقت هذه الأرض وأوسعتها وخلقتنا عليها ، وكان من سياستك في خلقنا أن جعلت ذكراً وجعلت أنثى جرياً على نظامك في النبات والحيوان . فالإناث يلدن والآباء يربون ، وهناك تملأ المنازل ، ووضعت في نفوس الأبوين رأفة ورحمة بالذرية ، ولكنك وضعت الغبطة والحسد والحقد والضغائن بين بعض الذرية ، فالشفقة في الأبوين للعناية بالذرية والبغضاء والشحناء والعدوات في الذرية والأقارب نعمة كبرى ، لأن هذه العداوة وهذه المنافسة وهذه الغبطة ما هي إلاّ مسوقة إلى تدبير العيش ونظام الأسرات . وبهذه المنابذة والمشاحنة والمقاطعة يتفرقون وتفرقهم هو عين الرحمة ليجد كل واحد لنفسه ولا يتكل على غيره . وأيضاً ليتفرقوا في أرض الله فإذا بقوا في مكان واحد قل الغذاء وكثرت الأنفاس والمضار والأمراض . إذن الحكمة قضت بالمحبة وقضت بالعداوة رحمة بالناس في الأمرين ، فيتفرقوا ويستخرجون من الأرض النعم الجزيلة .

سبحانك اللهم أودعت الرحمة في قلوب الأبوين لتسوقهما لتربية الذرية ، وألقيت العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة في قلوب الذرية والأمم ليتفرقوا في الأرض ويستخرجوا منافعها وليتنافسوا ، كما يقول الشاعر :

عداتي لهم فضل عليّ ومنة ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاجتنيت المعاليا

وهذان البيتان مع غيرهما تقدما في هذا التفسير وقد خمستهما ؛ العداوة اشتركت في ترقية النوع الإنساني ، غاية الأمر أن العداوة ليست مقصودة لذاتها بل لغيرها ، كما أن الجوع لم يقصد منه إضرارنا بل قصد منه الحث على ارتقائنا ، ولا عمل لعلم الأخلاق إلا تهذيب المحبة وتهذيب العداوة ، فلا إفراط في الأولى لئلا يكون الميل المجحف بحقوق غير المحبين وتهذيب العداوة بحيث تقف عند حدها فلا إفراط ولا تفريط . هذه وظيفة علم الأخلاق مهما طال الخطب فيها فهو مشذب لما فينا من الأحوال كما يشذب البستاني شجر البستان .

ثم إن الأمم لما ارتقت في عصرنا الحاضر ازدحمت المدن بالسكان وعرفوا مضار الازدحام . إذن هناك زاجران للناس عن الازدحام : الزاجر الأول : ما غرس في النفوس من العداوات والمنافسات وغيرهما . الزاجر الثاني : ما طبع عليه الهواء الجوي من التعفن بسبب الازدحام وامتلائه بالحيوانات الذرية والمواد الفحمية القاتلة للمتنفسين من الأحياء المزدحمين .

وإن أردت إلا البيان فاسمع ما جاء في الزاجر الأول من كتاب « إخوان الصفاء » ثم اسمع بعد ذلك ما جاء في الزاجر الثاني من آراء علماء الإحصاء في العالم المتمدين الآن . أما ما جاء في « إخوان الصفاء » فهاهو ذا نصه :

فصل: في بيان كمية أنواع الخيرات والشرور في هذا العالم

اعلم أن الخير والشر على أربعة أنواع : فمنها ما ينسب إلى سعود الفلك ونحوسه ، ومنها ما ينسب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد وما يلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع ، ومنها ما

ينسب إلى ما في جبلة الحيوانات من التآلف والتنافر والمودة والتباغض وما في طباعها من التنازع والتغالب، ومنها ما ينسب إلى ما يلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام النفوس من السعادة والنحوسة في الدنيا والآخرة جميعاً. ثم اعلم أن لهذه الأنواع من الخيرات والشرور التي ذكرناها أسباباً وعللاً يطول شرحها.

وقد ذكرنا طرفاً في «رسالة العلل والمعلولات» ولكن نذكر في هذا الفصل منها ما لابد منه فنقول: إن الخيرات التي تنسب إلى سعود الفلك بعناية من الله تعالى وقصد منه لا شك فيه.

وأما الشرور التي تنسب إلى نحوس الفلك فهو عارض لا بالقصد، مثال ذلك إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارة وتسخينها الماء مدة ومغيبها عنها تارة أخرى كيما تبرد تلك البقاع مدة، فهو بعناية من الله تعالى وواجب حكمته لما فيه من الصلاح والنفع للعموم، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[القصص: ٧١]، وقال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[القصص: ٧٣]، وإنّما ذكر الله تعالى إنعامه على عباده وإحسانه إليهم وأفضاله عليهم، فأما الذي يعرض لبعض الحيوانات ولبعض النبات من الحر المفرط والبرد المتلف في بعض الأوقات وفي بعض الأحايين وفي بعض البقاع فليس ذلك بالقصد الأول، وهكذا أيضاً حكم الأمطار فإنّما يرسلها لكيما يحيي بها البلاد ويصلح بها شأن العباد، فإن عرض من ذلك أذية لبعض الحيوانات أو تلف النبات أو تحزنت به العجائز فليس ذلك بالقصد الأول.

وعلى هذا القياس حكم جميع ما ينسب إلى نحوس الفلك من الأمور العارضة للحيوان والنبات والمعادن ومواليد الناس، وما يحكم في تحاويل من السنين وأحكام القرانات وما شاكل ذلك، وما ينسب إلى نحوس الفلك من الشرور والفساد جميعاً عارضاً لا بالقصد الأول.

وأما الخيرات التي تنسب إلى الأمور الطبيعية فهي كون الحيوان والنبات والمعادن والأسباب المعينة لها على النشوء المبلغة لها إلى أتم حالاتها وأكمل نهايتها، فهي كلها بقصد من الله تعالى وعناية من تفضله وإنعامه.

وأما الشرور التي هي الفساد والبلى الذي يلحقها بعد الكون والفساد والأسباب التي تعوقها عن البلوغ إلى التمام والكمال فهي عارض لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني. ذلك أن هذه الكائنات التي دون فلك القمر لما لم يمكن أن تبقي أشخاصها في الهيولى دائماً في هذا العالم تلطفت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن يكون بقاؤها بصورها، وإن كانت الأشخاص في الذوبان والسيلان دائماً، والمثال في ذلك صورة الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه، فإنها باقية منذ خلق الله تعالى آدم أبا البشر إلى يوم القيامة، وإن كانت الأشخاص في الذهاب والمجيء، فهكذا حكم سائر الحيوانات والنبات والمعادن، وأنواعها باقية بصورها وإن كانت الأشخاص في السيلان والذوبان. وإنّما كان ذلك بواجب الحكمة لأن في القوة فضائل وخيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوة إلى الفعل والظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأن الهيولى لا تتسع لقبولها إلا شيئاً بعد شيء على التدرج وممر الأوقات والزمان دائماً أبداً.

والمثال في ذلك أنه لو خلق الله بني آدم كلهم من مضى منهم ومن هو موجود الآن ومن يحيا من بعد إلى يوم القيامة في وقت واحد لم يمكن أن تسعهم الأرض برحبها، فكيف حيوانهم ونبات غذائهم وأمتعتهم وما يحتاجون إليه في أيام حياتهم؟ فمن أجل هذا خلقهم قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة لأن الأرض لا تسعهم والهيولى لا تحملهم دفعة واحدة، فقد تبين بما ذكرنا أن النقصان ليس من قبل الله تعالى، وعلة أخرى أيضاً لأسباب الشرور، وذلك أنه لما كانت هذه الكائنات يتدئ كونها من أنقص الوجود وأضعف القوى مترقية إلى أتم الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو ومبلغة إلى أكمل غاياتها بعناية من الله تعالى سميت تلك الأمهات خيرات، وكذلك كل سبب عارض بلوغها عن ذلك يسمى شراً وهي عارضة لا بالقصد الأول، والمثال في ذلك ما تقدم ذكره من أمر الشمس والمطر.

فصل: في بيان القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء

أما الخيرات التي تنسب إلى جبلة الحيوان وما في طباعها وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وإرادة فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأول. ثم اعلم أن معنى قول الحكماء القصد الأول والقصد الثاني، فالفرق بينهما هو أن ما كان من قبل الباري تعالى من الإبداع والإيجاد والاختراع والبقاء والتمام والكمال والبلوغ وما شاكل ذلك من الأوصاف يسمى القصد الأول. والقصد الثاني هو كل ما كان من قبل نقص الهيولى أنه لم يجئ منها إلا هذا ولم يقبل إلا هذا وما شاكل ذلك من الأوصاف.

وأما بيان أنواع الشرور المنسوب إلى بعض الحيوانات وإلى الجبلة المركوزة فيها فنقول: إن الشرور التي تنسب إلى جبلة الحيوانات وما في طباعها هي ثلاثة أنواع: فمنها الآلام التي تعرض لها دون سائر الموجودات، ومنها العداوة التي في جبلتها، ومنها أفعالها التي بقصد منها وإرادة. فأما آلامها فتكون من ثلاثة أوجه: أحدهما: ألم الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى المادة والغذاء. والثاني: ألم الضرب والصدم والكسر المضر بأجسادها المتلف لهياكلها. والثالث: ألم الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها إلى آخر ما تقدم في سورة «الروم» في تفسير البسملة، ثم قال بعد كلام طويل ما نصه:

فصل: في بيان الشرور التي في جبلة الحيوانات المختلفة الصور والأشكال التي هي بالقصد الثاني

أما الخيرات التي في جبلة الحيوانات وأخلاقها التي هي الإلف والمحبة والشرور التي هي العداوة والغلبة والقهر فهي أيضاً بالقصد الثاني. وذلك أنه لما كانت الحيوانات مختلفة الصور والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والأفعال لأسباب يطول شرحها، وقد بينا طرفاً في «رسالة العلل والمعلولات» جعل بين بعضها وبعض ألفة ومحبة ومودة لكيما يكون ذلك سبباً لاجتماعها واتفاقها لما في ذلك من إصلاح الكل والنفع على العموم، وجعل أيضاً بين بعضها وبين بعض نفوراً وعداوة ليكون سبباً لتباعدها وتفرقها لما في ذلك أيضاً من صلاح الجميع والنفع العام. مثال ذلك إلف بعض الحيوانات للإنسان وانقيادها للطاعة كالبقر والغنم والخيل والبغال والحمير والجمل والفرس لما في ذلك من صلاح ونفع للناس مما هو معروف مشهور، فلا حاجة إلى تفصيل كيفية ذلك. ولما لها أيضاً من النفع

في مراعاة الناس بالعلف والسقي والكن من الحر والبرد ومنع السباع عنها ومداواتها من الآفات العارضة لها وما شاكل ذلك. ومثال نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدها عن طاعته مثل السباع والحيات وجملة الحيوانات القليلة النفع الكثيرة الضر لما فيه من صلاح الكل والنفع العام.

وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضها مع بعض فيما بينها من الإلف والمحبة والبغض والعداوة لما فيها من النفع والصلاح. وأما الشرور التي تنسب إلى بعض أفعال الحيوانات بالقصد منها والإرادة فمنها أيضاً عارضة من أجل الهيولى التي هي مادة لأجسادها وقوام هياكلها. وذلك أن المنافع لما كانت مشتركة بين الجميع وكانت في جبلتها طلب المنافع ودفع المضار بالقصد الأول من الله تعالى كما تقدم ذكره، وقعت بينها هذه المنازعة في طلب تلك المنافع ودفع تلك المضار بالعرض لا بالقصد. وأما علة كون الحيوانات بعضها آكلة وبعضها مأكولة فقد بينا طرفاً منها في «رسالة الحيوانات»، والحمد لله رب العالمين. هذا ما أردت تلخيصه من «إخوان الصفاء» وأما ما أشار إليه من الكلام على أكل الحيوان بعضه بعضاً فانظر ما جاء في «رسالة العلل والمعلولات» فهذا نص المقصود منه:

(١) إن الله تعالى لما خلق أجناس الحيوانات التي في الأرض وعلم أنه لا تدوم بذاتها أبد الآبدين جعل لكل نوع منها عمراً طبيعياً أكثر ما يمكن منه، ثم يجيئه الموت الطبيعي إن شاء أو أبى، وقد علم الله تعالى بأنه يموت كل يوم منها في البر والبحر والسهل والجبل عدد لا يحصيه إلا الله تعالى. ثم جعل بواجب الحكمة جثة جيف موتاها غذاء لأحيائها ومادّة لبقائها لئلا يضيع شيء مما خلق الله تعالى بلا نفع ولا فائدة، وكان في هذا منفعة لأجسادها ولم يكن فيه ضرر على الموتى.

(٢) وخصلة أخرى: لو لم يكن الأحياء تأكل جيف الموتى منها لبقيت تلك الجيف واجتمع منها على مر الأيام والدهور كثير حتى تمتلئ منها الأرض وقعر البحار وتنتن ويفسد الهواء والماء من نتن روائحها، فيصير ذلك سبباً لكونها هلاكاً للأحياء، فأي حكمة أعظم من هذه؟ إن الباري تعالى جعل في أكل الحيوانات بعضها بعضاً من المنفعة للأحياء ودفع المضرة عنها كلها وإن كانت تنال بعضها الآلام والأوجاع عند الذبح والقتل، وليس قصد القابض والقاتل من ذبحها وقبضها إدخال الألم والوجع عليها بل لينال المنفعة فيها لدفع مضرّة بها.

(٣) ثم إن الله جعل الناقص منها علة للكامل وسبباً لبقائه، والأدون خادماً للأشرف ومعيناً ومسخراً له، وبيان ذلك من النبات الجزئي أنه لما كان أدون رتبة من الحيوان الجزئي وأنقص حالة منه جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه، وجعل النفس النباتية في ذلك خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها، وهكذا أيضاً لما كان رتبة النفس الحيوانية أنقص وأدون من رتبة النفس الإنسانية جعلت خادمة ومسخرة للنفس الإنسانية الناطقة، وهذه الحكومة التي ذكرناها كلية بينة ظاهرة للعقول السليمة، فنقول على هذا الحكم والقياس: لما كان بعض الحيوانات أتم خلقة وأكمل صورة كما بينا قبل هذا جعلت النفس الناقصة منها خادمة ومسخرة للتامة منها الكاملة، وجعلت أجسادها غذاء ومادة للأجساد التامة منها وسبباً لبقائها، لتبلغ إلى أتم غاياتها وأكمل نهاياتها، إذ كما جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وسبباً لكماله، وكما أنه لما كانت النفس النباتية إذ هي أدون رتبة من النفس الحيوانية جعلت خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها في رتبتها غذاء لها ومادة لأجسادها.

فهكذا جعل حكم نفوس الحيوانات الناقصة خادمة لنفوس الحيوانات التامة الخلقة الكاملة ومسخرة لها، لكيما تربي جسمها وتنميها وتسلمها إلى الحيوانات التي هي أكمل منها وأشرف، ليكون ذلك غذاء لأجسادها ومادة لأبدانها وسبباً لبقاء أشخاصها زماناً ما أطول ما يمكن وعلة لتوالد نسلها وبقاء صورتها، لأن هيولى الأشخاص دائماً في الذوبان والسيلان فيحتاج إلى بدل ما يتحلل من الأشخاص، فإذن قد تبين بما ذكرنا ما العلة في أكل الحيوانات بعضها بعضاً. فالأسباب إذن ثلاثة: ألا تبقى الرمم بلا فائدة، وألا يفسد الجو، وأن يكون الأدنى خادماً للأعلى. انتهى من «إخوان الصفاء» والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء عن علماء الإحصاء في عصرنا في الزاجر الثاني، وهو تعفن الهواء بالازدحام وأن هذا السبب والذي قبله جعلهما الله مهمازين يسوق بهما الناس للتفرق على وجه الأرض ليتم العمران. فهاك ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم الثلاثاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه:

من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ٢٥٠٠

يقول الإحصائيون: إن سكان العالم يزدادون ازدياداً متواصلاً وأنه سيأتي يوم تضيق عليهم الأرض برحبها. أجل إن هذا اليوم لا يزال بعيداً عنا ولا يبصر نوره إلا أحفاد أحفادنا. فسكان العالم يبلغ عددهم الآن ملياراً وتسعمائة وستين مليوناً. وسيصبح في سنة ٢٠٠٠ ستة مليارات. ولا بد من القول: إن هذا العدد هو أقصى ما تستطيع الأرض أن تعوله. ومن حسن حظنا أن ما تنتجه الأرض من المطعم والمشرب يزيد على حاجتنا إليه. ويقول العارفون: إن أعقابنا يستطيعون بما سيكون لديهم من الوسائل العلمية في الزراعة أن ينتجوا غذاء لثمانية مليارات من البشر. وعليه لا خوف على الأجيال الآتية من الموت جوعاً، ولكنها لا تبقى على ما هي عليه الآن من السعة في العيش لأنه لا يبقى إلا كيلو متر واحد لكل مائة وأربعين نفساً. وإذا اعتبرنا الأراضي العامرة رأينا أن متوسط عدد السكان في الكيلو متر الواحد من الأرض العامرة يبلغ ٢٣٧، أي أكثر مما في نيويورك، فإن متوسط عدد السكان في هذه المدينة العظيمة ٢١٧ في الكيلو متر المربع. وقد أصبح الموقف حرجاً في أوروبا، فإن مساحتها التي تبلغ ٣٧٥٠٠٠٠ ميل مربع لا تنتج من الغذاء إلا لخمسمائة وخمسين مليوناً من البشر، وفيها الآن منهم ٤٨٠ مليوناً. أما أمريكا الجنوبية ففيها أراض واسعة مهجورة سيكون لها شأن كبير في المستقبل وسيتحول قسم كبير منها إلى أراض منتجة بقوة اليد العاملة.

وليس الخوف على الجنس البشري من المجاعة بل من تكاثر عدد الناس وتزاحمهم على شواطئ البحار وعلى قمم الجبال وفي السهول والآجام والغابات. ومن الراجح أنه لا تبقى غابات ولا آجام في سنة ٢٠٠٠ فتزول جميعها وتشيد عليها مدن كبيرة تأوي إليها الملايين من البشر.

وقد تتخذ الأرض شكلاً خاصاً وتمتلئ من السكان بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ٢٥٠٠ وهذا مجال للافتكار في حالة أصحاب البيوت في ذلك الحين، فإن أزمة المساكن تبلغ معظمها، فلا يكتفون في المكاتب المخصصة للإيجار بالسؤال عن الحي الذي يطلبون فيه مسكناً، بل يبحثون في المصور الجغرافي العالمي للاهتداء إلى ضالتهم المنشودة، فيأتي أحدهم مثلاً إلى أحد هذه المكاتب ويطلب أن يستأجر شقة في أوروبا فيجيبه أحد الموظفين في المكتب بعد أن يلقي نظرة على الجداول والدفاتر التي لديه:

يشق علينا أن نعتذر عن تعذر إجابة سؤلك فلم يبق عندنا شقق للإيجار في أوروبا ولكن عندنا شقق تلائمك في الأناضول. وليس الغذاء شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الهواء الذي سينقص الناس حينئذ، ولا أعني بذلك الهواء الذي يستنشقونه في محال العمل والمسارح والشوارع، بل أعني الهواء الطليق الذي يخرجون إلى العراء لاستنشاقه في العزلة، فإنهم أنى وأيان ساروا يلقون الناس أمامهم يملؤون البقاع والبطاح والهضاب والأغوار والأنجاد، وقد ضربنا عدد سكان المعمورة في ٥ فنضرب أيضاً المضايقة التي سيلقونها حينئذ في ٥ ويكون سببها تكاثر عدد الناس.

يقول الآن سكان المدن: لا نحب أن نتنزه في الشوارع الكبيرة في أيام الآحاد لأن فيها عدداً كبيراً من الناس، وخير لنا أن نقصد إلى الضواحي والرياض حيث نروح النفس بالهواء العليل.

ويقولون أيضاً: لا نبتغي الذهاب إلى دور السينما في هذه الأيام لأنها مكتظة بالنظارة. ولكنهم بعد سنة ٢٠٠٠ يفوهون بمثل هذا الكلام في كل مكان ينزلونه، فأيان ذهب الإنسان يرى الناس يتزاحمون بالمناكب ويقولون: إن رجال المستقبل البعيد لا يكفيهم ما عندنا الآن من الوسائل الطبيعية للمعيشة، فسيحتاج الواحد منهم إلى أعصاب أمتن من أعصابنا ورئتين أقوى من رئاتنا وقدمين أشد من أقدامنا وذراعين أشد صلابة من أذرعنا. اهـ.

إن ما تقدم نظرية نشرها الأستاذ «البرخت بنك» وهي والحق يقال نظرية تدعو إلى إعمال الفكرة وإطالة الروية.

أقول: أنا الآن لم أكتب هذه المقالة إعجاباً بها ولا اعتقاداً فيما قيل فيها، ولكني ذكرتها لتعلم أن النوع الإنساني قديماً وحديثاً يعلم أن الازدحام يورث الأمراض بالموت، وأن هذا السبب هو الدافع الأقوى لتفرق الناس حول الأرض. فإذن تفرق الناس على الأرض سببه أمران: أمر نفسي وهي العداوات والمشاجرات، وأمر جسمي طبيعي وهو تعفن الهواء بالازدحام واستضرار الناس، فيكون التفرق ثم الاستمتاع بالخيرات والنعم.

لعلك أيها الذكي وقفت في تفسير البسملة هنا وفيما تقدم قريباً على شذرة من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولعلك أيضاً تعرف كيف أدرك آباؤنا الأولون منذ ألف سنة بعض هذه الحكم ودونوها في «إخوان الصفاء»، وكيف وصلوا إلى الحقائق وصولاً لم يظهر نظيره فيما جاء عن الفرنجة مما بيناه لك هنا، فالعبارتان أمامك وأنت تدرك ببداهتك وذوقك ومعرفتك الفرق بين الحكمتين وتعجب إذ ذاك من الأمم الإسلامية التي خلفت تلك الأمم في الألف سنة الماضية كيف ذهلوا عما في هذه الكتب ولم تنشر هذه الآراء في أممنا الإسلامية، وذلك بسبب بعض رجال الدين الجهال وبعض رجال الصوفية الذين وقفت عقولهم كما فهموا من شيوخهم فأوحوا إلى تلاميذهم الذين يخلفونهم أن العلم خاص بما لقنوه لهم. هنالك أخذ العلم يهرب من بلاد الشرق إلى بلاد الغرب، ولكن ليستبشر المسلمون اليوم قراء أمثال هذا التفسير فهم يجمعون بين خلاصة القديم وخلاصة الحديث، وسيكونون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وإذا قرؤوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، عرفوا معنى الرحمة كما أوردناه. انتهى القسم الأول من السورة والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الخميس ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٩.

القسم الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ
أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ
أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ
شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا
ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ
ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟
رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى

مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴾ قد تقدم بعض سر ﴿ الٓمٓ ﴾ في سورة « الروم » والإشارة بها هنا للحض على النظر في أحوال الأمم السابقة وعجائب الطبيعة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ ﴾[السجدة: ٢٦-٢٧]، فإذن هذه السور متلاحقة موصى فيها على النظر في كل كائن طبيعي أو صناعي، وقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: منزل الكتاب لا ريب فيه حال كونه من رب العالمين ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ﴾ أي: أيقولون، أي: المشركون ﴿ ٱفۡتَرَىٰهُۚ ﴾ أي: اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، وهاهنا ست مراتب: الإشارة إلى الإعجاز ولذلك هو منزل من الله، ثم قرره بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى التعجب من قولهم فيه على خلاف ما تقدم، ثم أثبت أنه الحق، ثم ذكر المقصود وهو الإنذار، فالأول بذكر ﴿ الٓمٓ ﴾، والثاني بذكر أنه منزل من رب العالمين، والثالث بنفي الريب، والرابع بقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ ﴾، والخامس بقوله: ﴿ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، والسادس بقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾، لأنهم أهل فترة ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ بإنذارك إياهم. وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ قد عرفت في سورة « لقمان » ما الحكمة في ذكر ستة أيام، وكيف كان العدد المذكور من عجائب الحكمة تخصيصه، وفي سورة « يونس » و« هود » الاستواء على العرش، وفي سورة « العنكبوت » و« الروم » عجائب هذه الدنيا ونظام العناصر التي بلغت فوق الثمانين. وكيف كان بينها نسب عجيبة فوق مستوى الفكر، إذ كان كل عنصر منسوباً لما فوقه في الجدول وما تحته وما عن يمينه وشماله إلى آخر ما مضى. وهذا سيدهش العقلاء عندما يرون أن بين العناصر نسباً عجيبة كالنسبة العددية والنسبة الهندسية والتشابه في الصفات الكيمائية من جهة والصفات الطبيعية من أخرى. وإذن تعلم أن عالمنا مخلوق من الجمال والبهاء والحسن كعالم الكواكب، ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ ﴾ ينصركم إذا جاوزتم رضاه ﴿ وَلَا شَفِيعٍۚ ﴾ يشفع لكم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ المواعظ ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ ﴾ يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ ﴾ يصعد ﴿ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي: يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يصير الأمر كله إليه ليحكم فيه في يوم مقدار ألف سنة وهو يوم القيامة. وقد جاء أن يوم القيامة خمسون ألف سنة في سورة « المعارج »، وتكون على بعض المختصين

من عباده بقدر صلاة المكتوبة أو كما بين الظهر والعصر، ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيكون تدبيره على مقتضى الحكمة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ للعباد في تدبيره. ولما ذكر العلم والقدرة المصحوبة بالرحمة أردف ذلك بما نشأ عن تلك الصفات من الآثار الشريفة مفصلاً لما أجمل من التدبير، إذ بين تدبير الإنسان ثم عروجه ليعرفنا نسخة من التدبير العام، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: آدم ﴿مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذريته لأنها تنسل منه أي تنفصل ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي: من نطفة تنسل من الإنسان ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ سوى خلقه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضاف الروح إلى نفسه لتشريفها ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون شكراً قليلاً. وهذا هو بعض تدبير الأمر الخاص بالإنسان لأنه أهم لتذكره.

وأما عروج الأمر إليه وصعوده ففي قوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا يتميز منه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ استفهام إنكاري. ثم أضرب عن ذلك إلى أنهم ليسوا بكافرين بالبعث فحسب، بل كفرهم شامل لجميع ما يكون يوم القيامة، فقال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ الذي هو أهم ما في يوم القيامة ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وهاهنا ابتدأ إيضاح عروج الأرواح في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء. وهذه نهاية الكلام في العروج والصعود. ثم أعقبه بذكر الطائفتين: المجرمين والمؤمنين، فقال في الأولى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من الحياء والخزي قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق ما أتت به رسلك ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بعد المعاينة، وجواب «لو» محذوف تقديره: لرأيت أمراً عظيماً، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح، وإنّما تدبيري للخلق ونظامي لا تغيير فيه، وكيف يتغير وهو النظام التام، فإني أضع كل نفس في مرتبتها على حسب استعدادها كما أضع في جسم الإنسان العين في موضع لا يصلح له الظفر والأصبع، وكذا المعدة في موضع لا يصلح له القلب، هذا هو نظام الله. وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ وهي النفوس التي لا أجسام لها وهي لا تزال ناقصة كهيئة الأشرار من بني آدم ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وإنّما ملأها بهم لأنهم مستعدون لها ولا يصلحون لدخول الجنة، كما لا يعيش الناموس ولا الذباب إلا في الأماكن القذرة لتخلص الجو من العفونات. ولو جعل الناموس والذباب في القصور النظيفة المونقة النقية ما عاش فيها، إذ لا يجد له فيها غذاء ولا فائدة. هكذا هؤلاء إذا رأوا العالم المضيء المشرق والأنوار المتلألئة والحياة الطيبة في الجنة لم يتهيأ لهم دخولها وعجزوا عن ذلك، فمثلهم كمثل السمك لا يعيش في البر، وكمثل ذوات الأربع لا تعيش في البحر. هذا معنى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فهذا هو حسن الخلق، فالحسن في الجنة وفي جهنم وفي الحشرات في الأرض وفي الحدائق، واعلم أنك لا توقن بما قلته إلا بدراسة العلوم، ومن كان ذا فطنة كفاه هذا التفسير. ثم أبان بعض الأسباب الموجبة لدخولهم

جهنم وهما سببان: الأول: عدم التفكر. والثاني: الذنوب أي ظلمة الفكر علماً وعملاً بالجهل والذنوب فأشار إلى الأول بقوله: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ لأنكم تركتم مواهبكم العقلية فلم تنالوا الحكمة، ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ جعلناكم كالمنسي المتروك ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ السيئات كما تركتم المعقولات، وإنّما كرر الذوق لتعدد المذوق ولأن العذاب على الجهل وعلى الذنب يتنوع كما تتنوع الآلام في الدنيا بتنوع المرض. وأشار إلى الفريق الثاني بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾ وعظوا بها ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا ﴾ سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ونزهوه عما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان والسجود ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ ترتفع وتتنحى ﴿ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أي: المواضع التي يضطجع فيها وهي الفرش. وهؤلاء هم المتهجدون بالليل حال كونهم ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ من سخطه ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في رحمته أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ مما تقر به عيونهم ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: جزوا جزاء عدلاً. ولما أخفى القوم أعمالهم أخفى الله لهم الجزاء بحيث لا يعلمه أحد كما كانوا يخفونه في الدنيا. ثم بين الفرق بين الطائفتين وأنهما لا يستويان ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ أي: كافراً ﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ حمل الأول على لفظ «من» والثاني على المعنى، ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ يقال: إنها الجنات التي يأوي إليها أرواح الشهداء، ويقال: إنها عن يمين العرش ﴿ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: عطاء بأعمالهم، والنزل عطاء النازل ثم صار عاماً ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي: ملجؤهم ومنزلهم ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾. ثم بيّن سبحانه أن عذاب الآخرة المذكور له مقدمات في الدنيا وفي القبر، لأن الذنب مستوجب لنتائجه عاجلاً وآجلاً، فقال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ كما عذب أهل مكة بالجدب سبع سنين إذ دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف. وكما يعذب الناس في الدنيا بالمحن والأهوال والأمراض وهم في ذلك غير موقنين بثواب ولا آخرة فيكون العذاب أليماً لا مخفف له ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يتوبون ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ فلم يتفكر فيها كالوليد بن عقبة فاخر علياً يوم بدر فنزلت هذه الآيات ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ ولا جرم أن من كان أظلم منهم أحق بالانتقام، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كما آتيناك ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ ﴾ في شك ﴿ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ من لقائك الكتاب، فإنا آتيناك الكتاب كما آتيناه فليس ذلك ببدع، وهذا كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩]، ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: المنزل على موسى ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ الناس ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ بتوفيقنا ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ لأنهم نظروا وعقلوا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي يقضي ويحكم ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ

﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، جهلوا وكفروا وعموا عن الحقائق ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أو لم يبين الله لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: من قبل أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: يمر أهل مكة في متاجرهم على ديارهم. وقوله «كم» مفعول «أهلكنا»، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جرز نباتها، أي: قطع وأزيل، وكل أرض يابسة غليظة لا نبات بها جرز ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ أي بذلك الماء زرعاً ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالتبن والورق والحب والفاكهة ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيعرفون كمال قدرته تعالى، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصر كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد به ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وذلك يوم القيامة يوم يفصل بين المؤمنين وغيرهم ويوم فتح مكة ويوم بدر، وحقاً كان ذلك فإن الذين قتلوا يوم بدر وغيره لم ينفعهم شيء بل ماتوا كفاراً ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصر عليهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليك. انتهى التفسير اللفظي.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [الآية: ٥]

(٢) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [الآية: ٧] الخ.

(٣) في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [الآية: ١٦] إلى قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٧].

(٤) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [الآية: ٢٦] إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [الآية: ٢٧].

اللطيفة الأولى

إن هذه اللطيفة يراد منها أولاً: معرفة تنزل الأمر الإلهي من حضرة القدس الأعلى إلى غاية تمامه وكماله. ثانياً: رجوع الأمر إليه سبحانه وتعالى. ثالثاً: بيان جمال الأمر وحسنه ونظامه. رابعاً: ذكر المقصود من ذلك وهو نشأة الإنسان ثم عروجه إلى خالقه. وهذه المقاصد الأربعة في الآية مرتبة على ما ذكرناه. فالله سبحانه هو الأول من حيث إنه خلق ونظم، والآخر من حيث رجوع الأمر إليه أيضاً. ولأقدم مقدمة في الكلام على الله من حيث تقديسه وتنزيهه فأقول:

إن الأمم قديماً وحديثاً لا يبرحون يفكرون في الحق سبحانه وتعالى. ومعلوم أنه ليس بجسم ولا عرض في جسم منزه عن الحوادث. فهم إذا ذكروه حضر في أذهانهم النور وذلك مشهور في الديانات. ومعنى ذلك أن الله إذا ذكر يخطر ببالهم النور، فالنور مضروب مثلاً لذاته. وكيف يكون النور هو الله والنور حركات في الأثير، وحركات الأثير تختلف في السرعة، والنور له مقادير خاصة متى وصل إليها ظهر النور في العين، ومتى قل عنها أو كثر لم يكن نور، فإذن النور مذكر بالله عند الأمم القديمة، بل كان الصابئون يعبدون الكواكب. وترى ذلك في لغة العائلة الآرية أو الهند الجرمانية

العظمى، فإن الله عندهم هو النور أو الشمس، وتجد اللفظة الأصلية للنور « ديف » ومعناها النور أو اللامع، ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله. ففي السنسكريت « ديفاس » أو « ديواس » أو « ديوا »، ويعبرون عن السماء بلفظة « ديوس »، وعند اليونان « ذيوس »، وعند اللاتين « دووس »، إلى آخر ما تقدم في سورة « النور » فارجع إليه إن شئت.

فانظر كيف رجعت الأمم القديمة وألهم علماؤها ولو كانوا ضالين أن يعبروا عن الخالق جل وعلا باسم النور، وهذا المقام يناسب ما تقدم في سورة « النور » من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥]، وإنما ذكرناه هنا لأننا سنبحث في دائرة الوجود كما ترى.

ولما كان الله هو الأول والآخر حسن أن نذكر ما يناسب المقام من قدسه وقول العالم في جماله وكماله. ولما كانت تلك الأمم قد سارت على الدرب ولكنها أخطأت المنهج جاء الإسلام فقال الله فيه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥]، وأعقبه بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾[النور: ٣٥] الخ، فأدخل فيه المثل، وقال في نهاية الآية: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾[النور: ٣٥] الخ، وفي الحديث: « قيل له عليه الصلاة والسلام: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه ». وفي حديث الإسراء: « ولما قرب صلى الله عليه وسلم من سدرة المنتهى غشى السدرة من النور ما حجب بصره من النظر إليها ». وفي كتاب مسلم: « إن لله حجاباً من نور لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ». وفي بعض روايات الحديث: « سبعين حجاباً من نور ». قال ابن رشد: إن هذا المثال شديد المناسبة لله سبحانه وتعالى لأنه يجتمع فيه أنه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه وكذلك الأفهام، مع أنه ليس بجسم، والوجود عند الجمهور إنما هو المحسوس، والمعدوم عندهم هو غير المحسوس، والنور لما كان أشرف المحسوسات وجب أن يمثل به أشرف الموجودات. وهاهنا أيضاً سبب آخر: وذلك أن حال وجوده من عقول العلماء والراسخين في العلم عند النظر إليه بالعقل هي حال الأبصار عند النظر إلى الشمس بل حال عيون الخفافيش، وكان هذا الوصف لائقاً عند الصنفين من الناس، وأيضاً إن الله تبارك وتعالى لما كان سبب الموجودات وسبب إدراكنا وكان النور مع الألوان هذه صفته أعني أنه سبب وجود الألوان بالفعل وسبب إدراكنا ورؤيتنا لها، فبالحق ما سمى الله تبارك وتعالى نفسه نوراً، ولقد سكت الشرع عما هو فوق ذلك، فإن البحث العلمي يقضي أن الله ليس بجسم ولا عرضاً في جسم ولكن لا يعقله إلا من أدركوا ذلك بالبراهين، وعرفوا حقيقة النفس الإنسانية وأنها مجردة عن المادة، ثم ينتقلون إلى ما هو أرقى من ذلك. هذا ملخص ما قاله رحمه الله تعالى.

فشريعتنا المطهرة ورد فيها التعبير عن الذات العلية بالنور، وذلك مقبول عند العوام بلا بحث وعند الخواص على سبيل المثال، وورد: إن المؤمنين يرون ربهم كما يرى القمر ليلة البدر. فالعامة لا يجوز للعالم أن يبحث معهم في أكثر من هذا، فأما العالم فإنه يفهم أن العروج إلى الله إنما يكون بانكشاف الحقائق وإدراك الدقائق حتى يعرف الإنسان ربه، فالنور أحسن مثال في كل مقام عند العامة وعند الخاصة، فينتج من كل ما تقدم أن العلم وانكشاف الحقائق هي المعارج لمعرفة الله تعالى ولقائه والحظوة بشرف الوصول إليه.

وإذن فلنبحث في المقام الأول من المقامات الأربعة في اللطيفة الأولى وهو:

المقام الأول

مقام تنزل العالم من مقام القدس إلى تمام غاياته

فأقول: يقول الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[السجدة: ٥] إن تنزيل الأمر من السماء إلى الأرض يقتضي البحث في غرضين:

الغرض الأول: النظر في منشأ هذا العالم من مبدئه فإن أصله الأثير وفيه تكونت المادة الأولى التي اضطرب العلماء في معرفتها، وقر قرارهم أنها حركات في الأثير، فكل عنصر من العناصر المعروفة يخالف الآخر في نوع حركاته التي هي في تركيبه، وباختلاف هذه الحركات اختلفت الخواص واختلفت المركبات، إن هذه العناصر لم تظهر في بادئ الأمر، إن الشمس كانت كرة نارية وبقيت هكذا ملايين من السنين، وهي تدور بحركات دورية كما هو المعول عليه الآن، ثم انفصلت منها السيارات الدائرة حولها ومنها الأرض وذلك بالتبريد المستمر لتلك الحرارة وهذه الأرض خلق عليها المعدن والنبات والحيوان والإنسان بالتدريج، فهذا الترتيب هو المقصود من الغرض الأول في هذا البيان.

الغرض الثاني: أن هذه العوالم أثناء تنزلها من العالم الألطف إلى العالم الأكثف جاءت صفاً صفاً، ومعنى هذا أنها ليست في مرتبة واحدة، فإن العناصر ومركبات العناصر ليست كلها في درجة واحدة في صفاتها، بل اختلفت الصفات لاختلاف الأغراض.

فإذا عرفت تنزيل الله العوالم من حالها الأول حال البساطة والنور إلى حال الكثافة والتركيب طبقاً عن طبق ودرجة بعد درجة حتى تصل إلى الحال الإنسانية، والإنسان يصل إلى حال الموت، فإن العالم أشبه بجيوش مختلفة وكل منها له تعاليم مخصوصة وحركات تناسبه، أو كتلاميذ في مدرسة وكل منهم له استعداد خاص ودرجات في العلم تخالف إخوانه، فيكون لهم ترتيب حسب درجات علمهم فإذا خرجوا من المدرسة كان لكل منهم شأن على حسب تعليمه، ولأوضح لك ذلك بأربعة أمثلة من علم الطبيعة حتى ترى جمال الله وحكمته، وكيف جعل الأشياء مختلفة ليرحمنا بها، ولو كانت متفقة في تنزلها لنا لهلكنا.

واعلم أن هذه المسائل الأربعة الآتية يدرسها علماء الطبيعة ولكنهم لا يفطنون إلى هذا الجمال والنور الذي سأذكره لك، إن علماء الطبيعة لا يهمهم منها إلا ما يهم الطبيب من جسم المريض، يبحث فيه عن علة يداويها ولكن لا يخطر بباله النظام والجمال في تركيبه كما لا يخطر ببال الزارع بهجة النظام الداخلي في الزرع، بل كل منهما مهتم بما فيه عمله. وإياك أن تظن أن ما أذكره من عويص مسائل الفن بل هو من متناول أكثر الأفهام.

فأقول: انظر إلى الحديد في شباك منزلك. والنحاس في أوانيك، والذهب والفضة في نقودك. والرصاص في البنادق وفي أنابيب الماء الجاري في منزلك. إن هذه المعادن ينتفع بها الناس كما ينتفع الزارع بزرعه والطبيب بتشريحه للجسم، ولكنهم قط لا يفكرون في نظامها إلا قليلاً، وأما فكر الكيميائي فللدراسة البحتة.

إن هذه المعادن تختلف من حيث قوة المتانة ومن حيث قابليتها للطرق أي لإحالتها إلى صفائح ومن حيث توصيلها للحرارة ومن حيث صهرها.

انظر هذا الجدول :

المعدن	المتانة	توصيلها للحرارة	صهرها
الحديد	٢٥٠ كيلو جرام	١١,٩	٢٥٠٠
النحاس	١٣٧ كيلو جرام	٧٩,٥	
البلاتين	١٢٥ كيلو جرام	٨,٤	
الفضة	٨٥ كيلو جرام	١٠٠	١٠٠٠
الذهب	٦٨ كيلو جرام	٥٣,٢	٤١٢
الخارصين	٥٠ كيلو جرام	١٩,٣	
الرصاص	٥,٥ كيلوجرام	٨,٥	٣٢٤
الصوديوم			٩٥
البوتاسيوم			٦٢,٥
الزئبق			٤٠

وقابليتها للطرق على هذا الترتيب : ذهب . فضة . ألومينيوم . نحاس . رصاص . خارصين . بلاتين . حديد . لعلك تريد إيضاح هذه الجداول ، فاعلم أن المتانة هي ما يكون في الفلز من المقاومة عند قطع سلك منه قطره اثنان من المليمتر ، ويلزم لقطع كل فلز وزن مختلف مقدر بالكيلو جرام ، فلو أنك أتيت بسبعة أسلاك كل منها قطره ملليمتران ، وهذه الأسلاك السبعة من المعادن السبعة المذكورة فإنه يكفي (٥ . ٥) كيلو جراماً لقطعه إذا كان رصاصاً ، والحديد يلزم (٢٥٠) كيلو جراماً لقطعه فيكون الحديد أمتن من الرصاص نحو (٤٥) مرة ، ومن الخارصين نحو (٥) مرات . ومن النحاس نحو مرتين ، ومن الفضة نحو ثلاث مرات . ومن الذهب نحو أربع مرات .

فأما توصيل الحرارة فإن الفضة أكثرها توصيلاً لها . فإذا جعلناها مائة أي جعلنا قوة توصيلها للحرارة مائة درجة فالنحاس نحو ثمانين من هذه المائة ، والذهب نحو النصف ، والخارصين نحو الخمس ، والحديد نحو العشر ، والرصاص قريب من العشر ، والبلاتين كذلك .

وأما قابليتها للطرق بأن تجعل صفائح فالذهب أولها ، وهكذا ما بعده والحديد آخرها .

وأما صهرها فإن الزئبق أسرعها صهراً ، والصوديوم ضعفه تقريباً ، والرصاص مقداره ثمان مرات ، والذهب قدره نحو عشر مرات ، والفضة قدره (٢٥) مرة لأنها ألف درجة بميزان الحرارة المعتاد ، والزئبق (٤٠) به ، والحديد قدر الفضة مرتين ونصف ، والعبرة في الصهر وحده بميزان الحرارة المعلوم .

وهاهنا أيضاً أمر خامس وهو التطاير ، فالزئبق يطير على درجة (٣٦٠) ، والصوديوم على درجة (٨٠٠) ، والخارصين على درجة (١٠٠٠) بميزان الحرارة المعلوم . فإذن ميزان الحرارة معتبر في الصهر وفي التطاير ، ويعتبر في توصيل الحرارة وفي الطرق وفي المتانة النسبية بينها كما وضحناه .

فانظر أيها الذكي إلى الحديد مثلاً . ألا ترى أمتنها كلها . ألم تر أنه أمتن من الرصاص (٤٥) مرة كما قدمته لك ، ثم إنه هو نفسه لا يصهر إلا على درجة (٢٥٠٠) فهو أبعدها عن أن يسيل وأيضاً

توصيله للحرارة ضئيل فهو نحو عشر الفضة في التوصيل وهو آخرها في الترتيب لقابليته الطرق ليجعل صفائح . إذن الحديد هو أمتنها وأبعدها عن الصهر ومن أقلها توصيلاً للحرارة وأقلها كلها للطرق . أفلا ترى أن هذه المزايا فيه جعلته عاماً في كل الصنائع وعلى ذلك نراه كثيراً في الوجود ، ألست ترى أن الحكمة متقنة بحيث يكون ما منفعته أكثر والناس إليه أحوج في الأمور العامة كثر وجوده .

هذه هي العلوم وهذه هي الحكمة . انظر إلى الذهب . انظر إلى جماله ، إياك أن تقول : إن جماله ما يفهمه العامة وبعض الخاصة من شكله البهج ولونه الظريف المفرح ، كلا . ولا من غلو ثمنه وارتفاعه كلا . إن كل ذلك إلا متاع يشترك فيه الناس ، ولكن الجمال هنا ما نسمعه من صوته الرخيم ووجهه الجميل في العلم ، فلو أنه نطق لقال : أنا أقل متانة من الحديد نحو أربع مرات ، إن المتانة كالحديد في قوته لا منفعة لها عندي . وإنّما متانتي على مقدار الحكمة ، ألست زينة للغانيات ، ونقوداً في المعاملات . فما عندي من المتانة يكفيني ، فهل أحمل أثقالاً أو أجعل في سقف أو في محراث أو أي آلة من الآلات؟ لذلك لم تكن المتانة إلا على مقدار المنفعة والعمل ، ثم إني أول قابل للطرق والفضة بعدي ، ليسهل على الناس جعلي نقوداً وحلياً ، فلو أني عصيت عن ذلك ولم أقبل الطرق ولم أسهل على الناس كالحديد لتعطلت نقودهم وزينتهم . هكذا الفضة بعدي . فأما توصيلي للحرارة وصهري فإنهما على قدر الحاجة ، لذلك تراني في المعادن تحت الجبال وفي الرمال أقل وجوداً ولو كثر وجودي لضاعت معاملات الناس ، ولم يجدوا حكماً يحكم بينهم في معاملاتهم ، إني وضعت على قدر الحاجة في الأرض ، فأنا القاضي في المعاملات والقضاة عندكم قليل على قدر الحاجة وحفظ النظام ، فأما الفضة فإنها في معدنها أوفر لشدة حاجة الناس إليها في المعاملة ولاضطرار الناس إليها في صغيرات الأمور ودقيقاتها .

ويقول النحاس : أنا أقل متانة من الحديد ، وأنا من أسرع الفلزات كلها توصيلاً للحرارة ، وإنّما كان ذلك لأصلح لطبخ الطعام وغلي الماء ، فأنا سريع التوصيل لها ، ولست سريع الصهر ، أما الماء فإنه يغلي ويبخر في الأمتعة التي تصنع مني ، فأنا سريع التوصيل لأحيل غيري من لحم الحيوان والخضر والماء وجميع ما يصنع الناس فيّ فهو يحول إلى صور أخرى ، أما صورتي النحاسية فهي باقية ، فالتوصيل للحرارة سريع وصهري غير سريع ، لذلك كنت أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، وكثر وجودي ، فأنا أكثر من الفضة ومن الذهب لحاجة الناس إلي .

إن هذا هو الذي تنطق به المعادن إذا نطقت . إن هذه هي الحكمة التي يسمعها الحكماء إذا مروا في هذه الأرض ليحملوا ذلك إلى عالم آخر ينظرون فيها ويتفرجون على ما فيها من هذه النظم الشارحة للصدور المسعدة للعقول ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام : ٨٣] . وبهذا تم الكلام على المقام الأول .

المقام الثاني:رجوع الأمر إلى الله تعالى

اعلم أن هذا العالم كله سائر من الكثافة إلى اللطافة كما أنه تنزل من اللطيف إلى الكثيف ، فانظر كيف ترى الإنسان وهو بعض هذا العالم قد خلق من المواد المظلمة الأرضية ، ثم إنها تلطف فيه حتى يرى منها مواد كالزجاج في العين ومواد أخرى في المخ . وبهذه الوسائط قبل أن يتخيل ويعرف هذا

العالم ويتصور السماوات والأرض فيصبح عقله كأنه العالم كله. أليس العالم بعد أن كان كثيفاً في خارج الحواس أصبح عالما لطيفاً داخل النفس؟ بل هو ألطف من الأثير بل هو أشبه به لما كان في علم الغيب، وكأنه رجع سيرته الأولى وإن كان هنا مختلفاً باختلاف العقول لنقصها وهناك لا تتغير لنظامه. فهذا هو المقام الثاني.

فالمقام الأول يشار إليه بقوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾[السجدة: ٥]، وقد عرفت التدبير بالنشوء أولا وترتيب الدرجات ثانيا.

والمقام الثاني: ﴿ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾[السجدة: ٥]، وذلك بالرجوع إلى العالم اللطيف، ومبدأ ذلك الرجوع تعقلنا وفهمنا في الأرض وعملنا. وهناك بعد الموت مفاوز ومسالك يختلف الناس فيها اختلافاً كثيراً وهم سائرون وسيأتي شرحه.

المقام الثالث:هو الجمال

والجمال قد عرفت أنه في حسن الوضع وإتقان الصنع وإيجاد النسب بين المخلوقات كما سمعته في حديث الذهب والحديد والنحاس، وأن الإنسان يسمع نطق تلك المعادن إن كان من أولي العاقلين، فهذا هو حسنها. اهـ.

المقام الرابع:نشأة الإنسان وعروجه

وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴾[السجدة: ٧] إلى آخر هذا المقام، كأن الله عزّ وجلّ بعد أن ذكر العالم إجمالاً من حيث تنزله من الألطف إلى الأكثف بالتدبير وعروجه ثانياً أراد أن يبين لنا ما يهمنا نحن في الأرض ويقول: إن المهم للإنسان البحث في حاله هو، فإنه نموذج العالم كله. فلئن تنزلت العوالم من كونها أثيراً إلى أنها صارت سماوات وأرضين إلى معدن إلى نبات إلى حيوان فأنتم كنتم نطفاً فصرتم أجنة فمولودين فرضعاً وأطفالاً فمراهقين ولكم سمع وأبصار وعقول، فهذا النشوء فيكم كنشوء العالم الذي حولكم ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨].

ثم إنكم بعد ذلك تعرجون إلى العالم الأعلى فإن فيكم الروح وهي تنمو كما رأيتم الجسم ينمو. ألا ترون إلى الأطفال لا ينظرون إلا إلى شهواتهم. ألا ترون إلى الشيوخ والكبار في السن، ألا ترون أنهم يهتمون بأبنائهم وبناتهم. أليس ذلك رقياً في العواطف وحباً وكمالاً؟ ذلك نموذج لرقي الأرواح في الأرض، ثم إنكم تسيرون في الأرض وأنتم مختلفون في طبائعكم. فكما أنكم ترون أن الزئبق أسرعها صهراً بحيث يذوب على درجة (٤٠) بميزان الحرارة المعتاد، والرصاص مقداره ثمان مرات، والذهب قدره نحو عشر مرات، والفضة قدره (٢٥) مرة، والحديد قدره نحو (٦٢,٥) بحيث يحتاج إلى حرارة الزئبق مضاعفة اثنتين وستين مرة ونصفاً، هكذا يكون الناس وهم سائرون إلى ربهم فمنهم البطيء كالحديد وهم كثير كما كثر الحديد، ومنهم السريع وهم يقلون كما يقل الذهب، والناس في الأرض سائرون إلى الكمال ولكن درجاتهم كدرجات المعادن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»، وهذا هو سر الحديث وبه تفهم قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾[السجدة: ١١]، وهذا الرجوع مقدر بألف سنة وبخمسين ألف سنة وبأقل وبأكثر، والعبرة في ذلك باستعداد الإنسان نفسه،

إن نفس الإنسان فيها ذلك وفيها استعدادها، فهي إما كالذهب استعداداً وإما كالحديد وإما كالزئبق في السهولة. وترى المصلحين للأمم أشبه بالراديوم الذي يحول المعدن إلى معدن آخر وهم قليل، وترى الحكماء يقلون عن العلماء على ترتيب المعادن.

إن الناس اليوم يشاهدون نظام المعادن مغروساً في فطرهم فبه يختلفون. وبعد الموت يرى الإنسان إلى أين وصل. بل لو آتاه الله ذكاء لعرف في الدنيا أن الوصول لله على مقدار العلم والحكمة والبعيد عنه على مقدار التمسك بالأرض وحبها. وهذا المقياس هو الأصل والناس درجات فيه. فهذا هو الجهاد الذي يخص كل نفس. فإذا جاء يوم القيامة وقفوا هناك للحساب، وكان طول الموقف لكل على مقدار ما كسبت، كما تفيده الآيات والأخبار، فمن مقدار صلاة ركعتين إلى ألف سنة إلى خمسين ألف سنة، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]. ولنذكر هنا شذرتين:

الشذرة الأولى

اعلم أن الصلاة فيها ما يذكر الإنسان بالنشأة الأولى وبالنشأة الآخرة، يقول المسلم: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[الأنعام: ٧٩]، وهذا هو قوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[السجدة: ٥]، ويقول المسلم أيضاً: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وهذا هو العروج إلى الله. ويقول المسلم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] الخ، وهذا هو تدبير الأمر وتنزله، ويقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] ويذكر المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين، وهذا هو المثال المضروب فيما تقدم بالمعادن واختلافها، وأن الأكثر للأعمال الجسمية كالحديد والنحاس والأقل العلم والخلوص من المادة كالذهب والراديوم، ويقول المسلم: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال، وهذا أشبه بتسليط الحرارة على المعدن حتى يذوب، وهذه الأدعية تسلط على الأرواح عسى أن تصفوا فتخرج من المادة، فلا موت ولا حياة جسمية ولا كذب ودجل، كما هو حاصل الآن في الأرض بين الشرق والغرب من الأكاذيب والضلالات والجهالات والظلم، وهكذا ما بعد الموت فيدعو المسلم أن يخلص من هذه الأرض بالعمل الصالح والكمال.

الشذرة الثانية

محاورة بيني وبين بعض أصدقائي من مفتشي وزارة المعارف

قال لي: إذا كان أكثر الناس فاسقين جهلاء فأين ارتقاؤهم؟ إن ذلك أمر درسته في أوروبا وفي الشرق، إن الناس جميعا لا يسيرون إلا على حسب المصالح لا الأخلاق، بل الصالحون فتش عنهم تجد في قلوبهم خبثاً وشهوة إلا قليلاً. فقلت: هكذا يكون النظام. فقال: إذن أين الرقي؟ فقلت: الرقي بهذا يكون. قال: وكيف ذلك؟ قلت: إن هذه النفوس المنحطة هي شياطين الإنس وهم كشياطين الجن. قال: وأي ذنب جنوه؟ قلت: المقام ليس مقام ذنب بل هو نظام. فقال: بين ما تقول. فقلت: ألست ترى للذباب فائدة وهكذا الناموس، إنهما يلتقطان العفونات من الأرض والرطوبات، إنهما خلقا ليطوفا بأنحاء البرك والرطوبات فيصفو الجو، ثم ينقلان العدوى من زيد إلى عمر، وليموت من

لم يكن مستعداً للبقاء ويحيا من هو أهل للبقاء، وهذا حسن في النظام، وترى العين القذرة يضع فيها الذباب بيضه فيصير دوداً إيقاظاً للناس أن ينظفوا أماكنهم وأجسامهم، فكأنه يقول: أنا آكل القذى من أعينكم حرصاً عليكم، ولكن لا بد من الفائدة لي وهي أني أربي أبنائي في أعينكم ولو أضرها ذلك لأن الغنم بالغرم، وهاأنا ذا عملت لي ولكم فلو نظفتم أجسامكم وثيابكم ما آذيتكم.

فقال: هلا كانت العملية كعملية علم الجبر؟ إن الزائد والناقص يتماحيان فلا قاذورات ولا ذباب، ولماذا هذا؟ فقلت له: إذن يكون معنى كلامك أن الحياة لا يكون فيها هذه القاذورات. قال: نعم. قلت: ولا يكون فيها نمل، والنمل يأكل الدود، والدود يأكل الخشب، وبسبب النمل تعيش أنت تحت هذا السقف، فإن الخشب إذا كان متيناً كالسنط فإن الفضل فيه إنّما هو للنمل الذي يأكل الدود الذي يضربه. قال: كان يكفي أن يخلق الخلق بلا دود. قلت: أنت تريد ألا يكون هذا الوجود. قال: وكيف ذلك؟ قلت: لأني الآن أرى في جسمي معامل تعمل صناعات تعد بالآلاف فكأنك تقول يجب ألا تكون عين ولا أذن ولا أسنان ولا ريق ولا معدة ولا أمعاء ولا كبد ولا طحال لأن أكثر هذه إنّما هو للعمل في الطعام. ولماذا يكون الطعام ونحن نجد أن الصبار الذي يزرعه الناس على مقابرهم يعيش بالهواء وبالبخار فيه ولا يحتاج إلى الأرض ولا الماء، فكان خيراً لنا أن نعيش كما يعيش ذلك النبات. وإذا قلت ذلك فإنك لا تريد أن أكون إنساناً بل أكون نباتاً، وأيضاً لا تريد أن يكون هذا العالم الذي أعيش فيه عالما منظماً بل تريد أن يرجع إلى السكون والموت، فإن هذه الأعمال معناها الحياة وما تقوله موت. والحياة تقتضي الماء والهواء، والماء تبقى منه رطوبات وهذه الرطوبات لابد لها من ناموس يلتقطها ودود في الأشجار، فإذا منعت الرطوبات فمعناها أنك لا تريد أن يكون في الأرض ماء، والماء من لوازمه أن تبقى له آثار في الأرض. وإذا كان الذباب ومثله ضرورياً في عالمنا الناقص الأرضي فلنقل كذلك إنه يلزمه شياطين الإنس والجن، وما يفعل الشياطين إلا أنهم يمرضون العقول ويؤخرون ارتقاء الناس، وهذا مقصود من العناية الإلهية، فإن النفوس المنحطة في أرضنا أشبه بالحديد أو النحاس لا بد منهما. فتأخير هؤلاء عن الرقي من متممات العالم الأرضي، وأن الدول القوية تؤخر الضعيفة وتمنع عنها العلم، وهذا فعل شياطين الإنس، والوجود يحويه كما يحوي شياطين الجن.

فلما سمع ذلك صاحبي سر سروراً عظيماً وقال: هكذا يجب أن يكون يقين الإنسان، يجب أن يكون يقينه مبنياً على الحكمة كما سمعت. ثم قال: وما نتيجة ذلك كله؟ قلت نتيجته الصعود إلى عالم أعلى فإن الناس يسيرون في عوالم وراءها عوالم وأن الجنات درجات بعضها فوق بعض، وقد قال علماؤنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣٥] هو زيادة الانكشاف ولقاء الله، وأهل الجنة يرون ربهم من وقت إلى وقت على مقدار ما كانوا يذكرونه في الدنيا، ثم يرتقي منهم طائفة فيغادرون هذه الطبقات ويكونون أعلى منها في عالم كعالم الملائكة، وهو عالم ألذ من عالم الجنة المعتاد عند العامة.

قال: وهل قال ذلك أحد من المفسرين؟ قلت: نعم، قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥] فالروح إما أن تخرج بشدة، وإما أن تخرج بسهولة؛ وهي المعبر عنها بالناشطات نشطاً، ثم إنها تسبح في تلك العوالم ثم تسبق ثم تكون في عالم كعالم الملائكة، بحيث يكون الإنسان

في الدنيا يؤهل بعض أفراد منه إلى عالم مقدار علمه وخلقه والباقي أقل من ذلك، ولا يسعد الإنسان بلقاء الله على الوجه الأكمل إلا إذا أحب نوع الإنسان كله وسعى له في الخير على مقدار مكانه وأحب العلوم وهو مغرم بها. فهذا الإنسان ربما يكون في مصاف تلك الأرواح، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾

اعلم أيها الذكي أن في هذا المقال مقامين:

المقام الأول: في إحسان خلق النبات.

المقام الثاني: في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان.

المقام الأول: في إحسان خلق النبات

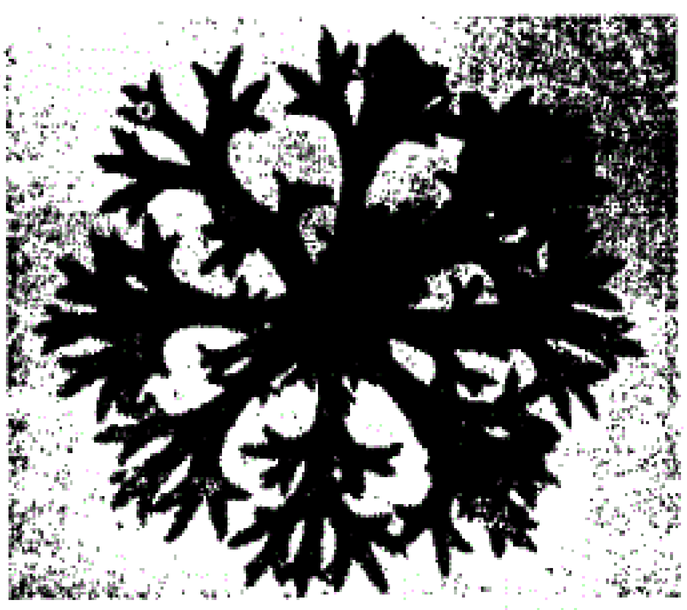
تباركت يا الله، أحسنت كل شيء ومن أحسن وأبهر ما أحسنت من مصنوعاتك مناظر النبات الجميلة البهية الحسنة الأشكال التي إذا نظرها الحكيم المغرم بالجمال أنشد قول ابن الفارض رحمه الله:

تبارك الله ما أحلى شمائله	فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
وأرحم البرق في مسراه منتسباً	لثغره وهو مستحي من الفلج
تراه إن غاب عني كل جارحة	في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا	تألفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في	برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على	بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا	أهدى إلى سحيرا أطيب الأرج
لم أدر ما غربته الأوطان وهو معي	وخاطري أين كنا غير منزعج
فالدار داري وحبي حاضر ومتى	بدا فمنعرج الجرعاء منعرجي
ليهن ركب سروا ليلاً وأنت بهم	بسيرهم في صباح منك منبلج
فليصنع الركب ما شاؤوا بأنفسهم	هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

كأني بابن الفارض وقد بهره البرق في مسراه والغزال في مرعاه والمطر في مجراه والندى في مجلاه والزهر في بهاه؛ قد رسمت هذه المناظر في لوح خياله فامتلأ جمالاً وابتهج إشراقاً فنطق بما قرأته الآن.

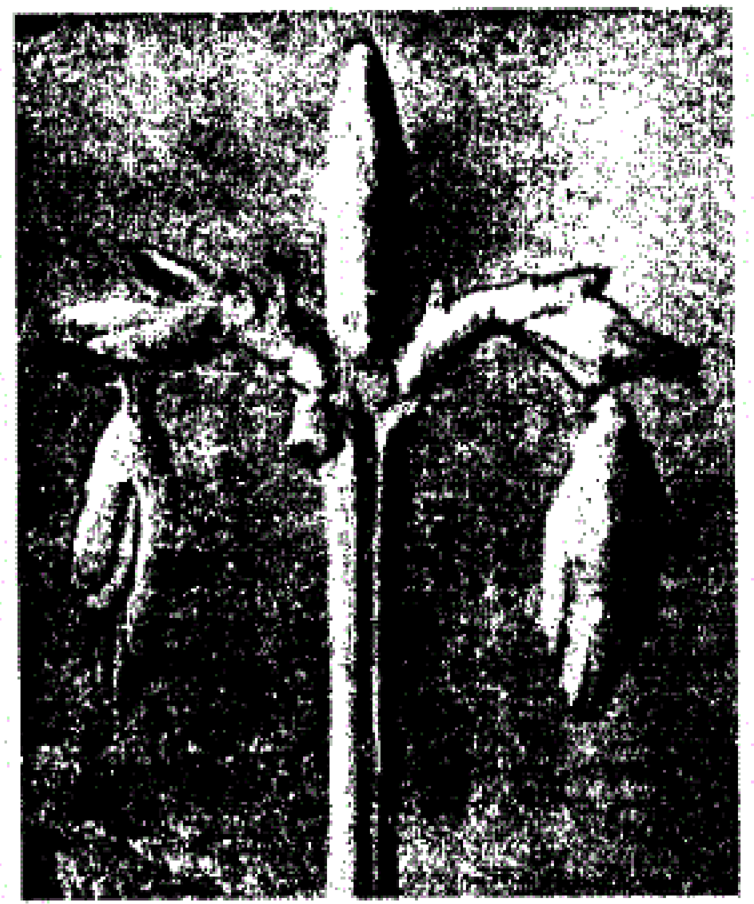
وهاأنا ذا أيها الذكي أرسم لك صوراً بهجة جميلة حسنة المناظر بديعة المحاسن لينشرح صدرك بمرآها، وتبتهج روحك بمنظر حلاها، والمناظر التي تراها الآن على قسمين: القسم الأول: ما تسر العين بهجته. والقسم الثاني: ما يبتهج القلب بحكمته.

فالقسم الذي تسر العين بهجته ما نظرته في بعض المجلات العلمية وهي «مجلة الجديد»، انظر الأشكال الآتية:



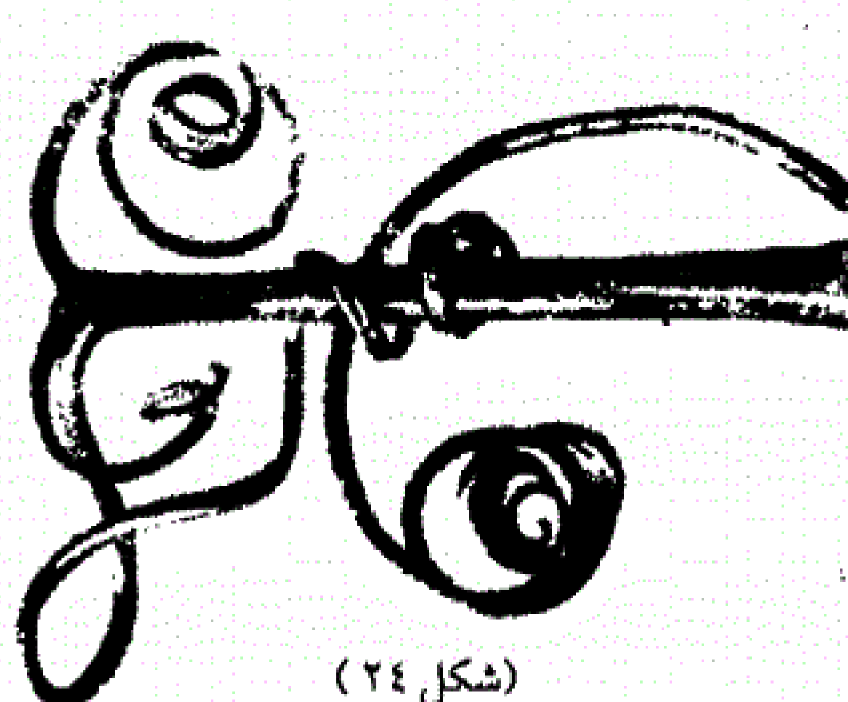
(شكل ٢٢)

ما أبدع أن تنقش هذه الحلية من الخشب أو الحجر أو الحديد ولكنها ليست بحلية بل هي ورق شجرة سكسيفرانا ويلكومانيانا وقد كبرها المصور ثماني مرات



(شكل ٢٣)

نبات الفورسيثيا وله شكل سنان الرمح



(شكل ٢٤)

هذه الحلية البديعة لم يصنعها فنان ماهر بل هي من صنع الله ، إنها سيقان وجذور نبات القرع مكبرة أربع مرات



(شكل ٢٥)

نبات أمريكي يعرف بشعر العذراء اسمه العلمي « اديانتم بيداتم » وقد كبره المصور ثماني مرات ، ألا ترى هذا النبات الغريب فتظنه قضبان الحديد التي كانت تسور الحدائق والقصور في القرن الخامس عشر



(شكل ٢٧)
هذه صورة ورق قد جف على عود، ولك أن تتخيلها مقبض سيف أو حلية تنقش على الأسلحة ويعرف باسم حوض فينوس مكبرة أربع مرات

(شكل ٢٦ — نبات الدلفنيوم وشكله النجفات التي كانت تستعمل قديماً يحاكي)



(شكل ٢٩ ماذا ترى؟ أحلية لإحدى نوافذ القرن الثالث عشر أم شعبة من شعاب الماء؟ لا هذا ولا ذاك بل هي ورقة من شجرة إرينجوبورقتي قد كبرها المصور خمس مرات)



(شكل ٢٨)
صورة سنان رمح من صنع الله



(شكل ٣٠)

نبات اسبلديم فليكس ماس مكبر أربع مرات، ألا تراه يشبه حلية صليب الأسقف وسواها



(شكل ٣١)

صورة غصن من شجر الزبيب الأسود، ولعمري إن حلية تصنع على طراز هذا الغصن المزهر لتدل على ذوق سليم وجمال فن ظاهر، مكبرة خمس مرات.



(شكل ٣٢)

روح الرقص وشكله، نبات البيش، خانق الذئب



(شكل ٣٣) نبات السرخس

وبهذا انتهى الكلام على القسم الأول من المناظر التي تسر العين بهجتها.

القسم الثاني: ما يبتهج القلب بحكمته

وذلك مثل ما جاء في كتاب الأستاذ « بول برت » في العلوم الطبيعية الذي كان أستاذاً في « السوربون » بفرنسا، وقد ترجمته إلى الإنجليزية زوجته « مدام بول برت »، فالقسم الأول يعرفه الإنسان بمجرد النظر إليه، أما هذا القسم فلا بد له من علم وحكمة ودرس وطول تجربة، وفي هذا العصر قد قرب رسم الصور المعاني الدقيقة التي سترى بعضها هنا، فانظر كيف يقول في صفحة ٨٥ وما بعدها ما ترجمته من كلامه في علم النبات، قال عند الكلام على ساق الشجرة وقد رسم هذا الرسم (شكل ٣٤):

(أ) القلب
(ب) الخشب
(جـ) القشر
(شكل ٣٤)

لنتكلم أولاً عن جذع الشجرة ونشقه، فإننا نراه مقسماً ثلاثة أقسام: (أ) و(ب) و(جـ)، فالقلب (أ) وهو أبيض وناعم، ويليه الخشب (ب) وهو صلب، ويليه (ج) وهو القشر وهو أخضر ولطيف وفي الإمكان أن يشق فيجعل سيوراً.

(شكل ٣٥) رسم قطعة من ساق شجرة الكمثرى القديمة

وهذا الامتحان في الشجرة الحديثة العهد من أشجار « الكمثرى » التي نبتت في العام الماضي من جذور شجرة قديمة العهد، أهلكها برد الشتاء القارس وساقها بلا ريب لدن طري، ولكن إذا نظرنا إلى هذا الشكل الذي يمثل شجرة قديمة (انظر شكل ٣٥).



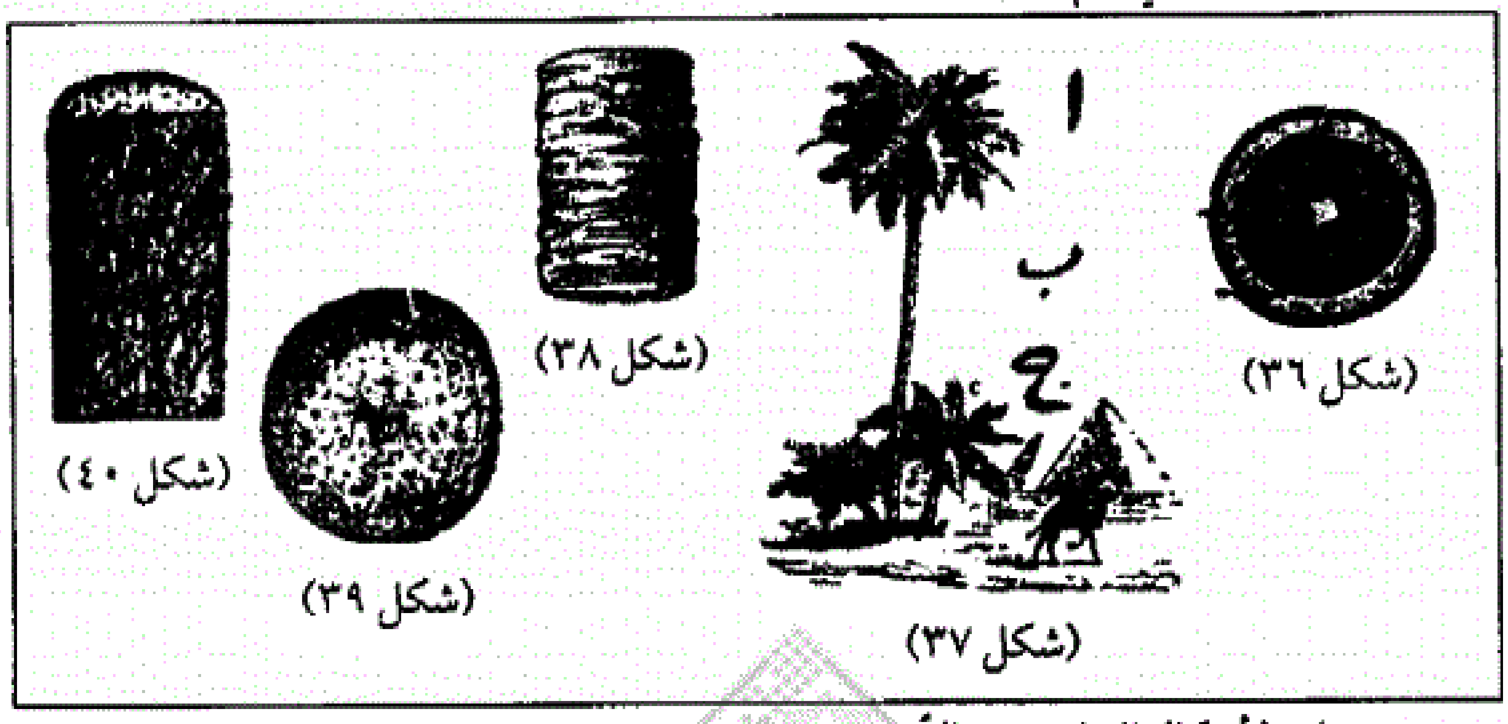
(أ) قلبها الذي لا يزيد بازدياد العمر.

(ب) الخشب المركب من دوائر ملتف بعضها على بعض وكل دائرة تقابل سنة من سني الشجرة.

(جـ) القشر.

وإنّما رسمناها هنا للموازنة بين الحديث والقديم من شجر الكمثرى ويلحق به غيره، فأول ما نلاحظه في هذا الشكل أن جذع الشجرة الكبيرة أكبر من جذع الشجرة الصغيرة، فإن قطر الكبيرة يبلغ نحو ٤٠ بوصة، ومن المدهش أن نقول: إن قلب الشجرة الكبيرة لم يكن أكبر من قلب الشجرة الصغيرة، وهذا وإن كان يدهشك هو الحقيقة عينها، فليس للقلب نمو والشجرة دائمة النماء، أما القشر فإنه لا هو أخضر ولا ناعم ولكنه خشن وأغلظ من السابقين، هنالك سأل أحد تلاميذه قائلاً: هاهو ذا قطع من جذع الشجرة القديمة، هل تقدر أن تعد هذه الدوائر المنتظمة الملتئمة أمامك كم فيها يا جورج، فقال: هذه نحو (٦٥) يا سيدي. فقال الأستاذ: ولماذا تقول إنها (٦٥) يا بني؟ فقال: لأن الحلقات ـ وهي تعد بكل سهولة عند القلب ـ مندمجة مضغوطة أشد الضغط بالقرب من القشر بحيث لا أتمكن من تمييزها إلا بصعوبة عظيمة. فقال الأستاذ: ولماذا هذا؟ فقال التلميذ: إذا أصغيتم إلى ما سأشرحه الآن ظهر لكم الجواب، إن كل دائرة من هذه الدوائر تدل على سنة واحدة من حياة الشجرة، وإذا كانت هذه الدوائر (٦٥) فهذا عدد سني عمر هذه الشجرة، ولا ريب أن ما تنموه الشجرة في كل سنة لا بد أن يتخذ له مكاناً، وهذا المكان لا يخلو إما أن يكون بقرب القلب وهذا لا يمكن لأن هذه الدائرة إذا خلقت بين القلب وبين الدوائر الخشبية ـ وهي كلها صلبة لقدم مدتها ـ حصل هناك تشقق فيها

وتلف ، وإما أن يكون بين الخشب وبين القشر . وهذا هو الحاصل فعلاً . إذن الدائرة الجديدة تكون بعد آخر دائرة وتحت القشرة ، وهاهنا أفاد بعض الطلاب وهو ابن نجار أن هذه الدائرة الجديدة التي تتولد بين القشر وبين الخشب تكون لينة بخلاف القلب ، فإنه يابس جداً ذلك لأن الأخير قديم العهد والأول حديثه ، وعلى ذلك يكون إيقاد النار بالقلب أتم من إيقادها بالدائرة الجديدة لأن القلب كثير الاندماج غزير المادة بخلاف الثاني ، ثم انظر الأشكال الآتية :



(شكل ٣٦) (شكل ٣٧) (شكل ٣٨) (شكل ٣٩) (شكل ٤٠)

إيضاح الأشكال السابقة إجمالاً

شكل ٣٦ : (أ) الخشب . (ب) القلب .

شكل ٣٧ : هو شجرة النخل وهي إسطوانية الشكل مستو أعلاها وأسفلها .

شكل ٣٨ : جذع النخلة وهو مقطع الجريد .

شكل ٣٩ : جذع النخلة المقطوع عرضاً . فلا قلب لها ولا دائرة خشبية يوافق أحدها الآخر ولا قشر لها .

شكل ٤٠ : جذع النخلة المشقوق طولاً مظهراً المادة الليفية المقوية له .

ولما كانت هذه الصور يعوزها الإيضاح وجب أن أذكر ما قاله المؤلف في شأنها فأقول :

هيكل شجرة النخل

ثم قال المؤلف : هانحن أولاء قد أتممنا الكلام على شجرة الكمثرى وتاريخها الطبيعي وثمراتها ، فلأمتحن معكم شجرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن جميع الشجر وهي « شجرة النخل » ، ومن سوء الحظ أن هذه الشجرة لا تنمو إلا في البلاد الحارة ، فإذا أردنا شجرة من هذا النوع فلا مناص لنا من استحضارها من البلاد الحارة ، وستسألون قائلين : لماذا خصصت شجرة النخل بالبحث؟ ألم يكن لك في أشجارنا الكثيرة في بلادنا ما يكفي للدراسة ؟ حسن جداً أيها الأبناء ، ولكن ما فصلته لكم في هيكل شجرة الكمثرى ينطبق انطباقاً تاماً على جميع الأشجار التي تنبت في بلادنا .

(١) فكلها ذات جذع أغلظ عند قاعدتها منه عند قمتها فهو جذع مخروطي الشكل كما يقوله علماء الهندسة .

(٢) وأيضاً لكل منها قشر على ظاهرها .

(٣) وخشب تحت القشر وهو في قلب الشجرة أصلب منه في الذي بين القشر والقلب، وهذا الخشب حلقات متوافقات منتظمات.

(٤) وقلب. ولسوق جميع هذه الأشجار:

(٥) أغصان.

(٦) أو فروع خارجات من:

(٧) البراعم اللاتي يكن عند آباط الأوراق.

(٨) وهكذا لهن حبوب ذوات فلقتين.

وصف النخل

أما النخل فإنه مختلف كل الاختلاف عن ذلك كله، وذلك لسبب يجب علي أن أخبركم به، ومن حسن الحظ أني قد هيأت لي الفرص أن أحوز صوراً له تساعدكم على أن تفهموا ما وصفته لكم. فانظروا إلى هيئة شجرة النخل «شكل ٣٧»، ألستم ترونها تختلف عن أشجار غاباتنا اختلافاً مبينا:

أولاً: أنكم لا ترون غصناً ما على جذعها وإنّما ترون على أعلاها حرف «أ» فقط خصلة من الجريد والخوص الطويلات القويات المتينات.

ثانياً: إن الجذع حرف «ب» من قمته إلى قاعدته معتدل المقدار متساوي الأجزاء، فهو إذن أسطواني الشكل لا مخروطيه فهو كهيئة المداخن. ثم إنكم ترون تحت الجريد والورق عراجين مدلاة وهي ثمرات النخل النافعات. وإنكم إذا أردتم أن تعرفوا طول هذه النخلة فاحكموا عليها بموازنتها بهذا العربي الذي ترونه على ظهر الجمل. إذن علوها (٤٥) قدماً.

ثالثاً: إنها لنخلة طويلة ولكن بجانبها نخلة صغيرة جداً وهي حرف «ج» لا تزيد على تسعة أقدام ارتفاعاً. ولكن جذعها في غلظه كجذع أختها الكبيرة. ومن العجب العجاب أن النخلة تنمو طولاً ولكنها لا تنمو عرضاً ولا تزيد عن الحالة الراهنة، وهذه فارقة أخرى بين شجرة النخل وما لدينا من الشجر مثل الصنوبر وشجر الدردار والتفاح وهكذا، ثم انظروا إلى جذع النخلة في «شكل ٣٨» إنكم لتجدون عليه سلاسل منتظمة تشبه السلالم. فما هذه إلا آثار الجريد الذي أزيل عن الجذع في سنين مختلفات، ولم يبق من الجريد إلا ما فوق القمة، فهذه هي الخصلة الخصبة البهجة التي تزدهي النخلة بحليتها وبجمالها. إن هذه الشجرة لا برعوم لها إلا ما في قمتها كما رأيت، وهنالك فقط يكون نموها وأثمارها. فهناك لا ترى عسلجاً جانبياً، فلا يكون جريد ولا أغصان.

الجذع

فهيا بنا الآن نمتحن هذه القطعة الصغيرة من جذع النخلة المشقوقة عرضاً «شكل ٣٩» المتقدم، ما أدق نسيج قوامها المحكم الصنع المتقن الأجزاء. هاهنا لا قلب، لا حلقات خشبية دائرات بعضها على بعض، لا قشر ولكن بدل الوضع المنتظم الذي اعتدنا أن نراه في الأشجار نرى هنا كتلة ناعمة يبدو بها ما لا يحصى من القطع السود الصلبة اللاتي وضعت وضعاً لا نظام له. ولكن لننظر ما هذه القطع السود؟ إننا لأجل أن نحققها وجب علينا أن نقطع الجذع في الوسط «شكل ٤٠» طولاً لا

عرضاً لنقف على حقيقتها. انظروا إلى هذه المادة الليفية الصلبة السوداء التي ترونها ممتدة في وسط المادة الناعمة التي تشبه قلب أشجارنا فيما قدمناه شبهاً قليلاً أو كثيراً. فهذه المادة هي التي تظهر هيأتها أشبه بنقط سود في القطعة المقطوعة عرضاً التي امتحناها قبل هذه «شكل ٣٩ المتقدم»، إن هذه المادة الليفية إذا نظرنا لها نظراً سطحياً تظهر كأن وضعها غير منتظم وأنها تضل في وسط هذه الكتل الناعمة اللاتي وضعت هي فيها وتخللتها، ولكن إذا دققنا النظر فإننا نلاحظ أن هذه الخطوط الليفية تأتي أولاً من تحت قحف الجريد على ظهر النخلة وتمتد في داخل الجذع، ومن هناك ترجع ثانياً إلى سطح الجذع وهناك يكون انتهاؤها.

إن هذه العروق الليفية ليست شيئاً أكثر من خشب النخلة المرتب ترتيباً غريباً خاصاً كما رأيت. إن هذه العروق الليفية الكثيرة العدد لتعطي جذع النخلة قوة المقاومة الكافية لأن تستعمل استعمال الخشب في منافع الناس، وعلى ذلك يكون هناك فرق كبير بين النخلة وبين شجرة الحور مثلاً في أمرين: مظاهرها وتركيبها. ثم إننا بينما نرى البذرة في الحور وفي كل ما شاكله في التركيب لها فلقتان نرى أنها في النخل لها فلقة واحدة، وعلى ذلك يجعل النبات كله قسمين: ذو الفلقة الواحدة، وذو الفلقتين. اهـ.

معجزة نبوية وعجيبة محمدية
في النخل وموازنته بالأشجار

أيها المسلمون. هاهو ذا العالم الفرنسي نظر في الأشجار وهو يدرس لتلاميذه كما نظر علماء النبات في جميع الكرة الأرضية. هؤلاء الذين حدثوا بعد آبائنا الأولين وتلقوا مبادئ العلم عنهم كيف نبغوا في العلم، ثم كيف كان هذا العالم هو المؤلف للكتاب بالفرنسية وزوجته المترجمة له باللغة الإنجليزية لغة قومها. فوا عجباً الرجال والنساء معاً يتعاونون على العلم ونحن قوم لم يتعلم أكثر رجالنا في الشرق وجميع النساء فماذا يقول؟ يقول: إن شجرة النخل تخالف جميع الأشجار في هيئتها وفي جذعها وإنه أسطواني الشكل وإنه لا أغصان له إلا في أعلاه. وفي أن الخشب في جميع الأشجار قد جعل بدله هنا ألياف. وفي أن القلب في الأشجار جيء بدله هنا بمادة ناعمة. وفي أن الألياف القائمة مقام الخشب لم تكن حلقات بعدد السنين كما في الخشب كلا بل وضعت وضعا غريباً.

هذه هي آراء علماء النبات في كرتنا الأرضية. فلننظر إذن في حديث البخاري في كتاب العلم قال: حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل السلم فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله. قال: هي النخلة». ثم قال «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم»: حدثنا خالد بن مخلد حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي. قال: فوقع الناس في شجرة البوادي. قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة. ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة». اهـ.

هاأنا ذا أيها الذكي ذكرت نص ما في البخاري فقد ذكرها في كتاب العلم وكرر الحديث لاختلاف الرواة. فانظر كيف ذكره في باب العلم وكيف استدل به على طرح الأستاذ الأسئلة على تلاميذه أو الملك أو الخليفة على رعيته.

عجب ألف عجب. نرى الأستاذ الفرنسي أظهر أن للنخلة ما ليس للشجر فهي تخالفه من الوجوه المذكورة سابقاً فأفردها بالذكر.

فهاهنا بابان من العلم:

الباب الأول: علم النبات وأن النخلة تخالف كل شجر في الأرض حتى أن هذا العالم الفرنسي لما لم يجد شجرة نخل في بلاده استحضرها من مصر عند الهرم موضع نباتها، وعلم التلاميذ وهم يشاهدون صورتها.

الباب الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم في أسلوب تعليمه استعمل السؤال والجواب، وهذا هو الأسلوب الذي يشحذ أذهان التلاميذ في علم «البيداجوجيا» وهكذا، فعل هذا الأستاذ الفرنسي في الفرق بين النخلة وبين جميع الأشجار، أما أنا فأقول: إن الله لما علم أننا نحن المسلمين سنكون جهلاء بكل علم في الأرض ونذر العلوم تفر إلى أوروبا، فمنها ما أحرق أيام خراب الأندلس ومنها ما بقي عند الفرنجة فتعلموا وارتقوا، حتى إذا كانت هذه الأيام أحاطت بنا هذه الأمم من كل جانب فأخذنا نلم شعثنا ونقرأ كتبهم.

وإني أنا وأمثالي سنقرأ أمثال هذه المسألة في كتب الفرنجة، أقول: إنه تعالى لما علم ذلك ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحادث أصحابه في شجر البوادي وفي النخلة، حتى إذا قرأنا كلام الفرنجة في علمهم الواسع الذي يطلبه القرآن في النبات وغيره واطلعنا على هذا الحديث تحسرنا على مجد ذهب وأمم هلكت، ولا نصيب لها من دينها، فهل في خطة الإنصاف أيتها الأمم الإسلامية أن يحرمكم صغار الشيوخ والجهلاء من الأمراء من أن تفتحوا أعينكم لأشجار هي في نفس بلادكم وأنتم أحق بدراستها ودراسة غيرها من النبات في الأرض من الفرنجة، فتمرون عليها معرضين، وهي تنبت في جزيرة العرب وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم من نفس بلادكم، وقد أنزل عليه: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس: ٣٦]، وأنزل عليه أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[الحج: ٦٣] الخ، وأنزل عليه أيضاً: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[السجدة: ٧]. وهذه هي المحاسن الباطنية للأشجار، ولم يكتف الله بذلك بل ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعطي أصحابه ـ وهم لا مدارس عندهم ولا قراءة ولا كتابة ـ درساً في النبات كله وفي النخل، وبهذا الدرس فكر القوم في أشجار البوادي. إن هذه النبوة والله يشهد لم يقم حاملوها بما يجب وإلا فكيف يمر هذا الحديث على المسلمين قروناً وقروناً ولا يفطن أحد لدرس علم النبات؟ ومن فطن له وللعلوم الأخرى كابن رشد كفروه، وقالوا له: أنت مارق من الدين. اللهم إن هذه النكبة الإسلامية بهذا الجمود المعيب قد جعلها سبحانك لنا عظة لنكتب لأبنائنا هذا القول حتى لا يقعوا فيما وقع فيه الآباء بسبب جهل كثير من شيوخهم واتكالهم على مشايخ طرقهم، وأنا يا رب قد أديت ما علي بقدر طاقتي وأنت لا تكلف نفساً إلا وسعها، فألهم اللهم

أناساً يهدون هذه الأمم ويعلمونها ويرشدونها إلى سواء الصراط ، فلم يبق في القوس منزع ، ولا عطر بعد عروس ، وحم الأمر واشتد الخطب ، وأنت تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وأنت على كل شيء قدير . انتهى يوم الاثنين ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م ، والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم في هذا المقام

هاأنت ذا أيها الذكي شاهدت الرسوم الجميلة البديعة في القسم الأول والحكم المستخرجة بالدراسة من القسم الثاني . فيا سبحان الله ويا سعداه . إن المسلم في أقطار الأرض شرقاً وغرباً يمر بالأشجار في الحقول والحدائق والطرقات ، ويراها تمد له أيديها تارة بالأزهار وتارة بالفواكه والثمار وتارة بالروائح العطرية وتارة تعطيه خشباً لصنع أبوابه وشبابيكه وأسرته وكراسيه وسفنه وكثير من آلاته . ألا حيا الله العلم . فيا ليت شعري كيف يمر المسلمون على هذه العجائب وأكثرهم لا يشعرون أنها عجائب . كلا . وكيف يشعرون وهم لا يعلمون من الثمر إلا لذته ، ولا من الخشب إلا أن يكون سقوفاً لمنازلهم وسفناً لمسافرهم وعمداً لخيامهم وآلات لأعمالهم ، أما الجمال وأما الإبداع فهم عنهما معرضون .

أيها الناس ، إن الله قادر أن يعطينا ذلك بلا عمل ولا نصب كما أعطى حشرة « أبي دقيق » ورق قطننا بمصر تأكله أكلاً لماً ، ونحن الزارعون ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف : ٤٩] ، فهو الزارع وهي الآكلة وعمل المخلوق من آثار رحمة الله . فإذن لماذا جعلنا الله في وسط هذه العجائب . إنما فعل ذلك ليوقظنا إليها ويحثنا عليها؟ وإلا فما هذا الجمال؟ وما هذا الحسن . وما هذا الإبداع؟ أواه ، أهو رمية من غير رام حتى نكون عنها معرضين؟ كلا والله فهذا مستحيل بعد ما ظهر ظهور النجم في هذا الكتاب بأجلى برهان وبالحس والعيان .

انظر أيها الذكي إلى ما رسمته لك هنا آنفاً من تلك العصور النباتية البديعة ، فما هذه الزينة ، وما هذا الزخرف؟ ثم تأمل قطع الخشب من الكمثرى وكيف كانت الشمس وهي تجري في السماء بحسب ظاهر النظر قد تركت في بواطن الأشجار آثاراً ، وقد ارتسمت دوائر وراءها دوائر حافظات بأعدادها كرور السنين ومرور الشهور والأيام .

كم جلس بنو آدم في وارف الظلال تحت الأشجار ، والنسمات تتلاعب بالأغصان وتنثني على الأوراق ، والشجرات تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، وضوء الشمس قد ملأ الحقول والبقاع وكسا تلك الشجرات ملاءة بيضاء مركبة من سبع طبقات ذات ألوان من الحمرة والصفرة إلى آخره ، كلهن منسوجات نسيجاً عجيباً وبه صرن لونا واحداً وهو ذلك الجلباب البديع ، كل هذا وابن آدم لا يعلم أن في باطن هذه الشجرة دفتراً يحصى فيه حركات الشمس وتكتب فيه السنون سنة بعد سنة . وإذا أحصى الله كل شيء عدداً فهاهو ذا أرانا الإحصاء واضحاً في حقولنا وبساتيننا ، وكم في الأرض من كتاب نسخ بيد القدر وأحصى السنين الشمسية في مشارق الأرض ومغاربها ، فكل شجرة كتاب حساب كما أن كل طبقة من طبقات الأرض عند علماء الجيولوجيا سجل سجلت فيه القرون التي قطعتها أرضنا في تاريخ حياتها البعيد المدى ، إن هؤلاء العلماء يستنتجون من هذه الطبقات وتركيبها مقدار عمر الأرض ، كما يقدر علماء النبات فيما رأيت مقدار عمر نفس الشجرة بالسنين ، فعمر الأرض وعمر

الشجرة تابعان لمسير الشمس الظاهري حول الأرض. وإذا سمعنا الله يقول: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَهُ كِتَبًا ﴾[النبأ: ٢٩]؛ فهاهو ذا أبرز لنا من الإحصاء ما يواتي عقولنا ويكون كنموذج لما عنده في اللوح المحفوظ. أفلا يحق لي بعد هذا البيان أن أقرأ ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان: ٢٠]، ظهر الجمال في ظواهر النبات بالإبداع والحسن والزينة، وظهر الإبداع في بواطن النبات والأرض، وهذه نعم تذكرنا بالنعم الباطنة في نفوسنا من الصحة والعلم والسرور والبهجة، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَلَمِينَ ﴾[الأعراف: ٥٤].

فصل

هاأنا ذا أكتب صباح يوم الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٢٩م، وهذه السورة وما معها مقدمات للطبع. فهاهو ذا حضر صاحبي، قد حضر الآن وقرأ ما كتبته فقال: يا سبحان الله ما أجمل هذه الصور وما أبدع هذه الأشكال. لقد سرت بها القلوب وانشرحت الصدور وحق لي أن أذكر أول قصيدة ابن الفارض التي تمثلت بأبياتها هنا، وأنشد:

ما بين معترك الأحداق والمهج ... أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روحي لما شهدت ... عيناي من حسن ذاك المنظر البهج
لله أجفان عين فيك ساهرة ... شوقاً إليك وقلب بالغرام شجي

ومنها:

أهفو إلى كل قلب بالغرام له ... شغل كل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاحي به صمم ... وكل جفن إلى الإغفاء لم يعج

ومنها:

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد ... أدنى محب بما يرضيك مبتهج

ومنها:

من مات فيه غراماً مات مرتقياً ... ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج

ومنها:

أعوام إقباله كاليوم في قصر ... ويوم إعراضه في الطول كالحجج
فإن نأى سائراً يا مهجتي ارتحلي ... وإن دنا زائراً يا مقلتي ابتهجي

فلما فرغ صاحبي من إنشاد هذه الأبيات من نفس تلك القصيدة قلت له: كأنك تحفظ هذه القصائد. قال: أكثرها وذلك من أيام صغري.

فقلت له: إن الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى لما ذهبت دولة العرب وانتقل الملك من أمة إلى أمة وتحكم بعض صغار العقول من الفقهاء والصوفية في عقول هذه الأمة المسكينة ومنعوا دراسة العلوم الحكمية تحول أصحاب العقول الكبيرة إلى علم التصوف، فظهر فيهم أمثال الأستاذ محيي الدين ابن عربي ومن نحا نحوه كابن الفارض، ودرجت الأمة على ذلك واكتفوا بهذه الوجدانيات وناموا عن نفس العلوم وبدائع التكوين ومجالي النظر في السماوات والأرض واتبع الخلف السلف، و﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣].

أذلك خير أم الابتداء أولاً بالنظر في عجائب النبات والسحاب والشمس والقمر؟ إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الكهف: ٧]، ويقول: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[الصافات: ٦]، وهل زين الله أرضه وسماءه للعميان؟ أم أبرزهما للغافلين؟ كلا، فإنه يقول: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[الحجر: ١٦]. فإذا رأيت أيها الذكي ميلاً إلى النظر وفرحاً بالعلم فاعلم أنك أنت من المقصودين بهذه المناظر وبهذه الزينة، وستكون أمم الإسلام بعد هذا التفسير أسبق الأمم إلى هذا الجمال البديع وإذن يكونون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

الله أكبر لا تزف العروس لبعلها إلا بعد إصلاح شأنها وتزيينها بالحلي والحلل، وإلا فلا عرس ولا زفاف. القاعدة واحدة جمال في المرأة فزفاف فوئام فذرية وحياة. وجمال في السماوات والأرض وزينة بالنبات والشجر فحب بالجمال فعلم بالنظام فغرام بصانع هذه المخلوقات. فلا غرام إلا بعلم ولا عشق إلا بعد النظر. فأما عشق الحسان فما أيسره لكل إنسان وحيوان، وأما عشق المعاني والبدائع فما أبعده عن عقول صغار الأحلام ومرضى النفوس عباد الأوهام. ثم قلت: فليبدأ المسلم بهذا الجمال الظاهري وليدرس تلك العلوم. وهنالك يحق له أن يترنم بأبيات ابن الفارض التي ذكرناها.

ولست الآن في مقام أناس اصطفاهم الله فلم يحتاجوا لهذه العلوم لأن نفوسهم صافية وقد أفيض عليها العلم. فنحن لم نؤلف هذا التفسير لهذه الطبقة فإنها من طور آخر، وإنّما هذا التفسير لعموم الأمم الإسلامية، أما هؤلاء فليسوا في حاجة إلى كتب يقرؤونها ولا مدارس يدخلونها بل كأنهم ليسوا من عالمنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما كان يخاطب العموم.

فقال صاحبي: والله لقد أجبت على ما اعترضت به عليك في سري، فما كاد ذلك يجيش بصدري حتى كأنك أحسست به فبادرت بالجواب، ولكني أريد أن أسألك في الصور التي نقلتها في مظاهر النبات الآن. إنك تقول إنك نقلت صورها من مجلة مصرية. فقلت: نعم. فقال: وكيف ترسم تفسير القرآن صوراً رسمها أناس في مجلات ونشروها بين العام والخاص؟ أليس هذا داعية للازدراء والانتقاص؟ أليس الذين قرؤوا تلك المجلات ورأوا تلك الصور فيها يقولون: إن هذا التفسير ليس بعيد المدى ولا هو عظيم الشأن، وكيف يضع المؤلف فيه صوراً اطلع عليها الجهلة وصغار العقول. ولو كان التفسير ذا بال لم يرسم فيه إلا ما يجهله الطغام ولا يعرفه إلا أولو الألباب. إن كل مبذول مرغوب وكل ممنوع مقبول.

فقلت: إن ما ظننته أيها الأخ مانعاً أراه أنا موجباً. ألا ترى رعاك الله أنه كلما كان الشيء ألزم للحياة وأقوم لهذا الوجود كان أكثر انتشاراً وأكثر صوراً. وكلما كان أقل لزوماً للحياة كان أقل وجوداً فهاك الشهوات الإنسانية والحيوانية والصور النباتية والحيوانية بذلت الشهوات لكل حيوان. فجوع وشبق لا زمان لهذه الحيوانات ولولاهما لم يعش حيوان ولا إنسان، بل القوة الغضبية لم تذر حيواناً ولا إنساناً إلا لزمته قلة وكثرة محافظة على الأبدان، بل إن القوة الشهوية بنوع ما مركوزة في النبات بها امتص من الأرض ومن الماء والهواء الغذاء، بل إننا نرى له أثراً ما من القوى الغضبية وإن كانت غامضة علينا. ألم تره مدججاً بالسلاح كالشوك في شجر السنط والقرطم وغيرها من الشجر والنبات ذلك ليدرأ عنه ما يهلكه ويصد ما يقصده بالأذى من الحيوان.

هذه حال القوة الشهوية والغضبية . إنهما عامتان وعمومهما لبقاء كل نبات وحيوان وإنسان فهما إذن نعمة وحكمة كبرى لا يعقلها إلا الحكماء المفكرون ، وليس للوعاظ والخطباء فيهما من نظر إلا فيما يتجلى للناس من سوء استعمالهما كالسرقة والقتل في الشهوة والغضب اللذين جعلا نعمة أولاً وبالذات ، فاعجب للجمال المحجوب عن الجهال في قوتي الشهوة والغضب العامين ، وأعم منهما الضوء والحرارة والهواء والماء والتراب ثم الجير والحديد والنحاس . فهذه عامة على مقتضى الحاجة إليها . فلا غرو إذا رأينا القرآن يقرؤه الأطفال في المكاتب والجهلاء والعامة في سائر الأزمنة والأمكنة والجهات لعموم الحياة عمت الشهوات والهواء والماء ، ولعموم الحاجة إلى العلم والحكمة عمت قراءة القرآن وأكثر القراء في الأرض لا يعقلون . فلا بدع إذن إذا عم الجمال في صورة النبات والحيوان وبرز ذلك الجمال للجهال والعلماء على حد سواء . فكما عمت الشهوات سائر الأحياء لينالوا نصيبهم من الحياة بلا استثناء هكذا نشرت صور الجمال في جميع الأصقاع براً وبحراً وسماء وأرضاً ، ليقول الله للناس : هذه هي صور الجمال أبحتها لكم فلا بخل اليوم ولا تبذير ، أنا سويت بينكم أيها الأحياء في سوقكم لحياتكم بمهماز الشهوات وسويت بينكم في سوقكم إلى بهجة العلم بنشر صور الجمال في النبات والحيوان والنجوم والشموس . عمت الشهوات وعم الهواء والماء فكانت الحياة وانتشرت صور الجمال فبرز في أرضكم رجال حكماء علماء فلا حكيم إلا وهو مغرم بالجمال فإذا فقد الجمال انقرض من الأرض الحكماء .

يقرأ القرآن الجهلاء والعلماء كما ينظرون صور الجمال والإبداع ، ولكن القراءة شيء والفهم شيء آخر ، كما أن نظر الجمال شيء والإعجاب به بعد الإحساس أمر آخر ، عموم الصور أمر اقتضته الحكمة كما أن عموم قراءة القرآن كذلك وإن لم يعقله القارئون ، فإذا رأينا بذور النباتات ملأت السهل والجبل وإن لم يرها الناس لشدة الدقة والصغر وليست تنمو وتثمر إلا في الأماكن الصالحة لها كالأرز لا ينمو إلا في الماء وكالقمح لا ينبت إلا في الحقول تسقى وقتاً بعد وقت ، وكنوع من النبات في طرفه الأعلى ما يشبه الشعرات البيض أو الريش الأبيض يبلغ طول ذلك نحو قدمين وارتفاع النبات نحو ثلاثة أمتار ، وهذا نراه على شاطئ النيل بجهة مصر القديمة ، فهذا ينمو ويعيش في الماء وفي اليابسة . فبذور هذا النبات وغيره من الحشائش في اليابسة تملأ السهول والقفار ولكنها لا تنبت إلا في أماكنها الصالحة لها ، وكثرة البذور تشبه الحيوانات كثرة المنوية في ماء الرجل وكثرة حبوب الطلع في أعضاء التذكير في النبات ، فتلك الكثرة فيهما جعلت للاحتياط في إيجاد الحيوان والنبات ، ذلك لأن عالمنا الأرضي عالم متأخر فاحتيط له حتى لا يحرم من الحياة فكثرت أسباب الحياة في أرضنا ، وهذا هو العجب العجاب .

أقول : فإذا رأينا الأمر هكذا فهكذا فلنقل في حفاظ القرآن وفي العباد ــ بتشديد الباء ــ الذين يقرؤون القرآن في الصلاة ، فكثرة هؤلاء ككثرة البذور وكثرة الحيوانات المنوية .

فما كثر أولئك إلا ليتحقق وجود بعض المفكرين والحكماء ، كما تحققت الحياة بكثرة أسبابها التي لا تحصى وهكذا عموم صور الجمال ونشرها في الكرة الأرضية والكرات السماوية لا يقصد بها إلا الأقلون الذين يعقلونها ، فهلاك آلاف الآلاف من الحيوانات المنوية والبذور النباتية في سبيل خلق

حيوان واحد ونبات واحد كهلاك آلاف آلاف الصور الجميلة في إيجاد حكيم واحد في أمة من أمم الأرض يملؤها جمالاً وكمالاً ويحبوها عزاً وإقبالاً .

وهذا هو عين جوابي لك أيها الأخ ، فليس عموم الصور في المجلات المنشورة في الأقطار الإسلامية بمانع من رسمها في هذا التفسير بحجة الابتذال ، فلو كان هذا مانعاً من النشر لكانت قراءة القرآن في الطرقات وعموم قراءة الفاتحة بين رجال الطرق في كل مناسبة يقرؤونها وأكثرهم لا يعقلون معناها مانعة من اعتباره كتاباً مقدساً ، فهو مقدس وإن قرأه صغار العقول كما أن السماء جميلة والأرض مزينة بالنبات والحيوان وإن برزت للجاهلين .

عمت صور الجمال في أرضنا وعمت قراءة القرآن عند المسلمين لتقام الحجة على الأرواح عند مفارقة الأبدان ، إذ يرتفع أقوام بأجنحة العلم والأخلاق فوق العلا ، فيقول آخرون : لماذا ساد هؤلاء علينا؟ فيقال : بالعلم والحكمة سادوا ، فيقال : ولماذا حرمنا من ذلك؟ فيقال لهم : صور الجمال وعموم الديانات والعلوم لم تدع عذراً لمعتذر ولا حجة يحتج بها المقصرون . فالجمال وإن عم والعلم وإن ملأ الأصقاع والدين وإن قرأه الخاص والعام يعوزها كلها الاستعداد ، فالاستعداد هو الذي جعل الناس في مراتبهم وأنزلهم منازلهم في الدين والدنيا ، فكم من جمال يراه الناظرون بهجة تعمى عنه عقول القاصرين ، وكم من قارئ لسور القرآن غافل عن معانيها وقليل من يتعظ بها وهم شاكرون .

فكما أن قراءة القرآن في المقابر والطرقات وبألسنة الجهلاء ليست بمزرية بأمثال الغزالي والرازي وابن رشد في الشرق ولا بأمثال « توماس كارليل » و« عبد الله كويلم » و« هنري الفرنسي » و« اللورد هيدلي » في الغرب ، إذ قال هؤلاء : إنه فوق متناول الفلسفة والعلم وإنه هو مناط الكمال والجمال . هكذا ليس عموم الصور النباتية والحيوانية في الأصقاع والحقول والغابات ودوس الناس عليها وعلى ما جمل من الحشرات ، وهكذا عموم صورها التي صورت بالصور الشمسية المنتشرة في المجلات بمزرية بما أرسمه منها في هذا التفسير ، فهنا لها مغزى أشرف من مغزاها عند الجهلاء ، كما أن للقرآن معنى عند الحكماء المتقدمين فوق ما يعرفه جهلة المسلمين أضعافاً مضاعفة ، وكما أن الحشرات من النمل والنحل لها مزايا عند العلماء بها يجهلها جميع العامة من نوع الإنسان .

إن الجاهل يضحك من العلماء ، ولو أنك قلت لعامي : إن لله حكمة في النمل وإن للنملة ٤٠٠ عين كما تقدم في سورة « النمل » لعدها خرافة وسخر واستهزأ وهو من المكذبين ، ولولا الاستهزاء والاحتقار لم يكن الناس طبقات .

فقال صاحبي : إن للعامي الحق كل الحق أن يسخر من قول العالم : إن للنملة (٤٠٠) عين ، وإن للذبابة أربعة آلاف عين كما تقدم في هذا التفسير ، لأنه لا دليل لها عنده ولم يجالس العلماء وله الحق في الإنكار بل إذا صدق كان مخدوعاً .

فقلت : ليس كل ما لا يظهر برهانه بمكذوب . ولو أن الناس جميعاً عولوا على ما قويت صحته وظهرت براهينه لهلك نوع الإنسان وأصبح في مرتبة الحيوان ، فليست نتائج الزارعة ولا التجارة ولا الصناعة ولا السياسة بيقينية . لا يقين في هذا كله . ولو كانت النتائج يقينية لم نسمع بهلاك دولة بسبب واقعة حربية اكتسحتها ، ولا بزارع هلك زرعه بآفة سماوية ، ولا بتاجر غرقت بضاعته في البحر بزوبعة

جوية، ولا بصناعة أصبحت في السوق مزجاة فأفلس صانعها، فهذه النتائج لم يكن لأصحابها فيها إلا الظن، فلو كان الناس لا يعيشون إلا باليقين لهلكوا.

ومن هذا الباب كثر الفقراء في نوع الإنسان لأنهم أرادوا اليقين في المكاسب. فتراهم لا يخاطرون في متاجر عظيمة ولا مكاسب رفيعة حرصاً منهم على الدرهم والدينار اللذين عندهم وطلباً ليقين المكاسب، فالحياة مخاطرة لا أقل ولا أكثر، وما نوع الناس وما ميزهم مراتب إلا ما فيهم من استعداد في الفطرة ضعفاً وقوة. فلئن أحجم القاصرون من نوع الإنسان عن المخاطرة بالأنفس والأموال في سبيل المجد والشرف في الحياة وفرحوا بما عندهم من المال القليل المتيقن ضناً منهم بمالهم وأنفسهم ليحجمن الجهال عن البحث في عيون النملة وعيون الذبابة إذا سمعوا قائلاً يصف لهم ذلك. وذلك أنهم فرحوا بما عندهم من العلم واستغنوا عن سواه كما فرح ذلك الفقير بماله وقوته ولم يبذلهما في المكاسب البعيدة طلباً لليقين، فالمال الذي حازه ذلك الفقير متيقن عنده وجوده، والمكاسب يعوزها سعي، ومناظر الحشرات والمخلوقات ظواهرها متيقنة عند الجاهل ولكن بواطنها التي يسمع عنها ليست متيقنة يعوزها البحث، وهو لا همة له في ذلك ولا شوق. وليست تبعث للمكاسب ولا لحقائق العلم إلا نفوس اصطفاها الله. فهؤلاء قواد الأمم في المال والعلم، وهم يقلون فيها كما يقل الملوك ورؤساء الجمهوريات وقواد الجيوش ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[القصص: ٦٨].

كل له غرض يسعى ليدركه   والحر يجعل إدراك العلا غرضا

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]. وبهذا تم الكلام على بهجة العلم في المقام الأول وهو إحسان خلق النبات، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثاني: في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان

لقد تقدم في سورة «المؤمنون» رسم القطاع العمودي لجسم الإنسان المشتمل على عشرين عضواً، وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض، ثم جهاز الحركة المشتمل على ٢٩ عضواً، وهكذا صورة اليدين وطبقاتهما ١٢، وصورة العين والأذن والأولى فيها ١٩ جزءاً مشروحاً والثانية فيها ١٣ جزءاً كذلك، وصورة الدورة الدموية.

فإذا علمت هذا فانظر لما أقوله لك الآن واعجب من جمال الله تعالى وحكمته تتميماً لما تقدم.

(أ) واعجب من جهاز التنفس إذ ترى: ١ ـ الرئتين والشعب والقصبة الهوائية. ٢ ـ والحويصلات الرئوية وأوعيتها الدموية الشعرية. ٣ ـ وتركيب الرئتين.

(ب) ١ ـ ومن أعضاء الهضم. ٢ ـ وهيئة الجلد.

(جـ) والمجموع العصبي.

(د) وعضو الذوق وهو اللسان.

(هـ) وعضو الشم وهو الأنف.

(و) وعدد الأسنان وبعض صورها.

فهاهنا ستة فصول :

الفصل الأول : في جهاز التنفس .

الفصل الثاني : في أعضاء الهضم .

الفصل الثالث : في المجموع العصبي .

الفصل الرابع : في اللسان .

الفصل الخامس : في عضو الشم .

الفصل السادس : في الأسنان وعددها . كل ذلك ملخص من كتاب « قانون تدبير الصحة » تأليف الدكتور « جون سايكس » .

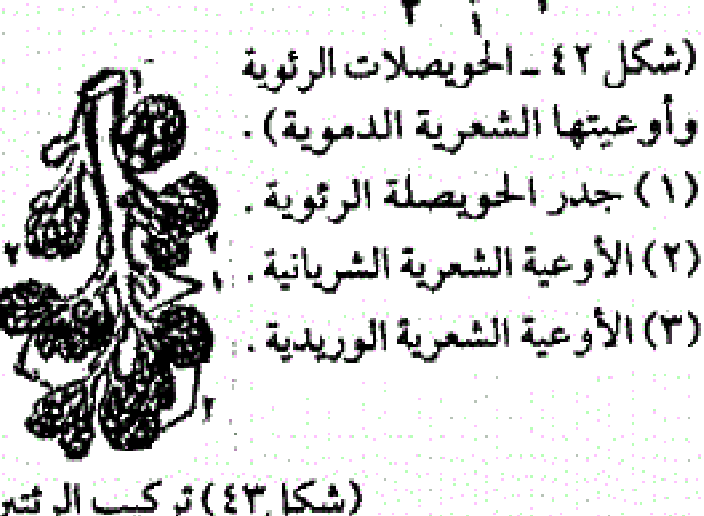
الفصل الأول:في جهاز التنفس

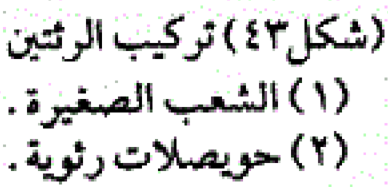
أعضاء التنفس

يدخل الهواء من الأنف أو الفم فيصل الحلق ويمر بالحنجرة ثم بالقصبة الهوائية ومنها إلى الشعب الي تنقسم إلى فروع صغيرة تنتهي في تجاويف صغيرة تسمى بالحويصلات الرئوية وهي تشبه العنبيات المجوفة وتجري في جدرانها أوعية دموية وهي التي يحصل فيها التبادل بين غازات الدم والهواء ويدخل الهواء إلى الرئتين بحركة تسمى بالشهيق ويخرج منها بحركة أخرى تسمى بالزفير ، وذلك بانبساط وانقباض جميع تجدران الصدر الحاجز من أسفل ، والأضلاع والعضلات التي تحركها والتي بينها من الجوانب والأمام . انظر أشكال (٤١ و٤٢ و٤٣) .

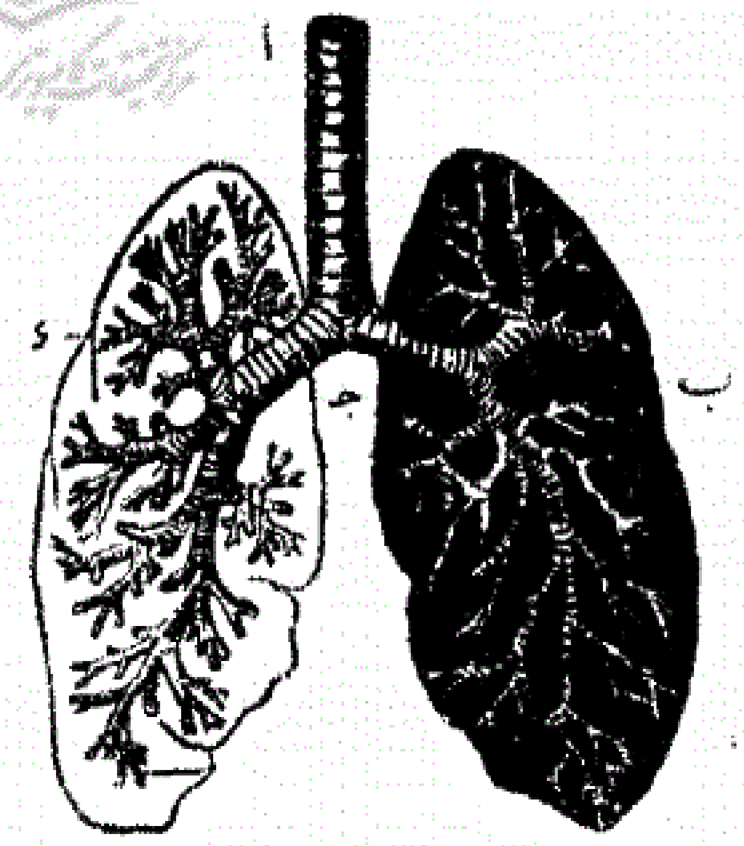


(شكل ٤٢ ـ الحويصلات الرئوية وأوعيتها الشعرية الدموية) .
(١) جدر الحويصلة الرئوية .
(٢) الأوعية الشعرية الشريانية .
(٣) الأوعية الشعرية الوريدية .





(شكل٤٣) تركيب الرئتين
(١) الشعب الصغيرة .
(٢) حويصلات رئوية .



(شكل ٤١ ـ الرئتان والشعب والقصبة الهوائية)
(أ) القصبة الهوائية . (ب) الشعبة اليسرى . (ج) الشعبة اليمنى . (د) الأنابيب الشعبية الصغيرة .

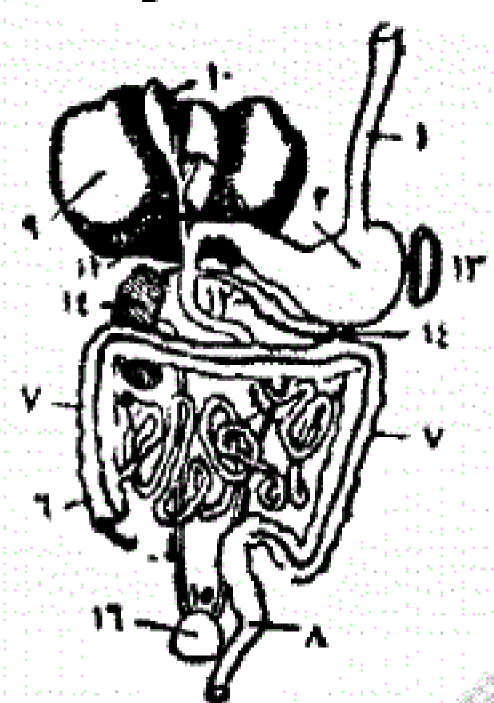
ميخانيكية التنفس،أو كيفية التنفس

يدخل في تركيب الحنجرة والقصبة الهوائية والشعب ما عدا الدقيق منها حلقات أو قطع من حلقات غضروفية ، وبهذا لا ينطبق بعضها على بعض بل تبقى دائماً مفتوحة ومحتوية على هواء .

الفصل الثاني: الجهاز الهضمي

أعضاء الهضم

تتكون هذه الأعضاء من الفم والأسنان وغدد اللعاب، ومن البلعوم والمريء والمعدة والكبد والبنكرياس والأمعاء الدقاق والغلاظ التي تنتهي بالمستقيم، ويبطن الجهاز جميعه غشاء يفرز مخاطاً ويندمج فيه أو تحته غدد عديدة تختلف في تركيبها بنسبة وظيفتها. (انظر شكل ٤٤).



(شكل ٤٤ ـ رسم أعضاء الهضم)
(١) القناة الهضمية المريء. (٢) المعدة. (٣) الاثني عشري. (٤) الأمعاء الدقاق. (٥) الأمعاء الغلاظ. (٦) الأعور. (٧) الأمعاء الغلاظ. (٨) المستقيم. (٩) الكبد. (١٠) المرارة. (١١) القناة الصفراوية. (١٢) البنكرياس. (١٣) الطحال. (١٤) الكليتان. (١٥) الحالبان. (١٦) المثانة.

الغذاء مركب من عناصر كيماوية يحولها الهضم إلى مواد سهلة الامتصاص بواسطة الأوعية الشعرية للجهاز الهضمي، فتصل إلى الدم وتمتص الأوعية الشعرية الليمفاوية المواد الدسمة وتصبها في القناة الصدرية، وهذه تصبها في الوريد تحت الترقوة اليسرى، ويؤثر في الغذاء أثناء الهضم قبل استحالته نهائياً إلى مادة قابلة للتمثيل جملة من أعصرة هضمية وهي اللعاب وعصير المعدة والصفراء وعصير البنكرياس.

كما أن السطح الباطن لأعضاء الجسم مبطن بغشاء مخاطي فظاهر الجسم مغطى بالجلد، والجلد يحتوي على طبقة سطحية تسمى بالبشرة وأخرى تحتها تسمى بالجلد الحقيقي وتحتها طبقة من نسيج خلوي تعرف بالطبقة التي تحت الجلد، والمادة الملونة للجلد توجد في أعمق جزء من الطبقة السطحية التي طبقاتها السطحية تتقلص دائماً، ويتكون منها أيضاً الأظافر والشعر، ويبرز سطح طبقة الجلد الحقيقية في البشرة على شكل زوائد تسمى بالحلمات وفيها توجد جسيمات اللمس وفيها تنتهي أعصاب الإحساس للجلد، وفي طبقة الجلد الحقيقي توجد شبكة من الأوعية الشعرية. (انظر شكل ٤٥).

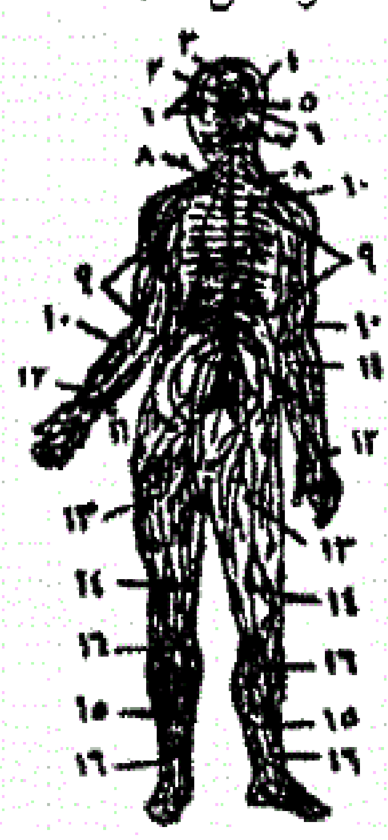


(شكل ٤٥ ـ رسم قطاع من الجلد)
(١) البشرة الطبقة السطحية للجلد. (٢) شبكة ملبيجي. (٣) الجلد الحقيقي أو الأدمة. (٤) الطبقة تحت الجلد. (٥) خلايا دهنية. (٦) حلمات الجلد. (٧) الحلمات العصبية. (٨) الخيوط العصبية. (٩ و١٠ و١١) غدد العرق وقنواتها وفتحاتها. (١٢) الشريان لبصلة الشعر. (١٣) بصلة الشعر. (١٤) شاق الشعر. (١٥) الشعر. (١٦) الغدد الدهنية.

ويخزن الشحم في الطبقة التي تحت الجلد ليقوم بوظيفة وقاية الجسم، ويوجد بها أيضاً غدد العرق التي تخرج إفرازها «العرق» بواسطة فتحات دقيقة على سطح الجلد، وقد نشعر به أو لا نشعر لقلته.

الفصل الثالث: المجموع العصبي

يتكون المجموع العصبي من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل والنخاع الشوكي، وهي الأعضاء المركزية وتمتد الأعصاب منها لجميع أجزاء الجسم وهي الأعضاء الدائرة، والأعصاب إما حساسة أو محركة. (انظر شكل ٤٦).



(شكل ٤٦ ـ المجموع العصبي)

(١) الدماغ. (٢) الشق العظيم للمخ. (٣) المخ. (٤) الفص المؤخر للمخ. (٥) قاعدة المخ. (٦) المخيخ. (٧) البصلة الشوكية. (٨) النخاع الشوكي. (٩) أعصاب الجذع آتية من النخاع الشوكي. (١٠) أعصاب الذراع. (١١) العصب الزندي. (١٢) عصب الإبهام. (١٣) العصب المقدم السفلي للساق. (١٤) العصب الحلقي العلوي للساق. (١٥) العصب الخلفي العلوي للساق. (١٦) العصب العلوي المقدم للساق.

فالحساسة هي التي تحمل التأثيرات الدائرية إلى الأعضاء المركزية، والمحركة هي التي تحمل التأثيرات من المركز إلى أجزاء الجسم فتحركها أو توقفها، وهناك أعصاب سمباثوية تخرج من عقد عصبية موجودة على جانبي العمود الفقري وتتصل بالنخاع الشوكي بفروع دقيقة، ووظيفتها تنبيه العضلات غير الإرادية للأعضاء وتنظيم الوظائف التي لا يشعر بها الإنسان.

الفصل الرابع: في عضو اللسان

حاسة الذوق

عضو الذوق هو اللسان، ويحتوي على جسيمات الذوق في حلماته، والأشياء التي تذاق تكون حلوة أو مرة أو حامضة أو ملحية مثلاً، وإذا أريد معرفة طعم الشيء جيداً يذاق ذائباً ولا يعرف طعمه إذا كان حاراً جداً لأن الحرارة الشديدة تميت حاسة الذوق. (انظر شكل ٤٧).

(١) قاعدة اللسان.
(٢) اللوزتان.
(٣) لسان المزمار.
(٤) أسلة اللسان «قمته».
(٥) الحلمات الخيطية.
(٦) الحلمات الفطرية. (٧) الحلمات الكأسية.

(شكل ٤٧ ـ رسم اللسان)

الفصل الخامس: عضو الشم

عضو الشم هو الأنف وفيه الانتهاءات العصبية الخاصة بذلك، وتؤثر الأجسام الغازية أو الصلبة في حاسة الشم بذرات دقيقة جداً، والسوائل لا تشم جيداً ما لم تكن طيارة أو بها مواد طيارة كالروائح الذكية ولا تشم جيداً إذا كان الأنف رطباً ومصاباً بزكام. (انظر شكل ٤٨).



(شكل ٤٨ ـ رسم الأنف)

(١) الحفر الأنفية. (٢) فروع من العصب الشمي. (٣) العصب الأنفي الحلقي. (٤) العصب الأنفي. (٥) قبوة الفم. (٦) العظام والخلايا العظمية للحفرة الأنفية.

الفصل السادس: في عدد الأسنان

عدد الأسنان عند الأطفال الذين دون السابعة من العمر عشرون سناً وتسمى بأسنان اللبن، وتسقط هذه الأسنان في السنة السادسة أو السابعة ويخلفها تدريجاً إلى الثامنة عشرة تقريباً من عمرهم اثنتان وثلاثون سناً، ست عشرة في كل فك، وتركب أسنان كل فك من قواطع عددها أربعة، وهي لتقطيع الأغذية، وأنياب عددها اثنان وهي لتمزيق الأغذية، وأضراس عشرة لطحنها وتسمى هذه الأسنان بالثابتة. فإذا لم تحفظ الأسنان في حالة مرضية اختلت عملية المضغ، وينتج من ذلك عسر الهضم، وبعض الأطعمة الصلبة تضر الأسنان كتكسير البندق بها أو ليّ الأسلاك أو اختبار المعادن، لأن ذلك يفصل عنها طبقة المينا التي تغطيها وتجعلها في استعداد للتسويس بسهولة. انتهى ما أردته من «كتاب قانون الصحة».

روضات الجنات

في تفسير قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [الآية: ٥] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الآية: ٩]

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة، ولك الشكر على ما أوليتنا من آلائك وحبوتنا من فضلك، وأذعت الحكمة في ربوع بلاد الإسلام بعد ما جمدت القرائح وماتت الهمم واندرست العلوم وعم الوجوم وصارت علوم الحكمة أشباحاً بلا أرواح فعم الجهل وساءت الحال؛ فهاهي ذه أيامها قد أقبلت وبشائرها تترى في بلاد الإسلام. فهي التي بها أدركنا بعض أسرار كتابنا في هذه الأيام على مقدار طاقتنا، وأي حكمة أشرف وعلم أعلى من معرفة نفوسنا وجمالها ومناسبتها للعوالم المحيطة بنا تفسيراً لقولك: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، وقولك: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]. ذكرت ذلك تتميماً لما ذكرته في السورة السابقة من حكمة لقمان. أنت جعلت تلك السورة باسم «لقمان» وقفيت على آثارها بسورة «السجدة» التي كلامنا فيها، ولم تشأ أن ترهق العقول بجعلها في سورة واحدة فأخذت تشير لنا هنا أن وضع العوالم الأرضية على طراز وضع السماوات، وهذا من أجل علوم الحكمة التي سنشرحها هنا.

أدب اللغة العربية:أدبيات اللغة

وموازنة هذين العلمين بما قاله الحكماء: إن الإنسان عالم صغير على مثال العالم الكبير، مطابقة لهذه الآيات

لقد جاء في العلوم اللسانية في اللغة العربية علم يسمونه أدب اللغة العربية، وهذا العلم يقرأ في كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «الأغاني» للأصبهاني وكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، وكتاب «المثل السائر» لابن الأثير. وملخص هذا الفن يرجع إلى الأحاديث المستملحة والأشعار وسير الشعراء والخطباء ومجالس الملوك وطريف التاريخ.

أما علم أدبيات اللغة فهو علم مستحدث لم يعرفه أهل الشرق إلا في زماننا هذا نقلوه عن أهل أوروبا من الإنجليز والفرنسيين والألمان وأمثالهم، وملخصه أن يدرس الشاعر ويعرف تاريخ حياته وأحواله وبيئته وما الذي أثر فيه حتى نطق بهذه الأشعار، وما أثر حكومته فيه، وهل كان هناك ضغط عليه أو ذل أم كان في غبطة وعدل؟ وبهذا يكون درساً أخلاقياً سياسياً اجتماعياً، وتكون نتيجته إصلاح المجتمع الإنساني بمعرفة آثار المتقدمين عزاً أو ذلاً ورفعة وانحطاطاً، حتى كانت نتائج تلك الأحوال أقوالاً منظومة. فبهذه الآثار يزنون ذلك المجتمع البائد ويبحثون في إصلاح المجتمع اللاحق.

هذه هي أدبيات اللغة التي يدرسها الأوروبيون، وليس في ذلك اهتمام بالحفظ كما يهتم علماء أدب اللغة عند أسلافنا، بل الهمة منصرفة في هذا إلى التعقل والتفكر ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة:١٤٨]، فأدب اللغة العربية يعلم الفصاحة والبلاغة والخطابة والشعر وحفظ الحكم والأمثال، ولكن صاحب هذا العاكف عليه لن يكون وزيراً خطيراً ولا أميراً عظيماً، وإنّما يصلح أن يكون جليس الأمراء وسمير العظماء كما اتفق للأصمعي في الشرق وأمثاله، ولن يصلح أن يكون أميراً يصلح أعمال الدولة.

ولقد أصاب «كافور الإخشيدي» إذا أبى أن يستعمل المتنبي في عمل من أعمال الأمة المصرية لأن الشاعر غير الحكيم فهذا خيالي وذاك مفكر. ونظام الدولة لا يصلحه الشاعر، وإنّما يقوم به المفكر ولذلك سقطت الأندلس لما تولى وزارتها أمثال «لسان الدين الخطيب» و«ابن جهور» وأمثالهما. انظر هذا في سورة «الشعراء» عند آية: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾[الآية: ٢٢٤] الخ.

هذا هو الذي أريد أن أجعله تنظيراً لأجل ما في الحكمة، وهو معرفة الإنسان نفسه وموازنتها بالعوالم العلوية والسفلية. انظر إلى ما ذكرته لك في آخر السورة السابقة من أقسام الحكمة وتفصيل علومها ونعم الله التي أسبغها على عباده ظاهراً وباطناً. تأمله وانظره، فهذه ملخصات علم الحكمة كما أن النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والتاريخ وما أشبه ذلك كلها علوم اللسان العربي، فكلما كان هناك علوم لما تنطق به من القول هكذا هناك علوم لما خلقنا فيه من الكائنات.

وإذا وجدنا لعلوم اللغة أدباً وأدبيات هكذا وجدنا لعلوم الحكمة العامة ما يشبه ذلك، وإن لم يسموه أدباً وأدبيات، وهم قد فعلوا به ما فعلوا في آداب اللغة، ولكن أدب اللغة الذي هو ثمرات علوم اللغة عام يقرأ في المحافل والمجالس في العالم قاطبة، أما نظيره من ثمرات علم الحكمة فليس يعرفه إلا الفوقة الأكابر وأعاظم الأمم، وهم ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

﴿الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[النور: ٣٧]، قوم قلوبهم مشرقة والعالم كله يصبح لديهم كأنه نسخة صغيرة مختصرة.

وما هي النسخة المختصرة؟ هي أجسامهم التي فيها نفوسهم. فهذه الأجسام التي تتباهى بها المرأة وتزينها بأنواع الصباغ والحلي والحلل ويتبارى أكثر الرجال في لذاتها وشهواتها وملء بطونها كسائر الحيوانات ويقتتلون على اقتناء الأموال لأجلها هي هي أنفسها كتاب مكنون يقرأ فيه صاحبه علوم العوالم كلها.

علم الله ضعف هذا الإنسان وقد جعل بين العوالم مناسبات، وأودع في الأشكال ألا تأنس إلا بأشكالها، وحرم على السوقة مجالس الملوك، فمن باب أولى يمنع الجهال وصغار العقلاء من الأنس به ومشاهدته، وإذا كان الملوك الذين هم من ضعاف خلقه لن يجالسهم السوقة لعدم المناسبة والمقاربة فكيف برب العوالم كلها؟ فليس يليق لمشاهدته إلا النفوس التي حازت وصفين معاً: صفاء الأخلاق، وإشراق الحكمة، وأجلّ الحكمة هذا الكتاب وهو الجسم الإنساني الذي هو صورة مصغرة للعوالم كلها.

واعلم أيها أن هذا القول يسمعه العامة وأكثر المتعلمين في ديار الإسلام وأنصاف المتعلمين في المدارس الذين درسوا ظواهر العلوم، فتنبوا نفوسهم عن سماعه ويحسبونه أقوالاً لا طائل تحتها، ومعلوم أن من جهل شيئاً عاداه، وأقرب الناس إلى فهم ما أقول الآن من قرؤوا علوم الحكمة سواء أكانت قديمة أم حديثة، أما علماء الأدب أو أدبيات اللغة أو علماء الفقه والأصول المقتصرون عليها، فهؤلاء في معزل عن فهم هذه المعقولات، ولكن أرجو أن أوفق إلى أن يكون ما أكتبه الآن قريباً من فهم سائر طوائف الأذكياء في العالم الإنساني لا سيما المسلمين.

جاء في «إخوان الصفاء» وهو الكتاب المؤلف في القرن الرابع الهجري ٥١ رسالة في فنون الفلسفة، وذلك أيام ازدهار العلوم وصولة الدولة العباسية وارتقاء الأمم العربية، ولقد اخترت في هذا التفسير من كل شيء أحسنه قديماً وحديثاً، فهاهي ذه الرسالة التي عنوانها «قول الحكماء الإنسان عالم صغير»، فهذه الرسالة وأمثالها قد جعلت كأنها أدبيات الحكمة، فترى أن القول فيها لا يقتصر على الفلك ولا علم المعدن ولا النبات ولا الحيوان، كما أن علم أدب اللغة لا يقتصر على الشعر ولا على النثر ولا على الخطب ولا على الخط ولا على التاريخ، بل تجد هذه العلوم كلها قد استعان بها الأديب فيه، هكذا هنا في هذه الرسالة التي سألخصها لك الآن بأسلوب هذا الكتاب ليأنس بها الأذكياء. ويفرح بها العقلاء.

واعلم أنار الله قلبك بالحكمة أن الناس منهم الصبيان والعقلاء والعلماء والحكماء، ولكل طائفة من هذه الطوائف آراء تخالف الطائفة الأخرى. فالصبيان عقلاء بالقوة فإذا بلغوا صاروا عقلاء بالفعل، والعقلاء بالفعل علماء بالقوة، ومتى تعلموا صاروا علماء بالفعل، والعلماء بالفعل حكماء بالقوة وفلاسفة، فإذا قرؤوا الحكمة صاروا حكماء بالفعل، والحكماء هم مصابيح الأمم ينيرونها بعد عروج أنبيائهم لربهم وتشرق أنوارهم على أهل الكرة الأرضية، وأرجو أن تكون أيها الذكي منهم حتى تلحق بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وأمثال هذه الرسالة وما تقدمها من فنون الحكمة والعلوم في هذا الكتاب تنقل العلماء إلى درجة الحكماء، والتفاوت بينهم يكون بالتوفيق والإلهام والإشراق الإلهي والاستعداد النفسي وصدق العزيمة والتقوى ومحاسن الأخلاق.

لقد نظر الحكماء في هذا الجسد وفكروا في تركيبه وحسن هندامه وجندرته ونظامه، وأخذوا يخاطبون الناس بما شعروا به، فأولاً: أخذوا يضربون له الأمثال ليفهم أكثر الناس. وثانياً: غاصوا على جواهر الحكمة وعلومها ونظموها في قلادة وجعلوها حلية لهيكل الإنسان. فالأول تعريف للمتوسطين والثاني تعليم لمن هم أرقى عقولاً وأذكى أفهاماً.

فهاهنا فصلان: فصل الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد، وفصل قياس الجسد على نظام العوالم العلوية والسفلية، وهي العلوم التي تقدم تفصيلها في السورة المتقدمة.

الفصل الأول
في الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد وهي ١٢ مثلاً

المثل الأول: قالوا: لما كان الإنسان جملة مجموعة من جسد ظلماني ونفس روحانية صار إذا اعتبر حال جسده وما فيه من غرائب تركيب أعضائه وفنون تأليف مفاصله يشبه كأنه دار لساكنها.

المثل الثاني: إذا اعتبر حال نفسه وعجائب تصرفاتها في بناء هيكل جسده وسريان قواه في مفاصل بدنه يشبه كأنها ساكن في منزله مع خدمه وأهله وولده.

المثل الثالث: إذا اعتبر الإنسان، وجد بنية جسده مع اختلاف أشكال أعضائه وافتنان تأليف مفاصله يشبه دكاناً للصانع.

المثل الرابع: هكذا إذا اعتبر نفسه من أجل سريان قواها في بنية هيكل جسده وعجائب أفعالها من أعضاء بدنه وفنون حركاتها في مفاصل جسده يشبه كأنها صانع في الدكان مع تلامذته وغلمانه.

المثل الخامس: إذا اعتبر بنية جسده مع كثرة تأليفات طبقات بناء هيكله، وغرائب تركيب مفاصل بدنه، وكثرة اختلاف أعضائه، وتشعب فروع عروقها وامتدادها إلى أطراف أعضائه، وتباين أوعيته التي في عمق جسده، وتصرف قوى النفس يشبه كأنه مدينة مملوءة أسواقها من الصنائع.

المثل السادس: إذا اعتبر من أجل تحكم النفس على أحوال الجسد وحسن سياستها وسريان قواها وتصرفاتها في بنية هذا الجسد يشبه كأنها ملك في تلك المدينة بجنوده وخدمه وحاشيته.

المثل السابع: إذا اعتبر الجسد وتكوينه وحال النفس ونشوئها مع الجسد يشبه الجسد الرحم والنفس كالجنين.

المثل الثامن: إذا اعتبر الجسد من وجه آخر وجد أنه كالسفينة والنفس كالملاح والأعمال كالأمتعة للتجار والدنيا كالبحار والموت كالساحل والآخرة كمدينة التجار والله تعالى الملك المجازي هناك.

المثل التاسع: إن الجسد كالدابة والنفس كالراكب والدنيا كالميدان والعاملون كالسباق.

المثل العاشر: إن النفس كالحارث والجسد كالمزرعة والأعمال كالحب والثمر والموت كالحصاد والدار الآخرة كالبيدر.

المثل الحادي عشر: إن النفس كالصبي والجسد كالمكتب فيدرس فيه عجائب الأعضاء وتشريحها وغرائب صنعها وبدائع أشكالها.

المثل الثاني عشر: إننا إذا اعتبرنا تركيب الجسد وسريان قوى النفس وتصرف أحوال الإنسان فيه وجدنا أنه دفتر مملوء من العلوم، ويقال: إنه مختصر من اللوح المحفوظ. انتهى الفصل الأول في الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد.

الفصل الثاني
في قياس الجسد على نظام العوالم

لقد ضربت الحكماء لذلك أمثالاً كثيرة، ونريد أن نذكر من ذلك طرفاً مرموزاً مختصراً حسب ما يليق بنا.

الإنسان مختصر اللوح المحفوظ

حكي أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات، وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه، فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إيصاله إلى مجلسة لأنه لا يليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب، والمرتاضون في العلوم، والمتخلقون بالأخلاق الجميلة، المبرؤون من العيوب، فرأى من الرأي الرصين أن يبني لهم قصراً على أحكم ما يكون من البنيان، فأفرد لكل واحد منهم مجلساً، وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه في جوانب ذلك المجلس، وصور فيه كل شيء أراد أن يهذبهم به، ثم أجلسهم في ذلك القصر وأفرد كل واحد منهم في حصته المعدة له، ووكل بهم الخدم والجوار والغلمان وقال لأولئك الأولاد: انظروا إلى ما صورت فيه لكم بين أيديكم واقرؤوا ما كتبت فيه من أجلكم، وتأملوا ما بينته لكم وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من ذلك حكماء أخياراً فضلاء أبراراً، فأوصلكم إلى مجلس فتكونوا من ندمائي مكرمين سعداء منعمين أبداً ما بقيت وبقيتم معي، وكان مما كتب لهم في ذلك المجلس من العلوم أن صور في أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج طلوعاتها، وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها، وصور في صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبراري والأنهار، وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك، وكتب في صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها، وكتب في الجانب الآخر علم الصنائع والحرف، وبين كيفية الحرث والنسل، وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات، وكتب في الجانب الآخر علم الدين والملل والشرائع والسنن، وبين الحلال والحرام والحدود والأحكام، وكتب في الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة، وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والدواوين، وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والأعوان، فهذه ستة أجناس من العلوم يراض بها أولاد الملوك، وهذا مثل ضربه الحكماء، وذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى، والأولاد الصغار هي الإنسانية، والقصر المبني هو الفلك بأسره، والمجالس المتقنة هو صورة الإنسان، والآداب المصورة هي عجيب تركيب جسده، والعلوم المكتوبة فيه قوى النفس ومعارفها. ونحن نبين هذا فصلاً فصلاً فيما بعد بأوجز الوجوه.

وهاهنا شرع يبين الأنواع الستة من العلوم وسأشرحها لك شرحاً مختصراً تبتهج به نفسك وينشرح صدرك، ولكنه بدأه أولاً بمقدمة ذكر فيها فضيلة جوهر النفس، فأبان أن منزلتها عند الله كبيرة أن نسبة الأجسام إليه بعيدة، ونسبة النفس إليه قريبة لأنها حية بذاتها، وعلامة وفعالة والمادة بخلاف ذلك.

ولما كان الله عز وجل لا شبيه له ولا نظر ولا مثيل، ضرب لنا الأمثال فقال: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾[النور: ٣٥]، فلننسج على هذا المنوال ونضرب المثل لله بالشمس والضوء بالعقل والنفس بضوء القمر، ومعنى هذا أن الله الذي لا مثيل له ولا شبيه كالشمس، والعقل العام كضوئها، والعقل العام خلقت منه النفوس الجزئية الأرضية وكما أن ضوء القمر من نور الشمس هكذا النفس فيض من العقل، وكلما كانت نفوسنا أعلم وأحكم وأعدل كانت أقرب إلى تلك العقول التي هي قريبة من ربها، وبضدها تتميز الأشياء، كما أن القمر إذا امتلأ من نور الشمس حاكى ضوؤه ضوءها وصارت هناك مناسبة.

ولن تنال النفس الإنسانية تلك المرتبة وتحظى بتلك المزية فتتم فضائلها وتحاكي العقول العالية المجردة القريبة من الله المشبهات ضوء الشمس بالنسبة للشمس إلا إذا عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها ولن يتم للنفس الإنسانية حقيقة جوهرها إلا إذا عرفت أحوال عالمها، وأحوال عالمها كلها مصورة في الصورة الإنسانية لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم وجعل صورته مرآة لنفسه ليرى فيها صورة العالم الكبير. قال: وذلك أن الباري جلّ جلاله لما أراد أن يطلع النفس الإنسانية على خزائن علومه ويشهدها العالم بأسره علم أن العالم واسع كبير، وليس في طاقة الإنسان أن يدور في العالم حتى يشاهده كله لقصر عمره وطول عمران العالم، فرأى من الحكمة أن يخلق لها عالماً صغيراً مختصراً من العالم الكبير وصور في العالم الصغير جميع ما في العالم الكبير وأشهدها إياه، فقال عز وجل: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[الأعراف: ١٧٢]، قالوا بأجمعهم: ﴿ بَلَىٰ ﴾[الأعراف: ١٧٢] فمن كان منهم شاهداً عالماً عارفاً حقيقته كانت شهادته عليه حقاً، ومن كان جاهلاً كانت شهادته مردودة لأنه قال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف: ٨٦]، ألا ترى أنه لا يقبل إلا شهادة أهل العلم، ثم اعلم أن افتتاح جميع العلوم في معرفة الإنسان نفسه، ومعرفة الإنسان تكون من ثلاثة وجوه: الأول: أن يعتبر أحوال جسده وتركيب بنيته وما يتعلق عليه من الصفات خلواً من النفس. والثاني: اعتبار أحوال نفسه وما يوصف من الصفات خلو من الجسد. والثالث: اعتبار أحوالهما مقترنين جميعاً وما يتعلق على الجملة من الصفات. انتهت المقدمة.

وهاهنا آن أن أشرح لك أيها الذكي اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك، فأقول ناحياً منحى علم الفلك الحديث: سبحانك اللهم وبحمدك وتعالى جدك ولا إله غيرك. جسمي يا إلهي على نمط المجموعة الشمسية، وهل هذا الجسم الذي أشقى في تحصيل ما يحتاجه هو صاحب هذا الكمال؟ إذن كل ما ابتلينا به من هموم الحياة والشقاوة والاستكثار من اللذات والمال والجاه والعداوات والحروب ما هي إلا حجب حجبتنا وسدود جعلتها أنت سبحانك بيننا وبين معرفة هذا الجسم الممتلئ جمالاً وحكمة.

أنت يا الله الذي رحمتنا بجهلنا بجمال هذا الجسم، لأن هذا الجمال وهذا الإبداع الذي سأذكره فيه يجعلنا نعتقد أننا عظماء وكبراء، وإذن لا نسعى لكمال أنفسنا، ولو أن كل امرئ في الأرض عرف ما سأذكره الآن في جسمه لأصبح مشغولاً بجماله معجباً ببهائه لا يطلب له كمالاً. فهناك يحتاج إلى من يذكره بأنك جئت لهذه الأرض لتكون أكمل من هذه الحال. فإياك أن تغتر بأنك قد أعد لك منزل لا ينزله إلا من هم مثل الملائكة الكرام، لأن هذه المنزلة العالية صغيرة بالنسبة لعوالم أعلى منا، فبدل أن يقال له: هذا حكم عليه أن يسعى في تحصيل الرزق ومدافعة الأعداء، هنالك ينسى هذا الجمال في جسمه ويحصل أخلاقاً وأعمالاً ترقى نفسه فوق منزلتها حين سكنت هذا الجسم. وأما جمال هذا الجسم المحكم فذلك لأن روحه قبسة من نور الله. والمنسوب لله رب العالم لا يسكن إلا مكاناً يناسب ذلك المقام، وإذا كان وزراء الملوك لا ينزلون إلا القصور المناسبة لهم فليكن المنسوب لإفاضة الأنوار الإلهية أولى بأن تكون مرتبته أشرف المراتب في سكناه، هذا هو السبب في أحكام وبدائع الهيكل الجسمي بدون عمل من الناس بل هبة من رب العالمين. ولذلك تجد أكثر أهل الأرض يجهلون غرائب الجسم التي سأذكرها هنا، ومن عرفها منهم كعلماء التشريح تكون معرفته أشبه بمعرفة الإنسان علم النحو أو الصرف. وكما أن معرفة النحو والصرف لا تفيد جمال أدب اللغة وبهاؤها هكذا معرفة تشريح الجسم لا تفيد نظامه المقيس على نظام الفلك وعوالمه. والذي يحظى بهذا في العالم كله قليل جداً، وهذا القليل وهم حكماء الأمم لا يعطون هذه المنحة إلا بعد أن أصبحت العبادة والتفكير ديدناً لهم وصفة لازمة، فلا يخاف عليهم من ترك الأعمال بناء على ما عرفوا في أنفسهم من الجمال، بل يعملون في خدمة الإنسانية وترقية العقول كما تفعل الأم مع ذريتها لا تطلب جزاء ولا شكوراً. فهذه الطائفة التي ارتقت عن هذا الإنسان وهم خواص الحكماء في أرضنا هذه وقد أدركوا جمال أجسادهم وأن نظامها كنظام العالم كله يصبحون كالمفطورين على العلم والعمل، فلا يغرهم بالله الغرور ولا يكون للشيطان عليهم سلطان.

طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية

إذا عرفت هذا أيها الذكي فهاك نظام جسم الإنسان وقياسه على نظام المجموعة الشمسية. اللهم إنك أنت جعلت الشمس مركزاً وأدرت حولها كواكب في تسع مدارات، وهي: عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل. وهناك كوكب بين كوكبين من الكواكب المتقدمة في مدار خاص قد حطمت أجزاؤه، وتلك القطع الطائرات منه لا تزال إلى الآن تدور في مداره، وقد تقدم شرحه مسهباً في هذا التفسير، ثم أورانوس ونبتون.

فهذه الكواكب التسع تجري حول الشمس في مدارات، وتلك المدارات يحيط بها طبقات الأثير وتلك الطبقات طبعاً تسع طبقات عينتها تلك المدارات. فأنت يا ربنا لما جعلت المجموعة الشمسية على هذا المنوال جعلت جسمي على مقتضاها حذو القذة بالقذة.

ألا ترى أيها الذكي أن جسمي وجسمك مركبان من نفس هذه الطبقات التسع، وهي العظام والمخ واللحم والعروق والدم والعصب والجلد والشعر والظفر. فجعل المخ في جوف العظام مخزوناً لوقت الحاجة ولف العصب على المفاصل كيما يمسكها فلا ينفصل، حشي خلل ذلك باللحم صيانة لها

ومد في خلل اللحم العروق والأوردة الضارية لحفظها وصلاحها، وكسا الكل بالجلد ستراً لها وجمالاً لها، وأنبت الشعر والظفر من فضل تلك المادة المار بها فصار مماثلاً لتركيب الأفلاك بالكمية والكيفية جميعاً لأنها تسع طبقات، وهذه تسع جواهر، وتلك بعضها في جوف بعض وهذه مثال ذلك.

هذه أيها الذكي طبقات جسمي وجسمك، فإذا كانت الشمس أحيطت بهذه الطبقات فهاهي ذه نفسي أحيطت بهذه الطبقات المماثلة لها من حيث هذا الاعتبار.

بروج السماء ونظيرها في جسم الإنسان

ثم انظر معي إلى جسمي وجسمك باعتبار بروج السماء بعد اعتبار طبقاتها فإننا نجد الله يقول: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦]، ونجد الأمم كلها اعتبرت الفلك مقسماً ١٢ قسماً، كل قسم يسمى برجاً تنزله الشمس في ٣٠ يوماً. ولما نظر الحكماء في جسم الإنسان وجدوا فيه العينين والأذنين والمنخرين والثديين والفم والسرة والسبيلين فهذه ١٢ ثقبة، ثم نظروا فوجدوا البروج ستة منها شمالية وستة منها جنوبية، فهكذا وجدوا تلك الثقب في الجسم ستة منها في الجانب الأيمن وستة في الجانب الأيسر تماثلها في الكيفية والكمية جميعاً، والفم به الغذاء للناس في الحياة الدنيا، والسرة كان بها غذاء الطفل في الرحم، هذا ما يقولونه، ولكن الفم والسرة والسبيلان ليسا في الجانبين، ولعل الكلام باعتبار الأكثر، وقد ترك ذلك لحكم اقتضاها النظام، ولا يعزب عنك أيها الذكي أن هذا أشبه بالأدبيات في اللغات لا ينبغي التعمق فيه، وإنّما هو أشبه بضرب الأمثال وكفى فيه المقاربة.

الكواكب السبعة وآثارها الجسمية والروحية وموازنتها بقوى الإنسان الجسمية وقواه الروحية

إن في الفلك سبع كواكب سيارة وهذه الكواكب أخرجت منها الأرض، لأن هذا المقام يراد به ذكر العوالم التي تفيض بأنوارها على أهل الأرض التي نعيش عليها، وليس منها أيضاً الشمس لأنها ليست من السيارات ولأنها هنا أشبه بالنفس صاحبة هذه المملكة، فالسيارات فوق الأرض وتحتها حول الشمس (٧)، وهي المتقدمة بإخراج الأرض منها وبإخراج ذلك الكوكب الذي خرب من آلاف آلاف السنين، فهكذا في الجسد سبع قوى لإحداث آثار جسمية، وسبع أخرى لإحداث الهداية، كما أن الكواكب محدثات آثار في الأجسام بأضوائها وآثار في النفوس لهدايتها، ففي مقابلة آثار أضواء الكواكب الجسمية لإصلاح العوالم الأرضية خلقت للإنسان القوي السبعة الجسمية، وهي الجاذبة التي تجذب الطعام كما يحس به الآكل عند ازدراد الطعام والماسكة التي تمسك الطعام في المعدة إلى حين، وهناك تتولاه الهاضمة لهضم الطعام، فإذا فرغت من عملها تولته القوة الدافعة فتدفعه من المعدة إلى الأمعاء، وهنالك يكون خالص الطعام بعد دفع فضلاته معداً لتغذية الجسم فيسير مع الدورة الدموية للتغذية. وهذه هي القوى الغاذية.

ومتى تغذى الجسم بخلاصة الطعام فلا بد من نموه. وهذه هي القوة النامية بها يمتد طولاً وعرضاً وعمقاً بنظام بديع. ولما كانت الأجسام تفنى أعدت فيها مادة من خالص الدم وهو المني لتكون منياً صورة حي آخر ليبقى النوع.

فهذه هي القوى المصورة، فهذه هي القوى السبع الجسمية في مقابلة قوى الكواكب من حيث أفعالها في الأجسام. فأما السبع التي في مقابلة الهداية بأضواء الكواكب فهي: الباصرة والسامعة والذائقة والشامة واللامسة ثم القوة العاقلة والقوة الناطقة. ولكل حاسة من الحواس الخمس مجريان عن يمين وشمال في البدن، فالباصرة في العينين والسامعة في الأذنين والشامة في المنخرين واللامسة في اليدين والذائقة الشهوية مجراها في الفم والفرج، والفم بالجانب الأيمن أشبه، والفرج بالجانب الأيسر أنسب، أقول: لأن شهوة الطعام يحتاج إليها الضعيف والقوي والصغير والكبير بخلاف شهوة الفرج. ولعل أمثال هذا الجواب يناسب ما تقدم في البروج من حيث مقابلتها بثقب البدن، وهاهنا ذكر لكل حاسة من الحواس الخمس المملكة التي تعمل فيها تحت أمر النفس، فالقوة الباصرة تولت إيصال أخبار الأصوات الحيوانية وغير الحيوانية كالطبل والرعد والحجر، والحيوانية منطقية وغير منطقية كصهيل الخيل والمنطقية دالة وغير دالة. والقوة الباصرة تأتي بأخبار عشر ممالك وهي: الأنوار والظلمات والألوان والأشكال والسطوح والأحجام والقرب والبعد والحركات والسكنات.

فهذه الممالك تولت أخبارها القوة الباصرة، فهذه القوة أشبه بالديدبان الواقف على باب قصر الملك أو صاحب البريد إلى الملك يأتي بالأخبار إليه، كما أن القوة السامعة تولت إيصال أخبار الأصوات، ومن عجب أن كلاً منهما لا تشارك الأخرى في عملها، فالباصرة تجهل الأصوات والسامعة لا علم عندها بالألوان والأنوار، ولكن القوة المتخيلة في مقدم الدماغ هي التي تتقبل أخبار هذه الممالك العشر كما تقبلت من القوة السامعة عالم الأصوات، وهي التي توصلها إلى صاحب العرش وهي النفس؛ ومثل هذا يقال في القوة الشاملة والذائقة واللامسة، فللشامة الروائح الطيبة والمنتنة وما تحتهما مما لا حصر له، ولا أسماء للمشمومات على كثرتها إلا بنسبتها إلى حاملها كرائحة المسك والورد وهكذا.

فهذه الممالك لا حصر لأفرادها كما لا حصر لأفراد الألوان في العالم والأشكال والسطوح وألفاظ اللغات وأصوات الأحجار والأشجار وهكذا، وللذائقة ومجراها اللسان الحلاوة والمرارة، وأولهما ملائمة للطبع.

وثانيتهما منافرة أشد المنافرة، وهناك وسائط وهي ٧: الحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة.

والقوة اللامسة ومجراها اليدان لها عشرة أنواع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة. ولكل واحد من هذه أنواع وتحت الأنواع أصناف وهكذا مما لا يحصى.

أفلا يعجب الإنسان من أمر نفسه الجالسة على عرش مملكته، وقد فوضت أمرها إلى خمسة أمراء لكل أمير ممالك ونواح كثيرة، وليس يعرف أمير ما عند غيره من الأمراء.

الكلام على القوى الخمس الباطنة

إن للنفس الإنسانية خمس قوى أخر نسبتهن إلى النفس غير نسبة هذه الخمسة التي تقدم ذكرها، وسريانهن في أعضاء الجسد خلاف سريان أولئك. أفعالهن لا تشبه أفعالها. وذلك أن هذه

الخمس هن كالشركاء المتعاونات في تناولن صور المعلومات بعضهن من بعض، وثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء من الملك الحاضرين مجلسه دائماً المطلعين على أسراره المعينين له في خاصة أفعاله وهي القوة المتخلية التي مجراها مقدم الدماغ. والثانية القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ. والثالثة القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ، وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الحاجب والترجمان عن الملك، وهي القوة الناطقة المخبرة عن معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات ومجراها في الحلقوم إلى اللسان. وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الوزير إلى الملك المعين له في تدبير مملكته وسياسة رعيته، وهي القوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع.

فهذه القوى الخمس هي كالمتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات، بيان ذلك أن القوة المتخيلة إذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة إذ أدركت وأدت إليها فإنها تجمعها كلها وتؤديها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض وتعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ والمضار من المنافع، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار، ثم إن القوة الناطقة تتناول تلك الرسوم المحفوظة وتعبر عنها عند البيان للقوة السامعة من الحاضرين في الوقت. ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ الأسماع حظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية واحتالت الطبيعة بأن قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة. وذلك أن القوة الصناعية إذا أرادت تقييدها صاغت لها صوراً من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيداً فائدة من الماضين للغابرين، وأثراً من الأولين للآخرين وخطاباً من الغائبين للحاضرين، وهذا من جسيم نعم الله تعالى على الإنسان، كما ذكر في كتابه فقال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ٣-٥]. وبهذا تم الكلام على الحواس الخمس الظاهرة ونظائرها الباطنة.

فأما القوة الناطقة فمجراها الحلقوم إلى اللسان، والقوة العاقلة مجراها وسط الدماغ، ونسبة القوة الناطقة إلى القوة العاقلة كنسبة القمر إلى الشمس، وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه في منازل القمر الثمانية والعشرين، والقوة الناطقة من العقل تأخذ معاني ألفاظه بجريانها في الحلقوم فيعبر منها بثمانية وعشرين، ونسبة ٢٨ حرفاً للقوة الناطقة كنسبة ٢٨ منزلة للقمر. انتهى الكلام على موازنة أطباق الأفلاك والبروج والمنازل والكواكب لنظائرها في جسم الإنسان وهو المقصد الأول من المقاصد الست.

المقصد الثاني

الموازنة بين تركيب جسد الإنسان، وطبقات العوالم السفلية وهي الأرض والماء والهواء، وفوق الجميع المشرقات النيرات

فكما أن الكواكب والشموس والأقمار أعلى هكذا الرأس في أجسادنا أعلى موازية للمشرقات النيرات لما فيها من الحواس والعقل، والصدر يوازي الهواء الذي هو أسفل تلك المشرقات. وما النفس إلا جزء من الهواء متصل به كما أن العين متصلة بشعاع الكواكب في الرأس، والبطن لما فيه من الرطوبات يوازي الماء وهو تحت الهواء. وما تحت البطن إلى القدم يوازي الأرض لأنها عليها استقر

الثلاثة المقدمة كما استقر الثلاثة الأخرى على الأرض. وكما أن من هذه الطبقات الأربع تتحلل البخارات وتتكون الرياح والسحاب والأمطار والحيوانات والنبات والمعادن، كذلك بهذه الطبقات الأربع تحلل البخارات في بدن الإنسان، مثل ما يخرج المخاط من المنخرين والدموع من العينين والبصاق من الفم، والرياح التي تتولد في الجوف والرطوبات التي تخرج مثل البول والغائط وغيرهما. فبنية جسده كالأرض، وعظامه كالجبال، والمخ فيه كالمعادن، وجوفه كالبحر، وأمعاؤه كالأنهار، وعروقه كالجدول، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ومنبته كالتربة الطيبة، وحيث لا ينبت الشعر كالأرض السبخة، ووجهه إلى القدم كالعمران، وظهره كالخراب، وقدام وجهه كالمشرق وخلف ظهره كالمغرب ويمينه كالجنوب ويساره كالشمال، وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق، وضحكه كضوء النهار وبكاؤه كالمطر، وبؤسه وحزنه كظلمة الليل، ونومه كالموت ويقظته كالحياة، وأيام صباه كأيام الربيع وأيام شبابه كأيام الصيف وأيام كهولته كأيام الخريف وأيام شيخوخته كأيام الشتاء، وحركاته وأفعاله كحركات الكواكب ودورانها، وولادته وحضوره كالطوالع وموته وغيبوبته كالغوارب. انتهى المقصد الثاني.

المقصد الثالث

في أن العناصر التي على هذه الأرض من خواصها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وهذه الصفات يشاركها فيها الإنسان.

المقصد الرابع

في أن المعادن يحصل لها كون وإفساد، هكذا الإنسان.

المقصد الخامس

إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت والإنسان شاركه فيها.

المقصد السادس

في أن الحيوان يحس ويتحرك والإنسان شاركه فيهما، وزاد على ذلك بالعقل والنطق.

زيادة شرح لبعض ما تقدم

ذلك أن الحيوانات لها أنواع كثيرة، ولكل نوع منها خاصية دون غيره. والإنسان يشاركها كلها في خواصها، ولكن لها خاصيتان تعمها كلها: وهي طلبها المنافع، وفرارها من المضار، ولكن منها ما يطلب المنافع بالقهر والغلبة كالسباع، ومنها ما يطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور، ومنها ما يطلب بالحيلة كالعنكبوت، وكل ذلك يوجد في الإنسان، وذلك أن الملوك والسلاطين يطلبون المنافع بالغلبة، والمكديون بالسؤال والتواضع، والصناع والتجار بالحيلة والرفق. وكلها تهرب من المضار والعدو، ولكن بعضها يدفع العدو عن أنفسها بالقتال والقهر والغلبة كالسباع، وبعضها بالفرار كالأرانب والظباء والطير، وبعضها يدفع بالسلاح والجواشن كالقنفذ والسلحفاة، وبعضها يتحصن من الأرض كالفأر والهوام والحيات.

وهذه كلها توجد في الإنسان، وذلك أنه يدفع عن نفسه العدو بالقهر والغلبة، فإن خاف على نفسه لبس السلاح، وإن لم يستطع فرّ منه، فإن لم يقدر على الفرار تحصن بالحصون، وربما يدفع

الإنسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم في كتاب « كليلة ودمنة » . انتهى الكلام على مشاركة الإنسان للحيوانات كلها في الطلب والهرب .

فأما مشاركته لها جميعها فيما تختص به ومشاركته لسائر الكائنات في خواصها فاعلم أن لكل نوع من الحيوانات خاصية مطبوع عليها وكلها توجد في الإنسان ، وذلك أنه يوجد شجاعاً كالأسد وجباناً كالأرنب وسخياً كالديك وبخيلاً كالكلب وعفيفاً كالسمك وفخوراً كالغراب ، ووحشياً كالنمر إنسياً كالحمام محتالاً كالثعلب سليماً كالغنم سريعاً كالغزال بطيئاً كالدب عزيزاً كالفيل ذليلاً كالحمل لصاً كالعقعق تائهاً كالطاوس هادياً كالقطاة ضالاً كالنعامة ماهراً كالنحل شديداً كالتنين مهيناً كالعنكبوت حليماً كالجمل حقوداً كالحمار كدوداً كالثور شموساً كالبغل أخرس كالحوت منطقياً كالهزارداستان والببغاء مستحلاً كالذئب مباركاً كالطيطوى مضراً كالفأر جهولاً كالخنزير مشوماً كالبوم نفاعاً كالنحل .

وبالجملة ما من حيوان ولا معادن ولا نبات ولا ركن ولا فلك ولا كوكب ولا برج ولا موجود من الموجودات له خاصية إلا وهي توجد في الإنسان أو مثالاتها كما بينا قبل من كل شيء طرفاً ، وهذه الأشياء التي ذكرنا في أمر الإنسان لا توجد في شيء من أنواع الموجودات التي في هذا العالم إلا في الإنسان ، فمن أجل ذلك قال الحكماء : إن الإنسان وحده بعد كل كثرة كما أن الباري جل ثناؤه وحده قبل كل كثرة . ومن أجل ما عددنا من عجائب تركيب جسد الإنسان وغرائب تصاريف نفسه ، وما يظهر من جملة بنيته من الصنائع والعلوم والأخلاق والآراء والطرائق والمذاهب والأعمال والأفعال والأقاويل والتأثيرات الجسمانية والروحانية سموه « عالماً صغيراً » .

ولم يقتصر القدماء على موازنة جسم الإنسان بالأفلاك والكواكب والبروج والعناصر والمعادن والنبات والحيوان ، بل تمادوا في ذلك حتى قالوا : إنه لا يموت كما أن الملك لا يموت ، فهو كما يشبه البهيمة والنخلة هكذا يشبه الملك لأنه ملك بالقوة إذا كان حكيماً فإذا مات صار ملكاً بالفعل ، وهكذا استمر القوم في درس أعضاء الجسد الإنساني والعوالم العلوية وغيرها ، حتى إنهم غاصوا في باطن الهيكل الإنساني على : القلب والطحال والكبد والمرارة والمعدة والدماغ والرئة ، ووازنوا هذه السبعة بالشمس وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد والقمر . فكل واحد من تلك الأعضاء عندهم فيه خواص نظيره من الكواكب ، فالقلب يجري الدم منه إلى أطراف الجسد في الأوراد والشرايين ، فهو كالشمس المشرق نورها على جميع المجموعة الشمسية ، والطحال فيه الخلط السوداوي على حسب اعتقاد المتقدمين وهو بارد يابس فيجري مع الدم ، فبه يكون جمود رطوبة الدم وتماسك أجزائه ، كما أن زحل فيه روحانية تنبث في العوالم تورث حفظ الأجسام وتماسكها . وجرم الكبد مناسب لجرم المشتري من حيث إن المشتري له روحانية يكون من آثارها النظام والترتيب والاعتدال . وجرم المرارة كجرم المريخ الذي بشعاع روحانيته يظهر الهمم العالية والعزمات وبلوغ النهايات ، هكذا الصفرة يخرج منها الخلط الصفراوي ويجري مع الدم فيلطف الأخلاط لتصل إلى غاياتها ومنتهى نهاياتها . وهكذا المعدة كالزهرة ؛ فالمعدة فيها القوة الشهوية المطالبة دائماً بالغذاء الذي هو مادة الجسد وبه تكون الحياة ولذة العيش وقوام البدن ، والزهرة لها روحانية تنبعث منها إلى عوالم كثيرة وبها زينة

الموجودات ومحاسن الكائنات وبها الفرح واللذة والمسرة في العوالم الروحانية والجسمانية، والدماغ فيه الشعور والحس والفكر والروية والذهن، ومثله عطارد فشعاعه الروحاني ينبعث منه الحس والشعور في جميع العالم الإنسي والجني والملائكة، وهكذا الرئة كالقمر وذلك أنه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانياته وتسري في عالم الأركان تارة وفي عالم الأفلاك تارة أخرى كما هو بين ظاهر، وذلك أن جرم القمر نصفه أبداً ممتلئ نوراً ونصفه الآخر مظلم، وهو تارة يقبل بوجهه الممتلئ من النور نحو عالم الأركان من أول الشهر، وتارة نحو عالم الأفلاك من آخر الشهر. ويعرف حقيقة ما قلناه وصحة ما بيناه الباحثون في علم المجسطي والهيئة. فهكذا ينبث من جرم الرئة قوة تجذب الهواء تارة من خارج الجسد وترسله إلى القلب، ومن القلب تنفذه في العروق الضوارب إلى سائر أطراف الجسد، وهو الذي يسمى النبض وبها يكون حياة الجسد، وتارة ترد من ذلك الهواء من داخل، وبها يكون التنفس والأصوات والكلام أجمع، فانتبه أيها الذكي من نوم الغفلة ورقدة الجهلة وفقك الله وجميع المسلمين للسداد وهداك إلى سبيل الرشاد إنه رؤوف بالعباد. اهـ.

هذا ما أردته من «إخوان الصفاء» مع الحذف والزيادة والشرح والإيضاح والتقديم والتأخير والإيجاز تارة والإطناب أخرى ليشاكل ما ذكر فيه أبحاث هذا الكتاب ليناسب الأمم التي نعيش معها وأسلوبها، ولقد بدلت أسلوب الفلك القديم بالأسلوب الحديث، ولكني عند الكلام على موازنة الكبد والطحال الخ بالكواكب لم أجد له نظيراً في علوم أهل زماننا في العوالم التي تحيط بنا فنقلته مختصراً على علاته التي تحيط بنا.

وذلك لأن الطحال عند أطباء زماننا لم يجدوا له أولاً وظيفة، ثم قالوا: إنه تربى فيه الكرات البيضاء المساعدة للكرات الحمراء لتحارب الحيوانات الذرية المهاجمة. وهكذا علم أحكام النجوم اليوم غير شائع وهو علم ظني لا يقيني. فأمثال هذا نكتبه مع ما قبله ليطلع أهل العلم في بلاد الإسلام وغيرها على مبلغ ما وصل إليه القدماء من الحكمة والإبداع، وكيف جعلوا الجسد الإنساني نموذجاً للعالم كله من كوكب وفلك وبرج وعنصر ومعدن وحيوان ونبات وملك.

فيا ليت شعري كيف يفهم المسلم قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] إلى قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، أو يفهم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أو قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، إلا بأمثال هذه المباحث والعلوم العجيبة، أو قول المسلم في الصلاة في الرفع والاعتدال: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد»، وقوله في الركوع: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين»، وقوله في السجود: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره. تبارك الله أحسن الخالقين»، وقول المصلي في صلاة الفجر: «فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت». اهـ.

اللهم إني أعجب من هذا الثناء في صلواتنا كيف كان هو ملخص علوم وملخص رسالة «الإنسان عالم صغير»، فالسمع والبصر والمخ هي المذكورات في الآية هنا وهو قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾[السجدة: ٩] الخ، فكأن المسلم وهو في الرفع والاعتدال يشرح أطباق السماوات والأرض اللاتي توازي طبقات جسمه التسع المتقدمة من العظم والدم وهكذا إلى الظفر، ومن الرأس والصدر والبطن وما تحت ذلك، وهي الأربعة الموازية لطبقات الأرض والماء والهواء والأضواء، وكأنه وهو في ركوعه وسجوده يشير إلى الحواس الموازيات إلى السيارات، ويزيد طبقات الجسم إيضاحاً فيذكر العظم والعصب وهكذا، وكأنه وهو في قنوت الصبح يعبر عن ملخص معنى هذه الآية هنا إذ يقول الله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة: ٩]، وهناك يقول: « ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت ».

إن المصلي بوقوفه وركوعه وسجوده وجلوسه يوضح معنى كونه عالماً صغيراً، فإنه لما كان ثناؤه على الله باللسان مشيراً إلى قسمين من الأقسام الست في رسالة « الإنسان عالم صغير »، وهما السماوات مع كواكبها، وإلى قسم ثالث وهو طبقات العالم السفلي، أشار إلى عالم الحيوان بالركوع لأن الحيوان كالراكع، وإلى عالم النبات بالسجود لأن النبات رأسه كالساجد، والى عالم المعادن الذي يقبل الكون والفساد كما يقبله الإنسان بمجموع الحركات الدالة على ذلك التغير المستمر، فصلاة المسلم نسخة مصغرة من العوالم تذكر المسلمين جميعاً بدراسة أنفسهم حتى يسودوا في الدنيا ويحلقوا بالعالم الأعلى وهم في أعلى عليين.

هذا ولا بد قبل ختام هذا المقام من ذكر معجزة نبوية وحكمة إسلامية في تفسير هذه الآية: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة: ٩]، فقد جاء في الرسالة الثالثة عشرة من « إخوان الصفاء » تحت العنوان التالي ما نصه:

كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية

اعلم أن من سنة الناموس والآداب الحسنة تناول الطعام الذي هو غذاء الجسد بثلاثة أصابع، فهذه السنة كأنها إشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها وحث على أنه واجب طلب العلوم من ثلاث طرق، لأن العلم غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسد، وأحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدة اقتران ما بينهما، فأحد الطرق التي تنال بها النفس العلوم قوى الفكر الذي تدرك به النفس الموجودات المعقولات، ومن هذه الطريق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة. والطريق الثاني السمع الذي به تقبل النفس معاني اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة. والطريق الثالث النظر الذي به تشاهد النفس الموجودات الحاضرة، فهذه الطرق الثلاث يجب أن يتناول العلوم بها كما نبهنا، وكما نبهنا الله عز وجل إذ قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة: ٩]، وذم من لا ينتفع بالنعم فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الأعراف: ١٧٩]، وقال أيضاً: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾[البقرة: ١٨]، فهم عمي عن الحقائق، بكم عن الدقائق، عمي عن المبصرات المعنوية العقلية بعين القلب. وليس يريد بها الذم من حيث إنهم لا يسمعون الأصوات ولا يبصرون الألوان ولا يعرفون ولا يفقهون أمر المعاش، بل إنّما ذمهم من حيث إنهم لا يعقلون أمر المعاد كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الروم: ٧].

واعلم أن العلم قنية للنفس كما أن المال قنية للجسد، لأن المال يراد لصلاح أمر الجسد، والعلم يراد لصلاح أمر النفس. فمتى لم تنل النفس العلم من هذه الطرق الثلاثة وذلك تناولها بثلاثة أصابع إلا من طريقة واحدة أي بأصبع واحد، فمثله كمثل المريض الذي ليس له حظ من ماله إلا الثلث، لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات، وهذا مثل أهل التقليد الذين لا يعرفون أمر الدين إلا من طريق السمع، فهم موقوفون بين الشك واليقين، والشك مرض النفوس واليقين صحتها، فهؤلاء ليس لهم من العلم إلا الثلث من أجل مرض نفوسهم. انتهى.

أقول: هذا الكتاب ألف منذ نحو ألف سنة وفي أكثر هذه المدة كان المسلمون محصورة علومهم في المذاهب التقليدية.

فيا ليت شعري هل تعاهدوا جميعاً على نبذ الحقائق حتى أصبحنا عالة على أمم الأرض الآن. نعم ظهر فيهم نابغون ولكنهم مقتوهم وكفروهم وحقروا آراءهم، ولكن الآن أنا أبشركم أيها المسلمون أن ذاك زمان مضى وانقضى.

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وطالع السعد في أفق العلا صعدا

والدليل على ذلك أنني أكتب الحكمة في هذا التفسير ولا أتخذ التقية بإلباسها لباس التصوف بل الحكمة هنا واضحة، والمسلمون قبلوها فبشرى ثم بشرى للمسلمين. انتهى صباح يوم السبت ٢٣ سنة ١٩٢٩.

كشف واستبصار

في معنى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾[السجدة: ٩] الخ

كتب قبيل فجر يوم الأحد ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٩

كنت أصلي العشاء وفي أواخر الليل وقرأت سورة «الملك»، فلما وصلت إلى آية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك: ٢٣] كررتها مراراً لأنها هي الآية التي وردت في المقالة السابقة ولا تزال عالقة بالذهن. هنالك عجبت من تكرير القرآن لهذه الثلاثة في القرآن، وكيف يتبعها بقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك: ٢٣]، أو بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[البقرة: ٥٢]، ثم كيف قدم السمع على البصر مع أننا بالبصر نرى الشمس والقمر وندرك كل ما على الأرض، وتذكرت ما قاله «طيماوس الحكيم» فيما مضى من هذا التفسير. إن الله خلق البصر لندرك به الليل والنهار وتفتح لنا أبواب الفلسفة والحكمة، وهذا وحده أجل نعمة في هذه الأرض إذن البصر مقدم على السمع، فلم قدم الله السمع عليه في هذه الآية؟ ولماذا يكون هذه الحواس بلفظ واحد، وترتيب واحد في الآيات المتقدمة؟ والإجابة على هذا تستبين لك من وجهين: الوجه الأول: لم قدم السمع على البصر والفؤاد؟ مع أن البصر والفؤاد أهم من السمع. الوجه الثاني: لم تكرر هذه الآيات في سور كثيرة على هذا النمط.

الوجه الأول: لم قدم السمع على أخويه

اعلم أن الله عز وجل جعل العلم لنا في هذه الدنيا من طرق ثلاث كما تقدم سابقاً: (١) طريق الألفاظ. (٢) وطريق صور المعاني الواصلة من البصر. (٣) وطريق البحث العقلي المستخرج للمعاني

الكلية من الصور الذهنية، وهذا واضح مما تقدم. فالألفاظ أشبه بالنواب والوكلاء. فالمعاني في النفس سواء أكانت من طريق البصر أو من طريق العقل يعبر عنها بالألفاظ. فالألفاظ إذن عالم قائم مقام عالم المبصرات والمشمومات والمذوقات والملموسات والمعقولات. وبعبارة أخرى: العالم عالمان: عالم طبيعي، وعالم وضعي اصطلاحي. والعالم الطبيعي المبصر والمذوق والمشموم الخ والمعقول، والعالم الاصطلاحي هو عالم الألفاظ المعبر عن تلك المعلومات كلها. فالألفاظ في الهواء عوالم قامت مقام العوالم كلها قائمات بأذهاننا، فإذا كانت المخيلة والمفكرة والحافظة قد صورت فيها جميع العوالم الحسية والمعنوية فهاهو ذا اللسان عبر عنها كلها وقذفها في الهواء وجرت فيه وحفظها بأمانته أي العلوم حتى وصلت إلى الآذان. وهذه الألفاظ ما هي إلا اصطلاح اصطلح عليه الناس، فلفظ شجرة وحجر ونور كلها أصوات اصطلحنا على دلالتها على المعاني القائمة، فأذهاننا المصورة بصور تلك الثلاثة فهنا لفظ دل على صورة في الذهن، وهذه الصورة دلت على ما نراه بأعيننا أو عقلنا بأدلتنا. هذه هي وظيفة السمع. فوظيفة السمع متعلقة بوظيفة اللسان والرسول بينهما الهواء وهو أمين. والدلالة هنا وضعية السمع لا طبيعية، فلو أن السمع زال من الوجود ولم يخلق الله الأسماع لم تخلق إذن الألسنة. لأن اللسان خلق لنسمع به، فإذا فقد السمع فليفقد نطق اللسان، وليخصص هذا اللسان بحاسة الذوق لا غير. أما الإفهام والتعليم فلا، فإذن يكون الناس جميعاً صماً بكماً ولكنهم مبصرون وإذن لا نبي يرسل ولا عالم ولا حكيم ولا خطيب ولا كتاب يؤلف، فإذن تكون الإنسانية غير الإنسان بل تكون إلى الحيوانية أقرب.

إذن خلقت الآذان وخلق اللسان لنسمع هذه الأصوات الاصطلاحية، ومتى سمعناها أخذنا ندرس هذا الوجود بأبصارنا. وبعبارة أخرى: إن المسلم يسمع القرآن يذكرنا بالآداب وبالعبادات والمخلوقات. هنالك يفتح لنا أمران: الأبصار والبصائر. فبعد أن كان المسلم يرى الأشياء ولا يفكر فيها، فبعد سماع الآيات يجتهد في الأبصار اجتهاداً أشد ويستبصر ويفهم ما أبصره، فهذا وجه تقديم السمع على أخويه والله أعلم.

الوجه الثاني

في تبيان حكمة تكرار هذه الثلاثة في القرآن وأن شكرنا عليها قليل

علم الله قبل خلق العالم وقبل إنزال القرآن أن المسلمين سيعتريهم ما اعترى الأمم السالفة من ظهور شيوخ في العالم الإسلامي يقولون لتلاميذهم: كرروا هذه الأوراد صباحاً ومساء، وإياكم والعلم فيعيش التلميذ على هذا ويموت. أو يقولون: متى قرأتم التوحيد والفقه فهذا كاف، أو يقولون: متى أخذتم شهادة العالمية فقد كفى، فتصدروا في المجالس، وهذا هو المقصد الأسمى من الحياة، أو يقولون: إن الكتب المصطلح عليها بين أهل البلاد في الدين كافية.

أقول: علم الله ذلك بل هو الذي رتب هذه العقول على ما علم ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾[هود: ١١٩]، لذلك أنزل لهذا الداء العياء دواء، وأخذ يذكرنا به في مواضع كثيرة: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[الأعلى: ٩]، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية: ٢١-٢٢] ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الذاريات: ٥٥].

ولا جرم أن هذا الكتاب مؤلف للمؤمنين. فالتذكير بهذه النعم نافع لهم وأنا موقن بذلك. ذلك أن المسلمين متى قرؤوا هذا القول هنا يقولون: لا تكفينا قراءة الأوراد وحدها فهي لم تجعل إلا لحبس النفوس الشريرة عن أذى الناس بالغيبة والنميمة والإضرار بالناس، وفرق بين حبس المجرم وبين تعليمه، فهل المسلم الذي جعله الله من ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠] يحبس لنكتفي شره. إنه وضع في الأرض ليكون خيراً وأفضل من جاء إلى الناس فيها، لا أنه شرير نحبسه في قفص الأوراد صباحاً ومساء، ونقول له: لا تتعد الورد أو هذا الحزب وكرره صباحاً ومساءً. نعم الذي لا يصلح لشيء في الإسلام نأمره بذلك، فأما أكثر المسلمين فهم أقل ما فيهم أنهم كعباد الله في الأرض خلقهم الله وخلق لهم السماع والأبصار والأفئدة، فلماذا يقصر على مجرد اللفظ بالورد وعلى مجرد سماعه ويحجب بصره عن النظر وعقله عن الفكر.

فلما اطلع على هذا صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير قال: حياك الله. أما البيان فهو جميل ولكن عندي شبهة. فقلت: وما هي؟ فقال الله يقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، ولكنك في بيانك هذا قلت إنهم قد حبسوا في الألفاظ أو في علوم ضئيلة، وأكثر كلامك في التفسير ينحو هذا المنحى، فالحق والحق أقول: إن هذه الشبهة أنت الذي أثرتها في نفسي وفي نفوس كثير من القراء. أليس وعد الله حقاً. وعدنا الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس ولكنك أبنت أننا لسنا خير أمة أخرجت للناس، بل نحن قوم أعظم ما فينا أننا نسمع ولا نعقل، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ثم شبههم بالأنعام فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الأعراف: ١٧٩]، غاية الأمر أنك أبنت أنهم يسمعون وحكمت بأن الأبصار والعقول غير مستيقظة. فقلت: إن الخير في الأمة من أيام النبوة إلى الآن، ولكن كلامي منصب على الأكثر ومع هذا كله نحن ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]. فقال: هذا هو التناقض بعينه، وما أنت في هذا إلا مقلد والمقلد يعتقد المتناقضين. فقلت: بل موقن. فقال: ﴿ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١]. فقلت له: حياك الله، أليس الإسلام قد انتشر بالأمة العربية، قال: نعم ولكن ذاك زمان مضى وانقضى. قلت: اصبر قليلاً ولا تعجل. اعلم أن الأمة أشبه بجسم واحد، فالأمة الإسلامية من العصور الأولى إلى الآن جسم واحد، وهذه الأمة الآن في سنتها الرابعة عشرة، فالقرن في حياة الأمة أشبه بسنة كما ستراه في سورة «سبأ» عند الكلام على التقليد في آية: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[سبأ: ٣١] الخ، فهي في القرن الأول والثاني كانت في الرضاع والرضاع حولان كاملان، والرضاع كان من نفس الأثداء العلمية الإسلامية، والعلم عبر عنه باللبن في حديث الإسراء لهذه النكتة، فإنه صلى الله عليه وسلم اختار اللبن ونبذ الخمر في ذلك الحديث، وأمته شربت هذا اللبن، ولبن الأم يغذي الطفل سنتين وبعدهما يتولاه المعلمون، فالأمة في القرنين الأولين نشرت الدين إلى قلب البلاد الفرنسية وإلى داخل بلاد الصين. ذلك أنها قامت بنشر الدين. فلما انقضى القرنان وقفت الفتوحات وأخذت الأمة تقرأ العلوم وتترجم الكتب من اليونانية وغيرها إلى العربية، هكذا الطفل بعد مدة الرضاع يتعاطى الطعام مما يحيط به على حسب البيئة التي هو فيها، ولكن هذه الأمة يتيمة لأن

نبيها صلى الله عليه وسلم رفع إلى السماء، والأمم كلها تتحفز لها وتقاومها، فقيض الله لها أئمة مجتهدين وحكماء وعلماء فصاروا يلقون إليها نبذ من العلوم كما يعطى الطفل أنواع الطعام بعد الفطام. ومعلوم أن اليتيم تتقاذفه الحوادث، فحصلت هذه الأمراض في جسم هذا الطفل ولكن أصله كريم. فأخذ يكبر وإن كان جسمه هزيلاً. ولكن حدثت حوادث رجت الأرض رجاً. هي حوادث الحرب الكبرى في زماننا، فاستيقظ هذا الطفل المراهق من القلاقل والإذلال والمدافع والغازات الخانقة فرفع عينيه إلى خالقه فأجابه: أيها المراهق لا تخف إن وعدي حق، والآن وإن كنت لم تبلغ بالسن فقد بلغت بالحلم والبلوغ بالحلم يرجع في الطفل لقوة الجسم. أما هنا فهو للقوة العلمية العقلية التي حدثت في مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وبلاد السودان والشام والفرس والعراق والهند وبلاد جاوة، فإن هذه الأمم كلها استيقظت مرة واحدة وأصبحت كلها تنطق بلسان واحد: العلوم العلوم. الفكر الفكر. والدليل الذي ألمسه أنا بيدي هو هذا التفسير، فلقد قبله المسلمون جميعاً مع أن القرآن فيه قد ابتلع العلوم التي في الشرق والتي في الغرب، فحكمت حكماً لا أشك فيه أن هذا المراهق بلغ الحلم، وأن هذا المراهق كان ضعيفاً مريضاً لأنه يتيم، واليتيم إذا بلغ الحلم زال عنه وصف اليتم. وأنا أرفع صوتي بهذا للمسلمين فأقول: أيتها الأمة أنت قد ارتقيت فجأة وزال عنك الآن الوصمة السابقة والمرض والضعف، فإن هذا التفسير وأمثاله لم يصادفه ما صادف كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى إذ أحرقت أيام علي بن تاشفين في بلاد المغرب كما سأوضحه في سورة «سبأ»، ولا ما صادف كتب ابن رشد إذ ابتلي رحمه الله بالإيذاء، وانتقل علمه من بلاد الإسلام إلى أوروبا فعاقبنا الله بجهلنا. أما الآن فهذه الأمة قد عقلت وفهمت. وإنما فعل الله ذلك انتهاجاً لسنته وجرياً على طريقته، فهو هكذا خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، وهذا الضعف في الأمة الإسلامية بسبب الصغر قد انتهى اليوم. فنحن خير أمة أخرجت للناس، غاية الأمر أنا كنا مرضى وصغاراً جهالاً فعوفينا وأدركنا وبلغنا ولا جرم أن المريض إذا شفي يعتبر بما آذاه من المرض بالتجارب فيحترس مما وقع فيه، أفلا تتذكر أن الرجل الذي يأكل المآكل الدسمة إن عاش ولم يمرض مات فجأة لأن جسمه لم يقدر أن يستخرج منه الفضلات بطريق الجروح ونحوها، وأن الرجل الذي يأكلها ثم مرض فإن حياته تطول لأنه هو القوي لأن من تخرج منه الفضلات خير ممن بقيت في جسمه تنهك قواه فيموت، فمرض الأمة الإسلامية السابقة ثم رجوعها إلى الصحة دليل على متانة تركيبها، فهي إذن أشبه بخير الرجلين السابقين، والأمة في أول أمرها أتخمتها الغنائم وتفرقت لتحكم الأمم شرقاً وغرباً، ثم كانت هذه الحرب العالمية، والأمة العربية على وجه الخصوص التي نزل القرآن بلسانها هي أول الأمم التي شرفها الله بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، لأنها تفرقت في الأرض لنشر الدين ثم غلبت على أمرها في زمن صغرها، وهاهي ذه الآن أخذت ترجع كرة أخرى لمجدها وذلك بطريق السمع والأبصار والأفئدة والشكر، ولهذا كررت الآية في سورة كثيرة، فقال تعالى مثلاً في سورة الملك»: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الآية: ٢٣]، وسيأتي لهذا المقام إيضاح في سورة «سبأ» عند آية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾[الآية: ٣١] الخ كما قلت لك، وفي سورة «الزخرف» في أولها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف: ٢].

فلما سمع صاحبي العالم ذلك قال: لقد ثلج صدري وانشرح لما ذكرته من أن الأمم الإسلامية اليوم قد أصبحت مشبهة لمن بلغ الحلم، وأنها أخذت تعقل، واستدللت بما علمت من أحوالها، ولكني أقول: إن هذا الدليل يعوزه دليل آخر ليكونا شاهدين على هذه القضية، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ ﴾[الطلاق: ٢] وهذا شاهد واحد، وخير الشواهد ما كان من التاريخ في هذا المقام، فلو أنك بحثت عن أمة ذات دين اعتراها ما اعترى أمتنا من هذا الضعف ثم أخذت تعقل في القرن الرابع عشر بعد فراق نبيها لها بطريق أرقى من سابق أيامها كان ذلك شاهداً حسناً في هذا الموضوع. فقلت: لقد طلبت مني مرتقى صعباً وأمراً عسيراً، فإن ديانة البوذية قديمة العهد وبنو إسرائيل مشتتون في الأرض مقطعون قطعاً فلا نهتدي لبحث تاريخهم ولم شعثهم، على أن دين موسى دين قومي لا عمومي لأنهم حصروه في بني إسرائيل، فليس لدينا إلا دين المسيح الذي نسخ بعد نزوله بست قرون إذ نزل الدين الإسلامي، فهؤلاء النصارى لما جاء الإسلام كان الباباوات يتحكمون فيهم، وقد مر في هذا التفسير، وأن بابا روما كان هو الذي يعزل ويولي ملوك أوروبا وأذلهم وقهرهم، وقد ضرب ملك «جرمانيا» برجله وقد أوقفه ثلاثة أيام وهو يتزلل فلا يغفر له وكم عذب وكم قتل. كل هذا تقدم في سورة «التوبة»، ولا زالوا في هذا الذل حتى كانت الحروب الصليبية وحروب الأوروبيين مع أهل الأندلس الذين حقروا علم الحكمة، وأهل أوروبا قد سئموا حكم رجال الدين، فكان المسلمون أشبه بالطفل الذي بلغ سبع سنين أو ثمانياً، وأهل أوروبا أشبه بطفل قد بلغ الرابعة عشرة، فأخذوا علوم المسلمين وارتقوا بعد أن حقرها المسلمون كما يحقر الطفل كل ما لم يكن حلوى يأكلها، وكما يحقر الديك الجوهرة ويلتقط الحبة لا غير. وعليه نقول: إن أوروبا المسيحية حوالي القرن الرابع عشر من تاريخ دينها أخذت ترتقي في حياتها، والمسلمون اليوم أخذوا يقرؤون علومهم وهم في قرنهم الرابع عشر كما فعل أولئك سابقاً. فهذا هو دليلي. إذن المسلمون اليوم أخذوا في الرقي لأنهم أشبه بمن بلغ الحلم في سن ١٤ كما فعلت أوروبا من قبل، والمقام ليس مقام نسخ الدين وعدم نسخه، وإنما المقام في أن التاريخ أخذ يعيد نفسه، ويفعل المسلمون ما فعل المسيحيون من الرقي العظيم. اهـ.

ثم إنه لما اطلع على المقال المتقدم في جسد الإنسان وموازنته بالعالم السماوي والأرضي قال: لقد ظهر بهذا من العلم ما كان مخبوءاً عن الكثيرين من أمم الإسلام، فإن كون الإنسان نموذجاً للعالم يظنه من لا تحصيل عنده أمراً خيالياً ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]، ولكن ظهر الآن أنه حقيقة ثابتة وأن الله عز وجل رحمة منه بعباده جعل أجسامهم وأرواحهم عنواناً ونموذجاً للعوالم كلها حتى تحضر في عقولهم بأقل نظرة، فتكون العوالم كأنها حاضرة عند الإنسان، وهذا خير ما جاء في هذا التفسير بل خير ما يعرفه الناس من العلوم، ولكني أريد منك درساً مختصراً الآن على هذا المقال بحيث نفهم به من جسم الإنسان وروحه قبل فوات الفرصة:

(١) نظام علم التوحيد. (٢) ونظام الملوك والأمراء أو رؤساء الجمهوريات مع ممالكهم وتصور امتحانهم لها. (٣) ونظام الحكماء مع أممهم أيضاً وامتحانهم لها ودراستهم لنظمها. (٤) وهل هذا الجسم الإنساني يعطينا نموذجاً لاحتلال الدول القوية بلاد الأمم الضعيفة؟ وأي نموذج لذلك في جسم الإنسان.

هذه هي النظم الأربعة التي أردت أن أعرفها من نظام الجسم الإنساني حتى تكون العلوم بسبب النظام الأول حاضرة عند الإنسان، وسياسة الدول كذلك بالثاني، وسياسة الحكماء وسياسة الأمم الغالبة مع المغلوبة بالثالث والرابع، وإذن نفهم قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١].

النظام الأول

فقلت: أما نظام التوحيد فهو يرجع إلى جميع العلوم، أما التوحيد الجدلي فهو للعامة وصغار العلماء، وقد مر كثير منه في هذا التفسير، بل هذا التفسير أعان الله عليه لهذا وأمثاله، ولكن أقول منه الآن قلاً من كل إجابة عن سؤالك.

إن العاقل ينظر إلى نفسه فيجد له روحاً لم يرها وعقلاً مدبراً وحافظة وذاكرة ومخيلة وحساً مشتركاً. كل هذه لم يرها ولكنها تتصرف في جميع أمور حياته، فروحه وهي رئيسة هؤلاء وهو لم يرها ضربها الله مثلاً ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الروم: ٢٧] لسلطانه في العوالم ولم يره أحد، وهذه القوى المتصرفة في جسمه ضربها الله مثلاً للملائكة الذين أوجب علينا أن نؤمن بهم ليفتح لنا بهذا الإيمان هذه العلوم، والحواس الخمس التي تشرف على العوالم الخارجة المسخرات للعقول وبجنوده الباطنة لكل حاسة منها مملكة لا تعرفها الحاسة الأخرى، فالبصر يجهل: الحلو والمر. والسمع يجهل: الأخضر والأحمر الخ. والذوق يجهل: النور والصوت والنغمات وهكذا، إذن هذه ممالك متجاورات لكل مملكة أعمال لا يمكن حصرها، كما مر شرحه في موضوع الجسم العام، وهي في حسابها ونظامها ترجع إلى الروح المدبرة التي لم نرها. والروح وحدها لها الأمر فهي تخاطب البصر الذي مقره العين ظاهراً بخطاب في أمر الألوان كقوس قزح والأنوار الكوكبية بما لا تخاطب به الذوق الذي مقره اللسان بحسب الظاهر في أمر الحلاوة والمرارة والحرافة والعذوبة والملوحة وأمثالها، وبما لا تخاطب به السمع في أمر صوت الرعد وأصوات الرياح والأمواج وتستفهم الروح من العين عن البرق، ومن الأذن عن الرعد، ومن الذوق عن العسل، ومن اللمس عن الحرارة في الجو أو البرودة، فالحرارة وقوس قزح والرعد التي تظهر في الجو آيات مفصلات على الآيات المبدعات في الأجسام من قوة اللمس في اليد والبصر في العين والسمع في الأذن.

هذه هي حال الروح مع عالمه وهذا هو إيضاح المثل الإنساني الذي ضربه الله لنظام عالمه. فهو يعلم نظام السمك في البحر ونظام حيوان البر وكل منهما لا يعلم شيئاً عن الآخر إلا قليلاً. ولقد خلق ممالك في الأرض وكل منها ذات قوانين لا تسري إلا في بلادها وهم بها راضون. وهكذا أرسل رسلاً وكل له شرع، وجميعهم يرجعون في حسابهم إلى ربهم على مقتضى شرائعهم التي لم تنسخ قبل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، كما رجعت عوالم الأبصار والأسماع والأذواق إلى الروح والعقل وأدت حسابها، وأخذت الروح تنظم عوالمها على مقتضى النتائج الواصلة إليها، وهكذا خلق عالم الأرض وعالم المريخ وعالم زحل وعالم الكواكب الثابتة وعالم السدم « جميع سديم » وعالم المجرات. وكل عالم يجهل ما عند الآخر، ولكنها كلها متجهة إلى ربها كما اتجهت الحواس اللاتي وكلها العقل والروح بالعوالم الخارجة إلى العقل والروح، فأدت حسابها وامتحانها. وإنّما قلنا: إن

كل عالم يجهل العالم الآخر، لأن ذلك كأهل الأرض فإنهم يبحثون عن عالم المريخ ويجدون في الوصول إلى مخاطبتهم، ومع ذلك وجدوا الطريق وعراً فرجعوا بخفي حنين، كما أن العين لو كانت مستقلة لقالت: أنا أجهل علوم اللغات، والأذن لو نطقت لقالت: ويلي ما أعظم جهلي بعلوم المناظر والألوان. انتهى الكلام على نظام التوحيد والمثل الذي ضربه الله بأجسامنا لنظامه في عوالمه.

النظام الثاني: وهو أن الله جعل الجسم الإنساني مثلاً للأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات مع ممالكهم ورعاياهم

انظر إلى القوى الباطنة الإنسانية والقوى الظاهرة والمعلومات الإنسانية تجدها هي بنصها وفصها منطبقة على الممالك، فكأننا نجد الدولة فيها وزراء ومجالس نواب ورجال استشارة، هكذا نجد بجانب العقل الحاكم في الإنسان قوى باطنة من حافظة ومتخيلة ومفكرة وذاكرة مطابقة لما نراه في دواوين الحكومات من العقول الراجحة والنفوس المفكرة والدفاتر المسجلة والقيم الثابتة، وأن كل دائرة من دوائر الحكومات تجهل ما عند الدائرة الأخرى، ألا ترى رعاك الله أن وزراء الزراعات ووزراء المالية ووزراء المعارف لا يعلم كل ما عند الآخر إلا قليلاً، ولكن الملك والأمير أو رئيس الجمهورية أو مجالس نواب الأمة هؤلاء هم المحاسبون المطلعون على كل نظام على حدته، وليس لأحد من أرباب تلك النظم أن يتعدى حده. فلا يتدخل وزير الزراعة في أعمال وزير المعارف لئلا يحصل الاختلال في نظام الدولة كما لا تتدخل العين في علم الموسيقى والألحان وفي علوم اللغات.

الكلام على النظام الثالث وهو نظام حكماء الأمم معها

فكما رأيت نظام الأمراء مع الدول هكذا ترى نظام الحكماء مع الأمم، فحكماء الأمم هم المشار إليهم بما روي: إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »، ولقد بعث الله في الإسلام رجالاً معروفين، وعنهم ومن آثارهم تلقينا العلم، فهؤلاء هم حكماء الأمة الذين يدرسون نظمها ويعطون لها تعاليم توافق عصرهم، لأن كل عصر له مقام معلوم مع اتصال الأعصر كلها بالشريعة المرسومة والطريقة المعهودة، فالحكيم الحقيقي لأمم الإسلام هو الذي يدرس جميع النظم بقدر إمكانه، ومتى ظهر أنه موافق للإصلاح ألقى الله حبه في قلوب الناس فأخذوا برأيه وساروا على سبيله واتبعوا طريقته وفكروا بعقولهم في آرائه، ثم انتهجوا سبلاً بحسب عقولهم واجتهادهم على مقتضى ما يرونه. فإذا رأينا الأمم قبلت حكمة حكمائها ونصائح فضلائها وأعظمتهم كان ذلك دليلاً على حياتها، وإن هي غمطت حقهم وأنكرت فضلهم وخاصمتهم وأهانتهم دل ذلك على أنهم آخذون في الاضمحلال، لأن الحكماء منزلتهم من الأمم بمنزلة الإبصار من الجسد، فإذا نبذت الحكماء فقد أصبحت عمياء والأعمى لا يهتدي إلى السبل فهو يحتاج إلى الهداة. وهذا بعينه مثل هذه الأمم الإسلامية المتأخرة لما غربت شمس حضارتها وولت أيام شبابها وأدبرت سنين سعادتها وأقبلت أيام هرمها ودنت من موتها بالمرض المزمن الذي شل أعضاءها، وذلك أيام الدولة العباسية، لما قتل بعض ملوك بني عباس ابن السكيت مثلاً، وأيام دولة المرابطين إذ أحرق بعض بني تاشفين في المغرب كتب الغزالي، وأذل بعض ملوك الموحدين العلامة ابن رشد وحبسه وحقره في أعين الأمة، وهكذا فعل ملوك بني عثمان مع هذه الأمة كلها بعد ذلك، فإن السلطان سليم نقل الصناع المصريين الحاذقين في صناعاتهم

لما فتح مصر وأخذهم إلى بلاده، ولما توسطوا البحر غرقت المراكب بهم فماتت الصناعات من مصر علماً منه بما للصناعات من آثار في قوة الأمم. وهكذا جمال الدين الأفغاني لما كان في الأستانة أتاه مرض السرطان هو والكاتب المشهور محمد نديم المصري.

ولقد أشاع الناس أن ذلك بأمر الخليفة العثماني، والأمة متى ذهب بصرها ولم يبق إلا اسمها عاشت عمياء لا تبصر عليه، تصبح وليس عندها من العلم إلا ثلثه، لأن قوة التفكير ضائعة لأنها محصورة، وقوة البصر لا وجود لها لأن الحكمة هي البصائر للناس وهي التي أنزل الله لها سورة «لقمان»، وهو القائل: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والحكماء إذا جهلتهم أمم الإسلام كما حصل فعلاً فقدت بصرها فأصبحت تتخبط في ديجور الظلام، وإنّما الذي عندها من العلم هو القرآن يحفظه الأطفال ويعيشون أطفالاً وهم كبار، أما الأبصار وأما العقول فهي المختومُ عليها، وعليه نقول: لننظر في النظام الرابع.

النظام الرابع: وهو نظام الأمم القوية المستعبدة للأمم الضعيفة

إن الأمم التي أصبحت عمياء بسبب احتقار حكمائها والمفكرين من أبنائها كالأمم الإسلامية في القرون الأخيرة تصبح لا علم عندها إلا ما سمعته والعقول محجوبة، ولا جرم أن اللسان إنّما يعبر عما في العقل، والعقل جاهل فتكون كتبها غير معشقة للحكمة، وخطباؤها لا يؤثرون في الشعوب إلا آثاراً قليلة على مقدار بضاعتهم المزجاة، وهذه الأمم إما مريضة أمراضاً تشبه أمراض السل والجدري والحصباء وإما ميتة، والمرضى يعوزهم أطباء يستفيدون منهم نقوداً ويعطون لهم عقاقير وأدوية، ولا جرم أن العقاقير والأدوية قد ثبت أن ضررها أكثر من نفعها إذا اعتمد الناس عليها وتمادوا فيها، كما تقدم في سور كثيرة كسورة «طه» و«الشعراء» و«البقرة» و«الأعراف» بشهادة أعظم أطباء ألمانيا والنمسا وغيرهم، والأموات يعوزهم من يدفنونهم بعد موتهم إراحة للناس من رممهم الضارة بالهواء وقد اعتاد الناس أن يتخلصوا من رمم الموتى إما بأكل أجسامهم إن كانوا بوذيين، أو بإبقائها وتحنيطها إن كانوا من قدماء المصريين، وإما بدفنها في الأرض إن كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود، والنتيجة لذلك كله أنهم تخلصوا من رمم أحبائهم الذين لم يكونوا ليحبوا مفارقتهم في هذه الحياة، هكذا الأمم القوية متى رأت أمماً ضعيفة فلا مناص لها من أحد أمرين: إما أن تحتل بلادها إن كانت مريضة وتدعي أنها تداويها وهذا هو البلاء المبين، وذلك ككثير من الدول المستعمرات لبلاد الإسلام. وإما أن تهلك حرثها ونسلها وهذا هو الحاصل الآن في بلاد أمريكا، فقد انقرض الشعب الأصلي وهم سكان الأرض الأولون، وهكذا أهل أستراليا فهؤلاء وهؤلاء نعتبرهم ميتين أمام الفاتحين. ويقرب منهم أهل الأندلس الذين تفرقوا عشرين دولة كما تقدم إيضاحه في هذا التفسير عند آية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [الآية: ٣٤] في سورة «النمل» فهؤلاء كانوا كجسم تمزق عشرين قطعة فلا بد من دفنه فبطشوا بهم بطش الجبارين.

إن أكثر الأمم الإسلامية المستعبدة اليوم ليسوا بميتين وإنّما هم مرضى وأدواؤهم أحد أمرين: إمّا عقاقير الفاتحين وأدويتهم، وهذا يحدث في أجسامهم أمراضاً جديدة كما قرره كبار الأطباء وشرحناه في هذا التفسير. وإما بالأدوية الطبيعية التي تشابه الاستشفاء بالهواء النقي والماء والأغذية

والرياضيات المختلفات، وهذا هو الدواء الوحيد الناجع في المرضى، وهذا هو الدواء الوحيد لأمم الإسلام المتأخرة. وما هو ذلك؟ هو قراءة أمثال هذا التفسير من كل ما يرجع الأمة إلى حال فطرتها وإلى النظام الذي كان في عصر الصحابة والتابعين من دراسة هذه الدنيا والنظر فيها وفي القرآن. فهذا هو الدواء الذي جعله الله عز وجل لهذه الأمة في هذا الزمان ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

هاهنا سألني قائلاً: هل تسمح لي أن أذكرك بأمر هام في هذا المقام؟ فقلت: حباً وكرامة. فقال: يؤخذ مما ذكرته فيما تقدم قريباً أن الإنسان لوح محفوظ. فذكر هذا في التفسير يجعل في النفوس انقباضاً ويذكرها بهؤلاء الأقوام الذين يجلسون في حلقات القوم وينطقون بألفاظ لا هم يفهمون معناها ولا السامعون. اللوح المحفوظ هو لوح الله لا لوح هذا الإنسان الذي هو جهول ظلوم. وهل ترى أنت أن اللوح المحفوظ نزل من عند الله إلى الأرض واختلط بهذا الطين وأصبح في هذه الظلمة؟ وأيضاً إذا كان اللوح المحفوظ عند الله واحداً فكيف أنزله إلى الأرض فصار آلاف آلاف الآلاف بعدد الناس؟ وإذا كانت هذه النفوس هي ألواح الله فأين البهجة والرواء والجمال والعظمة التي يتذكرها الإنسان في ذلك اللوح. اللوح المحفوظ فيه علم ما كان وما يكون فهل أنا وأنت نعرف ما كان وما يكون؟ هذا القول بعد هذا البيان يلقى إلى الجهلاء لا إلى العلماء وهذا التفسير يكتب للطبقة الراقية لا للعامة والجهلاء. ثم سكت. فقلت: هل في نفسك شيء؟ فقال: وهل ما سمعته لا يكفي في الإعراب عما جاش بخاطري؟ فقلت: حياك الله وبياك.

اعلم أن هذا الإنسان أمره عجب. إن الناس يعيشون ويموتون وهم هم أنفسهم لا يدركون أنهم نور وبهجة وكمال وحكمة. يجيش بنفسي أن هذه الأجسام الإنسانية والأرواح الحالة فيها وكثرة عددها على الأرض أشبه بحبات اللقاح الكثيرة في النبات، فإنها لا فعل لها في إلقاح الإناث إلا آحاداً منها، وهكذا الحيوانات المنوية في ماء الرجل فإنها تعد بالآلاف ولكن واحد منها وحده هو الذي يتحد بالخلية المنوية التي أقبلت من ماء الأنثى فيكون الحمل، كما تقدم في سورة «طه».

أعجب من هذا الإنسان. هو يأكل ويشرب وينام ويتعلم ويعقل ويتذكر وينسى، وهو نفسه نموذج الجمال والحكمة ثم يموت وهو لا يعلم من هذه الدنيا المحزنة إلا أنه قاسى الأهوال وأغرم بالأموال وعذب بالأبناء والبنين ودولته حاربت دولاً أخرى ثم مات، هذا هو الإنسان.

خطاب لنوع الإنسان

أيها الناس: لو أن عقولاً كثيرة خلصت من أجسامها ثم نظرت هذا الإنسان يعيش ويأكل ويشرب ويكسب ويحارب وينصب ويشتهي رأت أمراً عجباً، فماذا ترى؟ ترى أن الأرض والكواكب وما على الأرض من المخلوقات إن هي إلا حركات في الأثير، وما هو الأثير؟ هو موجود أدهش العلماء، وأول من تخيله «إسحاق نيوتن» وقد أجمع هو والعلماء بعده أنه ليس مادة، ولكنه هو اضطر أن يقول: إنه ذرات ضئيلة جداً. وقد جعل هذا مجازاً فقط، ولقد عبر عنه «هويجنس» بقوله «موجات»، وهذا من أقوال الفلاسفة فيه وآخرهم «أنيشتين» العالم الألماني في زماننا، فإنه يقول: هو خيال من الفضاء، والوقت يصعب على غير المتعمق في الرياضيات فهمه.

هذه أقوال ثلاثة من تسعة أقوال يقولها العلماء في الأثير الذي هو أصل للمادة التي منها هذا الإنسان. فآخرها أنه خيال يفهمه المتعمقون في العلوم الرياضية. إذن الأثير أمر موجود وليس بمادة والتعبير عنه بعيد عن العقول. وغاية الأمر أن العلماء وصفوه بعشرة أوصاف نذكرها هنا لتكون مبدأ منه نبحث في الإنسان وكيف صار لوحاً محفوظاً، وهذه العشرة هي: (١) إنه شفاف. (٢) عديم الاحتكاك بالمواد. (٣) عظيم الكثافة. (٤) تام المرونة. (٥) عديم الحرارة. (٦) عديم الصوت. (٧) موصل جيد للجاذبية والنور والأمواج الكهربائية والمغناطيس. (٨) وهو وسيط لتلاصق دقائق المادة وتماسكها. (٩) وهو وسيط للألفة الكيميائية. (١٠) وهو يملأ كل فراغ.

هذه هي الصفات العشر التي يعرفها علماء زماننا للأثير الذي هو أصل للمادة التي خلق منها الإنسان الذي يقال إنه لوح محفوظ تتوقف معرفة لوحيته وحفظها على هذه المقدمات في زماننا. ويقول العلماء: إن معنى كون الأثير عظيم الكثافة أنه لو فرض وتحول إلى مادة نراها ونلمسها لكانت كثافتها في المليمتر الواحد المكعب بمقدار ألف طن، ومعلوم أن الطن الواحد وزنه نحو ٢٢ قنطاراً، فيكون المليمتر المكعب وزنه ٢٢ ألف قنطار، والمرونة المذكورة تساوي ضرب هذه الكثافة في مربع سرعة النور، هذا ما يقال في الأثير، فهذا الأثير عجب كيف يكون غير مادة ثم تكون هذه حاله فيكون المليمتر المكعب بمقدار هذا الوزن.

أقول: إنّما قالوا هذا لأنهم رأوه يتحمل من الأثقال ما لا حد له. فهذه جاذبية الشمس للأرض فهي تأتي بواسطته، وهكذا النور والكهرباء والمغناطيس. وهذه لها أفعال هائلة قوية فأي موجود يتحمل هذه كلها أمد الدهر إلا إذا كان بهذه المقادير، وهذه المقادير ليس يحسبها إلا أرباب الفن. فهم هم الذين لهم هذا الحساب المتقدم.

هذا آخر ما عند العلماء في الأثير، فهو موجود قوي متين عظيم يحمل ما لا تحمله المعادن التي نراها، فلننقل المبحث الآن إلى المادة التي خلقت من هذا الأثير. إنهم يقولون: ما المادة إلا حركات في الأثير، أو هي كهرباء موجبة وسالبة يدور سالبها حول موجبها. انظره في سورة «النور» عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الآية: ٣٥]. وما هذا الذي نراه من جبل وشجر وشمس وقمر وماء وأرض إلا حركات قد اختلفت كمياتها وكيفياتها وباختلافها نظرناها مناظر مختلفات. ولما كانت كذلك لم نر لها استقراراً فهي سريعة التغير، فالأرض والكواكب كلها متحركات لا تقف في مكان لحظة واحدة، والإنسان والحيوان والنبات متحركات دائماً إما في نموهن وإما في ذبولهن وذهابهن من الوجود، فهذه العوالم التي يعيش الناس فيها كلها متغيرات، وتقدم قول أفلاطون: إن المادة لا ثبات لها فليست تستحق اسم الوجود وليست تصلح مناطاً للعلم لأن العلم ثابت والمادة لا ثبات لها فكيف يتعلق بها العلم؟ فإذا كانت هذه الدنيا على هذا النمط ورأتها روح عالية وهي تنظر لها من بعيد فإنها ترى أن هذه الأرض وما حولها أشبه بالنار، بل إن باطن الأرض نار وسطحها نار قد دبرت ولكن بأدنى عمل تتقد ناراً، فالأشجار والنبات والحيوان قابلة للاشتعال، والحجارة تتقد ناراً بالقدح لأنها جميعها نار تجمدت كباطن الأرض وكقرص الشمس بحسب ما يتجلى لنا منها، والنار سريعة الحركة لا قرار لها، وهذه الروح العظيمة ترى آثار الناس في أخلاق البهائم والحشرات والإنسان.

الناس في حرب وضرب وعداوات وشهوات وفراق وحزن وموت وحسرات وخصومات. فكل هذه نيران محرقة بل نفس الحب والشوق نوع من الحرارة، فهذه العوالم تحترق ناراً إما ظاهرة وإما باطنة، غاية الأمر أن الذين يعيشون فيها لا يعلمون أنهم يعيشون فيما يشبه النار وقد غفلوا عنها كما يغفلون عن أنهم يعيشون في وسط جسم هو الهواء فلا يفطن له إلا العلماء. وهاهنا وصلنا إلى المقصود فلننظر في هذا الإنسان. هل امتاز عن هذه المخلوقات بشيء؟.

ننظر فنراه ـ وإن كان متغيراً من صغره إلى كبره ـ ثابتاً ثبات رضوى. يأكل ويشرب، ويفرح ويحزن ويغتم ويسر ويلد ويولد ويجهل ويعلم ويمرض ويصح ويفتقر ويغتني ويجتمع ويفترق ويحب ويكره ويعز ويذل، ولكن هذه الحوادث كلها تخزن عنده في خزانة لا هو يعرفها ولا أحد من الناس معه، فإنه بعد أن تمر ٨٠ سنة على حادثة رآها في صغره يصفها وصفاً دقيقاً كأنه يشاهدها، بل إن الكبير السن يكون أنبغ في الوصف والذكرى، حتى وصف فقيل فيه: «إنه كنتي» بضم الكاف وسكون النون، أعني أنه يقول: «كنت»، وهذه النسبة شاذة لأنها نسبة للفعل مع الفاعل. فهذا الشيخ والهرم يقول كل منهما: كنت أفعل كذا وكذا في زمان كذا. فمن أين أتى بهذه الأوصاف إلا إذا كانت هذه الروح العجيبة لها خزانة معنوية لا يمكننا إدراكها قد رتبت فيها هذه الحوادث وكتبت وأخذ الإنسان ينقل عنها.

الأرض والسماوات وما على الأرض كلها ألواح ولكنها ليست محفوظة، فالشجر والماء وظواهر الأرض كلها متغيرات لا ثبات لها. أما هذا الإنسان فإنه لوح محفوظ هو مسجل. هو كتاب يسجل الله فيه الحوادث الأرضية والسماوية تسجيلاً جزئياً لا كلياً. فهذه ألواح صغيرة جعلت لهذه الأجسام الصغيرة، وما هي إلا كسراج صغير من البترول والشحم وشمع العسل والزيت في أرضنا. فالمحفوظات والمعلومات المخزونات فيها لا تعدو أنها أشبه بالسراج الذي نوقده في منازلنا بالزيت أو بالشمع، ولا جرم أن سرجنا نورها ضئيل، كذلك المعلومات التي عندنا لأن علومنا غير نقية على حسب معدن هذه النفوس. وهل ضوء البترول كضوء الكواكب والشموس. أفلا نقول على سبيل القياس في أمثال هذا المقام: إن هناك نفوساً أرقى من نفوسنا عقولها وعلومها أشبه بضوء شمسنا مثلاً بالنسبة لضوء مصباح البترول في منازلنا. وبعبارة أخرى: إن علومنا بالنسبة لعلوم تلك الأرواح تكون قليلة مختلطة على وزان مصباح البترول الذي هو ليس شيئاً إلا أنه من الأرض والأرض من الشمس فتكون أرواحنا مشرفة عليها أرواح أكبر منها عندها علوم أوسع والله فوق الجميع لا يعلم علمه أحد، ولوحه المحفوظ فوق هذه الألواح كلها فلا هو كلوحنا الضعيف ولا كلوح الأرواح العالية لأنها ضئيلة بالنسبة له تعالى.

ثم إن الأرواح العالية المحيطة بعوالمنا لا نعرفها إلا بالقياس على أنفسنا قياساً مع الفارق. ثم نقول: إذا كان الأثير الذي هو أصل المادة قوياً متيناً إلى هذا الحد أفليست أرواحنا والأرواح التي هي أعظم منها أمتن وأمتن من الأثير، فالأثير عظيم القوة مع أنه لا ثبات له، أفلا تكون أرواحنا التي هي ألواح محفوظة أمتن منه، وهي باقية بعد الموت ولها محفوظاتها؟ أقول بعد هذا كله: إخواني سكان هذه المعمورة من أبناء آدم، أليس لي الحق بعد هذا كله أن أقول: إننا جميعاً نعيش ونموت وكأننا ألواح

يقرؤها سوانا لا نحن، فنحن مقرئون لا قارئون. نعم نحن نقرأ ألواحاً غير محفوظة وهي المخلوقات أمامنا في كر الغداة ومر العشي، وهذه المخلوقات منع بقاءها تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي. فنحن نخزنها وبهذا الخزن نكون أرقى منها. فإذا خزنا هذه المحفوظات عندنا وعلمنا أن المخ والجسم يتغيران كل ثلاث سنين مرة حكمنا وجزمنا أن عندنا لوحاً محفوظاً حفظ العلوم عندنا والحوادث الجزئية، وأن هذا الحفظ ليس يكون بلا علة، والعلة فيه أنه باق في سطور النفس للانتفاع به إما في الحياة وإما بعد الموت، ثم إننا نلاحظ أن هذا الإنسان كله مقلد لعظمائه سائر على خطواتهم، فهو أبداً مقلد للنابغين فيه أو لمن لهم السيطرة العلمية، فالقانون أو الصناعة يبرزها واحد فتتبعه أجيال. أفلا نقول: إن أكثر الناس تابعون لا متبوعون، ونقول ما هو أليق بمقامنا. إذا كان أكثر الناس لا يعلمون فإن قليلاً منهم من تظهر لهم حقائق نفوسهم ويدركون المقصود منها ويعرفون نسبه نفوسهم إلى العوالم وأنها باقية لبقاء معلوماتها. وإنّما قل هؤلاء في الإنسان وقرؤوا أنفسهم لأننا أسلفنا أن هذا الإنسان يقل فيه النابغون في الفنون، فأجدر بالندرة من يدرك هذا السر المصون، إذن ثبت بالدليل الإقناعي أو القياس التمثيلي أن النادر من نوع الإنسان من يدرس نفسه ويعرف بعض سرها ويعقل أن الإنسان عالم صغير هو ظل للعالم الكبير.

وبهذا وحده يفهم الناس قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾[السجدة: ٩] فإضافة الروح إلى الله يفسرها ما ذكرناه في هذا المقام تفسيراً مقدراً بمقدار قصور نفوسنا الأرضية، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣]، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]، والحمد لله رب العالمين. كتب قبل وبعد فجر يوم الاثنين ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٩م.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾

ورد في البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما كان أحد يجد مكاناً لوضع جبهته في غير الصلاة».

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً». اهـ.

يقول بعض العلماء: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[السجدة: ١٦] نزلت في انتظار صلاة العتمة. ويقال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين. ويقول عطاء: لا ينام الإنسان حتى يصلي العشاء الأخيرة والفجر في جماعة.

وفي حديث مسلم: «من صلى العشاء في جماعة فكأنّما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنّما قام الليل كله».

هذه أقاويل ولكن أشهرها أن المراد بذلك صلاة الليل ولكل فضل. ألا ترى إلى حديث مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل». وإلى حديث البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً». اهـ.

ومعنى هذا أن الإنسان يجب أن تكون عبادته لله ليتقرب إليه، أي تكون العبادة حباً لا خوفاً والشاكر للنعمة صاحب مروءة، وهذه هي المحبة فلا معنى لحياة تكون كلها خوفاً، فيكفي الإنسان من الخوف ما أوجبه الإيمان وليصعد إلى العلوم بالمحبة، وأن صلاة الليل تحدث شعوراً نورانياً وإشراقاً خاصاً به تستعد النفوس للعلم والعلم هو المقام الأعلى وبه لقاء الله. اهـ.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام». أخرجه الترمذي.

وجاء تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾[السجدة: ١٧] الخ من رواية البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: ١٧]». اهـ.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾
وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾

ولقد تقدم في أول السورة أن ﴿الٓمٓ﴾ تشير إلى أمر مهم في السورة وهو النظر في آثار الأمم وآثار رحمة الله، وعلى ذلك تصبح هذه السور المتلاصقة المبدوءة بهذه الحروف ﴿الٓمٓ﴾ تدعو حثيثاً إلى علم الكائنات ونظام الأمم، وهذا هو الأمر الذي نام عنه المسلمون وأضاعوا بلادهم وخربوا حصونهم، فيا عجباً لأمة الإسلام الساهية النائمة، يوبخها الله على ترك النظر في القرون الخالية وعلى ترك النظر في الحقول والمزارع والأمة ساهية لاهية نائمة.

اللهم إني شرحت هذا المقام في السور السابقة. فتبين في هذا الكتاب نظام الحقول والزهر وعجائب الزرع ليفرح الشبان المسلمون وليحفظوا بلادهم وليرقوها وليتمتعوا بنعمة العلم والحكمة. وكذلك جاء فيه ما يفيد النظر في آثار الأمم السابقة ونظام المدن في الشرق والغرب. فليعلموا أن أمريكا ذهب أهلها الأولون وأفناهم الأوربيون لأنهم لم يقاوموا تيار المدنية بل المدنية أفنتهم وليس يبقى في الأرض بعد الآن إلا أمم قوية تعمر أرض الله وتستخرج كنوزها، فإن لم يفعل المسلمون ذلك غضب عليهم غضبة فلا يرضى عليهم بعدها وينقل هذا الدين لقوم آخرين.

أيها المسلمون: كيف يتمتع أهل ألمانيا بجمال الطبيعة وأنتم محرومون؟ وكيف علمهم الأساتذة في كتبهم أن يخرجوا صيفاً للغابات البعيدة ليكونوا في الهواء الطلق أياماً وأياماً. وكيف يخرجون أيام الثلج المتراكم في الشتاء إلى الآكام والجبال والقفار المكسوة كساء غليظاً من القطع الثلجية، ويرون في هذا سروراً وحبوراً وجمالاً، وذلك كله للرجال والنساء على حد سواء. أليس هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾[فاطر: ٤٤]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾[السجدة: ٢٧]، فهذا وأمثاله يشعر بانتعاش النفوس وإخراجها من حضيض النوم والكسل إلى النشاط والجد والعمل. انتهت اللطيفة الرابعة.

بهجة الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

اعلم أن هذه الأرض نار متجمدة، وكما أن جهنم فيها أماكن باردة وأخرى حارة هكذا أرضنا فكأن أرضنا جهنم مصغرة، ولقد تبين لي أن الناس في هذه الأرض معذبون عذاباً معجلاً وهم لا يعلمون أنهم معذبون، وعذاب الناس في الدنيا نموذج ومقدمة لعذاب الآخرة، ألا ترى أن أكثر آيات العذاب في القرآن جاءت لإهلاك الأمم في الدنيا بالصواعق والخسف تارة وبالإغراق بالماء وبالإهلاك بالحواصب تارة أخرى.

نسمع الله يقول لنا: ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾[نوح: ٢٥]، ﴿ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة: ١١٤]، ويقول: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[التوبة: ١٠١].

إذن الأرض قطعة من النار متجمدة فعذابها مخفف ملطف، فإذا مات الناس ظهرت لهم جهنم الحقيقية، ألست ترى أن باطن الأرض ملتهب وما هي إلا كالبطيخة سواء بسواء، فالقشرة التي نعيش عليها كانت ناراً فأصبحت جامدة لملاقاتها للجو، وهذا المقام مستوفى في غير هذا المكان كسورة «آل عمران»، وهذه القشرة تحتها نار متقدة. نعم إن علماء عصرنا قالوا: لكنها مع هذا متجمدة أيضاً مع شدة التهابها لشدة ضغط القشرة عليها. مخالفين في ذلك علماءهم السابقين، ولقد ذكرت لك هناك أنها وصلت في حرارتها بمقدار نار الدنيا نحو ٧٠ مرة كما ورد في الحديث، وقلنا: إن هذا من آيات النبوة. ولما كان هذا شأن أرضنا ألفينا ما عليها يلتهب متى قربنا منه اللهب كالأشجار والنبات والفحم، بل الطين نوقد عليه النار فيصير محرقاً وتبقى الحرارة كامنة فيه تتقد شرراً عند القدح، وفي الأحجار شرر يستخرج بالقدح. والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩] ومن سرعة الحساب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾[إبراهيم: ٥٠]، وستقرأ في أول سورة «النبأ» تفصيل الكلام على أن الفحم يستخرج منه القطران. وقد تقدم ذلك أيضاً. وهذا القطران قد استخرجت منه أمة الألمان مئات الألوان وهي التي نراها في الملابس والأزياء وبها تنفق الأموال جزافاً في الأسواق شرقاً وغرباً للزينة، وهذه الزينة هي التي بها استنزفت الثروة، وبها وحدها استعبد الغربيون الشرقيين، أولئك الذين جنتهم كجنة المسيخ الدجال، ظاهرها جنة وباطنها نار. فترى الرجال والنساء يلبسون أفخر الثياب بألوان زاهية من قطران الفحم كما ستراه موضحاً في أول سورة «سبأ» كما قلنا، ثم يتماديان في تبذير مالهما ومال الأمة والأفراد فتهلك وتذل بنفس هذه التجارة، وهذا هو سر حديث الدجال الذي نهينا فيه عن دخول جنته وأمرنا بدخول ناره وأن جنته نار وناره جنة، ألا ترى أن هذا من سرعة الحساب؟ وترى أحدنا إذا أكثر من الكلام أو الأكل أو شهوة الفرج أحس بألم في النفس وهو لا يعلم أن ذلك عقاب سريع تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأعراف: ١٦٧]، وهذا العقاب السريع تذكره بالعقاب الكبير وهو مخفف سبعين مرة، فلئن عذب الناس بهذا العذاب الخفيف في الدنيا فهذا سينمو فيكون سبعين ضعفاً أو نحوها كما في الحديث.

وأذكرك بما نقلته عن نابغة الهند «غاندي» الزعيم الشهير في آخر «آل عمران» وفي خلال سورة «النساء» من أن التجارة هي التي بها هلك أهل الشرق واستعبدوا، وأن الاستقلال في السياسة مع الاستعباد بالتجارة لا ثبات له، وفي استعباد التجارة الذل والهلاك.

ألا ترى أن هذه الآراء في زماننا تفسير لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأنعام: ١٦٥] ولقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧].

ومما يخجلني أن أمتنا المصرية أكثر الأمم ولوجاً لنار الفرنجة بالتغالي والتهافت على الزينة والترف، وهاهم أولاء أخذوا يفكرون في الخلاص من ذل التجارة وذل الاحتلال اللذين هما العقاب السريع الذي يعقبه عذاب أشد، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ٢١٨].

عجب أن تكون النار والماء عليهما حياتنا وسعادتنا، فلولا الحرارة في أرضنا ولولا الماء فيها ما عشنا طرفة عين، فبامتزاج الحرارة الشمسية والماء تنمو نحن وينمو نباتنا، ولكن الماء إذا طغى علينا أهلكنا، والنار إذا طغت تحرقنا، فما به الحياة هو نفسه به الهلاك، إذا لم يكن ماء كان القحط، وإذا لم تكن حرارة معتدلة كان البرد المهلك، فباعتدال الحرارة والماء نعيش، وبالإفراط والتفريط فيهما نهلك عذاب الأمم في القرآن بالإغراق أو بالصواعق فهل من عجب إذا كانت أصباغ القطران وهي الألوان في التجارة اليوم من أنواع العذاب المعجلة فما فيها من الإفراط والإسراف الذي يزيد النفوس حسرة على ما لا ينالون من تلك الملابس، فيبذرون أموالهم فيذلون ثم يستعبدون أفراداً وأمماً. انتهى ليلة الخميس قبل الفجر في ٢١نوفمبر سنة ١٩٢٩م.

خاتمة السورة

في مناسبة السورة لما قبلها، وفي أن ما نكتبه في هذا التفسير هو من مقصود القرآن وبعض أسراره التي ظهر بعضها، وسيظهر أكثر من هذا بعد مفارقتنا هذه الدار على أيدي قوم أبرار.

اعلم أيها الذكي أن الله قد جعل سورة «السجدة» بعد «لقمان» تذكيراً لنا بأن سعادة الدنيا والآخرة لن تتم إلا بالعلم أولاً والعمل ثانياً على ترتيب سورة «الفاتحة»، فأولها ذكر العوالم وهو العلم وآخرها العبادة والهداية وهو العلم، فـ«لقمان» كأول «الفاتحة» و«السجدة» كآخرها، فالعلم أجله علم الحكمة ولقمان الحكيم، وقد شرحت مجمل الحكمة هناك، فأما العمل فمن أعمه السجود الذي وردت فيه أحاديث كثيرة، فانظر ما جاء في «الإحياء» تحت عنوان «فضيلة السجود»: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تقرب العبد من ربه إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة». وروي: «أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة. فقال صلى الله عليه وسلم: أعني بكثرة السجود». وقيل: «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً»، وهو معنى قوله عز وجل: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]. وقال عز وجل: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم ﴾[الفتح: ٢٩] وهو نور الخشوع، فإنه يشرق من الباطن على الظاهر، وقيل: هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار».

ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد. ويروى أن عمرو بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب، وكان يوسف

ابن أسباط يقول : يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عقبة بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجداً .

هذا نص ما جاء في « الإحياء » ، ومعلوم أن في « الإحياء » أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف في فضائل الأعمال . انتهى والله أعلم .

فلما اطلع على هذا صاحبي قال : يا سبحان الله ، نعم هذا حسن ولكنه حسن في ذاته . أما هذا التطويل في التفسير فليس تفسيراً بل هو علم ، وخير لك أن تقول هذا كتاب علوم لا كتاب لتفسير القرآن . فقلت : بل هذا تفسير . فقال : قل ما تشاء ولكني على رأيي . فقلت : انظر أيها الأخ إلى نظام الطبيعة ، أليس هذا النوع الإنساني كلما تعمق فيه أتى بفوائد جميلة ، نحن كنا نكتفي بركوب الدواب فتعمقنا في بحث المادة فاستخرجنا الكهرباء والمغناطيس فكانت أنفع كما ألفناه ، وهكذا اللاحق من المنافع الطبيعية أشرف وأرقى من السابق وأعم نفعاً . فقال : أتريد بهذا أن تطويلك في التفسير وإدخالك عجائب الجسم الإنساني والروح فيه وانتظامها ومشابهتها للكواكب وللمنازل وللعوالم الأربعة وهي الأرضية وما فوقها ، ولما خلق فوق الأرض من معدن ونبات الخ . أتريد بهذا أن تقول إن هذا التطويل وشرح العوالم كلها وقياسها على جسم الإنسان ثم العروج من ذلك كله إلى معرفة عظمة الله في ملكه التي شرحتها آنفاً .

أقول : أتريد أن هذا العمل منك خير من الاقتصار على التفسير اللفظي للقرآن وفهم بلاغته وصرفه ونحوه ورد الاعتراضات الواردة في مصطلحات العلوم على الآيات ، ثم إنك تجعل هذا كله تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧-٩] .

فإذا كان هذا رأيك ، وأن ما فعلته أنت أفضل من غيره مما ذكرته لك ، وأن نسبة هذا القول منك إلى نظام التفسير اللفظي وما يحيط به فيما تقدم كنسبة نور الكهرباء ومنافع الآلات الحديثة إلى آلاتنا القديمة وأدواتنا الموروثة . أقول : إذا كان هذا رأيك فلتعلم أني خالفتك وجميع المسلمين على خط مستقيم . يا عجباً لك وألف عجب ، عندي على رد قولك ألف دليل ودليل . ألم تسمع ما قيل : وخير ما فسرته بالوارد؟ أين أنت من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين والعلماء والمجتهدين . ألم تعلم أن التفسير بالرأي ممنوع ، أنت مفسر بالرأي لا غير والله شهيد على ما أقول . فوالله إذا أنا كتمت هذا فلينطقن به كل الناطقين بالضاد ولتعلمن نبأه قريباً وبعد حين ، والله هو الولي الحميد .

فقلت له : أولو جئتك بشيء مبين؟ فقال : وأي بيان بعد وأنى لك أن تدحض هذه الحجج الدامغة؟ ولكن سأسمع ما تقول ، فإن كانت لديك حجج فأت بها إن كنت من الصادقين ، فقلت : سألخص لك ما جاء في « الإحياء » في الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ، وإن كان قد تقدم بعضه في هذا التفسير ، فقال : لا بأس بإيراده ، فقلت : هذا نص ما قاله :

لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الذكية من معانيه فكيف يستحب ذلك؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين، وذهبوا إلى أنه كفر، فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره، وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرن متسعاً لأرباب الفهم. قال علي رضي الله عنه: إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟ وقال صلى الله عليه وسلم: «إن القرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً» ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفاً عليه وهو من علماء التفسير. فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع. وقال علي كرم الله وجهه: لو شئت لأوقرت سبعين بصراً من تفسير فاتحة الكتاب. فما معناه؟ وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار، وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم. ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد مطلع. وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عشرين مرة لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها، وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن، وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر.

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها، فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائبه»، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث علي كرم الله وجهه: «والذي بعثني بالحق نبياً لتفترقن أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ من يأتي بعدكم وحكم ما بينكم، من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل، وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد» الحديث.

وفي حديث حذيفة لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده، قال فقلت: يا رسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ فقال: تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج

من ذلك، قال: فأعدت عليه ذلك ثلاثاً. فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثاً: «تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة». وقال علي كرم الله وجهه: من فهم القرآن فسر به جمل العلم. أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩] يعني الفهم في القرآن. وقال عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٩] سمى ما آتاهما علماً وحكماً، وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكم والعلم، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: «من فسر القرآن برأيه» ونهيه عنه صلى الله عليه وسلم، وقول أبي بكر رضي الله عنه: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي، إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم، أو المراد به أمراً آخر، وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه: أحدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسنداً إليه، وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن، فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل، ويقال: هو تفسير بالرأي، لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم. والثاني: أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي، فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، فقيل: إن ﴿الٓر﴾[يونس: ١] هي حروف الرحمن، وقيل: إن «الألف» الله و«اللام» لطيف و«الراء» رحيم، وقيل غير ذلك، والجمع بين الكل غير ممكن، فكيف يكون الكل مسموعاً. والثالث: أنه صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضي الله عنهما وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك. والرابع: أنه قال عز وجل: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[النساء: ٨٣]، فأثبت لأهل العلم استنباطاً. ومعلوم أنه وراء السماع. وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال، فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط القرآن بقدر فهمه وحد عقله. وأما النهي فإنه ينزل على أحد وجهين: أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا تارة يكون مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه، وتارة يكون مع الجهل، ولكن إذا كانت الآية محتملة فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه هو الذي حمل على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه، وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل

عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار، فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم: «تسحروا فإن في السحور بركة»، ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله عز وجل: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤]، ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به، فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي، ويكون المراد بالرأي الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح، والرأي يتناول الصحيح والفاسد، والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي. والوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي، فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة. اهـ.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: والله لقد أجبت بعلم وفهم. فقلت: إذن أقول لك ما وقر في نفسي منذ أيام الصبا، ذلك أني رأيت هذه الأمم الإسلامية كثيرة الاختلاف، وقد ظنوا أن هذا الخلاف يفصل بينهم، فقلت في نفسي: إن التفسير على هذا النمط يكون أشبه بالقدر طبخت فيه جميع المذاهب، فهل يقدر الشافعي أو الحنفي أو الحنبلي أو الشيعي أو الزيدي بل والبهائي والأحمدي، أقول هل يقدر أحد من هؤلاء أن يقول: إن عجائب صنع الله عزّ وجلّ وجمال حكمته تناقض مذهبه؟ كلا ثم كلا. ألست توافقني وأنا منشرح الصدر مبتهج النفس موقن بما أقول إن أمثال هذا التفسير مما يكتبه العقلاء في الإسلام اليوم أشبه بما جاء في حديث حذيفة، إذ يقول له صلى الله عليه وسلم: «تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك»، ولما أعاد عليه ثلاثاً الحديث أعاد إليه الجواب ثلاثاً وذلك في مقام المخرج من الاختلاف والفرقة، فإذا رأينا المسلمين اليوم مفترقين فإنا نقول: هذا الافتراق وهم. فهاهو ذا القرآن فوق مذاهبكم؛ فالحق والحق أقول: إنني واثق بما أقول، موقن أن الله عز وجل أراد ارتقاء هذه الأمة ولم شعثها، وستجتمع قلوب المسلمين على أمثال هذه المعاني في أمثال هذا التفسير، فقال: هذا البيان قد شرح صدري.

فقلت: الحمد لله رب العالمين. انتهى تفسير سورة «السجدة».

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس عشر
من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء السادس عشر
وأوله تفسير سورة «الأحزاب»

فهرست الجزء الخامس عشر
من تفسير الجواهر

تفسير سورة الروم ، وهي أربعة أقسام ٣
القسم الأول : في تفسير البسملة ٤
الكلام على الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان ١٢
الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحر والبرد والأمراض والأسقام ١٣
القسم الثاني : في بعض سر (الٓمٓ) ١٤
اعتراض على المؤلف وجوابه ١٧
القسم الثالث : في إثبات النبوة بالإخبار بالغيب وفي العجائب الدالة على الوحدانية ٢٠
بقر لا يشرب ٢٣
لطيفة : في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم) ٢٤
علم الأرواح ٢٤
تاريخ علم الأرواح ٢٤
عملية تحضير الأرواح ٢٤
تحضيرها في فرنسا ٢٥
تحضيرها في أمريكا ٢٥
اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ) ٣٣
محاورة طيماوس وسقراط مع ما ورد في الصلاة في دين الإسلام ٣٥
الإنسان آلة ميكانيكية عجيبة ، إحصاء حركة أجزاء الجسم ٣٧
اللطيفة الثانية : في قوله تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ٣٧
حشرة أبي دقيق ٤٠
الكلام على الطيور المقلدات لتتقي الخطر ٤٦
خطاب للمسلمين ٤٦
بهجة العلم في حشرة أبي دقيق التي تقدم ذكرها ٥٠
درجات العقول وبيان فهمها في هذه العجائب ٥١
الحشرات الزهرية ٥٢
خداع الحيوان ٥٣
نور على نور في آية : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ٥٦
الذئب في عالم الحشرات ٥٦

اللطيفة الثانية المناسبة للطيفة الخامسة، في هاتين اللطيفتين ثلاثة مقاصد ٥٧
المقصد الأول: تنوع المادة إلى صور كثيرة ٥٨
كشف علمي جديد استخراج البترول من الفحم ٥٨
تحقيق شخصية المجرم ٦٠
المقصد الثاني: الكلام على الحروف ٦١
الاختلاف في اللسان ٦٣
حكمتان في تقارب اللغات: الحكمة الأولى فيما يعم اللغات كلها ٦٤
الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم ٦٥
المقصد الثالث في نظام المدارس المفهوم من هذه الآية ٦٦
اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ) ٦٨
الانتقال الفكري، التليباتيا، النظر المضاعف ٦٩
اكتشاف جريمة غريبة بعد عشر سنين ٧٢
تشتية الحيوان وهل هي ممكنة للإنسان ٧٢
الحياة حتى للحب كائن حي يعيش ١٠٠٠ سنة ٧٧
زيادة إيضاح قوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ) ٧٧
الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه ٧٨
تجديد الهواء في قاعات النوم والفراش ٧٩
الكلام على الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان ٨٠
الصلاة ٨١
القسم الرابع: في تذكير الناس بالنعم وبالنقم وفيه أربع لطائف ٨١
اللطيفة الأولى: في البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية ٨٨
اللطيفة الثانية: في العلوم الرياضية ٩١
بهجة العلم في مساحات هذه الأشكال ٩٦
نظرة أعلى في فطرتنا ٩٧
اللطيفة الثالثة: في فطرة العلوم المنطقية ٩٩
مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها ١٠٠
الجدل والخطابة والسفسطة والشعر ١٠١
مراتب الناس في الاستدلال ١٠٢
اللطيفة الرابعة: في فطرة مظاهر المخلوقات ١٠٤
نكبة العالم من الأسنان الدقيقة ١٠٨
الأمراض المعدية ١١٠
الناس خلفاء الله في الأرض ١١٥
جوهرة في قوله تعالى: (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) ١١٨

تفسير سورة لقمان وهي أربعة أقسام ١٢٠
القسم الأول: في تفسير البسملة ١٢٠
الرحمة لا حد لها ولا حجر عليها ١٢٤
المسلمون أولى بهذه العلوم من جميع الأمم ١٢٦
بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى ١٢٧
بمَ يكون قرب العبد من ربه ١٣٠
ملخص سورة لقمان ١٣٥
القسم الثاني: في معنى (الٓمٓ) ١٣٧
القسم الثالث: في المقدمة وحكم لقمان عليه السلام ١٣٨
لطيفة في معنى آية (وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ) ١٤١
لطيفة في الكلام على لقمان عليه السلام ١٤١
الصرار والنملة ١٤٣
حكاية الرجل وزوجته واللص ١٤٤
ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب ١٤٤
القسم الرابع: من قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ) إلى آخر السورة ١٤٥
لطيفة في قوله تعالى: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً) ١٤٨
ذكر العجائب في أسماء السور ١٥١
الكلام على ذكر لقمان خاصة ١٥١
الكلام على ذي القرنين يشبه بعض المشابهة الكلام على لقمان ١٥٤
الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج ١٥٦
شجرة البلوط والسنبلة ١٥٧
حكمة في البغلة ١٥٧
الضفادع وزواج الشمس ١٥٧
حكاية الكلب الذي ترك الرغيف واتبع خياله ١٥٨
الشيخ وحماره ١٥٨
حكاية الرجل والبرغوث ١٥٨
حكاية الثعبان والمبرد ١٥٩
حكاية الديك والصقر ١٥٩
حكاية الكلبين وجيفة الحمار ١٦٠
حكاية الصياد والطائرة ١٦٠
كتاب كليلة ودمنة ١٦١
حكمة قدماء المصريين ١٦٢
أقدم كتاب في العالم ١٦٢

نصائح « قاقما » الحكيم المصري القديم ١٦٣
أمثال « فتاح حتب » الحكيم المصري القديم ١٦٣
نصائح الحكيم المصري القديم « آني » ١٦٦
بهجة الحكمة في قوله تعالى : (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ) ١٧١
بهجة الحكمة في هذه الآيات ١٧٣
محاورة بين سقراط وتلميذه سمياس ١٧٧
زهرة من بساتين الحكمة ١٨١
آثار الحكمة في الأمم الحاضرة ١٨٤
عطف السلطة على اليهود ١٨٦
معاملة العرب في فلسطين ١٨٧
عجائب الضباب في العصر الحاضر ١٨٨
تاريخ التطواف حول العالم ١٨٩
أعجوبة البحار ١٩٠
قوى الطبيعة لا تنفد ١٩٢
الكيمياء تخلق رجالاً ونساء ١٩٣
المكتب الدولي للصحة العامة بباريس ١٩٤
قبول الفطرة الإنسانية للفلسفة وتاريخ علومها ١٩٦
تعريف الفلسفة ٢٠٠
أقسام العلوم الحكمية ٢٠١
المنطق وهو القسم الثاني من علوم الفلسفة الأربعة ٢٠٣
ضرب مثل لمادة القياس وصورته ٢٠٤
القسم الثالث : العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العلمية ٢٠٥
أقسام العلوم الطبيعية ٢٠٥
القسم الرابع : العلم الإلهي أو الكلي ٢٠٧
العلوم العملية ٢٠٨
سورة السجدة وهي قسمان ٢٠٩
القسم الأول في تفسير البسملة ٢٠٩
بيان كمية أنواع الخيرات والشرور في هذا العالم ٢١٥
بيان الشرور التي في جبلة الحيوانات المختلفة ٢١٧
القسم الثاني في تفسير السورة وفيه أربع لطائف ٢٢١
اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ) وفيها أربع مقامات ٢٢٥
المقام الأول : مقام تنزل العالم من مقام القدس إلى تمام غاياته ٢٢٧
المقام الثاني : رجوع الأمر إلى الله تعالى ٢٢٩

المقام الثالث : هو الجمال ٢٣٠
المقام الرابع : نشأة الإنسان وعروجه ٢٣٠
اللطيفة الثانية : في قوله تعالى : (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) وفيها مقامين ٢٣٣
المقام الأول : في إحسان خلق النبات ٢٣٣
ما يبتهج القلب بحكمته ٢٣٧
هيكل شجرة النخل ٢٣٨
وصف النخل ٢٣٩
معجزة نبوية وعجيبة محمدية في النخل وموازنته بالأشجار ٢٤٠
بهجة العلم في هذا المقام ٢٤٢
المقام الثاني : في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان وفيه ستة فصول ٢٤٧
الفصل الأول : في جهاز التنفس ٢٤٨
الفصل الثاني : في أعضاء الهضم ٢٤٩
الفصل الثالث : في المجموع العصبي ٢٥٠
الفصل الرابع : في اللسان ٢٥٠
الفصل الخامس : في عضو الشم ٢٥١
الفصل السادس : في الأسنان وعددها ٢٥١
أدب اللغة العربية : أدبيات اللغة ٢٥٢
الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد ٢٥٤
قياس الجسد على نظام العوالم ٢٥٥
طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية ٢٥٧
الكواكب السبعة وآثارها الجسمية والروحية ٢٥٨
الكلام على القوى الخمس الباطنة ٢٥٩
الموازنة بين تركيب جسد الإنسان ، وطبقات العوالم السفلية ٢٦٠
كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية ٢٦٤
كشف واستبصار في معنى : (وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ) ٢٦٥
لم قدم السمع على أخويه ٢٦٥
الله جعل الجسم الإنساني مثلاً للأمراء والملوك ٢٧١
نظام الأمم القوية المستعبدة للأمم الضعيفة ٢٧٢
خطاب لنوع الإنسان ٢٧٣
اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ) ٢٧٦
اللطيفة الرابعة : في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ) ٢٧٧
بهجة الحكمة في قوله تعالى : (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ) ٢٧٨
خاتمة السورة ٢٧٩